تطور الأساليب النثر



دار العلم للملايين

تطور الاساليب النثرية في الادب العربي

انيس المقدسي

تطور الأساليب النثرية في الأدب العربي

وهو يتناول النثر العربي وخصائصه الفنية منذ بزوغ الإسلام الى النهضة الأخيرة، ويتخلله دراسات تحليلية لنخبة من أمراء الأقلام

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى

بيروت ، تشرين الثاني ١٩٦٠

تمهيد للطبعة الاولى

كنّا قبل اربع وعشرين سنة قد عقدنا النية على اصدار هذا الكتاب ، وفعلاً باشرنا إعداد مواده للطبع . ثمّ بلغنا صدور كتاب « النثر الفني » للدكتور زكي مبارك ، فتوقفنا عن العمل زمناً حتى حصلنا على الكتاب المذكور ، وقابلناه بما كان قد تهيأ لدينا من المواد ، فوجدنا ان الكتابين على تقاربهما في الموضوع يختلفان من حيث الخطة والغاية . فكتاب « النثر الفنّي » يرمي في الدرجة الأولى إلى تقرير ما كان عليه النثر العربي في القرن الرابع الهجري : وهو عمل جليل وقد سدّ فراغاً كبيراً في تاريخ الأدب . أما كتابنا فغايته عرض الاساليب النثرية عرضاً يبيّن تطوّرها منذ ظهور الاسلام إلى الوقت الحاضر .

وقد تعمّدنا عدم التعرّض للنثر الجاهلي ، إلاّ ما توصلنا إلى تحقيقه عرضاً في أثناء البحث : وما ذلك إلاّ لأن المواد النثرية التي بين أيدينا من العصر الجاهلي لا تسوّغ لنا تناول ذلك بطريقة علمية .

ولتسهيل البحث أفردنا لنثر صدر الاسلام قسماً خاصاً صرفنا العناية فيه إلى تحقيق مرويّاته والنظر في نصوصه . وهو يشمل بضعة فصول ويمتد إلى زمن عبد الحميد الكاتب . وقد قادنا البحث فيه إلى النظر في

الاسلوب النثري عند منبثق الاسلام وكيف يظهر في القرآن والحديث وكلام أهل الصدر الاول . وسلكنا في كل ذلك طريقاً يجمع بين صراحة التحقيق والحذر من التطرّف . ولسنا ننكر انها طريق وعرة شائكة واننا سنقع فيها ونقوم ونصطدم بما لا يستطاع تدميثه أو تعبيده . وربما أخرجتنا الرغبة في الدراسة الحرّة عن العرف المقرّر فعرّضنا أنفسنا والكتاب لاستياء العُرفيّين من العلماء والادباء . على اننا — يعلم الله — لا نرغب في استفزاز أحد ، وإنما السبيل جديد ، والرائد معذور إذا لم يأمن فيه العثرات .

* * *

وبعد أن فرغنا من نثر الصدر الاول ألقينا نظرة على الاساليب الانشائية من أيام عبد الحميد إلى الوقت الحاضر ، فإذا هي تجري في ثلاثة أساليب رئيسية :

١ — الاسلوب المتوازن (أي المزدوج غير المسجّع) — ويدخل فيه ترسل عبد الحميد والجاحظ واضرابهما .

٢ — الاسلوب المسجّع — ويتناول الرسائل الديوانية والادبية والمقامات وما إلى ذلك .

٣ — الاسلوب المطلق — وهو النثر السائد في الكتب العلمية والتاريخية والاجتماعية قديماً ، واسلوب الانشاء العام في العصر الحديث .

وقد تناولنا في كتابنا هذا الاسلوبين الأولين وحاولنا أن نتابع تطوّر كلٍّ منهما مع الزمان وقرنّا ذلك بدراسات مسهبة لنخبة من كبار المنشئين المجمع على إمامتهم في الفروع المختلفة ، ولم نقرّر قضية أو عرضنا لمنحى إلاّ دعمنا الكلام فيهما بكثير من النصوص ، فجاء الكتاب معرضاً تاريخياً للنثر العربي ومرجعاً لكثير مما لا يوجد إلا مبعثراً في تضاعيف الكتب القديمة .

أما الاسلوب الثالث أي المطلق فلم نتعرّض له الآن لارتباطه الوثيق بالاسلوب الانشائي في أدبنا الحديث ولأننا نرجو ان يتاح لنا فرصة أخرى نتناول فيها هـذه الناحية الخاصة من تاريخ النثر في كتاب ثان سنخصصه للبحث في الاسلوب المطلق والمناحي النثرية في النهضة الاخيرة .

* * *

ولا يعلم إلا الذي يخوض أمثال هذه المباحث ما عانيناه من ضبط المراجع ومراجعة الاصول . ومع كل ذلك فنحن لا ندّعي اننا بلغنا فيها الهدف الاسمى وسيجد النقّاد مجالاً للتنقيح والتصحيح ، وانّا لنرحب بكل انتقاد نزيه يراد به الوصول إلى الحقيقة .

وعسى أن يكون في هذا العمل ما نتوخاه من الفائدة لطلاب البحث في الادب العربي .

ا.م.

مقدمة الطبعة الثانية

ها نحن نصدر هذا الكتاب بحلّة جديدة بعد ان أعدنا النظر فيه ، فنقّحناه حذفاً وإضافةً وجعلناه أسهل منالاً للمتأدبين مع المحافظة على صحة الرواية واصول البحث الادبي .

ولما كنا قد قصرنا البحث فيه على الاساليب النثرية التي سبقت نهضتنا الحديثة ، فسنتبعه ان شاء الله بكتاب آخر نتناول فيه الكتابة العربية الحديثة ، وأساليب اعلامها فنكون بذلك قد دونا تاريخ النثر العربي من أقدم أزمانه إلى الآن . ونحن لا ندّعي اننا بلغنا الغاية القصوى في هذا الباب فالمجال لا يزال واسعاً لمن يريد أن يدرس كل ناحية منه درساً تفصيلياً شاملاً ، ولكننا نعتقد ان في هذا الكتاب والذي يليه ما يفي بحاجة الطلاب والباحثين ، ويكون في الوقت نفسه مما يرضى عنه أهل الاختصاص .

ا. م.

أسلوب صدر الإسلام

ويتناول

النثر عند منبثق الاسلام

الاسلوب القرآني

تحقيق النثر في نصوص الحديث

النثر في عصر الفتوح حتى عهد عبد الحميد

الأسلوب النثري
وكيف نراه عند ظهور الدعوة الإسلامية

نظرة في السجع القديم :

يؤخذ مما نقله لنا رواة الادب القديم انه كان للجاهلية القريبة من الاسلام اسلوب مسجع . ويظهر ان هذا الاسلوب كان شائعاً في الحلقات الدينية وما اليها . وقد اجمعت الروايات على ذكر كهان العرب وما كانوا ينطقون به من الاسجاع حتى اننا نجد عند بعض العلماء تحريم السجع . ويستندون في ذلك إلى حديث معروف وهو ان النبي قضى على رجل في الجنين بغرة [1] عبد أو امة . فقال الرجل يا رسول الله أأدي من لا شرب ولا اكل ، ولا صاح فاستهل ، ومثل ذلك يطل . فقال الرسول أسجعاً كسجع الكهان [2] . وفي الموطأ إنما هذا من اخوان الكهان [3] . قال الجاحظ في عرض كلامه على السجع وسبب ما نقل

1 الغرة هنا خمسون ديناراً راجع الموطأ ٢ – ١٩٢

2 كذا في صبح الاعشى ٢–٢٧١ وقد رويت مع اختلاف يسير في الصحيحين (مسلم ٥–١١١) والبخارى ٧–٢٦ وفي البيان والتبيين ١–١١٢ .

3 الموطأ ٢–١٩٢ .

من حديث تحريمه «وكان النبي كرّه الاسجاع بعينها ان كهان العرب الذين كان أكثر الجاهلية يتحاكمون اليهم كانوا يتكهنون ويحكمون بالأسجاع كقوله : والارض والسماء والعقاب والصقعاء [1] ، واقعة ببقعاء . لقد نفر المجد بني العشراء ، للمجد والسناء . — وهذا الباب كثير — قالوا فوقع النهي في ذلك لقرب عهدهم بالجاهلية ولبقيّتها فيهم وفي صدور كثير منهم . فلما زالت العلة زال التحريم» [2]

ولم ينفرد الجاحظ بذكر سجع الكهان وحديث تحريمه فقد تقدمه كما رأينا رواة وتبعه رواة . على اننا إنما نأخذ بقولهم في هذا الباب لموافقته ما ورد في القرآن من ذكر الكهان واسلوبهم . فقد عدّ العرب النبي في أول أمره من الكهان أو الشعراء [3] . ودفعاً لذلك نزلت الآية : «فذكّر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون ، ام يقولون شاعر نتربّص به ريب المنون» [4] . ومثلها : «وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكّرون» [5] وقوله : «وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر» [6] . وإنما نسب اليه العرب الكهانة لما حسبوه من تقارب في الاسلوب بين ما عهدوه من أقوال كهانهم وبين ظاهر السور القرآنية ولا سيما الاولى منها . وإيضاحاً لذلك نعرض هنا بعض ما رووه من اسجاعهم ونقابلها ببعض السور المكيّة القديمة فمن ذلك ما نقله القالي في اماليه من حديث الكاهنة زبراء مع بني رئام إذ قالت تحذرهم من الاعداء : «يا ثمر الاكباد ، وانداد الأولاد ، وشجا الحساد هذه زبراء ، تخبركم عن انباء ، قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيد [7]

---

1 الصقعاء الشمس .

2 البيان والتبيين ١-١١٢ .

3 يس ٦٩ .

4 الطور ٢٩ و ٣٠

5 الحاقة ٤١ - ٤٢

6 القمر ٢

7 المؤيد الداهية

الشنعاء . فاسمعوا ما تقول : قالوا وما تقولين يا زبراء قالت واللوح [1] الخافق ، والليل الغاسق والصباح الشارق ، والنجم الطارق ، والمزن الوادق ، ان شجر الوادي ليأدو [2] ختلا ، ويحرق انياباً عُصلا [3] ، وان صخر الطود لينذر ثُكلا ، لا تجدون عنه مَعلا [4] » السخ الحديث [5]

قابل هذه الاسجاع الكهانية بما نزل في سورة الشمس « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاّها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض وما طحاها ونفس وما سوّاها فالهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها » فتجد بين التنزيل هنا وبين قول الكاهنة – ونخص منه القسم الثاني – شبهاً واضحاً في الاسلوب القَسَمي وفي تقطيع الجمل وتسجيعها . ومما ينقلونه من هذه الاقوال القديمة ما يعزونه إلى سُعدى بنت كريز خالة عثمان بن عفّان – وكانت قد تكهّنت – فقد رووا لها قولها في النبي ، وذلك على ما يظهر في بدء دعوته وقد طلب الناس رأيها فيه : « ان محمد بن عبد الله رسول من عند الله ، جاء بتنزيل الله ، يدعو إلى الله . مصباحه مصباح ، وقوله صلاح ، وقرنه نطّاح ، ذلّت له البطاح ، ما ينفع الصياح ، لو وقع الذباح ، وسُلّت الصفاح » [6] . فاذا عارضت ما نقلوه عن لسانها بما نزل في سورة الناس « قل أعوذ بربّ الناس ملك الناس اله الناس من شرّ الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس . من الجنّة والناس » . رأيت النسقين متشابهين من حيث السجع وتكرير القوافي .

---

١ اللوح الهواء

٢ يأدو يختل

٣ العصل العوجاء

٤ المعل المهرب

٥ الأمالي ١ – ١٢٦

٦ نهاية الارب ٣–١٣١

ومثل ذلك ما نقل عن لسان الخزاعي الكاهن من الحُكْم بين هاشم وامية. ومنه : «والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، ومـا بالجوّ من طائر ، وما اهتدى بعلمٍ مسافر ، من مُنجد وغائر ، لقد سبق هاشمٌ أميّةَ إلى المـآثر ، أولاً منه وآخر» [1] فتأمل سياق القسم والسجع فيها وقابله بمـا يتراءى لك من ذلك في سورة الفجر «والفجر ، وليالٍ عشر ، والشّفع والوتر ، والليل إذا يسر ، هل في ذلك قسم لذي حِجر» أو في سورة التين «والتين والزيتون ، وطور سينين ، وهذا البلد الامين ، لقـد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ، ثم رددناه اسفل سافلين» .

ولا نشك ان سجع الكهان كان معروفاً في الجاهلية وعند منبثـق الاسلام وقـد وعته صدور العرب يومئذ ثم أهملوه ولكنهم لم ينسوا اسلوبه ، فلما كانت الدولة الاموية أو العباسية حملت الحماسة بعضهم على انطاق الكهان بأقوال هي من قبيل الدعاية الدينية أو الحزبيّة كبعض الاسجاع السابقة الذكر وكحديث الكاهن خنافر الحميريّ . زعموا انه كان له رئيّ (أي جنيّ يلقّنه الكلام) اسمه شِصار وقـد وضعوا على لسانه حديثاً ننقل منه ما يلي : [2] «كل دولة إلى أجل ، ثم يُتاح لها حوَل . أنتَسخت النِّحل ، ورجعت إلى حقائقها الملل . إنك سجيرٌ [3] موصول . والنصح لك مبذول . واني آنستُ بارض الشام ، نفراً من آل العُذام [4] ، حكّاماً على الحكّام . يذبرون [5] ذا رونق من الكلام . ليس بالشعر المؤلّف ، ولا السجع المتكلّف ، فـاصغيت

---

١ نهاية الارب ٣-١٣٢

٢ الأمالي ١ — ١٣٤

٣ السجير الصديق . وهنا الرئي يخاطب الكاهن

٤ آل العذام قوم من الجن

٥ يذبرون يقرأون

تزجرتُ ، فعاودت فطُلِعت [1] فقلت بم تهينمون ، وإلام تعتزون .
فقالوا خطابُ كُبَّار [2] ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار
عن اصدق الاخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تنجُ من أوار النار .
فقلت وما هذا الكلام ، فقالوا فُرقان بين الكفر والايمان ، رسولٌ من
مُضَر ، من أهل المدر ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بهر » الخ ..
وهذا الحديث كما يظهر موضوع لا يصح اعتباره وثيقة نثرية وهو على
ما يرجّح مبنيّ على ما ورد في سورة الاحقاف وسورة الجن . كذلك
لا يصحّ اعتبار كل ما روي لنا من اسجاع الكهان ، فقد اتّهم الجاحظ
بعض رواتها انهم ممن يصنعون الكلام [3] ولا يجوز علمياً ان نتكل على
روايتها فقط في الحكم على ما كان عليه هذا النوع من النثر . على اننا
لو قرنّا الرواية بما ورد في القرآن من ذكر الكهان والاشارة إلى
سجعهم ثم لو قطعنا النظر عن تفوّق الوحي الديني ووقفنا موقف قريش
اول الدعوة الاسلامية من حسبانهم النبي كاهناً وبالتالي من وضعهم
السوَر المكية الاولى موضع السجع الكهاني ، لرأينا انه لا محيص لنا عن
القول بثبوت السجع وان ما نقل لنا انما هو على مثال ما كانوا ينطقون
به في الحلقات الدينية والاخلاقية لذلك العهد [4]

ويؤيد ما نراه من شيوع السجع في تلك الحلقات ان التنزيل القرآني
على تعاليه عن أقوال العرب وكهّانهم لم يخرج عن الاسلوب الديني الذي
عرفه الناس يومئذ (وسنتناول شرح ذلك في غير هذا المقام) . هذا
وان أكثر ما نقله لنا الرواة من باب الوعظ والحِكم وآداب النفس كان
من قبيل السجع . وإذا قيل ان أكثر ذلك موضوع قلنا ولكنه وضع في
الارجح على نسق الاصل ، ويجوز ان نستنير به في هذا السبيل . ومن

---

١ طلعت منعت

٢ الكبار الكبير

٣ البيان والتبيين ١ — ١٢٧

٤ راجع في الكهانة فصولا لاسكندر معلوف في المجلد الثالث من مجلة الزهور

ذلك هذه الخطب التي عزيت إلى كعب بن لؤي جد الرسول [1] وإلى قس بن ساعدة وسحبان وائل ، وأقوال الوفود إلى كسرى وسواها مما هو معروف متداول . ونجتزئ هنا بما نقله القالي من قول حُمَمَة الدوسي واليك نصه [2] — قال عامر بن الظرب لحممة أين تحب ان تكون أياديك قال :

عند ذي الرثية [3] العديم ، وذي الخلة الكريم ، والمعسر الغريم ، والمستضعف المضيم .

قال من أحق الناس بالمقت قال :

الفقير المختال ، والضعيف الصوال ، والعيي القوال .

قال فمن أحق الناس بالمنع قال :

الحريص الكاند [4] ، والمستميد [5] الحاسد ، والملحف الواجد .

قال فمن أجدر الناس بالصنيعة قال :

من إذا أعطي شكر ، وإذا منع عذر ، وإذا موطل صبر ، وإذا قدُم العهد ذكر .

قال من أكرم الناس عشرةً قال :

من إن قرُبَ مَنح ، وان بعُدَ مَدَح ، وان ظُلم صَفَح ، وان ضويق سمح .

وعلى هذا المنوال يسأله فيجيبه عن ألأم الناس واسلمهم واحزمهم واخرقهم واجودهم وابلغهم وانعمهم عيشاً وأشقاهم إلى أن يقول : ومن اغنى الناس فيجيبه :

من استشعر اليأس ، وابدى التجمل للناس ، واستكثر قليل النِّعَم ،

---

١ صبح الاعشى ١ — ٢١١

٢ الأمالي ٢ — ٢٨٠

٣ هنا الرثية معناها الضعف .

٤ الكافر بالنعمة

٥ المستعطي

ولم يسخط على القِسَم .

واحكم الناس من صمت فادّكر ، ونظر فاعتبر ، ووعظ فازدجر .

واجهل الناس من رأى الخرق مغنما ، والتجاوز مغرما .

والذي يسترعي الانتباه- ان هذا الاسلوب ظل بعد الاسلام متّبعاً بل شائعاً في الحلقات الدينية [1] . فهوظاهر في أقوال خطباءالمساجدوالقصّاصين وعلى ذلك يقول الجاحظ [2] : «وقد كانت الخطباء تتكلم عند الخلفاء الراشدين فيكون في تلك الخطب اسجاع كثيرة فلم ينهوا أحداً منهم» . ويؤخذ من كلامه ان قصّاص البصرة (وهم الذين كانوا يقصّون على الناس الاخبار الدينية) كانوا سجاعين — فاذا اعتبرنا كل ذلك واعتبرنا ان القرآن نزل بلغة العرب كما يقول علماء العرب وكالآية «وما ارسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم» — وذلك بديهي — لم يكن من الصواب ان نقول ما قاله الاستاذ نكلسون من ان العرب لعدم ممارستهم الكتابة في الجاهلية لم ينشأ منهم قط شيء من النثر الفني [3]»

فالاسلوب السجعي لم ينشأ طفرة في عهد النبي بل عرفه العرب زمناً طويلاً قبل أن يصل إلى ما وصل اليه في القرآن .

واننا لنرى الميل إلى التسجيع بادياً في الخطب الدينية منذ صدر الاسلام — وقد أصبح في العصر العباسي وما بعده اسلوب الخطباء ورجال الدين . به يرسلون عظاتهم وينثرون حكمهم . واليك قطعة نقلها ابن عساكر للامام الأوزاعي المتوفّى في منتصف القرن الثاني الهجري قال فيها [4] : «اتقوا الله معشر المسلمين واقبلوا نصح الناصحين ، وعظة الواعظين . واعلموا ان هذا العلم دين . فانظروا ما تصنعون ،

---

١ بالرغم من ان ابن عباس نصح بتجنب السجع في الدعاء ، صحيح البخارى ٧ — ١٤٢

٢ البيان والتبيين ١ — ١١٣

٣ Lit. Hist. of the Arabs 3I

٤ ابن عساكر ٢ — ١٩٩

وعمّن تأخذون ، وبمن تقتلون ، ومن على دينكم تأمنون ، فان اهل البدع كلهم مبطلون ، افاكون آثمون ، لا يرعون ولا ينظرون ولا يتقون ، ولا مع ذلك يؤمنون ، على تحريف ما يسمعون» ويسوق الكلام على هذا النمط إلى أن يقول : «واحذروا ان تكونوا على الله متظاهرين ولدينه هادمين ، ولعراه ناقضين موهنين ، بتوقير المبتدعين والمحدثين ، فانه قد جاء في توقيرهم ما تعلمون» . والعظة كلها مسجعة على قافية واحدة [1] . وليس كل الخطب الدينية في صدر الاسلام كذلك ولكن السجع كما ذكرنا يكثر فيها وفي أقوال القصاصين ومن اليهم ثم يصبح الاسلوبَ السائد في العصور المتتابعة مما يميل بنا إلى الاعتقاد ان الحلقات الدينية الاسلامية الاولى جرت في ذلك على ما ورثته من الاجيال السالفة ولكن جرياً معتدلاً ، حتى تعاظم سيل السجع في العصر العباسي فطما على الحلقات الدينية وسواها وظل كذلك إلى عهد قريب ، كما سنبين بعدُ .

قدمية النثر المطلق

ونعني به ما كان يرسل على السجية دون تعمّل فنّي خاص . والنثر المطلق قديم في الادب العربي نراه في عهد النبي ويحدلنا الاستنتاج العقلي على انه كان في الجاهلية أيضاً . إذ لا يعقل ان تبلغ قريش مثلاً في جاهليتها ما بلغته من التقدّم التجاري فيكون لها اتصال باليمن والشام والعراق وفارس ولا يكون لها من نثر غير الاسجاع التي تعبر عن العواطف الدينية والنظرات الاخلاقية . فاذا قيل كيف نستدلّ على تقدم

1 على ان انشاء الاوزاعي في المكاتبات كان على نسق الانشاء في صدر الاسلام – راجع مثلا كتابه الى صالح بن علي في البلاذري ١٦٢ .

قريش التجاري واي مستند نستند اليه في تحقق ذلك غير مما نقله المؤرخون عن السنة الرواة . قلنا نعود إلى القرآن ففيه اشارات عديدة إلى حياة مكة والمدينة الاقتصادية والاجتماعية واليك بعضها :

– واعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد (الحديد ٢٠)

– قل ان كان آباؤكم وابناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بامره والله لا يهدي القوم الفاسقين (التوبة ٢٥)؛

– رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة (النور ٣٧) .

– الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا واحل الله البيع وحرم الربا (البقرة ٢٧٥) .

– وإذا رأوا تجارة او لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً (الجمعة ١١)

– لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت الذي اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف (قريش)،

– وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها . وترى الفلك مواخر فيه . ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (النحل ١٤)؛

وهناك عشرات بل مئات من الآيات التي ترد فيها معاني التجارة والبيع والدين والخسارة والاحصاء والرهن والكسب وما إلى ذلك من مظاهر الحياة الاقتصادية . وفي القرآن اشارات شتى إلى الاسفار البرية والبحرية ذكر بعضها آنفاً ومن ذلك الآية (يونس ٢٢) هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة

وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان» والآية (سورة يس ٤١ و ٤٢) «وآية لهم انا حملنا ذريتهم في الفُلك المشحون. وخلقنا لهم من مثله ما يركبون».

ويقترن بالتقدم التجاري استعمال الكتابة. وفي القرآن نصوص لا تترك مجالاً للريب في معرفة العرب للكتابة واستخدامهم اياها في مرافق حياتهم كالآية ٢٨٢ من سورة البقرة: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَين إلى اجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأبَ كاتبٌ ان يكتب كما علّمه الله فليكتب وليُملل الذي عليه الحق»، والآية ٢٨٣ «وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة». ومن الاشارات إلى الكتابة في القرآن «يوم نطوي السماء كطيّ السجلّ للكتب» (الانبياء ١٠٤). إقرأ وربّك الاكرم الذي علّم بالقلم (العلق ٣ و ٤). «ولو انّ ما في الارض من شجرة اقلامٌ والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله» (لقمان ٢٧) ن والقلم وما يسطرون ما انت بنعمة ربك بمجنون (القلم ١ و ٢) وقالوا اساطيرُ الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرةً واصيلا (الفرقان ٥).

ففي هذه الآيات وأمثالها ما يبيّن ان العرب أو قل قريش عرفوا الكتابة واستعملوها، ويزكّي روايةَ المؤرخين والرواة من انه ظهرت الدعوة الاسلامية وفي قريش كتّاب [1]، وانه كان للنبي كتّاب من الصحابة يكتبون الوحي ولهم نوّاب ينوبون عنهم إذا غابوا [2] وان العرب كانت تؤرخ في كتبها وديونها من عام الفيل ثم عام الفجار حتى جاء الاسلام فأرّخ المسلمون بعام الهجرة [3]. هذه الحالة الاقتصادية التي وجدت فيها قريش كانت تقتضي نثراً غير النثر الديني المتكلف

١ تاريخ البلاذري ٤٧١ جعلهم ١٧ كاتباً

٢ العقد ٢ - ٢٠٤

٣ كتاب أخبار مكة ص ١٠٢

نثراً مرسلاً للتعامل ، مطلقاً من قيود الصناعة اللفظية . على انه ليس لدينا من نصوصه الجاهلية مما يعتمد عليه فلا بدّ لنا من تحرّي ذلك في عهد النبي والصحابة ، وقد نُقل لنا شيء كثير من أقوالهم بين صحيح وموضوع . وهم وان خرجوا عن نطاق الجاهلية الديني باسلامهم فانهم لم يخرجوا عنها في مختلف عاداتهم وشؤونهم . واهم ما يلفت نظرنا هنا ما رووه من الرسائل والعهود النبوية فلنتقدّم إلى دراستها لعلنا نجد فيها ما تستأنس به في التدليل على هذا الشكل من النثر العربي .

الرسائل النبوية

ونجدها متفرّقة في سيرة ابن اسحق والطبري والواقدي والبلاذري وطبقات ابن سعد وكتب الحديث وفي العقد الفريد وصبح الاعشى وسواها ؛ ومن اهم هذه المراجع كتاب الطبقات فقد افرد ابن سعد فيه فصلين ذكر فيهما وفود القبائل إلى النبي والرسائل والعهود التي كتبها لهم :

وتقع هذه العهود في ثلاثة أدوار رئيسية[1] :

١ ـ منذ الهجرة إلى واقعة الخندق سنة ٥ هـ .

٢ ـ ما بين السنة الخامسة وفتح مكة سنة ٨ هجرية فغزوة تبوك .

٣ ـ في غزوة تبوك وبعدها .

فرسائل الدور الاول خلو من التاريخ وكلها سياسية لأن مركز النبي

---

١ للمستشرق الالماني « Sperber » في ذلك بحث في الالمانية لخصه لنا عن Mittei lungen des Seminars fur Orientalische Sprachen XIX الدكتور قسطنطين زريق وهو (أي المستشرق) يجمل الرسائل في اربعة أدوار ونحن وان خالفناه في عدد الادوار نجاريه في أوصافها العامة

في السنين الاولى من الهجرة كان شاقـّـاً وكان جلّ ما يصبو اليه محالفة القبائل ليستعين بهـم على إضعـاف قوّة قريش . ولذلك نراه يعقـد المعاهدات معهم وهم على حـالهم من الاشراك . ومن رسائل هـذا الدور ما يلي :

إلى نُعيم بن مسعود الاشجعي

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما حالف عليه نُعيم بن مسعود بن رُخيلة الاشجعي . حالفه على النصر والنصيحة ما كان أحُد مكانه . ما بلّ بحر صوفة ، وكتب علي »[1] فليس في هذا العهد ما يشير إلى الاسلام وإنمـا هو معاهدة حربية يراد بها تقوية مركز المسلمين ازاء مشركي قريش . ومثله العهد التالي وترى فيه قبول النبي بمساواة المسلمين بغير المسلمين ، واليك نصه كما ورد في الطبقات[2] :

« قالوا وكتب رسول الله (صلعم) لبني غِفار : انهم من المسلمين لهم ما للمسلمين وعليهم ما علَى المسلمين وان النبي عقد لهم ذمة الله وذمة رسوله على أموالهم وأنفسهم وله النصر على من بـدأهم بالظلم وان النبي إذا دعـاهم لينصروه أجابوه وعليهم نصره إلاّ من حارب في الدين — ما بلّ بحر صوفـة — وان هـذا الكتاب لا يحـول دون أثم » .

وعلى منواله ما كتبه إلى بني ضُمرة بن بكر بن مناة بن كنانة[3] :

« انهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وان لهم النصر على من دهمهـم بظلم وعليهم نصر النبي (ص) — ما بلّ بحر صوفة — إلاّ ان يحاربوا في دين الله وان النبي إذا دعاهم اجابوه — عليهم بذلك ذمة الله ورسوله ولهم النصر على من برّ منهم واتقى » .

---

١ الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٦

٢ ج ١ قسم ٢ ص ٢٦

٣ الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٧

وهناك عدّة رسائل أخرى تنحو هذا النحو في مهادنة غير المسلمين أو الارتباط معهم بعهود الدفاع والمناصرة. وهي بلا شك من أقدم ما كتب الرسول. واكثرها قصير كقوله لبني زُرعة وبني الرّبعة من جهينة «انهم آمنون على أنفسهم وأموالهم وانّ لهم النصر على من ظلمهم أو حاربهم إلاّ في الدين والاهل ولأهل باديتهم من برّ منهم واتقى ما لحاضرتهم والله المستعان» [1]. ومثل ذلك ما كتبه إلى بُدَيل وبُسر وسَرَوات بني عمرو قال [2]: «اما بعد فاني لم آثم مالكم ولم أضع في جنبكم. وإن اكرم أهل تهامة عليّ واقربهم رحماً مني انتم ومن تبعكم من المطيّبين [3]. اما بعد فاني قد أخذت لمن هاجر منكم مثل ما أخذت لنفسي ولو هاجر بارضه — الاّ ساكن مكة الاّ معتمراً أو حاجّاً — فإني لم أضع فيكم منذ سالمتُ. وإنكم غير خائفين من قِبلي ولا مُحصَرين. اما بعد فانه قد اسلم علقمة بن عُلاثة وابنا هوذة وهاجرا وبايعا على من تبعهم من عكرمة وان بعضنا من بعض في الحلال والحرام واني والله ما كذبتكم وليحبّنكم ربكم»

وقس على ما ذكر غير ذلك من هذه العهود السياسية:

أما الاسلام فلم يُجعل شرطاً إلاّ بعد ان استتب أمر النبي والمسلمين في المدينة وبعد أن أصبحوا في حالة من القوّة الحربية والمالية تساعدهم على نشر الدعوة الدينية بين القبائل. كما سنرى في رسائل الدور الثاني:

١ الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٤
٢ الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٢٥
٣ المطيبون هم بنو هاشم وبنو زهرة وبنو الحارث بن فهر وتيم بن مرة واسد بن عبد العزى .

الدور الثاني

بعد السنة الخامسة للهجرة أخذ نجم المكيين بالافول . وما زالوا كذلك حتى وقعت مكة في أيدي المسلمين . — في هذا الطور نرى صاحب الدعوة الاسلامية أقوى مركزاً وأنفذ كلمة . فان ما كان يتجلى لنا في كتبه الأول من الميل إلى محالفة المشركين أو قل من ضعف مركزه الحربي — حلّ محله الآن ثقة القائد الكبير والزعيم القوي وأصبح في أكثر العهود يشترط الاسلام على القبائل المهادنة . على انه لم يشدّد في ذلك قبل فتح مكة كما نستدل من ملاينته لقريش عام الحديبية (٨٦) فقد عقد مع زعيمهم عهداً هذا نصه [١] :

« باسمك اللهمّ هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهنّ الناس ويكفّ بعضهم عن بعض . على انه من اتى رسول الله من قريش بغير إذن وليّه ردّه عليهم . ومن جاء قريشاً ممن مع رسول الله لم تردّه عليه . وانّ بيننا عيبة مكفوفة وانه لا اسلال ولا اغلال وانه من احبّ ان يدخل في عقد رسول الله وعهده دخل فيه ومن احب ان يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه » .

فمن هذا الكتاب ترى ان الرسول يوادع قريشاً ويجاريهم رغبة في صرف جهوده عنهم إلى جهة أخرى . وقد أخذ بعد ذلك يبعث السرايا والرسل إلى القبائل قريبها وبعيدها . وفي كتبه اليهم تراه ذا القوة النافذة والكلمة العليا ، وترى الناس بعدها يدخلون في دين الله أفواجاً . واليك مثلاً يوضح ذلك . قال ابن سعد ان العرني أتاه كتاب رسول الله (صلعم) فرقع به دلوه فقالت له ابنته ما اراك إلاّ ستصيبك قارعة ، أتاك كتاب سيد العرب فرقعت به دلوك . فمرّ به جيش لرسول الله (صلعم)

[١] تاريخ الطبري الجملة الأولى ج ٣ ص ١٥٤٦

فاستباحوا كل شيء له فاسلم : واتى النبيّ (صلعم) فأخبره فقال له رسول الله ما اصبت من مال قبل ان يقسمه المسلمون فانت احقّ به»[1].

ومن الكتب التي أرسلها في هذا الدور ما يلي :

لبني الجرمز بن ربيعة وهم من جهينة : «انهم آمنون ببلادهم ولهم ما اسلموا عليه وكتب المغيرة[2] ومنها — إلى هوذة بن علي صاحب اليمامة وكان نصرانياً «من محمد رسول الله إلى هوذة بن علي ، سلام على من اتبع الهدى ، واعلم ان ديني سيظهر إلى منتهى الخفّ والحافر فأسلم تسلم وأجعلُ لك ما تحت يديك[3]» .

ومنها — إلى بني الجُلندى ملكي عمان — «من محمد رسول الله إلى جيفر وعبدِ ابني الجلندى سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاني أدعوكما بدعاية الاسلام . أسلما تسلما فاني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحقّ القول على الكافرين . وانكما ان اقررتما بالاسلام ولّيتكما وان ابيتما ان تقرّا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيلي تحلّ بساحتكما وتظهر نبوّتي في ملككما . وكتب أبيّ بن كعب[4]» ومثل ذلك كتابه إلى اهل نجران وهذا نصه[5] : «بسم الله الرحمن الرحيم اله ابراهيم واسحق ويعقوب أما بعد فاني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد فان ابيتم فالجزية، فان ابيتم فقد اذنتكم بحرب والسلام» . وكتابه إلى المنذر بن ساوى العبدي قال الطبري وفيها (سنة ٨) بعث اليه رسول الله (صلعم) العلاء ابن الحضرمي وكتب اليه كتاباً يقول : «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى المنذر بن ساوى سلام عليك فاني احمد

---

١ الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٣١
٢ الطبقات ح ١ قسم ٢ ص ٢٤
٣ صبح الاعشى ٦ — ٣٧٩
٤ صبح الاعشى ٦ — ٣٨٠
٥ صبح الاعشى ٦ — ٣٨١

اليك الله الذي لا اله إلاّ هو اما بعد فانّ كتابك جاءني ورُسلك وانه من صلّى صلاتنا واكل ذبيحتنا واستقبل قبلتنا فانه مسلم له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين ومن ابى فعليه الجزية » قال فصالحهم رسول الله (ص) على ان على المجوس الجزية لا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم [٣] .

وفي السنة ٩ ﻫ وفدَ أهل الطائف على النبي يريدون البيعة والاسلام فأبوا أن يحيّوه إلاّ تحيّة الجاهلية وطلبوا منه ان يدع اللات ثلاث سنين وان يعفيهم من الصلاة [٢] لكن النبي أبى ذلك وبعد لأي اسلموا ، فكتب لهم كتاباً يقول فيه [٣] : « انّ لهم ذمة الله وان واديهم حرام عضاهه وصيده وظلم فيه . وان ما كان لهم من دَين إلى أجل فبلغ أجله فانه لياط مبرأ من الله ورسوله وان ما كان لهم من دَين في رهن وراء عكاظ فانه يقضى إلى رأسه ويلاط بعكاظ » . وفي رواية أخرى [٤] « قالوا وسأل وفد ثقيف رسول الله (ص) ان يحرّم لهم « وجّاً » فكتب لهم : « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى المؤمنين ان عضاه وجٍّ وصيده لا يعضد فمن وجد يفعل ذلك فانه يؤخذ فيبلغ النبي . وهذا امر النبي محمد بن عبد الله رسول الله . وكتب خالد ابن سعيد بامر النبي بن عبد الله فلا يتعدينه احد فيظلم نفسه فيما امر به محمد رسول الله [٥] » .

فترى من هذه الرسائل وسواها ان الاسلام او الجزية أصبح شرطاً من شروط المعاهدات وأصبح الرسول بعد ان توطد أمر المسلمين في

١ الطبري الجملة الاولى ٣ – ١٦٠٠ ويروى على شكل آخر في صبح الاعشى ٦ – ٣٦٨
٢ الطبري الجملة الاولى ١٦٩١
٣ العقد ١ – ١٣٥
٤ الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ٣٢
٥ العضاه نوع من الشجر – وج اسم مكان . يعضد يقطع . واللياط الربا ويلاط بعكاظ أي يلحق به .

المدينة منصرفاً إلى نشر دعوته بين القبائل ، وقد كان لفتح مكة اثر شديد في هذه الحركة فتعاظم شأنها وازدادت صولة النبي فتهافتت القبائل على اعتناق الاسلام وأصبحت المدينة أهم حواضر الجزيرة العربية اليها تقبل الوفود ومنها تصدر الاحكام . ومن هنا نصل إلى القسم الثالث من العهود النبوية وهو الذي كتب بالاكثر في السنتين الاخيرتين من العهد النبوي ولا سيا بعد غزوة تبوك ، وفيه كما نرى بلغ الرسول أعلى درجات القوة وأخذ يستغل مركزه الحربي والديني ، فصار لا يكتفي بقبول الاسلام أو الجزية بل ذهب إلى أبعد من ذلك ففرض الزكاة على القبائل التي حالفت على أساس الاسلام وبعث العمال أو الامراء على الصدقات [1] . ومن هذه الكتب ما ذكره الطبري في أخبار السنة التاسعة وقد قدم على رسول الله كتاب ملوك حمير مقدمه من تبوك ورسولهم اليه باسلامهم الحارث بن عبد كلال (ويسمي جماعة غيره) فكتب اليهم رسول الله (صلعم) كتاباً قال فيه بعد البسملة والحمدلة [2] :

« أما بعد فانه قد وقع بنا رسولكم منقلبنا من أرض الروم فلقينا بالمدينة فبلّغ ما ارسلتم وخبّر ما قبلكم وأنبأنا باسلامكم وقتلكم المشركين وان الله قد هداكم بهدايته . ان اصلحتم واطعتم الله ورسوله واقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة واعطيتم من المغانم خمس الله وسهم نبيه وصفيه وما كتب على المؤمنين من الصدقة » وبعد ان يفصّل في ذلك يقول : « فمن زاد خيراً فهو خير له . ومن أدّى ذلك وأشهد على اسلامه وظاهر المؤمنين على المشركين فانه من المؤمنين له ما لهم وعليه ما عليهم وله ذمّة الله وذمة رسوله . وانه من اسلم من يهودي أو نصراني فان له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ومن كان على يهوديته أو

١ الطبري الجملة الاولى ١٧٢٢ و ١٧٥٠

٢ الطبري الجملة الأولى ١٧١٧

نصرانيته فانه لا يُفْتَن عنها وعليه الجزية » . ويتلو ذلك تجديد الجزية ثم يذكر رسله اليهم ويختم الكتاب بقوله : « وان الصدقة لا تحل لمحمد ولا لأهله إنما هي زكاة يتزكى بها على فقراء المؤمنين وابناء السبيل ، وان مالكاً قد بلّغ الخبر وحفظ الغيب وآمركم به خيراً ، واني قد بعثت اليكم من صالحي أهلي وأولي علمهم فآمركم بهم خيراً فانه منظور اليهم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

ومن هذه الكتب كتاب إلى جُمّاع من تهامة كانوا قد غصبوا المارّة من كنانة ومُزينة وسواهما وهذا نصه [1] : « بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي رسول الله لعباد الله العُتقاء انهم ان آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فعبدهم حرّ ومولاهم محمد . ومن كان منهم من قبيلة لم يردّ اليها . وما كان فيهم من دم أصابوه أو مال أخذوه فهو لهم . وما كان لهم من دَين في الناس رُدّ اليهم ولا ظلم عليهم ولا عدوان . وان لهم على ذلك ذمّة الله وذمّة محمد والسلام عليكم » .

ومنها إلى هَمْدان ونصّه [2] :

هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مخلاف خارف واهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذي المشعار لمالك بن نَمَط ومن اسلم من قومه . إن لهم فِراعها ووِهاطها وعَزازها [3] ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة يأكلون عِلافها ويرعون عافيها [4] . لنا من دفئهم وصرامهم [5] ما سلّموا بالميثاق والامانة ولهم من الصدقة الثّلب والناب

---

١ الطبقات ج ١ ق ٢ – ٢٩

٢ العقد (بولاق) ١ – ١٣٤ صبح الاعشى ٦ – ٣٧٤

٣ الفراع ما ارتفع من الارض والوهاط ما اطمأن منها والعزاز الارض الصلبة الخشنة

٤ العلاف جمع علف طعام المواشي . والعافي والعفاء ما ليس لأحد فيه ملك

٥ نتاج الابل . الصرام النخل

والفصيل والفارض والكبش الحَوَري وعليهم الصالغ والقارح [1].

وكتابه إلى بني كلب [2] :

هذا كتاب من محمد رسول الله لعمائر كلب واحلافها ومن صاده الاسلام من غيرها مع قَطَن بن حارثة العليجي باقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة لحقها في شدة عقدها ووفاء عهدها بحضر شهود من المسلمين سعد بن عبادة وعبد الله بن أنيس ودِحية بن خليفة الكلبي ، عليهم في الهمولة الراعية البساط الظؤار في كل خمسين ناقة غير ذي عَوار [3] . والحمولة المائرة لهم لاغية [4] وفي الشوي الوريّ مُسِنَّةٌ حامل أو حافل [5] . وفيما سقى الجدول من العين المَعين العشر من ثمرها مما أخرجت أرضها . وفي العِذْي شطره [6] بقيمة الامين فلا تزاد عليهم وظيفة ولا تفرق . يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله. وكتب ثابت ابن قيس بن شماس ».

وكتابه إلى أكيدر دُومة وهذا نصّه [7] (عن صبح الاعشى ٦ — ٣٧٠) :

« من محمد رسول الله لاكيدر دومة حين أجاب إلى الاسلام وخلع الانداد والاصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل واكنافها ان لنا الضاحية من الضَّحل والبَوْر والمعامي وأغفال الارض والحلقة

---

١ الثلب الهرم من الجمال و الفارض المسن . الصالغ ما كمل من البقر والغنم . والقارح الفرس في الخامسة من عمرها .

٢ العقد (بولاق) ١ — ١٣٤

٣ الهمولة الابل المسيبة ليلا ونهاراً — البساط الارض الواسعة والظؤار العاطفات على ولد غيرها ، العوار العيب

٤ الحمولة المائرة أي النياق الحاملة المؤن والاحمال . لاغية : ساقطة لا تجب عليهم .

٥ الشوي والشوى الغنم والوري السمين . مسنة حامل أو حافل أي كبيرة حبلى أو ممتلئة لبناً .

٦ العذي الزرع لا يسقيه إلا المطر .

٧ راجع أيضاً الطبقات ١ ق ٢ — ٣٦٠ وفتوح البلاذري ٦١ والعقد ١ — ١٣٨ والصناعتين ص ١١٦ وفي الروايات الخمس اختلافات غير جوهرية .

والسلاح والحافر والحصن . ولكم الضامنة من النخل والمعين من المعمور . لا تُعدل سارحتكم ولا تعدّ فاردتكم ولا يحظر عليكم النبسات . تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها . عليكم بذلك العهد والميثاق ولكم بذلك الصدق والوفاء . شهد الله ومن حضر من المسلمين » :

(وقد فسر صاحب صبح الاعشى الضاحية بالناحية البارزة ويراد بها اطراف الارض ، والضحل بالقليل من الماء والبور الارض التي لم تزرع والمعامي الارض التي ليس فيها اثر عمارة ، واغفال الارض التي ليس فيها اثر يعرف والحلقة الدروع . والضامنة من النخل ما كان داخلاً في العمارة وتضمنته قراهم لا تعدل سارحتكم أي لا تحول عن المرعى ولا تعدّ فاردتكم اي لا تضمّ إلى مال الصدقة ، والفاردة الزائدة على الفريضة فلا تجب فيه الصدقة) .

ومما يذكر في ذلك ما دار بين النبي وبني الحارث بن كعب في نجران (وذلك سنة ١٠ هـ) . فان النبي أرسل اليهم خالد بن الوليد يدعوهم إلى الاسلام ففعل . ثم جاء بوفد منهم إلى الرسول فقال لهم : « لو ان خالد بن الوليد لم يكتب إليّ فيكم انكم اسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم » . ثم قبل اسلامهم وولى عليهم من يأخذ صدقاتهم وكتب له كتاباً يأمره فيه بتقوى الله ويوصيه بالناس وتفقيههم في الدين ويجمع الصدقات وما إلى ذلك . وهو طويل فليراجع [١] . وآخر ما نذكره هنا من هذه الكتب ما كتبه إلى وائل بن حجر واهل حضرموت قال [٢] :

« بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى الاقيال العباهلة [٣] من اهل حضرموت باقامة الصلاة وايتاء الزكاة . على التيعة

---

١ الطبري الجملة الاولى ١٧٢٧

٢ الصناعتين ص ١١٦ والعقد (بولاق) ١ — ١٣٨ . وفي صبح الأعشى ٢ — ٢٣٧ يروى على شكل آخر .

٣ الاقيال العباهلة الذين اقروا على الملك لا يزالون عنه

الشاة [1] والتّيمة لصاحبها [2] . وفي السّيوب الخمس [3] . لا خِلاط ولا وِراط ولا شِناق ولا شِغار [4] . ومن أجبى فقد اربى [5] وكل مسكر حرام » .

صحة هذه الكتب

قلنا ان هذه الكتب النبوية تمثّل ما كان عليه النثر العادي عند منبثق الاسلام وبالتالي في أواخر العصر الجاهلي . على انه ليس في أيدينا منها وثائق ترجع إلى ذلك العصر ولا ذكر لنا الذين رووها انهم نقلوها عن وثائقها الاصلية . فكيف اذن نعتمدها في الحكم على ما كان عليه النثر في ذلك العهد ، وجوابنا على ذلك انه لا بدّ لنا من مجاراة النقّاد الحديثين في الشكّ ببعض هذه الكتب استناداً على مبادئ التجريح التاريخي، ومن موجبات الشك عندهم التردد في قبول كل ما فيه اثر لدعاية دينية أو قومية ما لم يقم دليل صريح على ثبوته . كالذي روي انه بعث به إلى ملك الروم أو ملك الفرس فانهم يستبعدون أن يكون العرب قد بلغوا من البسطة والمنساعة وهم لا يزالون محصورين في الجزيرة ما يحملهم على مخاطبة كبار الملوك يومئذٍ على نحو ما نراه في قوله إلى ملك الروم [6] :

---

١ التيمة اسم لادنى ما تجب عليه الزكاة كالخمس من الابل والاربعين من الغنم
٢ التيمة الشاة الزائدة عن الاربعين
٣ السيوب المال المدفون من الجاهلية
٤ الخلاط ان يخلط الرجل ابله بابل غيره — الوراط ان تجعل الغنم في وهدة لتخفى — الشناق ان لا تؤخذ الزيادة على الفريضة — الشغار زواج كان مألوفاً في الجاهلية
٥ اجبى أي باع زرعه قبل بدو صلاحه أو ان يبيع من الرجل سلعة بثمن معلوم إلى اجل معلوم ثم يشتريها منه نقداً بأقل من الثمن الذي باعه به . وأربى اي كان كالذي يستعمل الربى
٦ صبح الاعشى ٦ — ٢٧٧

« من محمد رسول الله إلى صاحب الروم . اني أدعوك إلى الاسلام فان اسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم وان لم تدخل في الاسلام فاعط الجزية فان الله تعالى يقول — وقاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون — والاّ فلا تحل بين الفلاحين وبين الاسلام ان يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية » .

فمما نقله الطبري نجد ان النبي في السنة ٦ هـ فرّق رسله إلى الامصار: إلى اليمامة والبحرين وعُمان وإلى المقوقس بالاسكندرية وقيصر الروم هرقل وإلى كسرى ملك فارس والنجاشي ملك الحبشة وسواهم . ولكن النبي لم يكن قد بلغ في تلك السنة من القوة الحربية ما يرغم قبائل العرب القريبة على الخضوع التام ، فكيف يعقل ان يهمّ باخضاع كبار الملوك يومئذ وهو لا حول حربي له ولا طَول . ففي مثل هذه الكتب الملوكية متّسع للشك لمن أراده . والذي يراجع القصة التي حيكت حول كتاب الرسول إلى ملك الروم يرجح انها من قبيل الاخبار القصصية لا الحقائق التاريخية — راجع الحديث [1] . على أن ذلك لا ينفي ان يكون الكثير من تلك الكتب ان لم نقل أكثرها صحيحاً . فان هذا الاكثر إنما هي عهود عادية عقدت بين النبي والقبائل . منها ما هو على أساس التعاون على العدو ، ومنها ما هو على أساس الاسلام أو الجزية . ومن تحرّي الاحوال التي لابستها يترجح لدينا صدقها . فان اقدمها كما ذكرنا تناسب حال النبي والمسلمين في أول العهد المدني ؛ وكذلك التي تليها تناسب الظرف الذي كتبت فيه . وفي بعضها ما لا يحتمل معه ان المسلمين وضعوه اذ هو مضاد لرغباتهم وميلهم إلى تعظيم رجالهم الأولين . ومن ذلك ما عقده النبي عام الحديبية لسهيل بن عمرو وقد مرّ ذكره . ففيه

[1] الطبري الجملة الأولى ص ١٥٦١ — ١٥٦٧

من تعاظم قريش وموادعة النبي لهم ما لا يترك مجالاً للشك في صحته : بل فيه ما يدل على امانة الرواة فيما نقلوه لنا من أخبار الدولة الاسلامية في أثناء تكوّنها ونشوئها .

وإذا جاز لنا الشك في الاخبار والكتب التي وضعت لدعاية دينية [1] فلا نراه جائزاً في ما يشير إلى ما جريات طبيعية وأحوال عادية . كالذي نقل لنا ابن سعد من كتاب النبي إلى بني اسد ونصه [2] : « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد النبي إلى بني اسد : سلام عليكم فاني احمد اليكم الله الذي لا اله الا هو ، أما بعد فلا تقربُنّ مياه طيىء وأرضهم ، فانه لا تحلّ لكم مياههم ، ولا يلجنّ أرضهم الاّ من اولجوا . وذمّة محمد بريئة ممن عصاه . وليقم قضاعي بن عمرو [3] » .

فهنا نجد اوامر يوجهها امير إلى قبيلة خاضعة وليس فيها ما هو خارج عن المعتاد أو مناف لروح العصر وطبيعة الحال . وكذلك هذه الكتب التي يفرض فيها الزكاة أو الصدقة على القبائل الخاضعة ففي الفاظها واسلوبها وما تحتويه من تفاصيل ما يضعف الشك فيها كقوله لبني نهد [4] — وقد مرّ معنا أمثاله :

« بسم الله الرحمن الرحيم . السلام على من آمن بالله ورسوله . لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة [5] ، ولكن العارض [6] والفريش وذو العنان الرّكوب والفلوّ الضّبيس [7] . لا يُمنع سرحكم ولا يُعضد طلحكم ولا يُمنع درّكم ما لم تضمروا [8] الإماق وتأكلوا الرباق [9] »

[1] راجع مثلا العهدة النبوية في الهلال ٢٠ — ٣٠١
[2] الطبقات ج ١ قسم ٢ — ٣٣
[3] هو من عذرة وكان عاملا عليهم
[4] العقد (بولاق) ١ — ١٤٠ وصبح الاعشى ٢ — ٢٣٤
[5] الوظيفة النصاب في الزكاة . الفريضة الهرمة المسنة أي ان الدابة المسنة لا تؤخذ في الزكاة .
[6] العارض الناقة التي اتى عليها سنة . والفريش التي اتى عليها من نتاجها سبعة أيام .
[7] الفلو الضبيس المهر الذي لم يرض
[8] تضمروا الاماق أي تضمروا الغدر
[9] الرباق حبل يشد بها البهم . واكل الرباق كناية عن نقض العهد

من أقرّ فله الوفاء بالعهد والذمّة ومن ابى فعليه الربوة» .

وسنرى ان الاسلوب النثري الانشائي في هذه الكتب مماثل لما نقل لنا من أقوال الصحابة ، بل مماثل للاسلوب الانشائي في الوثائق التي وصلت الينا من أواخر القرن الهجري الاول . وفي ذلك ما يحملنا على القول ان النثر العادي أي النثر الذي لم يقصد به اظهار العواطف على شكل خاص — كالسجع أو المزدوج مثلاً — لم يطرأ عليه في القرن الاول تغير يذكر وان ذلك القرن يصح ان يعد امتداداً لعهد النبي أو للعصر الجاهلي المتأخر .

نظرة في لغة هذه الكتب واسلوبها

والناظر في هذه الكتب النبوية لا محيص له عن ان يرى فيها مزايا كتابية خاصة نذكر منها :

١ — الايجاز والبساطة — فكلها شاهد على الاستغناء باقل الالفاظ ، وعلى الخلو من الصناعة اللفظية . تكثر فيها الاشارة إلى المعاني والبعد عن تكلّف السجع أو البديع . وهي أقرب إلى لغة المحادثة والتخاطب .

٢ — تكثر فيها الالفاظ المناسبة لحال المخاطب — كالعباهلة والتيعة والطلح والعارض والفريش والسيوب والوراط وعشرات غيرها من الالفاظ التي يقلّ أو يندر استعمالها في غير ذلك . وقد تنبّه نقّاد العربية إلى هذا الامر . قال القلقشندي : « وكانت لغة رسول الله (صلعم) التي يتكلم بها على الدوام ويخاطب بها الخاص والعام لغة قريش وحاضرة الحجاز . إلاّ انه (صلعم) أوتي جوامع الكلم وجمع إلى سهولة الحاضرة جزالة البادية فكان يخاطب أهل نجد وتهامة وقبائل اليمن

بلغتهم [١] » .

٣ - أوضاع خاصة تلفت النظر وقلما نعثر عليها في سوى هذه الكتب كقوله - ما كان أحد مكانه - ما بلّ بحر صوفة - أي على الدوام، أو إلى ما لا يحدّ من الزمن .

لم آثم مالكم - أي لم اجازكم على مالكم من أعمال تستوجب الجزاء

لم أضع فيكم منذ سالمت - أي لم أقم بأمر فيه نقض لعهد أو اساءة لكم .

إن لهم سعاية - أي صدقة .

وليقم فلان - أي ليتولّ الامر أو ليقم بالصلاة في الناس وجمع الصدقات .

لا يحاقه في ذلك أحد - أي لا يدّعي ان له حقاً فيه .

من اطلعَ اهل مقنا بخير - أي من أسدى اليهم معروفاً .

الليل مدّ والنهار شدّ - أي يمدّه الليل (بخير) ويشدّه النهار اي لا ينقص ذلك الخير شيء .

فلابن السبيل اللقاط يوسع بطنه من غير ان يقتثم - أي يأكل ما أراد من غير ان يستأصل ويحمل معه .

وان الله ورسوله جارٌ على ذلك - أي حليف أو مناصر .

وأمثال هذه الاوضاع التي تكاد تنحصر في العهود النبوية .

٤ - تتابع العبارات في كثير منها بعطف أو غير عطف دون تكلف التعادل بينها أو صحة التقسيم فيها كقوله :

إلى مسيلمة الكذّاب [٢] - بلغني كتابك الكذب والافتراء على الله، وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والسلام على من اتبع الهدى » .

---

١ صبح الاعشى ٢ - ٢٣٣

٢ الطبقات ج ١ ق ٢ - ٢٦

وقوله [١] : « هذا ما حالف عليه نعيم بن مسعود ... حالفه على النصر والنصيحة ما كان أحد مكانه ما بلّ بحر صوفة وكتب عليّ » .

وقوله من كتاب إلى ربيعة بن ذي مرحب الحضرمي [٢] : « وانّ كل رهن بارضهم بحسب ثمره وسدره وقضبه من رهنه الذي هو فيه ، وان كل ما كان في ثمارهم من خير فانه لا يسأله أحد عنه وان الله ورسوله براءٌ منه وان نصر آل ذي مرحب على جماعة المسلمين وان ارضهم بريئة من الجور وان الله جار على ذلك وكتب معاوية » .

وقوله [٣] : ان له ما اسلم عليه من أرضها وأشبائها (يعني نخلها) ما أقام الصلاة وآتى الزكاة واعطى خمس المغانم في الغزو ولا عشر ولا حشر ومن تبعه من قومه ؛ وكتب الارقم » .

وقوله [٤] : « هذا كتاب من محمد رسول الله لبني عاديا ان لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عداء ولا جلاء الليلُ مدّ والنهار شدّ ؛ وكتب خالد بن سعيد » .

على انك تجد في بعضها ميلاً إلى التوازن أو الازدواج ولكنه غير عام ، ومما يلفت النظر انك إذا استثنيت بعض الكتب ولا سيما التي يقال انها ارسلت إلى الملوك فان الكتب النبوية عموماً خالية من الشواهد القرآنية وليس فيها ما يدل على فن كتابي خاص تعمده الرسول وإنما هي كما ذكرنا تمثل لغة التعامل العادية في ذلك الوقت .

---

١ الطبقات ح ١ ق ٢ – ٢٦
٢ الطبقات ج ١ ق ٢ – ٢١
٣ الطبقات ١ ق ٢ – ٢٢
٤ الطبقات ١ ق ٢ – ٢٩

الأسلوب القرآني

توطئة في كيف جمع اول كتاب عربي

نزل القرآن في نحو ثلاث وعشرين سنة آيةً واحدة أو عدة آيات حسب الحاجة ودواعي الحال . وكان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل منه ابتداءً من أنفسهم أو بأمر النبي فيخطّونه على ما اتفق لهم يومئذ من أدوات الكتابة كالعُسب واللخاف وقطع الادم وعظام الاكتاف [1] . وعن البلاذري نقلاً عن الواقدي عن أشياخه « اول من كتب لرسول الله (ص) مقدَمه المدينةَ أبيٌّ بن كعب وزيد بن ثابت ، فكانا يكتبان الوحي بين يديه وكُتبه إلى من يكاتب من الناس [2] » . وقد اختلف في عدد الذين جمعوا الآيات القرآنية على عهد النبي ، ويؤخذ مما ذكره ابن سعد في طبقاته انهم بين الاربعة والستة ومنهم أبيٌّ ومُعاذ بن جبل وزيد بن ثابت [3] . أما ابن النديم فيرفع عددهم إلى السبعة ويعدُّ منهم الامام علياً [4] » . ويجعلهم الحافظ الذهبي اربعة [5] . وعلى ذلك

١ العسب جمع عسيب وهو جريدة النخل . واللخاف حجارة بيض رقاق . والادم الجلد

٢ فتوح البلدان ٤٧٣

٣ الطبقات ج ٢ ق ٢ — ١١٢

٤ الفهرست ٢٧

٥ تذكرة الحفاظ ١ — ٢٧

أكثر العلماء . ويظهر انهم كانوا يعرضون على النبي ما يجمعونه فقد روى الصولي بسنده إلى زيد بن ثابت قال : «كنت اكتب الوحي عند رسول الله (ص) وهو يملي عليّ فإذا فرغت قال اقرأه فاقرأه فان كان فيه سقط اقامه [1]» . وعن السيوطي في الاتقان ان زيداً كتب العرضة الاخيرة للقرآن وقرأها على النبي وكان يقرئ الناس بها ولذلك اعتمده ابو بكر وعثمان [2] .

على ان الجمع المعوّل عليه إنما حدث أولاً في عهد ابي بكر ، فقد عهد إلى زيد بذلك فجمع السور من المخطوطات المختلفة ومن صدور الرجال وجعلها في صحف فكانت عند ابي بكر ثم انتقلت إلى عمر فحفصة ابنته [3] .

وفي أيام عثمان أعيد النظر فيه فعهد هذا الخليفة الى لجنة قوامها زيد ابن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث فنسخت صحف أبي بكر في مصاحف ، وقال للرهط القرشيين الثلاثة ما اختلفتم فيه أنتم وزيد فاكتبوه بلسان قريش ، فانه نزل بلسانهم .فنسخ زيد بضعة مصاحف أرسل منها الخليفة مصحفاً الى كل أفق وأمر بكل ما سواه من القرآن ان يحرق [4] .

جُمع مصحف عثمان في سنة ٢٥ هـ وقد روعي فيه الأمانة التامة في النقل ولشدّة اعتناء المسلمين بالمحافظة على صورته الاصلية أي الصورة التي نقلها زيد لعثمان لم يمسّوه بأدنى تحوير أو تبديل ، حتى انهم اتفقوا على صور الالفاظ التي كتبت يومئذ على غير الأصول الكتابية كرسم

١ أدب الكتاب ص ١٦٥
٢ الاتقان ١ – ٥٣
٣ الفهرست ٢٤
٤ صحيح البخاري ٦ – ٩٦ والفهرست ٢٥

التاء والهمزة وزيادة بعض الأحرف وسواها [١] . قال الزمخشري في الكشاف : «وقد اتفقت في خط المصحف أشياء خارجة عن القياسات التي يبنى عليها علم الخط وكان اتباع خط المصحف سنة لا تخالف [٢]» . وقال ابن خلدون في كلامه عن صناعة الخط وانها لم تكن في عهد في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبرّكاً [٣] » ونقل صاحب مفتاح السعادة عن البيهقي قوله : « من كتب مصحفاً فينبغي ان يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف [٤] . وكما حافظوا على رسم حروفه حافظوا على طرق أدائه . واستقر من هذه الطرق سبع معينة تواتر نقلها واختُصّت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها فصارت أصولاً للقراءة [٥] . ومع انشعاب المسلمين منذ أوائل عهدهم الى سنة وشيعة وخوارج وغير ذلك فانهم جميعاً مجمعون على صحة روايته وصدق آياته لا يمارون في ذلك ولكنهم يتشاحنون في تفسيره وتأويله. فالحروب الشديدة التي ثارت بينهم لم تمس جوهر القرآن الا في أشياء زهيدة تدّعيها هذه الفرقة أو تلك . وفي ذلك ما فيه مما يؤيد اجماع الامة على قبول نصه كما جمع في مصحف عثمان . ومما يدل على حرصهم الا يمسوه بتحوير

---

١ مثال ذلك :

نعمتُ وبقيّتُ	بدل نعمة وبقية
يشعيب وسلطن	بدل يا شعيب وسلطان
يايه واليل	بدل يا ايها والليل
ادريك	بدل ادراك

٢ الكشاف ١ — ١٠

٣ مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٩ . راجع أيضاً التصحيف والتحريف للعسكري ص ٩ و ١٠

٤ مفتاح السعادة ٢ — ٢٢٩

٥ راجع اسماء القراء وطرق قراءاتهم كتاب التيسير لابي عمرو الداني

أو تبديل انهم أبقوا على ما فيه من ناسخ ومنسوخ وحروف من اللحن [1] فهو وثيقة أدبية تاريخية بل هو أصح ما يعتمد عليه في الرجوع الى ما كان عليه الأدب العربي في بدء العهد الاسلامي . حتى ان النقاد من من مستشرقي أوروبا لم يستطيعوا الا الجهر بذلك . قال نولدكي في دائرة المعارف البريطانية :

« ان مصحف عثمان على ما فيه من غرابة في الترتيب صحيح الرواية وكل محاولة من قبل علماء أوروبا لاثبات زيادات لحقته في عصر متأخر لم يكن نصيبها الا الخيبة » .

لغته

مما لا شك فيه ان لغة القرآن على العموم حجازية . فالنبي حجازي حمل الوحي الى قريش بلسانهم . وقد أجمع المؤرخون على ان عثمان أمر الذين جمعوه ان يكتبوا ما يختلفون عليه بلغة قريش . وللعلماء المتخصصين في دراسة القرآن مباحث عقدوها في تبيان غريبه . قال السيوطي في الاتقان ان خلائق لا يحصون أفردوا ذلك بالتصنيف « منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد . ومن أشهرها كتاب العزيزي فقد أقام في تأليفه خمس عشرة سنة يحرره هو وشيخه أبو بكر الانباري . ومن أحسنها المفردات للراغب . ولابي حيان في ذلك تأليف مختصر في كراسين [2] » قلنا وعنهم أخذ الذين أتوا بعدهم فصنفوا ما صنفوه ومنهم السيوطي وكثيرون غيره . واذا قلنا غريب القرآن فنحن نعني بذلك أحد نوعين

---

١ من اراد البحث في الناسخ والمنسوخ فليراجع الاتقان للسيوطي ٢ – ٢١ وفي اللحن فليراجع مفتاح السعادة ٢ – ٢٧٧ ومجلة المنار ١٠ – ١٣٧

٥ Enc , Br , — Koran . وليراجع في التحرج الاعرابي لبعض نصوص القرآن مقالة الاستاذ حسن الشريف في المقتطف (آب ١٩٣٨) في تسهيل قواعد النحو

٢ الاتقان ١ – ١١٨

١ – الغريب العربي وهو ما كان من غير لغة قريش ٢– الغريب الدخيل وهو المعرّب . نقل صاحب مفتاح السعادة عن كتاب الارشاد للواسطي قوله « في القرآن من اللغات خمسون [1] » ويعني بذلك أنك تجد فيه من غريب الالفاظ ما أخذ عن نحو خمسين قبيلة من قبائل العرب ، واليك أمثلة من ذلك ننقلها عن الاتقان للسيوطي [2] .

أرائك	يمنية	الاسرّة	مبلسون	»	آيسون
سامدون	»	ساهون	الخراصون	»	الكذابون
معاذير	يمنية	ستور	الاسفار	»	الكتب
زوّج	»	نكح	أقتت	»	جمعت
اللهو	»	المرأة	كنود	»	كفور
بعل	ازدشنوءة	رب	الرجز	هذيل	العذاب
الوزر	هذيل	ولد الولد	شروا	»	باعوا
ييأس	هوازن	يعلم (الرعد ٣١)	آناء الليل	»	ساعاته
يفتنكم	»	يضلكم	فورهم	»	وجههم
بور	عمان	هلكى	مدرار	»	متتابع
نقبوا	يمنية	هربوا	عيلة	»	فاقة
يليت	عبس	ينقص	وليمة	»	بطانة
المسنّاة	يمنية	ما يبنى للسيل	أنفروا	»	أغزوا
المسطور	»	المكتوب	السائحون	»	الصائمون
السفهاء	كنانة	الجهال	دلوك الشمس	»	زوالها
خاسئين	»	صاغرين	شاكلته	»	ناحيته
معجزين	»	سابقين	رجم	»	ظن
الموئل	»	الملجأ	ملتحد	»	ملجأ

١ مفتاح السعادة ٢ – ٢٦٩
٢ الاتقان ١ – ١٤٠ و ١٤١

الاجداث	هذيل	القبور	العضل	ازدشنوءه	الحبس
ثاقب	»	مضيء	إمّة	»	سنين
دُسُر	»	المسامير	الرسّ	»	البئر
برد	»	نوم	غسلين	»	الحار
مسغبة	»	مجاعة	لوّاحة	»	حرّاقة
القشل	حِمير	الجبن	مقيت	مذحج	مقتدر
زيلنا	»	ميزنا	الوصيد	»	الفناء
عتيا	»	نحولاً	الخرطوم	»	الأنف
الصرح	»	البيت	الحقب	»	الدهر
أنكر الأصوات	»	أقبحها	تسيمون	جثعم	ترعون
يترِكم	»	ينقصكم	مريج	»	منتشر
رابية	»	شديدة	صفّت	»	مالت
باءوا	جرهم	استوجبوا	شطط	»	كذب
كدأب	»	كأشباه	نحلة	قيس عيلان	فريضة
تعولوا	»	تميلوا	حرج	»	ضيق
شرّد	»	نكل	صياصيهم	»	حصونهم
عصيب	»	شديد	تحبرون	»	تنعمون
حدب	»	جانب	رجيم	»	ملعون
الخلال	»	السحاب	حفدة	سعد العشيرة	اختان
الودق	»	المطر	كل	»	عيال
ريع	»	محل مرتفع	فجاج	كندة	طرق
ينسلون	»	يخرجون	تبتئس	»	تحزن
شوبا	»	مزجا	اخسئوا	عذرة	اخزوا
سور	»	الحائط	ربّيون	حضرموت	رجال
شبة	ازدشنوءه	وضح	دمرنا	»	هلكنا

لغوب	حضرموت	اعياء	الجناح	حنيفة	اليد
منسأته	»	عصاه	حصرت	اليمامة	ضاقت
لا تغلوا	مزينة	لا تزيدوا	تبرنا	سبأ	أهلكنا
املاق	لخم	جوع	نكص	سلم	رجع
فجاسوا	جذام	تخللوا	الصاعقة	عمارة	الموت

وهناك ألفاظ أخرى لقبائل شتى يضيق المقام عن استيعابها

الغريب الدخيل

وفي القرآن أكثر من مئة لفظة من غير لغات العرب وازاء هـــذه الالفاظ اختلف علماء الفقه في تفسير أمثال الآية « قرآناً عربياً غير ذي عوج[1] » والآيــة : « ولو جعلنــاه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصّلت آياته أعجمي وعربي[2] » . وانقسموا فئتين — فئة ترفض ان يكون في القرآن كلام غير عربي ومن هؤلاء أبو عبيدة وابن فارس والطبري والشافعي والباقلاني وفئة تقول بوقوع غير العربي فيه . ومنهم ابن سلام وابن الجوزي والجواليقي والخفاجي[3] ، والحقيقة ما ذهبت اليه الفئة الثانية . وقد أحسن بن سلام والجواليقي الجمع بين الرأيين فقال الاول « والصواب عندي مذهب فيه تصديق القولين جميعاً وذلك ان هذه الاحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء لكنها وقعت للعرب فعرّبتها بألسنتها وحولتها عن الفاظ العجم فصارت عربية ، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب . فمن قال انها عربية فهو صادق ومن قال أعجميـــة

---

١ سورة الزمر ٢٧

٢ سورة فصلت ٤٣ وراجع من أمثالها الرعد ٣٦ ويوسف أو النحل ١٠٢ وطه ١١٢ والشورى ٦ والزخرف ٢ والاحقاف ١١ والشعرا ١٩٣

٣ راجع تفصيل ذلك في المزهر ١ ص ١٢٩ — ١٣٦

فصادق [1] » . وانتقد الجواليقي قول أبي عبيدة – من زعم ان في القرآن لساناً سوى العربية فقد أعظم على الله القول – فقال– وما روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغيرهم في أحرف كثيرة من غير لسان العرب مثل سجيل والمشكاة واليم والطور وغيرها . فهؤلاء أعلم بالتأويل من أبي عبيدة ولكنهم ذهبوا الى مذهب وذهب هذا الى غيره . وكلاهما مصيب ان شاء الله ؛ وذلك ان هذه الحروف بغير لسان العرب في الاصل – فقال أولئك على الاصل – ثم لفظت بها العرب بألسنتها فعربتها فهي عربية في هذه الحال أعجمية الاصل : فهذا القول يصدق الفريقين جميعاً » [2] ومن أمثلة ذلك [3] :

اللفظة	معناها	أصلها	السورة
أباريق	أكواز	فارسية	الواقعة
استبرق	الحرير	فارسية	الرحمن
اوّاب	المسبّح	حبشية	ص
الإصر	العهد	نبطية	آل عمران
الجبت	الشيطان	حبشية	سورة النساء
حوب	اثم	حبشية	سورة النساء
الرقيم	اللوح أو الكتاب	رومية	الكهف
سجيل	طين متحجر	فارسية	هود
الصراط	الطريق	رومية	الفاتحة
الطور	الجبل	سريانية	القصص
الفردوس	البستان	رومية	الكهف
القط	الكتاب	نبطية	ص

١ الاتقان ١ – ١٤٣

٢ المعرب للجواليقي ص ٤ و ٥

٣ نقل هذه الالفاظ عن الاتقان ١ ص ١٤٣ – ١٤٧ وعن الاصل والبيان للشيخ حمزة فتح الله

قسورة	الاسد	حبشية	المدثر
قرطاس	الورق	رومية	الأنعام
قسطاس	الميزان	رومية	الشعراء
الكافور	نبت طيّب	فارسية	الانسان
كفلين	ضعفين	حبشية	الحديد
كنز	المال	فارسية	الكهف
مسك	طيب معروف	فارسية	المطففين
المشكاة	الكوّة	حبشية	النور
المهل	الزيت	حبشية أو بربرية	المعارج
ناشئة الليل	قيامة الليل	حبشية	المزمّل
يصلون	يضجون	حبشية	الزخرف
اليمّ	البحر	سريانية	طه

وقس على ما ذكر كثيراً من الالفاظ التي ذكرت في الاتقان والمعرّب وشفاء العليل وسواها .

اسلوبه

يقع القرآن في ١١٣ سورة ما عدا الفاتحة . والسور عموماً على نوعين مكيّ ومدني . وقد اختلفوا في تحديد كلّ من النوعين على انّ لهم في ذلك ثلاثة أقوال مشهورة . وهي [١] :

١ – ان المكي ما نزل قبل الهجرة . والمدني ما نزل بعدها .

٢ – ان المكي ما نزل بمكة (ولو بعد الهجرة) والمدني ما نزل بالمدينة .

٣ – ان المكي ما وقع خطاباً لاهل مكة والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة .

---

١ راجع مفتاح السعادة ٢ – ٢٣٨ و ٢٣٩

والذي يتحرّى القرآن يجد ان من السور ما بعض آياته مدني وبعضه مكي ، وقد أشار الى ذلك السيوطي في الاتقان فليراجع [1] . فاذا جعلنا سور القرآن نوعين فانما هي قسمة اجمالية غير شاملة . وعلى هذا التقسيم نجد ان عدد السور المكية يفوق عدد المدنية بنسبة ثلاثة الى واحد . على ان منها كثيراً من القصار القليلة الآيات . ولما كانت المكية عموماً أقدم من المدنية وكان موقف النبي فيها — ولا سيما فيما يرجع الى أوائل الدعوة موقف الداعية المتحمس لمبدأ روحي يرى من الواجب اعلانه والجهاد في سبيله كانت هذه السور في أكثر مواقفها أنزع الى الانتقاد الخطابي ، وأشدّ انقضاضاً على المقاومين . فهي غالباً حملات نارية يجري الكلام فيها بفقرات قصيرة رنانة يكثر فيها التسجيع . وهنا نقول ان سجع القرآن كان موضوع جدل عند الفقهاء انكره بعضهم استناداً على انه لو كان مسجّعاً لما كان خارجاً عن كلام العرب — لا سيما وان السجع مما كان يألفه كهّان العرب . وخالفهم البعض الآخر وأثبتوا السجع فيه مستندين إلى ان ذلك مما يتبين فيه فضل الكلام [2] . والحقيقة ما ذهب اليه هؤلاء كما يتضح في الالوف من آياته . على ان القرآن لا يتقيّد بالسجع تقيد المقامات ونظائرها بل كثيراً ما ينتهي بفواصل متقاربة غير مقيدة بالقوافي .

ويتوالى في كثير من السور المكية القديمة اقسام (جمع قَسَم) شديدة الوقع كقوله : « والنازعات غرقا ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقا ، فالمدبّرات امراً » . أو جمل مصدّرة بإذا الشرطية كقوله : « إذا الشمس كوّرت ، واذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيّرت ، وإذا العشار عطّلت ، وإذا الوحوش حشرت » إلى آخر الآيات . ولا تجد ذلك عادةً في السور المدنية — لا الطويلة ولا

---

١ الاتقان ج ١ ص ٣٨ و ٣٩ وراجع أيضاً ص ٩ — ١١
٢ راجع اعجاز القرآن الباقلاني ص ٣٢

القصيرة منها — بل ولا في السور المكية المتأخرة . واليك أمثلة مسنن الاسلوب المكّي العام :

« كلاّ إنها لظى ، نزّاعة للشوى ، تدعو من أدبر وتولّى ، وجمع فأوعى . إنّ الانسان خُلق هلوعا ، إذا مسّه الشرّ جزوعا ، وإذا مسّه الخير منوعا . إلاّ المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين في أموالهم حقّ معلوم ، للسائل والمحروم ، والذين يصدّقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون [1] » . فاذا تأملت هذه الآيات وجدت فيها ما ذكرناه من قصر في العبارات واتقاد في الحمل على المشركين مع ازدواج أو سجع يسهل على خوالج النفس الظهور بمظهر رائع مؤثر . ومثلها من سورة الحاقة [2] « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، فاما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، اني ظننت اني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية ، قطوفها دانية . كلوا واشربوا هنيئاً بما اسلفتم في الايام الخالية » . ويجري الكلام على هذا الطراز من تذكير وتقريع معقودين بالسجع القصير الفقرات . وانظر إلى هذا الاسلوب القديم في سورة المراسلات : « والمرسلات عُرفا ، فالعاصفات عَصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ، عُذراً أو نذرا . إنما توعدون لواقع . فاذا النجوم طُمست ، وإذا السماء فُرجت ، وإذا الجبال نُسفت ، وإذا الرسل أقّتت ، لأيّ يوم أجّلت ، ليوم الفصل ، وما أدراك ما يوم الفصل ، ويل يومئذ للمكذّبين . ألم نهلك الاولين ، ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين . الم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه في قرار مكين ، إلى قدر معلوم ، فقدّرنا فنعم القادرون . ويل يومئذ للمكذبين » . وإذا تتبعت السورة

١ سورة المعارج ١٥ — ٢٧

٢ الآية ١٨ — ٢٤

إلى آخرها تجدها على هذا النحو من الازدواج مسجعاً أو غير مسجع، وكلما ذكرت منها بضع آيات كررت الآية : ويل يومئذ للمكذبين ، فكأنها لازمة شعرية أو خطابية تربط الآيات وتوجه النظر إلى الغاية منها.

على ان السور المكيّة الطولى لا تتقيد بقصر الفقرات ولكنها كالقديمة سود فيهـا النفس الخطـابي ونزعة الحمل على المقاومين أو المشركين ؛ وقلما يُعمد فيهـا إلى الاسلوب الجدلي أو التشريعي الذي نراه في كثير من الآيات المدنية ، ففي المدنية وُضعت أنظمة الحياة الاسلامية . وفيها احتكّ الاسلام بأهل الكتاب (اليهود) احتكاكاً عنيفاً فتحوّل الانقضاض على مشركي مكة وآلهتهم إلى نوع من الارسال البرهاني ، إذ كان القصد أخذهم بالحجة واظهار ضلالهم بالتدليل واحياناً بالتقريع . ولا يعني ذلك ان بلاغة الآيات في السور المكيّة تختلف عنهـا في السور المدنية اختلافـاً يسيغ لنا ان نجعل بين هذين القسمين حداً فاصلاً أو تخماً واضحـاً ، بل ان الاحوال الـتي نزلت فيها الواحدة لم تكن نفس الاحوال الـتي نزلت فيها الأخرى . وإذا صحّ ان نجعل حداً فاصلاً فانما يكون ذلك بين المكية القديمة والمدنية . أما المكية المتأخرة فصلـة وصل بينهما ، وهذا الاختلاف الواضح في الاسلوب بين السور في عهد مكة الأول وما نزل منها في المدينة راجع بالاكثر إلى مطابقة الكـلام لمقتضى الحال . ولذلك قد ترى في بعض مواقف السور المدنية ما يندفع فيه الكلام اندفاعاً خطابياً مماثلاً لما نراه في السور المكية . فما الفرق بينهما إلاّ فرق اجمالي ولكنه يلفت نظر المتأمل . واليك أمثلة توضح ما نقصد اليه :

« ان الدين عند الله الاسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الاّ من بعد ما جاءهم العلم بَغْياً بينهم . ومن يكفر بآيات الله فـان الله سريع الحساب . فان حاجّوك فقل اسلمت وجهي لله ومن اتّبعَني . وقل للذين أوتوا الكتاب والاميّين أأسلمتم . فان اسلموا فقد اهتدوا وان

تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد .»[1]

وفي الآية ٦٥ – ٦٧ : « يا أهل الكتاب لِمَ تحاجّون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلاّ من بعده أفلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلمَ تحاجّون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وانتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبيّ والذين آمنوا والله وليّ المؤمنين .»[2]

فانك ترى عند قراءة هذه الآيات ومقابلتها بالآيات المكية القديمة انك انتقلت من حال إلى حال – لا من حيث التركيب البياني ولكن من حيث انفعال النفس وحرارة العبارة . وانظر إلى هذه الآية [3] : « الم ترَ إلى الذي حاج ابراهيم في ربه أنْ آتاه الله الملك إذ قال ابراهيم ربيَ الذي يحيي ويميت . قال انا أحيي وأميت . قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهتَ الذي كفر . والله لا يهدي القوم الظالمين » كيف تتخذ طريق البرهان الحسي افحاماً للخصم ، ومثلها كثير في السور المدنية . ولا تجد ذلك في المكية القديمة أو هو نادر جداً هناك . ومثلها من السورة نفسها (الآية ١٩) : « وإذا قيل لهم آمنوا بما انزل الله قالوا انؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدّقاً لما معهم . قل فلِم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين » . والآيتان ٩٤ و ٩٥ : « قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنّوا الموت ان كنتم صادقين . ولن يتمنّوه ابداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين » .

---

١ آل عمران الآية ٢٩ و ٣٠

٢ راجع منها أيضاً الآيات ١٥١ – ١٧٢

٣ سورة البقرة ٢٥٧

ولو قابلت السور المكية الصغرى بامثالها من المدنية لرأيت ما نقصد اليه من تغير النفس بتغير المكان والحال . ولا يتسع المقام لضرب الامثلة على ذلك فرجع الباحث إلى هذه السور ليحكم بنفسه على ما نقول . وهذا ابو هلال العسكري يشير إلى هذا الفرق وانه ناجم عن حال المخاطَب . فقد قال في باب الاطناب من كتابه الصناعتين [1] « قد رأينا ان الله تعالى إذا خاطب العرب والاعراب اخرج الكلام مخرج الاشارة والوحي ، وإذا خاطب بني اسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام مبسوطاً . وقلما تجد قصة لبني اسرائيل في القرآن الا مطوّلة مشروحة ، ومكرّرة في مواضع معادةً لبعد فهمهم وتأخر معرفتهم » : وعلى ذلك قال الصولي في أدب الكتاب [2] : « فاذا احتيج إلى الاكثار جيءُ بما لا بدّ منه . واكثر ما يقع ذلك في الرغبة والرهبة . ألا ترى إلى كتاب الله عزّ وجل وكلامه المعجز كيف يكون فيه ذكر الجنة والنار وقصة الانبياء (عم) والنقمة ممن كذبهم بالاعتبار بما نزل بهم فكانت الحكمة تقرير ذلك » ... إلى أن يقول : « ولأن الانسان قد يقرأ بعض القرآن ويحفظ شيئاً منه دون شيء فلم يخلِ الله عزّ وجل كل موضع منه من ترغيب وترهيب واذكار واعتبار تفضلاً منه على عباده واستدعاءً لطاعتهم ونهياً عن عصيانهم . فوقع التكرير لذلك » .

وقال ابن قتيبة [3] : « وهذا (أي الايجاز) ليس بمحمود في كل ضع ولا بمختار في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال . ولو كان الايجاز محموداً في كل الاحوال لجرده الله في القرآن ، ولم يفعل الله ذلك ولكنه أطال تارة للتوكيد وحذف تارة للايجاز وكرّر تارة للافهام » .

---

١ الصناعتين ١٤٤

٢ أدب الكتاب ص ٢٢١

٣ أدب الكاتب ٩

ظواهر بلاغته

من العبث ان نلمّ هنا بكل ضروب البلاغة التي تتجلى في القرآن : ففي بلاغته وضع كثير من الكتب ، بل هو العامل الدافع لما صنفه العلماء من علوم المعاني والبيان والصرف والنحو ناهيك بكتب التفسير واللغة والتشريع وسواها . وقد أوجب العلماء على من يتعرّض لدرس القرآن وتفسيره لا اقلّ من ١٥ علماً [١] . وعدّوا منها المعاني والبيان والبديع أو علوم البلاغة وهي عندهم من أعظم أركان المفسّر، لأنه لا بدّ له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز وإنما يدرك بهذه العلوم . إلاّ ان ملاك الامر فيه إما السليقة كالاعراب الخلّص ومن يحذو حذوهم ، أو الذوق الذي هو آلة في اكتساب البلاغة ولا يمكن تحصيلها بدونه . قال السكاكي في حق المعاني والبيان: « فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل [٢] » . وقد أفردوا في بدائع القرآن مصنفات عديدة وعددوا من تلك البدائع أكثر من مئة نوع ، فلتراجع في مظانها الخاصة . على انه لا يسعنا ان نمرّ بأول كتاب عربي دون ان نلمح ولو تلميحاً إلى بضع من اعمّ الظواهر البلاغية فيه مستندين في ذلك إلى ما اختبرناه لدن قراءته . وسنقتصر منها على أربعة أنواع :

١ — الاحتباك ودقة الاشارة :

ومعنى الاحتباك الشدّ والإحكام وتحسين اثر الصنعة في الثوب بسدّ ما بين خيوطه من الفرَج ، واحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع بقاء الحسن والرونق . وهو يتناول في الكلام احكام الانشاء بحيث لا يتراخى أو يضعف لحذف أو ذكر أو تقديم وتأخير وما شاكل من ضروب المعاني . واما دقة الاشارة فهي

١ راجع تفصيل ذلك في مفتاح السعادة ١ — ٤٢٧ و ٤٢٨

٢ راجع تفصيل ذلك في مفتاح السعادة ١ — ٤٢٨

الايجاز أو عرض المعنى باقل ما يكون من الالفاظ أو العبارات كالآية : « أفمن شرح صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم [1] » . فالمحذوف هنا خبر تقديره « كالقاسية قلوبهم » . وقد أشارت اليه الآية اشارة غريبة . ومثلها الآية [2] « افمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » . فانظر إلى الايجاز في تقدير الخبر (كمن هو آمن منه) ومن ذلك الآية ٤٨ من سورة الشورى « فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظاً إنْ عليك إلا البلاغ . وإنّا إذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها وان تصبهم سيئة بما قدّمت ايديهم فان الانسان كفور » . والاحقاف ٤ « قل أرأيتم ما تدعون من دون الله اروني ماذا خلقوا من الارض . ام لهم شِركٌ في السموات . ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم ان كنتم صادقين » . اي بكتاب أو بقية من علم الاولين تشير إلى استحقاقها للعبادة .

وعلى هذا النمط الدقيق الآية ٢٩ من سورة الفتح يتكلم عن المؤمنين « سيماهم في وجوههم من أثر السجود . ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزرّاع ليغيظ بهم الكفار . » وطه ٦٦ « قال القوا فاذا حبالهم وعِصيّهم يخيّل اليه من سحرهم انها تسعى » .

فتأمل الحذف أو التقدير في كل من هذه الآيات تفهم ما نقصد بدقة الاشارة واحتباك العبارة . وقس على ذلك من آي الكتاب ما يتعذر احصاؤه في هذا المقام [3] .

---

١ الزمر ٢٢

٢ الزمر ٢٤

٣ راجع مثلا سورة النمل ٢٨ – ٤٥ و ٥٩ – ٦٥ والرعد ٣٣ وطه ٣٨ – ٤١ وهود ١١٧ والانبياء ٢ – ٤ وهي قل من كثر في هذا الباب .

٢ ـ حسن الايقاع :

ويراد بـه وصف الكلام وصفـاً متناسب الاجزاء . ويحصل من تلاؤم الالفاظ والعبارات تلاؤمـاً ترتاح اليه النفوس . والقرآن بما فيه من رنة مطربة سواء كان ذلك في فواصله أو اسجاعه (ويظهر سجعه في نحو ٦٢٠٠ آية) أو اتّساق الالفاظ في آياته يعدّ انموذجاً في الادب العربي . فإذا نظرت فيه عبارةً عبارة رأيت قوة السبك (الاحتباك) مقرونة بمـا يناسب شعور النفس من عنف حين العنف ورقّة في موقف الرقة . ويغلب على اسلوبه الروعة الخطابية والوثبات العاطفية ، ولذلك يكثر فيه التفخيم والتكرير والتمثيل وسواها من ضروب البلاغة . كل ذلك بايقاع خاصّ عرف بـه القرآن ، ويكثر في تركيبه الانشائي تقديم القيود على المقيدات والصفات على الموصوفات ممـا يلائم اتقاد الشعور ووثبات الخيال .

وللشيخ شمس الدين بن الصائغ كتاب سماه (إحكام الراي في أحكام الآي) اشار فيه إلى تناسب العبارات القرآنية وإلى انـه قـد تُوخي فيها أوضاع خاصة مراعاة لهـذا التناسب . قال : « وتتبعت الاحـكام الـتي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة فعثرت منها على نيف واربعين حكماً » . وقـد نقل هذه الاحكام جميعها صاحب مفتاح السعادة [١] فليراجعها من أراد . على اني اجتزئ هنا منها بما يلي إظهاراً لما نرمي اليه :

تقديم ما هو مؤخر في الزمان نحو : فلله الآخرة والاولى .

تقديم الصفة الجملة على الصفة المفرد نحو : ونخرج له يوم القيامـة كتاباً يلقاه منشورا .

تقديم الضمير على ما يفسره نحو : فاوجس في نفسه خيفة موسى .

---

١ مفتاح السعادة ٢ – ٣٤٦ – ٣٤٩

ايثار تذكير اسم الجنس نحو : اعجاز نخل منقعر .
ايثار تأنيث اسم الجنس نحو : اعجاز نخل خاوية .
ايراد احد القسمين غير مطابق للآخر نحو : وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (لم يقل الذين كذبوا) .
ايثار اغرب اللفظين نحو : قسمة ضيزى (لم يقل جائرة)
حذف المفعول نحو : ما ودعك ربك وما قلى .
الاستغناء بالافراد عن التثنية نحو : فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى (بدل فتشقيان) .
اجراء غير العاقل مجرى العاقل نحو : رأيتهم لي ساجدين (عن القمر والنجوم) .
العدول عن الماضي إلى الحاضر نحو : فريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون .
تغيير بنية الكلمة نحو : طور سينين (بدل سيناء) .
وقوع اسم المفعول بدل الفاعل نحو : حجاباً مستوراً (بدل ساترا)
إلى آخر هذه الاحكام التي تدل على مراعاة التنزيل للوزن وحسن الرصف وجمال الايقاع :

٣ ـ روعة الانتقال :

ويراد بها الوثوب من معنى إلى معنى أو من حالة إلى حالة وثوباً يحرك النفس ويزيد في روعة المعنى . وأكثر ما يكون ذلك فيما يطلق عليه العلماء اسم الالتفات وهو الخروج من صيغة إلى صيغة ، واليك أمثلة عليه :

« إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا . أفمن يُلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة . اعملوا ما شئتم انه بما تعملون

بصير [1] فقد انتقل من الخبر إلى السؤال إلى الامر انتقالاً زاد تأثير الكلام . ومن ذلك : « فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليمّ ما غشيهم وأضلّ فرعونُ قومهُ وما هدى . يا بني اسرائيل قد انجيناكم من عدوّكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزّلنا عليكم المنّ والسلوى [2] » . والانتقال هنا من الخبر إلى النداء .

ومن الالتفات « هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظُلَلٍ من الغمام والملائكة . وقُضيَ الامر وإلى الله تُرجَع الامور [3] »

ومنه : « واذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل اناس مشربهم . كلوا واشربوا من رزق الله ولا تَعثَوا في الارض مفسدين [4] » . ومنه : « وقيل يا ارض ابلعي ماءكِ . ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الامر ، واستوت على الجوديّ ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » .

وذكر الصفدي في « الغيث المنسجم في شرح لامية العجم » نوعاً آخر من الالتفات سمّاه الالتفات من اسلوب إلى اسلوب أو الخروج من نوع إلى نوع وسلوك سبيل بعد سبيل حتى عدّ التخلصات الشعرية منه [5] . فاذا التفتنا إلى القرآن نجد هذا النوع من الالتفات عاماً ، فكثيراً ما ينتقل في السورة الواحدة من قصة إلى قصة ومن موقف إلى موقف انتقالاً فجائياً قد يجد فيه القارئ أو السامع تطرية لنشاطه .

وإذا دققنا النظر في الالتفات وبحثنا في الغاية من العدول عن صيغة إلى أخرى أو عن موقف إلى آخر وجدنا ان ذلك لا يكون إلاّ

١ فصلت ٤٠
٢ طه ٧٩ و ٨٠
٣ البقرة ٢٠٩
٤ البقرة ٦٠
٥ الغيث المنسجم ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠

لخصوصية بلاغية كالتعظيم أو التحقير أو التوكيد أو الايضاح وهو يعدّ لذلك من اوجه البلاغة بل من أركانها الرئيسية . ولقد يتجلى ما نقصد اليه في ما يلي من سورة الكهف يصف يوم الحساب : « ويوم نُسيّر الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم احداً وعُرضوا على ربك صفّا . لقد جئتمونا كما خلقناكم اول مرة بل زعمتم ألّن نجعل لكم موعدا . ووُضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ احصاها . ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك احدا » .

فانظر كيف تواثب من المضارع إلى الماضي ومن المعلوم إلى المجهول ومن الغائب إلى المخاطب ثم إلى الغائب فالمخاطب فالغائب فالمخاطب تواثباً يجعل للكلام من جلال الوصف وتعظيم الحال ما ينفرد به هذا النوع البلاغة [1]

٤ ـ جمال التمثيل :

ويراد بالتمثيل تفسير المعاني الموهومة بالصور المشاهدة أو كما قال بعضهم ابراز المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مشاهد ، وهو يؤثر في القلوب ما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه . قال السيوطي : « ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه الأمثال [2] »

وامثال القرآن قسمان قسم على سبيل التشبيه الظاهر كقوله من سورة البقرة في المنافقين : « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون » . وقوله :

١ ولزيادة التمثيل راجع يونس ٢٢ و ٣٠ والكهف ٤٨ ـ ٥٠ ومريم ١١ والانبياء ٩٧ والحج ٢٢ والاعراف ١٥٩

٢ الاتقان ٢ ـ ١٣٦

« او كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون اصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف ابصارهم كلما اضاء لهم مشوا فيه وإذا اظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وابصارهم ان الله على كل شيء قدير » ؛ ومن سورة الرعد : « قل هل تستوي الظلمات والنور ام جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم . قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار . انزل من السماء ماءً فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاءَ حلية أو متاع زبدٌ مثله . كذلك يضرب الحق والباطلَ فأمّا الزّبد فيذهب جُفاءً واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال » أي كما اضمحلّ هذا الزبد فصار جفاءً لا ينتفع به ولا ترجى بركته كذلك يضمحل الباطل عن أهله . وكما مكث هذا الماء في الارض فامرعت واخرجت نباتها وكذلك الذهب والفضة حين ادخل النار فذهب خبثه كذلك يبقى الحق لاهله .

ومن هذا الطراز العالي ما جاء في سورة الكهف : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا » . ومن سورة النور « الله نور السموات والارض . مثَلُ نوره كمشكاةٍ فيها مصباح . المصباح في زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكبٌ دريّ يوقَدُ من شجرةٍ مباركةٍ زيتونةٍ لا شرقيةٍ ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسهُ نار ، نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم »[1]

ويجيء التمثيل الظاهر في القرآن عن سبيل القصص وهو كثير :

---

[1] راجع أيضاً في هذا الباب البقرة ٢٦٤ ويونس ٢٤ وابرهيم ٢٤ — ٢٧ وغيرها كثير لا يتسع له هذا المقام .

ومن التمثيل القرآني ما لا يظهر عن سبيل التشبيه أو القصص ولكنه يجيء امثالاً ترسل في الناس حكماً بالغة . وهي كثيرة نعد منها ولا نعددها كقوله :

لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون .

الآن حصحص الحق :

قُضي الامر الذي فيه تستفتيان :

أليس الصبح بقريب :

لكلّ نبأ مستقرّ :

قل كلٌّ يعمل على شاكلته :

وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم :

كلّ نفس بما كسبت رهينة .

ما على الرسول إلا البلاغ :

كم من فئة قليلة غلبت فئةً كثيرة :

ولا ينبئك مثلُ خبير :

لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها .

قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو اعجبك كثْرة الخبيث .

واما الزّبد فيذهب جفاءً :

وقس على ما ذكر مئات من جوامع الكلم وفيه تتجلى متانة الاحتباك مع بلاغة الايجاز . وليس ما ذكرناه من ضروب البلاغة في أول وثيقة عربية إلاّ قطرة من بحر عباب . وليس على الباحث إلا ان يرجع اليه ويطالع أقوال الشراح فيه ليعرف دقائق بلاغته ويتفهم أسرار لغته .

رأي نولدكه في اسلوبه

لهذا المستشرق الكبير بحث ضاف في دائرة المعارف البريطانية[1] عالج فيه القرآن من كل وجوهه معالجة الخبير المدقق ، على انه في الكلام على اسلوبه القصصي ذكر ما تراءى له كأوجه ضعف في ذلك الاسلوب[2] . واهمها عنده – النقص في التسلسل – ويقصد بذلك ان القصة لا تروى في طريقة خبرية منظمة بل يعتريها التقطيع والتشويش حتى يصعب جداً فهمها على من لم يطّلع عليها في مصدر آخر . ومما انتقده تكرير بعض الالفاظ أو العبارات تكريراً لا مبرّر له (عنده) وكثرة الانتقال في سياق الكلام من صيغة إلى صيغة أو من حال إلى حال . ويقول ان كل عالم أوروبي يقرأ الكتاب بروح الانصاف يرى رأيه . اما المتمسكون من أهل الاسلام فينكرون هذا الكلام ويرمون صاحبه بالالحاد .

ومن الانصاف هنا ان نقول ان نولدكه لم يصب هنا كبد الحقيقة فيما ذهب اليه من نقد الاسلوب القرآني . إذ لا يجوز مقابلة هذا الاسلوب باسلوب القصة في التوراة لاختلاف الغرض فيهما . ففي التوراة عدا اسفار الانبياء والامثال والاناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجري فيه الاخبار مجراها الواضع العادي ، اما القرآن فانه يشير إلى الحوادث التاريخية بجملات روحية خطابية لا يقصد بها تسلسل الخبر ، بل يقصد بها إلى التذكير والتهويل . ولذلك ترد مراراً بحسب ما يقتضيه الكلام ، وكثيراً ما تروى عن سبيل الاشارة والتلميح – والنسق الخطابي يقتضي التكرير كما هو معروف – . واما الالتفات فقد تقدم معنا الكلام عليه وانه من ضروب البلاغة ويصعب ادراك كنهه على غير ابناء اللغة الواقفين على اسرارها .

١ راجعه تحت لفظة **Encyc. Brit. Edition 11 - Koran**

٢ راجع كلامه في نفس المقال تحت عنوان **Stylistic weakness**

الحَديثُ النّبَويّ

ومقامه في تاريخ النثر

ليس من شأننا ان نتناول الحديث من الوجهة الفقهية فلذلك علماء تخصصوا في دراسته واليهم يُرجع في روايته ومعرفة أسانيده . على انه لا يسعنا ونحن ندرس النثر العربي ونحاول ان نتتبع مجاريه في التاريخ إلاّ أن نقف قليلاً لدى هذه المجموعة الادبية الخطيرة ، لا سيما وان ارباب القول فيها يرجعونها إلى عهد النبي ويضعونها في المقام الاعلى بعد القرآن .

نقل القلقشندي عن كتاب حسن التوسّل « لا بدّ للكاتب من حفظ الكثير من الاحاديث النبوية والاثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم وخصوصاً في السير والمغازي والاحكام وتأمّل فصاحتها والنظر في معرفة معانيها وغريبها » ، إلى أن يقول : « فانها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم وقال انا افصح من نطق بالضاد » ثم قال :

والذي أشار اليه ابن قتيبة في أدب الكاتب « ان الاحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الاحاديث المتعلقة بالفقه واحكامه » قلت (اي القلقشندي) والتحقيق ان حاجة الكاتب لا تختص باحاديث الاحكام ودلائل الفقه

بل تتعلق بما هو أعمّ من ذلك خصوصاً الحِكم والامثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والاقتباس من معانيه [1] .

فهي تهم الباحث في تاريخ الأدب العربي : ولكن إلى أي حدّ يجوز اعتمادها وكيف ندلج في ظلمات البحث متلمّسين صحيحها ، ذلك ما نرجو بسطه في هذا المقام .

وضع الاحاديث

لا مراء في ان الحديث لا يجوز اعتبار مجموعه وثيقة من الوثائق النثرية فقد كثر فيه الوضع حتى لفت نظر الباحثين قديماً وحديثاً ؛ وعلى ذلك قول ابن القطّان « لم تر أهل الخبر في شيء أكذب منهم في الحديث [2] » . وقد هبّ العلماء منذ دُوّن الحديث إلى درسه وتجريحه وتعديله، ولهم في ذلك كتب وأقوال كثيرة نذكر منها عدا الصحيحين جامع الاصول لابن الاثير وكتاب الموضوعات لابن الجوزي وتذكرة الحفاظ للذهبي وجامع الجوامع للسيوطي وما إلى ذلك من مؤلفات يتعذر حصرها هنا . وفي جميعها يُعنى المؤلفون بذكر الحفاظ والمحدثين وتعيين درجاتهم والتنويه بحسناتهم وسيئاتهم ، وقد قادهم ذلك إلى تنويع الأحاديث وغربلتها والنظر في أسانيدها وشروطها فطرحوا منها الالوف الكثيرة كما فعل الامامان محمد بن اسماعيل البخاري ومسلم بن الحجاج في صحيحيهما . فاننا إذا اعتبرنا الاحاديث المكررة في صحيح البخاري مثلاً وجدنا انه لم يثبت من ستمئة ألف حديث مروية في زمانه إلاّ

---

١ ملخصة عن صبح الاعشى ١ : ٢٠١ – ٢٠٤

١ صحيح مسلم ١ – ١٢ ويروى ايضاً لعاصم .

أقل من أربعة آلاف حديث ومثل ذلك صحيح مسلم [1] . قال ابن خلدون : « واعلم ان الائمة المجتهدين تعاونوا في الاكثار من هذه الصناعة والاقلال فابو حنيفه [2] (رضه) يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً ومالك انما صحّ عنده ما في كتاب الموطأ وغايتها ثلاثمئة حديث أو نحوها [3] » . وروى السمعاني عن ابن راهويه وهو احد الحفاظ المشهورين قال الاحاديث الثابتة عن رسول الله (صلعم) في الاحكام ثلاثة آلاف حديث خمسمائة منها مدارها على ابي هريرة [4] » . وقد اشار إلى وضع الاحاديث الامام مسلم بن الحجاج فقال في مقدمة صحيحه [5] : « فلولا الذي رأينا من سوء صنيع كثير ممن نصب نفسه محدّثاً فيما يلزمهم من طرح الاحاديث الضعيفة والروايات المنكرة ، وتركهم الاقتصار على الاحاديث الصحيحة المشهورة مما نقله الثقات المعروفون بالصدق والامانة ، بعد معرفتهم واقرارهم بالسنتهم ان كثيراً مما يقذفون به إلى الاغبياء من الناس هو مستنكر ومنقول عن قوم غير مرضيين — فممن ذمّ الرواية عنهم ائمة اهل الحديث مثل مالك بن أنس وشعبة بن الحجاج وسفيان بن عُيينة ويحيى بن سعيد القطّان وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم من الائمة — لما سهل علينا الانتصاب لما سألت من التمييز والتحصيل» الخ الكلام . ويتلوه باب

١ قال مسلم صنفت الصحيح من ٣٠٠,٠٠٠ حديث مسموعة — ابن خلكان ٢ — ١٢٣ راجع أيضاً مفتاح السعادة ٢ — ٥

٢ هو من التابعين ولقي عدة من الصحابة (الفهرست ٢٠١)

٣ المقدمة ص ٤٤٢ . وعن المنار مج ٣ ص ٧٥٧ ما نصه : « وقد روى عن الامام مالك(رضه) انه كان قد كتب كتابه الموطأ حاوياً اربعة عشر ألف حديث عن النبي (صلعم) فلما سمع حديث قد كثرت علي الكذابة الخ عاد إلى تحرير كتابه فلم يثبت له من الاربعة عشر ألفاً أكثر من ألف» .

٤ مفتاح السعادة ١ — ٤٠٧ وقد شهد ابو هريرة على نفسه إذ قال لم يكن من أصحاب محمد أكثر حديثاً مني إلا عبد الله بن عمرو بن العاص فانه كتب ولم اكتب . راجع مجلة المنار الاسلامي ١٠ — ٧٤٨

الكشف عن معايب رواة الحديث ونقلة الأخبار وقول الائمة في ذلك . وللقدماء أقوال كثيرة في هذا الباب ؛ أما من أقوال المحدثين فقد اخترنا ما أورده المنار للشيخ محمد عبده إذ قال [١] : «لم يرزأ الاسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه وما أحدثه الغلاة من المفتريات عليه فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين وأساء ظنون غيرهم فيما بني على الدين . وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الاولى حتى عُرف ذلك في عهد الصحابة (رض) . بل عهد الكذب على النبي (ص) في حياته حتى خطب في الناس قائلاً : أيها الناس قد كثرت علي الكذابة، ألا من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار . الاّ ان عموم البلوى بالاكاذيب حقّ على الناس بلاؤه في دولة الامويين فكثر الناقلون وقلّ الصادقون وامتنع كثير من اجلّة الصحابة عن الحديث الا لمن يثقون بحفظه خوفاً من التحريف فيما يؤخذ عنهم حتى سئل عبد الله بن عباس (رض) لِمَ لا تحدّث فقال لكثرة المحدّثين . ثم اتسع شرّ الافتراء ، وتفاقم خطب الاختلاق وامتدّ بامتداد الزمان إلى أن نهض ائمة الدين من المحدّثين والعلماء العاملين ووضعوا للحديث اصولاً ، وشرطوا في صحته شروطاً ، وبيّنوا درجات الرواة وأوصافهم ، ومن يوثق به ومن لا يوثق به منهم . وصار ذلك فناً من أهم الفنون سمّوه فنّ الاسناد ، واتبعوه بفنّ آخر سموه فن مصطلح الحديث . فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد ، وامتاز الحقّ من الباطل ، وعرفت الكتب الموثوق بها من غيرها » الخ ...

فلا ريب ان الوضع في الحديث كان شائعاً منذ صدر الاسلام ، وأسبابه مختلفة ، جعلها ابن الجوزي في كتاب الموضوعات خمسة وهي : الغباوة ، والغفلة عن التمييز ، وطلب المال والجاه ، والتدليس تشيعاً لاحد المذاهب ، والزندقة قصد افساد الشريعة وايقاع الشكّ في قلوب العباد . وقد أضاف إلى ذلك صاحب

---

١ المنار : مج ٣ ص ٧٥٥ – ٧٥٧

مجلة المنار أسباباً أخرى لا تخرج عند التحقيق عما ذكره ابن الجوزي [1]

نقد الحديث

وقد اهتم العلماء قديماً بنقد الاحاديث عن طريق الاسناد ، وعنُوا بذلك عناية خاصة فكان لنا من ذلك ، الاحاديث الثابتة في الصحيحين. وقد حملهم التدقيق في نقد الاسناد وتجريحه إلى جعل الاحاديث درجات متنوّعة قد تبلغ الخمسين يجمعها أنواع ثلاثة؛ هي الصحيح والحسن والضعيف، وأهم ما يلفت نظرنا منها ما يلي :

المرفوع (والمسند) — وهو ما رُفع إلى النبي قولاً أو فعلاً أو تقريراً ، كأن يقال مثلاً حدّثنا فلان حدّثنا فلان حدّثنا فلان عن ابي هريرة ان النبي قال أو فعل أو كان كذا وكذا ، فإذا كان الرفع متصل السند من راويه إلى النبي لا يتخلله انقطاع سمّي مسنداً .

المُسَلسل — وهو المسند الذي فيه دلالة على اتصال السمع وعدم التدليس كقولهم سمعت فلاناً قال سمعت فلاناً قال سمعت فلاناً وهو أول حديث سمعته . أو دخلت على فلان يأكل تمراً أو حدثنا وهو قابض على لحيته .

العزيز — وهو الذي يرويه اثنان أو ثلاثة عن اثنين أو ثلاثة .

الغريب — وهو الذي يرويه راوٍ فقط منفرداً بروايته .

الموقوف — ما أضيف إلى احد الصحابة وقصر عليه فلم يرتفع إلى النبي .

المدلّس — هو الذي يتلاعب باسناده ، فيسقط الضعيف منه .

المضطرب — ما اضطرب فيه الاسناد فروي على أوجه مختلفة .

---

[1] المنار مج ٣ ج ٢٣ و ٢٤

المنكر — هو الذي لا يعرف متنه من غير جهة راويه . وراويه غير معروف بالعدالة .

الموضوع — هو المكذوب الذي وُضع ولا أصل له .

على ان النظر في الاسناد وحده لا يكفي فلا بدّ لنا في التنقيب عن الوثائق أو الاشكال النثرية الاصلية من اعتبار متن الحديث ، والنظر فيه من حيث علاقاته بالاحوال السياسية والدينية . فإذا رأينا مثلاً حديثاً يروى عن المهلّب بن ابي صفرة يضعّف به امر الخوارج ترددنا في قبوله أو رفضناه مهما بلغت صحة اسناده ، وجارينا في ذلك ابن خلكان إذ قال متابعاً المبرّد «وكان المهلّب ربما صنع الحديث ليشدّ بـه أمر المسلمين ويضعف به أمر الخوارج»[1] . وكذلك إذا كان الحديث عن شيعي يطعن في الامويين أو العباسيين ، أو عن أموي وعباسي يطعن في العلويين . وقس على ذلك أحاديث الخوارج والزبيرية من الفرق السياسية ، والمعتزلة والجبرية والقدرية وغيرها من الفرق الدينية .

وكذلك لا بدّ في درس الحديث من النظر في شكله اللغوي والانشائي . فاذا رأيناه مثلاً متبسطاً كثير الازدواج ، أو رأينا فيه من المفردات أو المصطلحات الفنية ما لا يجوز نسبته إلى عهد النبي ، وقفنا ازاءه وقفة المشكك أو الرافض وسيأتي شرح ذلك بعد . ومما يجب اعتباره موقفه ازاء القرآن والتاريخ والعقل وعلاقته بما سبق من أقوال الامم الاخرى وأقاصيصها . ففي كل ذلك ما يقتضي الحذر ودقة النظر .

والباحث المنقب في تاريخ النثر العربي ليس له ان يستند إلاّ إلى النص اللغوي الصحيح أو إلى ما لا يخالف المنطق مما أجمع اهل الاسناد على صحته . فان كثيراً من الحديث روي على المعنى دون اللفظ[2]

---

١ وفيات الاعيان ٢ — ٢١٥

٢ فقد ورد في الاقتراح للسيوطي ان الحديث لم يثبت منه على اللفظ المروي إلا النادر وهو في الاحاديث القصار واما غالب الاحاديث فمروي بالمعنى . الاقتراح (طبع حيدراباد ١٣١٠هـ) ص١٩ . وقال الحافظ في ترجمة عمرو بن دينار انه كان يحدث على المعنى ويقول لا أتحرج على من يكتب عني ، وهو قد ولد سنة ٤٦ هـ — المنار ١٠ — ٧٥٥

وتوصلاً إلى ذلك رأينا ان نقرن صحة الاسناد كما نص عليها علماء الحديث الموثوق بهم باحكام نقدية عامة قد تُدنينا من محجة الصواب فنقف بها على أحاديث اقلّ ما يقال فيها انها تمثل الاسلوب النثري في العهد النبوي وأهم هذه الاحكام ما يلي :

١ ـ الاغضاء عن كل حديث يشمّ منه دعاية ما (سياسية أو اقليمية أو دينية أو قومية أو شخصية) .

٢ ـ الاغضاء عن كل حديث مناقض لروح القرآن والاسلام .

٣ ـ الاغضاء عن كل حديث مناقض للتاريخ أو العقل .

٤ ـ الاغضاء عن كل حديث يشتبه في لغته أو أسلوبه الانشائي .

٥ ـ الاغضاء عن كل حديث يرجح انه مأخوذ عن أمم أخرى ٥

٦ ـ الاغضاء عن كل حديث مناقض لحديث آخر .

فإذا قرنّا هذه الاحكام العامة بامانة النقل وصحة الاسناد وطبقناها على الحديث ، لم يكن من المستبعد ان نصل إلى ضالتنا المنشودة . وليست غايتنا في ذلك نقد الحديث من حيث هو أساس للسنة المرعية . فما ذلك ـ كما صرّحنا قبل ـ من شأننا . وانما نحن ننشد ما يصح اعتباره نموذجاً للنثر في العهد النبوي فلا بأس من مجاراة النقادين الحديثين من مستشرقين وسواهم أو على الاقل مراعاة ما يذهبون اليه من تجريح المتن ، لا لاعتقادنا باصابتهم في كل ما يذهبون اليه ، ولكن لكي نرسم لانفسنا في البحث دائرة علمية ضيقة نحصر فيها ما يقبله الجميع من مجرّح وغير مجرّح ، ثم نتخذ هذا المُجمع عليه ونجعله أساساً لما نقصد اليه .

وقد ورد في مجلة المنار مقال بقلم « الناصح الامين » ذكر فيه أسباب الوضع ، ووضع للحديث الموضوع علامات رأينا ان نذكرها هنا تتمة للفائدة ـ وهي [١] :

١ ـ المجازفات التي لا يقول مثلها الرسول (ص) مثل « من قال

---

١ المنار ج ٢ ص ٣٩ ـ ٣٩٦

لا اله الا الله خلق الله من تلك الكلمة طائراً له سبعون الف لسان الخ»:

٢ — تكذيب الحس له كحديث «الباذنجان شفاء من كل داء»، وحديث «ان القمر دخل في جيب النبي (ص) وخرج من كمه»، وحديث «ردّ الشمس إلى علي بن ابي طالب».

٣ — سماجة الكلام وكونه مما يسخر منه كحديث «لو كان الرز رجلاً لكان حليماً ما أكله جائع الا شبعه»، وحديث «قدّس العدس على لسان سبعين نبياً آخرهم عيسى عليه السلام».

٤ — مناقضته لما جاءت به السّنة الصريحة. فمن ذلك أحاديث من اسمه محمد أو أحمد وان كل من يسمى بهذا الاسم لا تمسّ جسده النار، إذ المعلوم من الدين ان النار لا يجار منها بالاسماء والالقاب الخ ...

٥ — قيام الشواهد الصحيحة على بطلانه كحديث عوج بن عناق من ان طوله ٣٣٦٠ ذراعاً الخ ...

٦ — مخالفته لصريح القرآن كحديث مقدار الدنيا وانها سبعة آلاف سنة وان الذاهب منها كذا فان ذلك يدل على علم الساعة مع انه تعالى يقول «قل انما علمها عند الله».

٧ — اقترانه بما يبطله كحديث وضع الجزية عن اهل خيبر لأنها لم تكن نزلت إذ ذاك وإنما نزلت بعد عام تبوك الخ ...

٨ — مناقضته للفضيلة كالاحاديث الدالة على الشره كوصفهم اكله (ص) العنب بما لا مساغ لذكره الخ ...

٩ — مناقضته للعقيدة كحديث «لو احسن احدكم ظنه بحجر لنفعه» الخ

ومن الاحاديث التي لا أصل لها أحاديث الحمام واتخاذ الدجاج وذم الاولاد والتواريخ المستقبلة وفضائل السوّر ومدح العزوبة والنهي عن الطعام في السوق وفضائل الازهار والحناء وغير ذلك مما يطول ايراده الخ.

تطبيق هذه الاحكام على احاديث شتى

١ — حديث البلخي عن أنس قال قال رسول الله « الورع سيد العمل . من لم يكن له ورع يردّه عن معصية الله إذا خلا بها لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً وذلك مخافة الله في السر والعلانية ، والاقتصاد في الفقر والغنى ، والصدق عند الرضا والسخط . ألا وان المؤمن حاكم على نفسه يرضى للناس ما يرضى لنفسه . المؤمن حسن الخلق وأحبّ الخلق إلى الله عزّ وجل احسنهم خُلقا ينال بحسن الخلق درجة الصائم القائم وهو راقد على فراشه لأنه قد رُفع لقلبه عمل فهو يشاهد به القيامة . يعدّ نفسه ضيفاً في بيته وروحه عارية في بدنه » الخ الحديث[١]

فالناظر في اسلوبه الانشائي يراه بعيداً عن اسلوب العصر النبوى وعن البلاغة المعهودة فيه إذ ينقصه الاحتباك وجودة السباك . والاشبه ان يكون من أقوال بعض الزهّاد في عصر متأخر . وقد قال فيه ابن عساكر انه منكر بمرّة واسناده لا تقوم فيه حجة .

٢ — حديث ابن التمار يسنده إلى ابن عمر قال : قال رسول الله « ان العربية كلام اهل الجنة ، والعربية كلام أهل السماء ، وكلامهم إذا وقفوا بين يدي الله عزّ وجلّ في الموقف[٢] » . ففي هذا الحديث عدا التكرار غير المفيد حرب على الشعوبية أو دعاية قومية لغوية والوضع فيه ظاهر .

٣ — حديث الذئب للجبيلي رواه باسناده عن كعب الاحبار قال : « خرج بنو يعقوب فرأوا ذئباً فساقوه وقالوا يا ابانا هذا الذي أكل أخانا . فقال لهم حلّوا كتافه عنه ثم قال له يعقوب أأنت اكلت حبيبي يوسف ، فقال معاذ الله يا نبي الله ألست تعلم ان لحوم الانبياء محرّمة

---

١ ابن عساكر ٢ — ٦٢

٢ ابن عساكر ٢ — ٨٢

علينا قال صدقت فمن اين جئت قال من مصر . قال وإلى أين تريد قال إلى خراسان . قال وفيماذا تسافر قال في زيارة اخ لي قال وما بلغك فيه قال حدثني ابي عن جدي عن الانبياء السالفين انه من زار أخاً له في الله كتب الله له الف الف حسنة ومحا عنه الف الف سيئة . فقال يعقوب لبنيه اكتبوا هذا الحديث » الخ [1] وهذا الحديث قصة موضوعة مما كان يدور على السنة القصاص . وقد تناول واضعها خبر الذئب في قصة يوسف وحوله على هذه الطريقة الخيالية ، وأنطق الذئب بالحكمة التي تراها في هذا الحديث . فلا بدع ان يقول فيه ابن عساكر « وهذا مما تلوح فيه لوائح الكذب » .

٤ — حديث الدينوري « خيركم في المائتين المؤمن الخفيف الحاذ » [2] (اي الذي لا أهل له) فهذا مناف لسيرة الرسول ولروح الاسلام . قال ابن عساكر وهذا الحديث فيه ما فيه .

٥ — « الخلافة في أمتي ثلاثون سنة ثم ملك بعد ذلك [3] »

فالحديث نبوءة سياسية وضعت على لسان النبي بعد انقضاء خلافة الراشدين وقيام الدولة الاموية ، وهو موضوع للطعن في الامويين وانكار حقهم بالخلافة .

٦ — « لكل امة مجوس ومجوس امتي الذين يقولون لا قدر . إن مرضوا فلا تعودوهم وان ماتوا فلا تشهدوهم [4] » . وفي هذا الحديث تلمس الخصومة بين القدرية والجبرية . ولا مراء في انه موضوع لنصرة القدرية وتحقير شأن خصومهم .

٧ — حديث حمير — عن ابي هريرة كنت جالساً عند النبي (ص)

١ ابن عساكر ٢ — ٨٥
٢ ابن عساكر ٢ — ١٠٤
٣ تيسير الوصول ١ — ٣٢٢
٤ مسند أحمد ٢ — ٨٦

فجاء رجل فقال يا رسول الله إلعن حمير . فأعرض عنه . ثم جاءه من ناحية أخرى فأعرض عنه وهو يقول العن حميَر . فقال رسول الله رحم الله حِمير افواههم سلام ، وايديهم طعام ، اهل امن واعان [1] »

وهو يشعرنا بما كان بين اليمنية والمضرية من التنافس أيام الامويين ، والمعقول انه نشأ عن ذلك ووضع تعزيزاً لشأن اليمنية .

٨ — عن عبد الله بن عمر « قال رسول الله اطّلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الاغنياء والنساء [2] » .

وأكبر الظن انه من وضع بعض الزهاد .

٩ — عن عائشة قالت فزعت ذات ليلة وفقدت رسول الله فمددت يدي فوقعت على قدمي رسول الله وهما منتصبتان وهو ساجد وهو يقول اعوذ برضاك من سخطك واعوذ بمعافاتك من عقوبتك واعوذ بك منك لا احصي ثناء عليك . انت كما اثنيت على نفسك [3] والكلام في هذا الحديث اشبه بكلام المتصوّفة أو الزهاد في العصر العباسي المتأخر . ولسنا نرى في كلام النبي والصحابة ما يماثل العياذ برضى الله من سخطه وبمعافاته من عقوبته وبه منه الخ .

١٠ — عن مكحول قال رسول الله (ص) « من اقتراب الساعة إذا رأيتم الناس أضاعوا الصلاة واضاعوا الامانة واستحلوا الكبائر واكلوا الربا وأخذوا الرشا وشيدوا البنى واتبعوا الهوى وباعوا الدين بالدنيا واتخذوا القرآن مزامير واتخذوا جلود السباع صفافا والمساجد طرقاً والحرير لباساً وكثر الجور وفشا الزنا وتهاونوا بالطلاق (.. إلى ان يقول) : وامراء فجرة ووزراء كذبة ، وامناء خونة ، وعرفاء ظلمة ، وقلت العلماء ،

---

١ مسند احمد ٢ — ٢٧٨

٢ المسند ٢ — ١٧٣

٣ المسند ٦ — ٥٨ والموطأ ١٦٧

وكثرت القراء ، وقلت الفقهاء الخ الحديث ، وهو حديث طويل [1] وكله على هذا النسق من الترادفات المتزنة والمعاني المكررة مما يستبعد ان يكون لعهد النبي فضلاً عما في الحديث من أوضاع متأخرة كالعلماء والفقهاء والوزراء مما يحمل العقل على رفضه مهما كان اسناده . وقس على هذه الاحاديث القليلة الوفاً مثلها .

تطبيقها على بعض احاديث الصحيحين

أجمع العلماء على ان أصح الاحاديث ما اتفق عليه البخاري ومسلم ، ثم ما انفرد به البخاري ثم مسلم ، ويلي الصحيحين الموطأ (لمالك ١٧٩هـ) وسنن ابي داود (٢٧٥ هـ) فجامع الترمذي (٢٧٩) فسنن ابن ماجه (٣٠٣) وسنن النسائي (٢٨٣) .

فمعولنا اذن في درس الحديث وتطبيق احكام النقد عليه كوثيقة نثرية إنما هو فيما اتفق عليه الصحيحان . ذلك هو الاساس الذي يجب ان يبنى عليه التجريح توصلاً إلى الحقيقة أو ما يدانيها . فانه مع كل ما طرح العلماء من الاحاديث ومع كل ما لا يزال في الصحيحين مما يمكن الاغضاء عنه أو الشك فيه ، لا نرى محيصاً عن القول ان طائفة من الاحاديث صحيحة ان لم يكن بنصها الحرفي ففي معناها ومبناها . إذ لا يعقل اجماع جمهرة العلماء على ما ليس له أصل البتة واعتباره أساساً لسنتهم واحكامهم . ويميل بنا إلى هذا القول ما نلاحظه في اخبار رواة الحديث من ان التدوين كان معروفاً عند المحدثين الاول بل عند الصحابة أنفسهم . فقد نقل عن ابي بكر قول عائشة جمع ابي الحديث عن رسول الله (ص) وكانت خمسمائة حديث ، فبات ليلته يتقلب كثيراً ،

---

١ راجع كنز العمال فصل الاشراط الصغرى للقيامة .

قالت فغمني ، فقلت أتتقلبَ لشكوى أو لشيء بلغك . فلما أصبح قال اي بنية هلمي الاحاديث التي عندك فدعا بنار فاحرقها الخ الحديث [1]
وعن الزهري وهو من أهل القرن الاول قال ابو الزناد كنا نطوف مع الزهري على العلماء ومعه الالواح والصحف يكتب كلما سمع [2] .
وقد نقل ابن سعد في طبقاته عن صالح بن كيسان ان الزهري كان يكتب السنن [3] . وروي عن أبي هريرة قوله « ما اجد من أصحاب رسول الله أكثر حديثاً مني إلاّ ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب . وقال عبد الله كنت أكتب كل شيء اسمعه من رسول الله (ص) اريد حفظه [4] . وكان يسمي صحيفته الصادقة [5] .

وإذا قيل ان هذه الصحف الأولى فقدت فلا يمكن التثبت منها وانّ المحدثين نقلوا عنها قلنا ذلك صحيح ، ولكننا إذا قرنّا ما روي لنا من تدوين الحديث أو بعضه بما ثبت لدينا من قِدم التدوين — تدوين القرآن مثلاً — كان من المعقول ان نميل إلى تصديق ما رووه من ذلك (وان نعتقد ان بعض ما وصل إلى العصر الاموي فالعباسي منقول عن أصول قديمة فقدت مع الزمان) . ولما كان الوصول إلى هذه الاصول القديمة متعذراً علينا عن سبيل اثبات النصوص ، فانه لا بد لنا من اعتماد الاستدلال العقلي في الحصول على نموذج من الحديث يصحّ لنا ان نقول انه يرجع حقاً إلى العهد النبوي . وطريقتنا في ذلك ان نختار من المتفق عليه في الصحيحين طائفة من الاحاديث التي يجب على مؤرخ الادب التحرّج في اعتمادها (لاسباب سنبينها) ، ثم نختار طائفة أخرى مما لا نرى بأساً في قبوله فنتذرّع بذلك إلى رسم تلك الدائرة الضيقة التي سبقت

١ تذكرة الحفاظ ١ — ٥
٢ تذكرة الحفاظ ١ — ٩٦
٣ الطبقات ج ٢ قسم ٢ ص ١٣٥
٤ تذكرة الحفاظ ١ — ٣٦
٥ طبقات ابن سعد ج ٢ ق ٢ ص ١٢٥

الاشارة اليها ، لنحصر فيها ما يجوز ان نعده وثيقة نثرية أو نموذجاً انشائياً للعهد الذي نؤرخه . ونكرر اننا لا نقصد بهذا التحرّج الزائد تضعيف ما ورد في الصحيحين . فهو باجماع العلماء كما ذكرنا آنفاً أصح ما يعتمد عليه بعد القرآن في درس السنّة ، وإنما غرضنا ان نقيّد أنفسنا حتى لا نخرج عن الراهن الراهن ، أو حتى نصل إلى الأسّ الصخري الراسخ الذي يصحّ أن نبني عليه احكاماً معقولة . ولو كانت غايتنا الرئيسية دراسة الحديث ونقده لعمدنا فيما يلي إلى التبسط في ذكر الاسباب السياسية والمذهبية واللغوية والعقلية والتاريخية واتينا بالشواهد العديدة على كل منها . ولكن ذلك يخرجنا عن سبيلنا العام وهو النظر في الحديث من حيث هو وثيقة نثرية . فنكتفي هنا بعرض بعض الامثلة على ما يجوز وما لا يجوز اعتباره كذلك ليقيس عليها الباحث ما شاء — واليك أمثلة مما يجب عند النقادين المتحرّجين الاغضاء عنه وان صحّ اسناده :

١ — اتاكم أهل اليمن هم ارقّ افئدةً والين قلوباً . الايمان يمان والحكمة يمانية ، والفخر والخيلاء في اصحاب الابل ، والسكينة والوقار في اهل الغنم .

٢ — الايمان يمان . ألا ان القسوة وغلظ القلوب في الفدّادين عند اصول اذناب الابل حيث يطلع قرنا الشيطان في ربيعة ومضر [١]

وهذان الحديثان يشعران بما كان بين اليمنية والمضرية من النزاع ، فليس من الغريب ان يروّجهما ويروج امثالهما أهل العصبية اليمنية اظهاراً لفضلهم وحطاً من شأن خصومهم . وفي الاحاديث كثير مما يرجع إلى خصومة سياسية أو عصبية بدوية .

٣ — « اتدرون ما هذان الكتابان — هذا كتاب من رب العالمين فيه اسماء اهل الجنة واسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا

١ البخاري ومسلم باب الايمان . ويقصد بالفدادين طائفة الجمالين والبقارين والرعيان الخ · بخ ٥ — ١١٤

يزاد فيهم ولا ينقص منهم أبداً . هذا كتاب رب العالمين فيه أسماء أهل النار واسماء آبائهم وقبائلهم ، ثم أجمل على آخرهم فلا يزاد فيهم ولا ينقص منهم ابداً . سدّدوا وقاربوا فان صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة وان عمل ايّ عمل وانّ صاحب النار يختم له بعمل أهل النار وان عمل ايّ عمل . فرغ ربكم من العباد . فريق في الجنة وفريق في السعير [1] » . وامثال هذا الحديث كثيرة وكلها تشير إلى النزاع بين الجبرية والقدرية . وهذا الحديث مرويّ لنصرة الجبرية التي كانت تقول بأن كل شيء مقدر على الانسان . وقد تعالوا في ذلك وراحوا يدعمون قولهم باحاديث يرفعونها إلى النبي كالحديث التالي [2] : « احتجّ آدم وموسى فقال موسى انت آدم الذي خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته واسكنك جنته ، اخرجت الناس من الجنة بذنبهم واشقيتهم . فقال آدم يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه وانزل عليك التوراة ، اتلومني على أمر كتبه الله عليّ قبل ان يخلقني فحجّ آدم موسى

٤ ـ « إذا أتيت مضجعك فتوضّأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقّك الايمن ثم قل اللهمّ اسلمت وجهي اليك ، وفوّضت امري اليك، والجأت ظهري اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا اليك . آمنت بكتابك الذي انزلت ونبيك الذي ارسلت ؛ فان متّ من ليلتك فانت على الفطرة واجعلهنّ آخر ما تتكلم به [3] »

ويتراءى للناظر في لغة هذا الحديث واسلوبه انه بعيد عن المعهود من لغة النبي في رسائله حيث يتجلى الايجاز والبساطة والمتانة . والاشبه أن يكون من قول بعض الزهاد في عصر متأخر فان هذه التكرارات

---

١ بخاري باب الايمان والادب . ومسلم باب الايمان والتوبة .

٢ زاد المسلم ١ – ٩

٣ البخاري ومسلم عن البراء – زاد المسلم ١ – ١١

التي نراها فيه تكثر في كلامهم وقلما نراها في نثر الصدر الاول . وعلى نمطه الحديث التالي[1] :

« اللهم اجعل في قلبي نورا وفي لساني نورا وفي بصري نورا وفي سمعي نورا ، وعن يميني نورا وعن يساري نورا ، ومن فوقي نورا ومن تحتي نورا ومن امامي نورا ومن خلفي نورا ، واجعل لي في نفسي نورا وأعظم لي نورا »

٥ — « أرسل ملك الموت إلى موسى فلما جاءه صكّه ففقأ عينه . فرجع إلى ربه فقال ارسلتني إلى عبد لا يريد الموت . فردّ الله اليه عينه وقال ارجع اليه وقل له يضع يده على متن ثور ، فله بما غطّت يده بكلّ شعرة سنة . قال اي ربّ ثم ماذا ؟ قال ثم الموت قال فالآن . فسأل الله ان يدنيه من الارض المقدسة رمية بحجر فلو كنتُ ثمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الاحمر[2] » .

ويلوح في هذا الحديث خيال القصة . فهو شبيه بأقوال بعض القصّاصين الذين كانوا يحدّثون الناس بامور الدين ويقصون لهم القصص المنزلة وسواها ، وإلى خيال القصّاصين يستطيع المشككون المتحرّجون ان يرجعوا كثيراً من الاحاديث ، كالذي رواه الامامان عن ابي هريرة عن النبي قال[3] : « اسرف رجل على نفسه فلما حضره الموت أوصى بنيه فقال إذا متّ فأحرقوني ثم اسحقوني ثم اذروني في البحر ، فوالله لأن قدر عليّ ربي ليعذبني عذاباً ما عذّبه احداً ففعلوا ذلك به . فقال الله للارض أدّي ما أخذتِ ، فاذا هو قائم فقال ما حملك على ما صنعت . قال خشيتك يا رب . فغفر له بذلك » .

---

١ البخاري ومسلم عن ابن عباس — زاد المسلم ١ — ٣٤

٢ البخاري ومسلم عن ابي هريرة — زاد المسلم ١ — ٢٧

٣ زاد المسلم ١ — ٢٩

راجع أيضاً من أمثال هذه الأحاديث حديث الابرص والاقرع والأعمى وهو طويل [1]

٦ — « ان الله تعالى لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد. ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يُبق عالماً اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا فافتوا بغير علم فضلّوا واضلوا [2] » .

والمتأمل يرى ان طبقة العلماء والمفتين لم تتعين ايام النبي فمن المستبعد ان يشير اليها في حديثه ، ويميل بالمتحرّج الشكّ إلى ان صاحب هذا الحديث أحد الفقهاء وضعه لتعظيم شأن العلم وعلماء الدين .

٧ — حديث الشفاعة رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة [3] ، اوله : « انا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون ممّ ذلك . يجمع الله الاولين والآخرين في صعيد واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس منهم فيبلغ الناس من الهم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول بعض الناس لبعض الا ترَون ما قد بلغكم ،الا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟ فيقول بعض الناس لبعض ائتوا آدم (او عليكم بآدم) الخ » وهو طويل . وخلاصته ان الناس يستشفعون بآدم ثم بنوح فابراهيم فموسى فعيسى ، فيقول كلّ منهم « ان ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله » ثم يذكر معاصيه . حتى إذا جاءوا النبي انطلق بهم إلى العرش فيقال له ارفع رأسك سل تعطَ واشفع تشفّع ، فيشفع بامته فيدخلهم الله الجنة » . والحديث طريف ولكن النقد الحديث يرى خطأ أو صواباً وضعه في باب الدعايات الشخصية .

٨ — « آية المنافق بغض الانصار وآية المؤمن حبّ الانصار [4] » وهو من المتفق عليه في الصحيحين . والاغضاء عن مثله اسلم لما فيه من

---

١ البخاري كتاب بدء الخلق في باب ما ذكر عن بني اسرائيل — ومسلم في كتاب الزهد .

٢ زاد المسلم ١ — ٤٢

٣ البخاري — فتن . ومسلم — فضائل النبي .

٤ تجد الحديثين في البخاري ومسلم — ايمان .

ميول حزبية ظاهرة .

٩ — « قمت على باب الجنة فاذا عامة من دخلها المساكين ، وإذا أصحاب الجدّ محبوسون الاّ أصحاب النار ، فقد أُمر بهم إلى النار . وقمت على باب النار فاذا عامة من دخلها النساء [١] » .

وهو شديد الشبه بأقوال بعض الزهاد المتنسكين في العصر العباسي ، وقد طما سيل الترف على الناس في بغداد لكثرة الاموال واسباب الرفاه .

١٠ — « لو كان الايمان عند الثريا لناله رجال من هؤلاء » (يعني فارس) [٢] والدعاية الشعوبية في هذا الحديث ظاهرة .

١١ — « خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة احدهم يمينه ويمينه شهادته [٣] » (أي يروجون شهادتهم بالكذب لقلة مبالاتهم بالدين) .

وهذا إخبار بالغيب وضع على ما يظهر تعظيماً لشأن الصحابة والتابعين ، ومع موافقته للواقع فانه لا يتخذ حجة أو وثيقة نثرية ، إذ المعقول انه متأخر عن ذلك العهد .

١٢ — « لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي منهم اثنان [٤] » وهو من قبيل الدعوة لقريش ولعله نشأ على اثر حركة الخوارج في العصر الاموي أو ما بعده .

ولو دققنا النظر في سائر ما ورد في الصحيحين لرأينا كثيراً من الاحاديث التي مع صحة اسنادها يجمل بمؤرخ الآداب عدم اعتمادها في تقرير ما كان عليه النثر أيام النبي . ومن ذلك كتاب فضائل الانبياء

---

١ البخاري كتاب النكاح ، ومسلم كتاب الرقاق .

٢ البخاري في أول تفسير سورة الجمعة ، مسلم في آخر كتاب فضائل الصحابة .

٣ البخاري كتاب الشهادات ، مسلم فضائل الصحابة .

٤ البخاري أحكام ، مسلم امارة .

والصحابة ومناقب قريش والمدن المقدسة وتفسير الآيات وأحاديث الجن واستماعهم للقرآن وما قالوا وما فعلوا ، وحديث القرآن وداود وما إلى ذلك مما قد لا يستسيغه النقد الدقيق . ففي أمثالها ما يحمل المحقق على اخراجها من الحلقة الضيقة التي يجب أن يرسمها لنفسه (وان يكن في ذلك الاخراج شيء من الخطأ أو التطرف .) ونظيرها الامثال والقصص المماثلة لما هو في التوراة أو الانجيل ، كحديث «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب ارضاً الخ [1]» . فهو شبيه بمثل الزارع الذي روي في الانجيل . وعلى نمطه حديث سارة والجبار [2] ، وحديث المسلمين واليهود والنصارى وان مثلهم مثل رجل استأجر قوماً يعملون له [3] الخ .. فهو اشبه بمثل الكرم والفعلة في حديث المسيح . وحديث النبي الذي غزا ووقف الشمس [4] . وهذه الاحاديث قد تكون صحيحة ولكن لا بأس على طريقة التحرج العلمي من ان نضعها خارج الحلقة المنشودة .

على ان من الاحاديث ما قد لا تنكر صحته أو ما يجوز قبوله انموذجاً نثرياً . وها نحن نعرض بعضه هنا ليقاس عليه .

احاديث يجوز لمؤرخ الادب قبولها او قبول امثالها

وهي التي صح اسنادها وليس مما يدعو خاصة إلى تجريحها أو رفضها ، وقد اعتمدنا في نقلها كتاب «زاد المسلم فيما اتفق عليه

---

١ راجع نصه في التجريد الصريح للزبيدي ١ — ١٩
٢ » » » » » ١ — ١٧٢
٣ » » » » » ١ — ١٧٥
٤ » » » » » ٢ — ٢٥

البخاري ومسلم » .

١ — « أظنكم قد سمعتم ان ابا عبيدة قدم بشيء من البحرين فابشروا واملوا ما يسرّكم . فوالله ما الفقر اخشى عليكم ولكن أخشى عليكم ان تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما اهلكتهم [1] » .

هذا الحديث يشير إلى حادثة تاريخية وليس فيه ما يدفعنا إلى الشك ، فان النبي شعر بشيء من الطمع في نفوس البعض ، وهو طبيعي في مثل هذه الحال كما انه من الطبيعي ان يعظهم بما وعظهم به :

٢ — « ان من الشعر حكمة » [2] . عُرف عن النبي انه وقف من شعراء العرب وقفة الخصم . وقد نقلوا له في ذلك الحديث « لأن يمتلئ جوف رجل قيحاً يَريه خير له من ان يمتلئ شعراً [3] » . على انه اثنى على حسان وأقرانه . فمن المعقول في مثل هذين الموقفين المختلفين ان نرى له مثل هذا الكلام الناصح تبريراً لموقفه الثاني .

٣ — « أيها الناس لا تتمنّوا لقاءَ العدوّ واسألوا الله العافية ، فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف . اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الاحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم [4] » .

ويتراءى لنا ان هذا الحديث قيل في المدينة يوم لم يكن قد بلغ الاسلام ما بلغه بعدئذ من القوة والشأن . فالنبي يدعو المسلمين إلى عدم التعدي ولكنه يخشى لقاءَ العدو إياهم فيدعو الله أن ينصرهم ويهزم أعداءَهم .

٤ — « لأنْ يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع

١ زاد المسلم ١ — ٣١
٢ زاد المسلم ١ — ٦٣
٣ زاد المسلم ٢ — ٥٥
٤ زاد المسلم ١ — ٩٥

فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس [١] »

٥ — « ليِنصر الرجل اخاه ظالماً أو مظلوماً . ان كان ظالماً فلينهه فانه له نصر ، وان كان مظلوماً فلينصره [٢] » . وهو يدلّ على روح الاخوّة الشديدة في الاسلام . وهذا النصر في كلتا الحالتين ضروري في مثل الظروف التي كان فيها الاسلام أيام النبي :

٦ — « ما أصاب بحدّه فكلْه وما اصاب بعَرْضه فهو وقيذ [٣] » والهاء في حدّه راجعة إلى المِعراض وهو خشبة ثقيلة أو عصا في طرفها حديدة . والمراد ما اصبته من صيد بحدّه جاز لك اكله لأنه كالمذبوح ، واما ان قتلته بصفحته فهو ميت لا يجوز أكله . وهذا الحديث تفسير طبيعي لبعض نواهي الدين :

٧ — « ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول هذا لك وهذا لي [٤] . فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيُهدى له ام لا . والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلاّ جاءَ به يوم القيامة يحمله على رقبته ، ان كان بعيراً له رغاءٌ أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر [٥] . (ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي ابطيه) . ألا هل بلغت ثلاثاً [٦] » .

والظاهر ان بعض العمال كانوا أيام النبي يطمعون بما يجيئهم من هدايا ورأى النبي ان هدية العامل حرام . والاشارة كما في الصحيحين إلى رجل من بني اسد كان النبي قد استعمله على صدقة .

٨ — « ما حديث بلغني عنكم » ؟ (اي الانصار) . فقال فقهاء الانصار أما روساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً ، واما ناس منا

---

١ زاد المسلم ٢ — ٥٢

٢ زاد المسلم ٢ — ٢٤٢

٣ زاد المسلم ٣ — ١٧

٤ هذا لك أي هذا من مال الجباية وهذا لي أي هذا أهدي لي .

٥ تيعر أي تصوت صوتاً شديداً . بخ ٧ — ٢٠٤

٦ زاد المسلم ٣ — ٣٥

حديثة اسنانهم فقالوا يغفر الله لرسول الله يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم . فقال النبي : «فاني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر اتألفهم . أما ترضون ان يذهب الناس بالاموال وتذهبون بالنبي . إلى رحالكم ! فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به » . قالوا يا رسول الله قد رضينا ، فقال لهم النبي : «ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله فاني على الحوض » [1] . وهذا الحديث يشير إلى ما جرى في غزوة حنين من كسر هوازن وما افاء الله على المسلمين من أموالهم . والظاهر ان قريشاً نالت أكثر تلك الاموال فتجهم الانصار لذلك حتى كان ما كان من هذا الحديث .

٩ — «ما يكن عندي من خير فلن ادخره عنكم . ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبره الله . وما أعطي احد عطاء خيراً واوسع من الصبر [2]»

١٠ — «ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس [3] »

والاشارة إلى يوم الاحزاب وقد شغله كفارهم بالحرب عن الصلاة ه

١١ — «ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني في ان ينكحوا ابنتهم علي ابن ابي طالب . فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن ، الا ان يريد ابن ابي طالب ان يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فانما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما آذاها [4]»

وأكثر هذه الاحاديث التي ذكرناها في هذا الباب مما له علاقة طبيعية بدعوة النبي . فهي تعكس لنا ما كان يجري بينه وبين رجاله ،

---

١ زاد المسلم ٣ — ٥٩ راجع الحديث في ببخ ٥ — ٩٨
٢ زاد المسلم ٣ — ١٣٩
٣ زاد المسلم ٣ — ١٧٧
٤ زاد المسلم ١ — ٥١

أو بينه وبين خصومه دون أن يتكلف فيها الدعاية أو التحيز ؛

ومن الاحاديث المقبولة كثير من الحكم وجوامع الكلام ولا سيما المبنيّ منها على الحياة العادية في ذلك العهد كقوله :

— لا يؤمن الذي لا يأمن جاره بوائقه (بخ ادب ، مسلم ايمان) ؛

— اياكم والجلوس على الطرقات فان أبيتم الا المجالس فاعطوا الطريق حقها ، غضّ البصر ، وكفّ الاذى ، وردّ السلام ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر (بخ مظالم ، مسلم اللباس) .

— بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق ، فأخّره فشكر الله له ، فغفر له (بخ مظالم ، مسلم البر) .

— حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره (بخ الرقاق ، مسلم بالجنة).

— الحرب خدعة (بخ جهاد ، مسلم فضائل) .

— الظلم ظلمات يوم القيامة (بخ مظالم ، مسلم البر والصلة).

— ليس الشديد بالصُّرَعة (أي الكثير الصرع للناس) انما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب (بخ ادب ، مسلم البر).

— ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورّثه (بخ ادب ، مسلم) .

— مطل الغنيّ ظلم فاذا أتبع احدكم على مليٍّ فليتبع (بخ حوالات ، مسلم بيوع) .

— ان الله تعالى ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته (زاد المسلم ١ — ٤١).

— اني لم اؤمر ان انقب قلوب الناس أو اشق بطونهم — قاله النبي جواباً عن قول خالد بن الوليد له كم من مصلٍّ يقول بلسانه ما ليس في قلبه .(راجع بخ ٥ — ١٠٤)

— إنما الطاعة في المعروف (زاد المسلم ١ — ٦٧) ؛

— إنما اهلك الله الذين من قبلكم انهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ (بخ ومسلم ، كتاب الحدود)

الخلاصة

قال صاحب زاد المسلم في أول صفحة من كتابه « عدد أحاديث هذا الكتاب ألف ومائة حديث متصلة الاسناد اتفق عليها البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وبهذين الشرطين كان تأليفي هذا هو أصح كتاب في الحديث » وقد اتخذنا هذه الألف ومائة حديث أساساً لبحثنا عن الاسلوب النثري في أدب الحديث وطبّقنا عليها ما ذكرناه آنفاً من أحكام التجريح فخلص لنا جملة من النصوص يصح ان يقال فيها انها إما أصلية لا تبديل فيها ، أو قريبة من الاصلية ، فاذا بالغنا في الغربلة والنخل ، ثم تحرّينا الخلاصة الصافية من كل ذلك ، تبين لنا ان اسلوبها يطابق ما ذكرناه وما سنذكره أيضاً في الكلام عن نثر صدر الاسلام ، وتبرز فيها مزاياه العامة وهي :

البساطة — أو البعد عن تكلف السجع والبديع [1]

الايجاز — أو حبك الكلام حبكاً يقل فيه الحشو والزوائد .

التلميح — وهو الاشارة إلى المعنى دون التبسط في ايضاحه .

فما ذكرناه عن اسلوب الرسائل النبوية يصدق على الحديث أيضاً ، ولا بدع فانهما يجريان من مَعين واحد هو لغة التخاطب التي كانت شائعة في العهد النبوي . ولما كانت لغة الحديث لا تخرج عن الاسلوب العام السائد في القرن الأول ، فاننا تجنباً للتكرار سنرجئ البحث في ذلك إلى الفصل التالي .

---

١ قال ابن عباس : « اياك والسجع في الدعاء فاني شهدت النبي وأصحابه لا يفعلون ذلك » — نهاية الارب ٥ — ٢٨٥

الأمثال القديمة ولغتها

نقل عن العرب الاقدمين في الجاهلية وصدر الاسلام كثير من الحكم والامثال . وقد ذهبوا إلى أن هذه الامثال تنقل بالحكاية ، أي انها كما قال أبو هلال العسكري ، تضرب على ما جاءت من العرب لا تغيّر صيغتها فتقول للرجل « الصيفَ ضيّعتِ اللبن » وهو في الاصل خطاب لامرأة ولكنهم ابقوه على حكايته [1] . وقال جلال الدين السيوطي ان العرب كانت تجري الامثال على ما جاءت ولا تجري بها الاعراب [2] (وان كانت ملحونة) .

ولقد يخيّل الينا إذا استعرضنا جميع الامثال القديمة ونظرنا في اسلوبها ولغتها انه لا مناص لنا من القول باحد أمرين — ١ً . اما ان لغة العرب التي رويت لهم الامثال كانت عادة صحيحة وانها تمثل اسلوب التخاطب العادي عندهم — ٢ً . واما ان الرواة هذّبوا هذه الامثال القديمة وأقاموا أودها الاعرابي فوصلتنا لا كما نطق بها الاقدمون تماماً ولكن كما هذبها الرواة . على ان هناك سبيلاً آخر نستطيع سلوكه فنقول ان هذه الامثال

---

١ راجع مقدمة كلامه في كتابه جمهرة الامثال على حاشية مجمع الامثال الميداني ص ٥ المطبعة الخيرية ١٣١٠

٢ المزهر ١ — ٢٣٥

ترجع عموماً إلى ثلاثة مصادر رئيسية :

(١)— الشعر القديم (٢) الانشاء العالي (٣) لغة العامة ؛

فمن أمثلة الشعر القديم :

ان الحديد بالحديد يفلح — وهو من باب الرجز ؛

ايّ الرجال المهذّب — وهو جزء من بيت للنابغة يقول فيه :

ولست بمستبق أخـاً لا تلمّـه على شعث ، اي الرجال المهذّب

خلا لك الجوّ فبيضي واصفري — وهو من شعر لطرفة اوله :

يا لك من قبّرة بمعمر

رضيت من الغنيمة بالاياب — من بيت لامرئ القيس وهو .

وقد طوّفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

الشرّ أخبث ما اوعيت من زاد — من بيت اوله :

الخير يبقى وان طال الزمان به

وعند جهينة الخبر اليقين — من بيت أوله :

تساءل عن حصين كل ركب

عند النطاح يغلب الكبش الاجمّ — من الرجز القديم

عُشَيْشَةٌ تقرم جلداً املسا — من الرجز القديم

نفس عصام سوّدت عصاما — من الرجز القديم

البس لكل حـالة لبوسها — من الرجز القديم

وقس على ذلك عدداً وافراً من الامثال ؛

• • •

ومن باب الانشاء العالي كل ما ورد من أمثال القرآن والحديث النبوي ومـا نقل عن ألسنة الخطباء والحكماء ، وهو مشهور متداول ، وما روي باسلوب انشائي فني وان لم يعرف قائله كقولهم — عيصك منك وان كان أشبا — أي منك أصلك . وان كان اقاربك على خلاف ما تريد فلا بدّ لك من الصبر عليهم .

وقولهم : ربّ عجلة تَهب ريثا ، وربّ فَروقة يدعَى ليثا — قيل قاله مالك بن عمرو الشيباني (عن الضبي ٦١)

وقولهم — عرض عليّ الامر سَومَ عالّة — أي عرضاً ضعيفاً كما يعرض الماء على الابل التي نهلت وعلّت (عن الميداني ١ — ٣٠٩)

وقولهم : أطرِق كرا ان النعامة في القرى (ميداني ١ — ٢٩٣) ، والكرا ترخيم كروان وهو طائر معروف ويضرب لمن لا غناء عنده ويتكلم .

وقولهم : سُقوا بكأسِ حلاق — وحلاق اسم للمنية اي استؤصلوا بالموت (ميداني ١ — ٢٣١)

وقولهم : دع المعاجيل لِطملٍ أرَجل — المعاجيل الطرق المختصرة والطمل اللص الخبيث والارجل الصلب . أي تباعد عن مواضع التهــم لاصحابها (ميداني ١ — ١٨٢)

وقولهم : قتلُ ما نفسٍ مخيّرها — يضرب في الشره والجشع .

وقولهم : المرء توّاق إلى ما لم ينل (ميداني ٢ — ١٥٨)

فإذا تأملت هــذه الامثال ونظائرها وجدت فيها من اثر الصنعــة الكلامية مـا لا يصدر عـادة إلاّ عمن مارسوا فنّ الكلام وعرفوا مداخـله :

بقي ما نقل لنا من أقوال العامة وهو جزء ليس بيسير ولا نستطيع تحرّيه بالضبط لأن منه ما هذّب مع الزمان فأصبح من الانشاء العالي ، ولعلنا نتبينه في مثل الامثلة التالية :

شُخب في الاناء وشُخب في الارض — (ميداني ١ — ٢٤٣) لمن يخطئ مرة ويصيب أخرى .

صنَعه من طَبّ لمن حَبّ — (اشهر الامثال ٣٥) أي صنعة حاذق لمن يحب ، يضرب في التنوق في الحاجة واحتمال التعب فيها .

مالي سارحة ولا رائحة (اشهر الامثال ٦٥) أي ما له شيء .

زوج من عُود خير منَ قعود — (الميداني)

كالمختنقة على آخر طحينها — (الميداني)

تسمع بالمُعَيدي خير من أن تراه (الضبي ٩) يضرب لمن خبره خير من مرآه ، والمعيدي اسم مغنٍ قبيح المنظر .

بقل شهر وشوك دهر — (الميداني ١ — ٦٥) لمن يقصر خيره ويطول شرّه .

برّزْ نارك وان هزلتَ فارك — (الميداني ١ — ٦٧) اي آثر الضيف بما عندك وان نهكت جسمك أو افتقرت .

سر الناس من ملحه على ركبته — (ميداني ١ — ٢٥٠) يضرب للتزيق السريع

قرّب الحمار من الردهة ولا تقل له سأ — (ميداني ٢ — ٢٧) ، الردهة مستنقع الماء ، وسأسأت بالحمار إذا دعوته ليشرب — اترك الامر لعارفه .

كل كلب ببابه نبّاح — (ميداني ٢ — ٥٤) وهو مفهوم .

لولا الحَسّ ما باليت بالدسّ — (ميداني ٢ — ١٠٧) عن لسان الخبزة — الحسّ ان يردّ النار عليها بالعصي لتنضج . ويضرب لمن تكرر عليه البلاء .

لا ينبت البقلة إلا الحقلة — (ميداني ٢ — ١٢٠) يضرب للكلمة الخسيسة من الرجل الخسيس .

فهذه الامثال ونظائرها أقرب إلى أوضاع العامة وليس فيها من آثار الصنعة اللغوية والانشائية ما نراه للتي مرّ الكلام عليها . على اننا نتعرّف منها اسلوب كلامهم في المحادثة . وعند التدقيق لا نراه بعيداً عن الاوضاع النثرية التي نشأت في الاوساط الادبية . ولا ينكر انه كان هناك لغة عامية ينطق بها الناس في حياتهم العادية ، ولكنها لم تكن بعيدة عن اللغة الفصحى بعدها اليوم أو بعدها بعد ان اختلط العرب

بالأعاجم بعد خروجهم من الجزيرة العربية وانسياحهم في البلاد ، وبعد ان أصبحت العربية لغة الأمم المغلوبة .

ولما كان غرضنا الرئيسي هنا البحث في منشأ النثر وتطوّره وعلاقة المثل به كان لا بدّ لنا من النظر في الامثال الفصيحة ولغتها ، لانها أو لأن قسماً منها راجع إلى العهود الاولى . ودليلنا على ذلك ما يلي :

١ – إن بعض هذه الامثال مما اقتبسه أو فاه به الخطباء والشعراء في القرن الاول ، كقول الحجاج في خطبته المشهورة (بالكوفة) هذا أوان الشد فاشتدّي زيم . يضرب لمن يؤمر بالجدّ في أمره [١]

وقول الكميت :

قالوا اساء بنو كُرز فقلت لهم   عسى الغُوَير بابآس واغوار

وفيه اشارة إلى المثل عسى الغوير ابؤساً – قال الاصمعي اصله انه كان غارٌ فيه ناس فانهار عليهم فصار مثلاً لكل شيء يخاف ان يأتي منه شرٌ [٢] .

وقول كعب :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً   وما مواعيدها الا الاباطيلُ

فهو يشير إلى المثل : امطل من عرقوب .

وقول الشاعر في مروان بن الحكم :

لحا الله قوماً ملّكوا خيط باطل   على الناس يعطي من يشاء ويمنع

وفيه إشارة إلى المثل : ادقّ من خيط باطل [٣]

وقال ابو الاسود الدؤلي :

وآليت لا أسعى إلى ربّ لقحة   اساومه حتى يؤوب المتلمِّسُ

---

١ اشهر الامثال ٧٠

٢ اشهر الامثال ٧٠

٣ الميداني ١ – ١٨٣

اشارة إلى مثل من أمثال أهل البصرة . والمثلّم رجل قتله الخوارج [1]
وقال الفرزدق :

وكنا كأصحاب ابن مامة إذ سقى اخا النمر العطشان يوم الفجاعم

يشير إلى حادثة كعب بن مامة واسقائه رجلاً من النّمر . والمثل الذي ضرب في ذلك اسق اخاك النمري يصطبح [2]

٢ — ان رواة هذه الامثال واهمهم المفضّل الضبي (المتوفى ١٦٨) وابو عبيدة (٢١١) والاصمعي (٢١٣) هم من رجال القرن الثاني للهجرة . وليس من الطبيعي ان يتصدّى جماعة لجمع الامثال أو لروايتها الاّ بعد ان تكون قد جرت على السنة الجمهور زمناً طويلاً ، حتّى آصبحت شائعة معروفة فليس من المجازفة ان نقول ان ما نقل لنا عن هؤلاء الرواة يرجع إلى القرن الهجري الاول ، وان بعضه اعرق من ذلك في القدم .

وهذه الامثال عادة قصيرة ، حسنة المبنى ، وفي سبكها ما يسهّل على الذاكرة حفظها وانتقالها من جيل إلى جيل ، على نحو كثير من الامثال العامية اليوم التي يرجع عهدها إلى أكثر من قرنين أو أكثر كقولنا : « راحت السكرة وأتت الفكرة » فانه مذكور في فاكهة الخلفاء لابن عربشاه من اهل القرن التاسع الهجري [3] . ولعله أقدم من ذلك .

٣ — انها ضربت لما له علاقة بحياة العرب القدماء وعاداتهم كقولهم :
تجاوزت شبيباً والاحصّ وهما ماءان لجساس [4]
احلْبتْ ناقتك ام اجلبت — أي انتجت اناثاً فتحلبها أم ذكوراً

---

١ الميداني ١ — ١٤٥
٢ الضبي ٦١
٣ فاكهة الخلفاء ص ٣٥
٤ الضبي ٥٦

فتجلبها للبيع [1] .

رحل ٌ يعض ُ غارباً مجروحاً — الغارب اعلى السنام يضرب لمن هو في ضيق فيلقي غيره عليه ثقله [2]

ضوارب ُ بُسّت ْ لعرف ٍ باليد — الضوارب النياق التي تضرب حالبها والعرف قروح تخرج باليد . أي نياق سيقت للذي قروح بيده ليحلبها ؛ يضرب لمن كلّف ما يعجز عنه [3] ؛

قُدّت ْ سيوره من اديمك — الاديم الجلد . يضرب للشيئين يستويان في الشبه .

كمستبضع التمر إلى هجر ّ — قال ابو عبيدة وهو من الامثال القديمة . وقد اقتبسه النابغة الجعدي فقال :

وان امرءاً اهدى اليك قصيدة كمستبضع تمراً إلى ارض خيبرا [4]

لا آتيك حتى يؤوب القارظان — وهما رجلان خرجا في طلب القرظ فلم يرجعا . قال ابو ذؤيب :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما ويُنشر في القتلى كليب بن وائل

عجعج لمّا عضّه الظّعان . عجعج اي صاح والظعان نسع يشد ّ به الهودج ، يضرب لمن يضجّ اذا لزمه الحق [5]

كَدادة ٌ تُعيي صليبَ الاصبع — الكدادة ما لزق باسفل القدر فلا تقدر الاصبع وان كانت صلبة ان تنزعه ، يضرب للبخيل الذي لا يستخرج منه شيء إلا ّ بكد ّ [6]

لا في العِير ولا َ في النَّفير — أول من قاله ابو سفيان ، يضرب لمن

---

١ الميداني ١ — ١٣٥
٢ الميداني ١ — ٢١٠
٣ الميداني ١ — ٢٨٦
٤ الميداني ٢ — ٦٦
٥ الميداني ١ — ٣٢١
٦ الميداني ٢ — ٧٥

يحطّ أمره ويصغر قدره [1] .

لا تشِمِ الغيث فقد اودى النقد – النقد صغار الغنم أي لا تطلب الغيث فقد هلك الغنم ، يضرب لمن حزن على ما فات [2]

لم يجد لمِسْحاته طيناً – يضرب لمن حيل بينه وبين مراده [3]

فهذه الأمثال وكثير غيرها نشأت في البادية أو في بيئة عربية قديمة ، وإذا اضفنا هذه الحقيقة إلى ما ذكرناه من ورود بعضها في أقوال الشعراء أو الخطباء من أهل القرن الاول ، ثم إلى قدمية رواتها وما يقتضيه سير المثل من الزمن ، ترجح لدينا صحة الكثير من هذه الامثال وانه يجوز اعتبارها وثائق نثرية يستنير بها مؤرخو الآداب .

ومن النظر فيها يتضح لنا ما يكاد يكون فطرياً في أمثال الامم جمعاء نعني : الاقتضاب وبعد الاشارة .

فجميعها من قبيل الكلام المخطوم الشديد الايجاز ، يكثر فيها الحذف والايماء وتتصف عموماً بمتانة السبك وجودة التقسيم ، مع الميل إلى النسق الانشائي العالي من تقديم القيود على المقيدات والمسند على المسند اليه . ومع انها ليست إلا فقرات قصيرة يصعب الحكم بها على النسق الانشائي في ذلك العهد فاننا نتعرف بها ما بلغته العربية منذ العهد النبوي أو ما قبله من التطور في بناء الجمل وتركيب الالفاظ ، ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد .

١ الميداني ٢ – ١١٥
٢ الميداني ٢ – ١٣١
٣ الميداني ٢ – ٩٨

المزايا الإنشائيّة العامّة في عصر الفتوح

تناولنا في الفصول السابقة ما رواه لنا الرواة من النثر في العهد النبوي ، وما قبله وحاولنا ان نتوصل عن طريق النقد والتجريح إلى ما يجوز اعتماده من تلك الروايات وما لا يجوز . وها نحن ننتقل الآن إلى ما نقلوه لنا من النصوص النثرية في عصر الفتوح . وليس هذا العصر من الوجهة الانشائية مستقلاً عما سبقه بل هما عند التحقيق عصر واحد — هو عصر صدر الاسلام — . ولهذا العصر طابع انشائي خاص عرف به في تاريخ الادب ، ولم يصبه على ما يظهر شيء من التطور إلاّ بعد أيام الوليد بن عبد الملك . قال القلقشندي : «ولم يزل امر المكاتبات في الدولة الاموية جارياً على سنن السلف إلى أن ولي الوليد بن عبدالملك، فجوّد القراطيس وجلّل الخطوط وفخم المكاتبات ، وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك ، إلاّ عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد . فانهما جريا في ذلك على طريق السلف . ثم جرى الامر من بعدهما على ما سنه الوليد إلى ان صار الامر إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم ، وكتب له عبد الحميد بن يحيى ، وكان من اللسن والبلاغة على ما اشتهر ذكره فأطال الكتب واطنب فيهما حيث اقتضى الحال تطويلها والاطناب فيها ، حتى يقال انه كتب كتاباً عن الخليفة وقر جمل ، واستمر ذلك

فيما بعده[1] :

فعبد الحميد إذن إمام طور جديد في الانشاء كان الوليد فاتحته . على ان هـذا الانتقال من طريقـة صدر الاسلام إلى طريقة عبد الحميد لم يكن فجائيـاً بل جرى على سَنن الطبيعة . وقـد ساعد على هـذا الانتقال تجويد القراطيس واتساع رقعـة المملكة وازدياد عمرانها، بعد ان مهد لها عبد الملك بن مروان ورجاله السبل إلى ذلك .

قلنا ان لهذا العصر طابعاً انشائياً خاصاً ، ولو اردنا ان نصفه بكلمة عامة لقلنا هو طابع « البساطة المحكمة » ومن مزاياها :

١ – الجزالة :

وهي كما قال ابن الاثير ان يكون الكلام متيناً على عذوبته في الفم ولذاذته في السمع [2] . وقد عبّر القلقشندي عن آراء الادباء في نثر صدر الاسلام فقال : « ولتحرّي الصدر الاول من الكتاب ايقاع المناسبة بين كتبهم وبين الاشياء المتقدمة الذكر (أي ما يقتضيه المقام من أحوال المخاطبين) استعمل كتاب الدولة الاموية من الالفاظ العربية الفحلة والمتينة الجزلة ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية ، لأن كتاب الدولة الامويـة قصدوا ما شاكل زمانهم الذي استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها حتى عدت في جملة الفضائل التي يثابر على اقتنائها ، والامكنة التي نزلهـا ملوكهم من بلاد العرب والرجال الذين كانت الكتب تصدر اليهم ، وهم اهل الفصاحة واللسن والخطابة والشعر [3] » . ومن امثلة جزالتهـم الخطابية ما نقله الجاحظ من حديث معاوية وابن الزبير واليك نصه [4]

١ صبح الاعشى ٦ – ٣٩١
٢ المثل السائر ١٠٠
٣ صبح الاعشى ٦ – ٢٩٧
٤ البيان والتبيين (س) ٢ – ٧٢

« ولما نازع ابن الزبير مروان عند معاوية قال ابن الزبير يا معاوية لا تدع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه [1] ويضرب صَفَاتهم بمعاوله . ولولا مكانك لكان اخف على رقابنا من فَراشة واقلّ في نفوسنا من خشاشة . ولئن ملك اعنّة خيل تنقاد له ليركبنّ منك طبقاً تخافسه . قال معاوية ان يطلب هذا الامر فقد طمع فيه من هو دونه [2] ، وان يتركه يتركه لمن هو فوقه [3] ، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله اليكم من لا يعطف عليكم بقرابة ولا يذكركم عند ملمة ، يسومكم خسفاً ويوردكم تلفاً . قال ابن الزبير والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرَجل الجراد ، حافاتها الاسل لها دوي كدويّ الريح ، تتبع غطريفاً [4] من قريش لم تكن امه براعية ثلة [5] . قال معاوية انا ابن هند اطلقت عقال الحرب فاكلت ذروة السنام وشربت عنفوان المكرع ، وليس للآكل الا الفلذة [6] ولا للشارب إلا الرّنَق [7]

وأمثال ذلك كثيرة في أقوالهم كما سنرى بعد .

٢ ـ علم التصنع الانشائي :

ذكر ابو هلال العسكري (المتوفى ٣٩٥ هـ) في كلامه على البديع خمسة وثلاثين باباً . ثم قال فهذه أنواع البديع التي ادّعى من لا روية له ولا رواية عنده ان المحدثين ابتكروها وان القدماء لم يعرفوها ،وذلك لما أراد ان يفخم امر المحدّثين . لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من

١ المشاقص النصال العريضة .
٢ يعرض بعبد الله بن الزبير .
٣ يريد يزيد بن معاوية .
٤ الغطريف السيد ويريد نفسه.
٥ يعرض بام مروان .
٦ القطعة من كبد البعير.
٧ الماء الكدر .

التكلف وبرئ من العيوب كان في غاية الحسن ونهاية الجودة [١] ». على ان دفاع العسكري عن القدماء (ومراده بذلك اهل الصدر الاول) لا يعني ان البديع كان عندهم طريقة فنية متبعة كما كان في زمانه وفيما تلاه من الازمنة . فان ما دوّن لنا من آثارهم الادبية – وان كان لا يخلو من كثير من أنواع البديع – لا ترى فيه ميلاً إلى تكلف ذلك ولا إلى الاكثار منه . ونظرة واحدة إلى خطب صدر الإسلام ورسائله ترينا الفرق العظيم الذي بينها وبين الخطب والرسائل في العصر العباسي ، ولا سيما القرون الاخيرة منه . وسترى ذلك في كثير من النصوص التي سننقلها لهم . ونجتزئ هنا على سبيل المثال بخطبة عُتبة بن ابي سفيان في مصر ، وكان قد غضب لامور بلغته عن أهلها فصعد المنبر مغضباً وقال [٢] :

« ايا حاملين ألأم أنوف ركّبت بين اعيُن ، انما قلّمت اظفاري عنكم ليلين مسّي اياكم ، وسألتكم صلاحاً لكم إذ كان فسادكم راجعاً عليكم . فاما إذ ابيتم الا الطعن في الولاة والتنقص للسلف ، فوالله لاقطعنّ على ظهوركم بطون السياط . فاذا حَسَمَتْ داءكم ، والا فالسيف من ورائكم . فكم من موعظة منا لكم مجّتها قلوبكم ، وزجرةٍ صمّت عنها آذانكم ، ولست ابخل عليكم بالعقوبة اذ جدتم لنا بالمعصية ، ولا أويسكم من مراجعة الحسنى ان صرتم إلى التي هي ابرّ واتقى » .

ففي هذه الخطبة شيء من البديع كقوله قلمت اظفاري عنكم ، ومجّتها قلوبكم ، والسيف من ورائكم . ولكنه بديع فطرى لم يتكلف اصطناعه الخطيب . واين هذا من صناعة المترسلين في ابان عهد السجع والبديع . وسترى ذلك في حينه .

---

١ الصناعتين ٢٠٥ والعقد ٢ – ١٩٣
٢ الامالي ١ – ٢٤٥

٣ ـ الايجاز :

سئل ابن المقفع ما البلاغة قال : « البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة » ـ وبعد ان يعدد تلك الوجوه ، يقول : « فعامة ما يكون من هذه الابواب الوحي فيها والاشارة إلى المعنى والايجاز هو البلاغة [١] » : وقال المبرد : « من كلام العرب الاختصار المفهم والاطناب المفخم وقد يقع الايماء إلى الشيء فيغني عند ذوي الالباب عن كشفه كما قيل لمحة دالة [٢] » . ولو لم يُقحم عبارته لفظة « الاطناب المفخم » لكان كلامه ادلّ على ما وصف به نثر ذلك العصر . ولعلماء البلاغة أقوال كثيرة يمدحون بها الايجاز والكلام الذي هو كالوحي والاشارة، ويتمثلون لذلك بما جاء من أقوال الصدر الاول . وقد اندفع بعض متحمسي النقاد إلى قرن الاكثار بضعف الخلق . ومما نقله الجاحظ عن العرب « وهم وان كانوا يحبون البيان والطلاقة ، والتحبير والبلاغة ، والتخلص والرشاقة فانهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر ، والتكلف والاسهاب والاكثار ، لما في ذلك من التزيد والمباهاه واتباع الهوى والمنافسة في العلو والقدر ، وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة ... ولقد دعا عبادة بن الصامت بالطعام بكلام ظن انه ترك فيه المحاسبة فقال اوس بن شداد انه قد ترك فيه المحاسبة ، فاسترجع ثم قال : « ما تكلمت بكلمة منذ بايعت رسول الله (ص) الا مزمومة مخطومة [٣] » . هذا الاسلوب الموجز المخطوم الالفاظ هو الذي عرف به نثر القرن الاول ، وأهم مزاياه :

١ ـ الاستغناء عن كل لفظة أو الفاظ لا تزيد المعنى وضوحاً أو تقريراً .

---

١ البيان والتبيين (١٣١١) ١ ـ ٤٩

٢ الكامل ١ ـ ١٧

٣ البيان والتبيين (١٣١١) ١ ـ ٧٩

٢ – الميل إلى التلميح دون التصريح وإلى التقدير والابهام دون الذكر والتفسير – الا إذا ادّى ذلك إلى الالتباس والتعمية .

٣ – قلة تفاريع الكلام وتجنب الاسهاب والتبسط في عرض الفكر :

وإيضاحاً لهذه المزايا التي تكوّن الطابع الانشائي في صدر الاسلام ، نثبت هنا بعض ما نقلته لنا كتب الادب من نثر ذلك العصر :

قام قتيبة بن مسلم خطيباً بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فقال [١] : « اتدرون من تبايعون ؟ تبايعون يزيد بن ثرْوان . كأني بكم وحَكَمٌ جائر قد اتاكم يحكم في أموالكم ودمائكم وأبشاركم » ثم قال : « الأعراب . ومن الأعراب ؟ جمعتكم كما يجمع قزع الخريف من منابت الشيح والقيصوم والفلفل ، تركبون البقر وتأكلون الهَبيد [٢] ، فحملتكم على الخيل والبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد وافاء بكم الفيء » . فانظر بلاغة الايجاز في ذكر خصمه وفي تقريع المخاطَبين والتنويه بفضله بكلام محكم لا حشو فيه ولا تكلف . ومثل ذلك في حسن الاشارة والمنى ما ذكروه من حديث معاوية وعائشة بنت عثمان قالوا [٣] :

قدم معاوية المدينة فدخل دار عثمان فقالت عائشة بت عثمان واأبتاه ! وبكت (تثير معاوية على قتلة ابيها) . فقال معاوية « يا ابنة اخي ان الناس اعطونا طاعة وأعطيناهم اماناً واظهرنا لهم حلماً تحته غضب ، واظهروا لنا طاعة تحتها حقد ، ومع كل انسان سيفه ، وهو يرى مكان انصاره . وان نكثنا نكثوا بنا ، ولا ندري أعلينا يكون ام لنا . ولأنْ تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من ان تكوني امرأة من عِراض المسلمين » .

---

١ خمس رسائل الثعالبي ٢١٢ والعقد (مصر ١٩٤٤) ٤ – ١٢٥

٢ القزع ما تناثف من الشعر وسواها . والشيح والقيصوم والفلفل نباتات والهبيد حب الحنظل .

٣ البيان والتبيين (س) ٣ – ١٨٢

والمتأمل في كلام معاوية وفي موقفه الدقيق يرى ما نقصد اليه من قولنا «طابع صدر الاسلام» فهو يجمع برشاقة خلابة بين الايجاز والاحكام جمعاً مفحماً ، ولا تزال إلى الآن نعجب به ونعده من أمثلة الادب العالي .

ومن هذا الطراز المحكم ما روي عن الامام عليّ حين ثار عليه طلحة والزبير فارسل عبد الله بن عباس إلى البصرة وقال له [1] «إئتِ الزبير ولا تأتِ طلحة ، فان الزبير اسهل . وانك لتجد طلحة كالثور عاقصاً قرنه يركب الصعوبة ويقول هي اسهل . فاقرئه السلام وقل له يقول لك ابن خالك عرفتني بالحجاز وانكرتني بالعراق ، فما عدا مما بدا ؟».

وقد ذكر المبرّد حديثاً جرى بين خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان وفيه من جودة التلميح وبعد الاشارة ما يمثل لنا تماماً اسلوبهم النثري — قال [2] : «يروى ان عبد الله بن يزيد بن معاوية اتى أخاه خالداً فقال يا أخي لقد هممتُ اليوم ان افتك بالوليد بن عبد الملك . فقال خالد بئس والله ما هممتَ به في ابن أمير المؤمنين ووليّ عهد المسلمين . فقال ان خيلي مرّت به فعبث بها واصغرني . فقال خالد أنا أكفيك . فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده فقال يا أمير المؤمنين : الوليد بن أمير المؤمنين ، ووليّ عهد المسلمين مرّت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد ، فعبث بها واصغره — وعبد الملك مطرق ، فرفع رأسه ، وقال «ان الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا اعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون» . فقال خالد «وإذا أردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» فقال عبد الملك أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل عليّ فما اقام لسانه لحناً . فقال

---

١ البيان والتبيين (س) ٢ — ١٤٣

٢ الكامل مصر (١٣١٨) ١ — ١٩٦ و ١٩٧

خالد أفعلى الوليد تعوّل ؟ فقال عبد الملك ان كان الوليد يلحن فان اخاه سليمان . فقال خالد وان كان عبد الله يلحن فان اخاه خالد . فقال له الوليد اسكت يا خالد فوالله ما تعدّ لا في العير ولا في النفير [1] »
فقال خالد اسمع يا أمير المؤمنين ، ثم أقبل عليه وقال ويحك فمن العير والنفير غيري ؟ جدي ابو سفيان صاحب العير ، وجدّي عتبة بن ربيعة صاحب النفير . ولكن لو قلت غُنيمات وحُبيلات والطائف [2] ورحم الله عثمان ، لقلنا صدقت » .

وقد أورد العسكري هذا الحديث مثلاً على جودة الحذف . قال ومثل هذا كثير في كلامهم ولا وجه لاستيعابه [3]

وكما تجد ذلك في خطبهم واحاديثهم تجده في كتبهم ورسائلهم . وعلى ذلك الامانُ الذي كتبه عمرو بن العاص لاهل مصر عند فتحها ونصّه بعد البسملة [4] :

« هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم وملتهم واموالهم وكنائسهم وصُلبهم وبرّهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا يُنتقص ، ولا تساكنهم النُوبة . وعلى أهل مصر ان يُعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين الف الف . وعليه ممن جنى نصرتهم ، فان أبى احد ان يجيب رُفع عنهم من الجزى بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنّوبة فله ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن ابى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا . وعليهم ما عليهم اثلاثاً في كلّ

---

١ العير هي عير قريش التي أقبل بها أبو سفيان يحمل التجارة من الشام فنهد اليه الرسول والمسلمون . واما النفير فهم من نفر من قريش ليدفع عن العير وكان شيخهم عتبة المذكور .

٢ الحبلة الكرمة ، يشير بذلك إلى ان النبي كان قد طرد جد عبد الملك فلجأ إلى الطائف يرعى غنمات ويأوي إلى كرمة ، ورحم الله عثمان لرده اياه .

٣ الصناعتين ١٤٠

٤ راجع صبح الاعشى ١٣ – ٣٢٤

ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين . وعلى النوبة الذين استجابوا ان يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً ، على ان لا يُغزَوا ولا يُمنعوا من تجارة صادرة ولا واردة » .

ولو قابلته بما كان يعطى من ذلك في العصر العباسي لظهر لك الفرق بين الاسلوبين ، ففي امان عمرو يجري الكلام مجرى طبيعياً لا يُتكلف فيه ازدواج أو اطناب أو بديع .

ومع استمرار هـذا الاسلوب إلى أوائل العصر العباسي أخذ الكتاب عموماً يعدلون عنه وسنرى ذلك في كلامنـا على الترسل في ذلك العصر.

ومما يوضح لنا اسلوبهم الكتابي العام ما كتبه يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة النبوية وقد بلغه خلافهم عليه — قال [١] : « اما بعد فان الله لا يغيِّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وإذا أراد الله بقـوم سوءاً فلا مردّ له ومـا لهم من دونه من وال . اني والله قد لبستكم فاخلقتكم ، ورفعتكم على رأسي ثم على عيني ثم على فمي ثم عـلى بطني . وايم الله لئن وضعتكم تحت قدمي لاطأنكم وطـأة أقِلّ بهـا عددكم ، وأتركـكم بهـا أحـاديث تنسخ منهـا أخباركم كأخبـار عاد وثمود » .

تلك كانت طريقتهم في التعبير عن خوالج أنفسهم ، وفي عـرض أفكارهم نتثبّتها في رسائل الصحابة والتـابعين ، وفي خطب العصـر الاموي وعهوده . وإذا اعترض ان ما نقل لنـا من منثور ذلك العصر إنما نقل على السنة الرواة فلا يصح اتخـاذه أساساً لحكم عام ، قلنا ان لدينا ما نعارض بـه أقوال الرواة وهو بعض وثائق نثرية وصلتنا من القرن الاول الهجري مدوّنة على البردي . ففي أسلوبها ومبناها ما يشهد بصحة ما نحاول تقريره من نثر صدر الاسلام . وها نحن نعرض على

---

١ صبح الاعشى ٦ — ٣٩٠

سبيل المثال وثيقة متأكلة من مخطوطات دار الكتب المصرية [1] . وهي بقية من رسالة طمس فيها اسم مرسلها والمرسل اليه وقد تمكنا من قراءتها، واتماماً للفائدة اضفنا اليها ما تراه بين قوسين :

(احمد اليك الله الذي لا اله الا (هو)

أما بعد فان هشام بن عمر كتب إليّ يذكر جالية له بارضك وقد تقدّمت إلى العمال وكتبت اليهم الاّ تؤوا جاليا . فاذا جاءك كتابي هذا فادفع اليه ما كان له بارضك من جالية و لا . (الكلام هنا مطموس) .. ما رددت رسله ، أو كتب إليّ يشتكيك . والسلام على من اتبع الهدى. وكتب بذلك في جمادي الآخرة سنة ٩١)

ومثلها بقية وثيقة بردية ترجع إلى القرن الاول نشرتها دائرة المعارف الاسلامية [2] وقد قرأنا منها ما يلي — ويظهر إنه كتاب إلى احد العمال — وهو :

« ... قد جمعت من جزية كورتك واردت ان ارفق بهم واتجاوز عنهم بما قد قبضت منهم ، على نحو الذي كانوا يؤدون في بيت المال كل سنة . ولا أظن كتابي هذا قادماً عليك ان كان فيك خير الا وقد بعثت بالذي جمعت من جزية كورتك ... »

وأقدم منها مخطوطة ترجع إلى سنة ٩٠ هـ وهذا نصّها المقروء منها [3]

بسم الله الرحمن الرحيم

للامير الجرّاح بن عبد الله من مولاه ... السلم عليك أيها الامير ورحمت الله فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو

أما بعد .... اصلح الله الامير وامتع به فاني ... للامير حاجتي وحاجة ابي طرخون وان الأمير امتع الله به ذكر ابي طرخون بخير فان

١ عن مصور مورتز Moritz ١٩٠٥

٢ Encyc. of Islam 1913 - Arabia

٣ نشرها المستشرق الروسي كرتشوفسكي . راجع مجلة الهلال ٤٤ ص ٧٨٨ — ٩٠

رأى الامير من الرأي ان يكتب إلى سليمن ابن ابي السديري فتبعث بها إلى الامير فليفعل أو يأمر لي الامير بدابة من دوابّ البريد فابعث عليها غلامي يأت بها ... الامير فان الله جعل قدم الامير لاهل مصر ... غيث ورحمة .

اسأل الله ... والسلم عليك أيها الامير ورحمت الله .

ومن شواهد القبور الموجودة في دار الآثار العربية بمصر ما يرجع تاريخه إلى أقدم العهود الاسلامية كهذا الشاهد الذي نقلناه من الدار المذكورة:

(بسملة)

هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجري . اللهمّ اغفر له وادخله في رحمت منك وإيانا معه واستغفر له إذا قرأ هذا الكتاب وقل آمين .. وكتب هذا الكتاب في جمادى الآخر سنت إحدى وثلاثين .

وبين مخطوطات دار الكتب المصرية بضع من هذه الوثائق التي ترجع إلى القرن الأول ، وهي شديدة التماثل في مبناها للرسائل التي نقلها لنا قدماء المؤرخين كالطبري والواقدي وابن سعد ، أو رجال الادب كالجاحظ والمبرّد والقالي واضرابهم .

وللموازنة بين ما نقل لنا وبين الوثائق التي وصلتنا نثبت هنا الكتابين التاليين :

كتاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب [1]

« لعبد الله أمير المؤمنين — سلام عليك . فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو . أما بعد فانه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لي ، وانه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي . واني أعلم أمير المؤمنين انني ببلد السعر فيه رخيص ، واني اعالج من الزراعة ما يعالجه الناس ، وفي رزق أمير المؤمنين سعة ؟ ووالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك . فأقصر ايها الرجل فان لنا احساباً هي خير من العمل لك ،

---

[1] صبح الاعشى ٢ — ٤٧٧

ان رجعنا اليها عشنا بها . ولعمري ان عندك من لا يَذُمّ معيشته ، ولا تُذَمّ له . فان كان ذلك فلم يفتح قفلك ولم يشركك في عملك » .

فاذا قابلت هذا الكتاب بما نقلناه آنفاً رأيت اوجه الشبه من حيث نَفَسُ الكلام ، فان العبارات في كلتيهما مخطومة محكمة والطابع الانشائي البسيط واحد . ومثله ما كتبه معاوية إلى عليّ وقد وجه اليه عليّ رسولاً بأخذه البيعة له . قال بعد البسملة [1]

« من معاوية بن صخر إلى عليّ بن ابي طالب . اما بعد فلعمري لو بايعك القوم الذين بايعوك وانت بريء من دم عثمان كنت كابي بكر وعمر وعثمان (رض) ، لكنك اغريت بعثمان المهاجرين وخذّلت عنه الانصار ، فاطاعك الجاهل وقوي بك الضعيف . وقد ابى اهل الشام إلا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت شورى بين المسلمين . ولعمري ما حجّتك عليّ كحجتك على طلحة والزّبير لانهما بايعاك ولم ابايعك . وما حجتك على أهل الشام كحجّتك على أهل البصرة لأن اهل البصرة اطاعوك ولم يطعكَ اهل الشام . وامّا شرفك في الاسلام وقرابتك من رسول الله (ص) أو موضعك من قريش فلست ادفعه » .

وسنرى في الكلام على الانشاء الديواني في العصر العباسي وما بعده ان سنّة الكتّاب فيه ، ولا سيما في وصف الفتوح ، هي الاسهاب والتبسط ، ولم يكن ذلك معروفاً قبل عبد الحميد الكاتب . وهاك انموذجاً من رسائل الفتح في الصدر الاول ما بعث به المهلّب إلى الحجاج يصف له ظفره بالخوارج – قال فيه بعد توطئة قصيرة :

« أما بعد فقد كان من أمرنا ما اعنت جملته عن تفصيله ، وكنّا نحن وعدوّنا في مدة هذا التنازع على حالتين مختلفتين ، يسرّنا منهم أكثر مما يسوءنا . ويسوءهم منا أكثر مما يسرّهم ، على شدة شوكتهم واجتماع كلمتهم وانزعاج القلوب لمخافتهم ، حتى نوّم بذكرهم الرضيع

---

[1] الكامل ١ – ١٩١

واصمّ لخوفهم السميع . فانتهزت منهم الفرصة عند امكانها بعسد ان تنظّرت وقت ابّانها ، واستدعى النّهل علّله ، وبلغ الكتاب اجله ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين [1] »

فهو برغم ما ورد فيه من السجع القليل يمثل الاسلوب الذي نحن بصدده ، وسيتبين لك كيف بلغ هذا النوع من الانشاء في الدولة العباسية.

• • •

ذكرنا أوجه التماثل بين الوثائق القليلة التي وصلتنا من القرن الاول وبين ما نقله لنا الرواة ، من ذلك القرن ، وقلنا ان ذلك يسوّغ لنـا الحكم على الأسلوب الانشائي في صدر الاسلام ، ويميل بنا إلى القول بصحة المرويات النثرية لذلك العهد . ويزيدنا وثوقاً بذلك قدميّة التدوين في الاسلام وانه كان معروفاً في عهد الراشدين والامويين . ذكر ابن النديم انه رأى في مكتبة عند بعضهم قِمَطْراً كبيراً فيه نحو ٣٠٠ رطل جلود فلجان وصكوك وقراطيس مصرية وورق صيني وورق تهامي وجلود ادم وورق خراساني وفيها خطوط بعض الصحابة . قد يقال افلا يمكن ان يكون ما رآه ابن النديم وهو من أهل القرن الرابع الهجري مزوّراً ؟ قد يكون ذلك . ولكن الرجل ورّاق خبير ، ثم من ينكر ما اجمع عليه كل المؤرخين من وجود الكتابة في عهد الصحابة ، ومن نقل الدواوين إلى العربية في عهد عبد الملك ، ومن نقل العلوم اليونانية بامر خالد بن يزيد ابن معاوية ، وغير ذلك من الحقائق التاريخية المثبتة بالاجماع . وهـذا ابو عمرو بن العلاء المتوفى في منتصف القرن الهجري الثاني (١٥٤) ، فقد كان في العهد الاموي وسمع جريراً والفرزدق وقال عنه ابو عبيدة الراوية المشهور « كان ابو عمرو اعلم الناس بالعرب والعربية وبالقراءة والشعر وايام الناس ، وكانت كتبه التي كتبت عن العرب الفصحاء قـد ملأت بيتاً له إلى قريب من السقف ، وكان عامة اخباره عـن اعراب ادركوا الجاهلية » . وفيه يقول الفرزدق :

---

١ أدب الكتاب للصولي ٢٢٥

ما زلت افتح ابواباً واغلقهـا حتى اتيت ابا عمرو بن عمار

أفليس من المعقول ان نستنتج اذن مما بقي لنا من وثائق البردي ومما عرفناه من أمر التلوين ان النصوص النثرية التي نراها في كتب الادب والتاريخ لم يُعتمد على الرواية فقط في اثباتها ، بل على مخطوطات قديمة ضاعت اصولها في جملة ما ضاع من آثار الصدر الاول ؟ ومع ذلك فلا بدّ لنا من تحفظات نقرنها باعتقادنا صحة النصوص التي نبني عليها أحكامنا منها :

١ — ان كثيراً مما نقلوه لا يخلو من التشويش والخطأ .

٢ — ان بعضه وضع وضعاً لاغراض خاصة .

أما الخطأ والتشويش فتجدهما في اختلاف الروايات في النص الواحد ، وذلك أكثر وأوضح من ان نحتاج إلى شواهد لاثباته . على اننا نثبت هنا المثلين التاليين :

الاول كتاب عبد الملك إلى الحجاج . فبين ما روي منه في العقد ٣ — ١٧ وما روي في صبح الاعشى ٦ — ٣٨٩ اختلاف في بعض الالفاظ والعبارات وفي احدى الروايتين زيادة لا تجدها في الأخرى . والثاني خطبة «أيها الناس انما الدنيا دار مجاز» تروى في نهج البلاغة (شرح ابن ابي الحديد ج ١٣) للامام علي ، ويرويها المبرّد في الكامل عن الاصمعي لاعرابي بالبادية ، وقسم منها يروى لاكثم . وقس على ذلك ما لا يمكن حصره هنا .

واما الوضع فهو اما لاغراض سياسية أو مذهبية ، كما نجد في النصوص التالية :

كتاب معاوية الى يزيد ابنه

قالوا كتبه اليه وقد بلغه مقارفته اللذّات وانهماكه في الشهوات .

ونصه كما في صبح الأعشى [١] . « واما بعد فقد أدّت ألسنة التصريح إلى اذن العناية بك ما فجع الامل فيك وباعد الرجاء منك ، اذ ملأتَ العيون بهجة والقلوب هيبة ، وترامت اليك آمال الراغبين وهمم المتنافسين وشحّت بك فتيان قريش وكهول اهلك . فما يسوغ لهم ذكرك الا على الجرّة المهوّعة [٢] . والكظّ الجشء . اقتحمت البوائق وانقدت للمعاير واعتضتها من سمو الفضل ورفيع القدر . فليتك يزيد ، اذ كنت لم تكن ! سررتَ يافعاً ناشئاً واثكلت كهلاً ضالعاً . فواحزناه عليك يزيد ! ويا حرّ صدر المثكل بك ! ما اشمت فتيان بني هاشم واذلّ فتيان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصلاح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟ هيهات خمشتِ الدّربة وجه التصبر بك . وابت الجناية الاّ تحدّراً على الالسن ، وحلاوةً على المناطق . ما اربح فائدةً نالوها وفرصةً انتهزوها ! انتبه يزيد للعظة ، وشاور الفكرة ولا تكن إلى سمعك اسرع من معناها إلى عقلك ، واعلم ان الذي وطّأك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان مما حسنَ عندك قبحه واحلولى عندك مرّه ، امرٌ شركك فيه السواد ونافسك الاعبد ، لا لأثرة تدعيها اوجبتها لك الإمرة ، واضعتَ بها من قدرك فامكنت بها من نفسك ، فكأنك شانئُ نفسك . فمن لهذا كله ؟

اعلم يا يزيد انك طريد الموت واسير الحياة . بلغني انك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى : اتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون — واجهرتَ الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهرا . اعلم يا يزيد ان أول ما سلبكه السكر معرفةُ مواطن الشكر لله على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهي الجرحة

---

[١] صبح الاعشى ٦ — ٣٨٧

[٢] الجرة ما يجترّه البعير والمهوع ما يحمل على التقيؤ أي لا يذكرونك إلا بكل قبيح ،ومثلها الكظ الجشء أي امتلاء الجوف بالطعام الزائد وهو التهم .

العظمى والفجعة الكبرى ، تركُ الصلوات المفروضات في أوقاتها وهو من أعظم ما يحدث من آفاتها . ثم استحسان العيوب وركوب الذنوب واظهار العورة واباحة السرّ . فلا تأمن من نفسك على سرك ولا تعقد على فعلك فما خير لذّة تُعقب الندم وتعفّي الكرم ؟ وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتوقعه من غلَبة الآفة واستهلاك الشهوة . فكن الحاكم على نفسك واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد ان شاءَ الله تعالى. وليبلُغْ امير المؤمنين ما يردّ شارداً من نومه ، فقد أصبح نُصب الاعتزال من كل مؤانس ، ودرأة الالسن الشامتة وفّقك الله فاحسن .»

ومن قرأ سيرة معاوية وعرف حرصه على ان يجعل الخلافة في يزيد يتعذر عليه الا ان يقف موقف المشكك بل المنكر لما روي عن لسانه ؛ وعندنا ان الكتاب موضوع في عصر متأخر وضعه بعض اعداء يزيد ونستدلّ على وضعه مما يلي :

١ ـــ ما فيه من تكلف المجاز غير المألوف في ذلك العهد كقوله : «فقد ادّت ألسنة التصريح إلى اذن العناية» وقوله «وخمشت الدربة وجه التصبر بك ، وابت الجناية الا تحدّراً على الالسن» .

٢ ـــ ان أكثره يجري مجرى الازدواج المتكلف مما هو أشبه بانشاء للعصر العباسي .

٣ ـــ ما فيه من الحمل على يزيد ووصمه بكل قبيح وقد وضع الكاتب كل ذلك عن لسان ابيه معاوية وهو الذي كان يرشحه للملك ويقدّمه إلى العالم الاسلامي وليّـاً لعهده . ولم يتورّع واضعه عن أن يضع على لسان معاوية قوله لابنه «فليتك يزيد اذ كنت لم تكن ـــ سررت يافعاً ناشئاً واثكلت كهلاً ضالعا ـــ فواحزناه عليك يزيد ويا حرّ صدر المثكل بك ـــ ما اشمت فتيان بني هاشم ـــ فمن لصلاح ما افسدت ـــ واجهرت الفاحشة ـــ سلبك السكر معرفة مواطن الشكر ـــ» وغير ذلك من الاقوال التي لا يصح ان رجلاً بدهاء معاوية يصرّح بها .

٤ — هلهلة الكتاب أو عدم احتباكه . فليس في نسيجه متانة الانشاء في الصدر الاول كما يتبين لك من الجمل التالية : « اعلم يزيد ان ما سلبكه السكرُ » . إلى آخر قوله « ما يحدث من آفاتها » . وكذلك « واعلم ان الذي وطـأك وسوسة الشيطان » إلى قوله « فمن لهذا كله ؟ » . فانك إذا تأملت هذه العبارات وجدت ضعفاً في الارتباط ورخاوة في التنسيق لا نراهما عادة في أقوال معاوية واهل عصره . ولا ينفي ذلك ان يوجد مثل هذا الضعف في بعض أقوال ذلك العصر ولكنه قليل . فاذا قرنا ذلك بما بيناه من الاسباب السالفة الذكر لم يكن لنا محيص عن رفض هذه الرسالة أو على الاقل الوقوف ازاءها موقف الحذر والتشكيك ؛ وكذلك يجب ان يكون موقفنا ازاء الرسالة التالية :

رسالة ابي بكر الى علي يوم تلكأ عن المبايعة له [١]

قالوا انه ارسلها على لسان ابي عبيدة وذكروا ما انضمّ إلى ذلك من كلام عمر بن الخطاب وما كان من جواب عليّ عنها ، وقد نُقل حديثها عن لسان علي بن محمد التوحيدي وفي ذلك يقول : « سمرنا ليلة عند القاضي ابي حامد احمد بن بشر ببغداد فتصرّف في الحديث كل متصرّف ، وكان غزير الرواية لطيف الدراية ، فجرى حديث السقيفة ، فركب كل منا مركباً وقال قولاً وعرّض بشيء ونزع إلى فن ، فقال (اي القاضي) هل فيكم من يحفظ رسالة لابي بكر الصديق (رضه) إلى علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) وجواب عليّ عنها ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة ؟ فقال الجماعة لا والله ، فقال هي والله من

١ تجدها في كتاب نهج البلاغة شرح ابن ابي الحديد مج ٢ ص ٥٩٣ — ٥٩٧ ونهاية الارب النويري ٧ ص ٢٣٧ — ٢٤٧ وصبح الاعشى ١ ص ٢٣٧ — ٢٤٧

بنات الحقائق ومخبئات الصنادق ، ومنذ حفظتها ما رويتها الا لأبي محمد المهلبي في وزارته فكتبها عني بيده» .... فقال احدهم : «ايها القاضي فلو اتممت المنة علينا بروايتها اسمعناها فنحن اوعى لك من المهلبي واوجب ذماماً ، فاندفع يحدثهم ويروي لهم ما كتب ابو بكر وسواه ويقع حديثه في عشر صفحات كبيرة فليراجع [1]

والذي يتأمل هذه الرسالة وما انضمّ اليها تأمل الناقد المدقق لا يرى الا القول بأنها موضوعة [2] . بل هي اشبه ان تكون مقامة أو حكاية صنفها التوحيدي أو بعض الادباء رداً على ما ذهب اليه بعضهم من اولوية عليّ بالخلافة ، وان بيعة ابي بكر وعمر فاسدة. فسداها ولحمتها اثبات صحة الامر لابي بكر ودحض مزاعم المنكرين ، كقوله مخاطباً علياً : «ولئن كان عرّض لك رسول الله (صلعم) في هذا الامر فلم يكن معرضاً عن غيرك وان كان قال فيك فما سكت عن سواك . وان تلجلج في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضيّ ، والصواب مسموع والحق مطاع . ولقد نُقل رسول الله (صلعم) إلى الله عزّ وجل وهو عن هذه العصابة راض وعليها حذر ، يسرّه ما يسرّها ويسوءه ما ساءها ويكيده ما كادها ، ويرضيه ما أرضاها ويسخطه ما اسخطها . اما تعلم انه لم يدع احداً من أصحابه وأقاربه وسجرائه الا ابانه بفضيلة ، وخصه بمزية ، وافرده بحالة» ... إلى ان يقول : «وبعد فهذه المهاجرون والانصار عندك ومعك في بقعة واحدة ، ودار جامعة ، ان استقالوني لك ، واشاروا عندي بك ، فأنا واضع يدي في يدك وصائر إلى رأيهم فيك . وان تكن الاخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العون على مصالحهم ، والفاتح لمغالقهم ، والمرشد لضالتهم ، والرادع لغوايتهم

---

[1] نقلنا قوله بتصرف قليل عن نهج البلاغة وصبح الاعشى .

[2] نوه بوضعها ابن ابي الحديد والنويري. وللأستاذ حسن السندوبي في مقدمة كتاب المقابسات ص ٤٠ – ٤٤ تعليق على الرسالة يذهب فيه هذا المذهب .

فقد امر الله تعالى بالتعاون على البرّ والتقوى والتناصر على الحق . ودعنا نقضي هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلّ ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن » الخ ...

وفي الرسالة ما وضع على لسان عمر ويراد به التهجم على عليّ والتنقّص من كرامته كقوله : « ما هذه الخُنْزُوانة [1] التي في فراش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض في مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القذاة التي تغشّت ناظرك ؟ وما هذه الوَحَرَة [2] التي اكلتْ شراسيفك [3] . وما هذا الذي لبستَ بسببه جلد النمر ، واشتملت عليه بالشحناء والنُكر » . إلى أن يقول : « وانك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة ومعدن الرسالة ولا يجحد حقك فيما آتاك الله ، ولكن لك من يزاحمك بمنكب اضخم من منكبك ، وقربى امسّ من قرباك ، وسنّ اعلى من سنك ، وشيبة اروع من شيبتك ، وسيادة لها اصل في الجاهلية وفرع في الاسلام ، ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة ، ولا تذكر منها في مقدّمة ولا ساقة ، ولا تضرب منها بذراع ولا اصبع ، ولا تخرج منها ببازل ولا هُبَع [4] »

أما لغة الرسالة واسلوبها فمما عرف به العصر العباسي بعد القرن الرابع إذ يكثر فيها الازدواج والسجع والتبسط والبديع كقوله لابي عبيدة حين اوفده إلى عليّ « وقل له البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجوّ اكلف ، والليل اغدف ، والسماء جلواء ، والارض صلعاء ، والصعود متعذّر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رؤوف ، والباطل عنوف عسوف ، والعجب قداحة الشرّ ، والضغن رائد البوار ، والتعريض

---

[1] الكبرياء .

[2] الوحرة نوع من الدبابات السامة ويراد بها هنا الحقد الاكال .

[3] مقط الاضلاع .

[4] هبع الحمار والبازل الجمل .

شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة » والكلام طويل وكله على هذا النمط .

وقد تأخذ الكاتب نشوة البديع فيقول :- « والله ما اشتاق إلى ربا (تعالى) ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه ، الا بعد ان ضرب المدى، واوضح الهدى ، وأبان الصُوى ، وأمّن المسالك والمطارح ، وسهّل المبارك والمهايع ، والا بعد ان شدخ يافوخ الشرك (باذن الله) وشرم وجه النفاق (لوجه الله سبحانه) وجدع أنف الفتنة (في ذات الله) وتفل في عين الشيطان (بعون الله) وصدع بملء فيه ويده بأمر الله (عزّ وجل) » .

والفاظ الرسالة الفاظ لغوي حفظ كثيراً من الاوضاع الغريبة فصار يتنطس في استعمالها كقوله :

فؤادك مشهوم	اي ذكي
سجراؤك	أي اصدقاؤك
ابان الصوى	أي علامات الطرق
ولسنا كجلدة رُفغ البعير	والرفغ اصل الفخذ من باطن
الخنزوانة في فراش الرأس	مرّ تفسيرها
الوحرة التي تأكل الشراسيف	مرّ تفسيرها
تخرج منها ببازل وهبع	مرّ تفسيرها
عض اهابك	اي عص جلدك
هوّر ليلها	أي قلبه وصرعه
مشدود باطراف ليطة	أي باطراف قوس
أزمتْ على ماسي	أي حافظت عليها

وقس على ذلك كثيراً من هذه الاوضاع التي كان للادبين من أصحاب المقامات وسواهم ولع شديد بحفظها واستعمالها .

* * *

ومن أمثلة هذه الكتب المشكوك فيها ما روي عن عبد الملك بن مروان

وقد بلغه تعرض الحجاج بن يوسف للامام أنس بن مالك . فكتب إلى الحجاج يقول [1] : «اما بعد فانك عبد طمت بك الامور فطغيت وعلوت فيها حتى جزت حد قدرك وعدوت طورك . وأيم الله يا ابن المستفرمة بعجم زبيب الطائف لاغمزنك كبعض غمزات الليوث للثعالب ، ولاركضنك ركضة تدخل منها في وجارك . اذكر مكاسب آبائك بالطائف اذ كانوا ينقلون الحجارة على اكتافهم ويحفرون الآبار والمناهر [2] بايديهم. فقد نسيت ما كنت عليه انت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة . وقد بلغ أمير المؤمنين استطالة منك على انس بن مالك خادم رسول الله (صلعم) جرأة منك على أمير المؤمنين ، وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله ، وعمد إلى غير محجته ، ونزل عند سخطته . واظنك اردت ان تروزه بها فتعلم ما عنده من التغيير والتنكير فيها ، فان سوغتها مضيت قدما وان غصصت بها وليت دبرا . فعليك لعنة الله من عبد اخفش العينين ، اصك الرجلين ممسوح الجاعرتين [3] : وايم الله لو ان أمير المؤمنين علم انك اجترمت منه جرماً وانتهكت له عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث اليك من يسحبك ظهراً لبطن حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك فيحكم فيك بما احب ولم يخف على امير المؤمنين نبؤك ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون» .

ولغة الكتاب شبيهة بما كان يكتب في العصر الاموي على اننا نميل إلى الشك فيه لاسباب تاريخية سياسية . فان الحجاج كان سيف عبد الملك بن مروان بل رافع لواء الامويين وموطد ملكهم وهو الذي ذكره الوليد في بعض خطبه فقال ان أمير المؤمنين عبد الملك كان يقول الحجاج جلدة ما بين عيني . الا وانه جلدة وجهي كله [4] . فلا يعقل ان يكتب اليه

١ العقد الفريد ٣ – ١٧ وصبح الاعشى ٦ – ٣٨٩

٢ في العقد (المناهل) والتصحيح من صبح الاعشى

٣ الجاعرتان مضرب الفرس بذنبه على الفخذين

٤ البيان والتبيين ١ – ١١٤

ما روي من الفاظ السباب والتحقير كقوله « قد نسيت ما كان عليه آباؤك من اللؤم والدناءة» وقوله « عليك لعنة الله من عبد اخفش العينين اصك الرجلين ممسوح الجاعرتين » إلى آخر هذه الاقوال السخيفة التي يستبعد جداً ان تصدر عن ملك إلى أمير جيشه . وأغلب الظن انها من صنع بعض الناقمين على الحجاج كاحد الخوارج او احد صنائع سليمان بن عبد الملك ومن اليهم .

ففي النثر المروي عن صدر الاسلام كثير من الخطأوالوضع والتشويش على ان ذلك ليس من المتعذر تمييزه إذا جرينا على قاعدة النقد والتجريح فطرحنا منه ما يناقض الاوضاع التاريخية والاجتماعية والانشائية لذلك العهد ، وترددنا في قبول ما يشم منه رائحة التحزب والدعاية . وإذا ذكرنا ان التدوين كان شائعاً في القرن الهجري الاول ، وان الرواية متصلة بين العهدين العباسي والاموي لم يبق أمامنا مانع كبير من قبول كثير من النصوص المتحدرة الينا من صدر الاسلام .

والذي يظهر لنا من دراسة تلك النصوص ان النثر المرسل منذ انبثاق الاسلام إلى عهد عبدالحميد الكاتب لم يطرأ عليه تغير يذكر . فأقوال النبي والصحابة وخطب الامويين ورسائلهم جميعها مرتبطة بمزايا لغوية متشابهة ومطبوعة بطابع إنشائي عام ، من ايجاز وبعد اشارة وبساطة في التركيب وعدم تبسط في المعاني . اما السجع أو الازدواج فكان محصوراً في بعض مجالس الوعاظ والقصاصين ، ولم يصبح الزى الانشائي الا في العصر العباسي وما بعده ، وسنرى ذلك فيما نثبته هنا من نثر القرن الأول وقد اخترنا لذلك طائفة من أشهر أقوالهم وجعلناها — تتمة للفائدة — في ثلاثة أبواب رئيسية :

— باب الخطب السياسية والادارية .
— باب الرسائل والعهود والوصايا .
— باب الاقوال الروحية .

أمثلة من الخطب

السياسية والادارية

خطبة رَوح بن زنباع في المدينة لما نعي اليهم معاوية وابطأ الناس في مبايعة يزيد [1] :

« أيها الناس انا لا ندعوكم إلى لخم وجذام وكلب ولكنا ندعوكم إلى قريش ، ومن جعل الله له هذا الامر واختصه به وهو يزيد بن معاوية . ونحن ابناء الطعن والطاعون وفضلات الموت ، وعندنا ان احببتم واطعتم من المعونة والعائدة ما شئتم » . — (فبايع الناس)

خطبة الامام علي بن ابي طالب

يوم اغار سفيان بن عوف الغامدي على الانبار [2] :

« اما بعد فان الجهاد باب من أبواب الجنة فمن تركه رغبةً عنه البسه الله ثوب الذلة ، وشمله البلاء ، وألزمه الصغار ، وسيم الخسف ،

1 البيان والتبيين ١ — ١٤٧

2 البيان والتبيين ١ — ١٧٠ وتروى في الكامل للمبرد ١ — ١٣ مع اختلافات قليلة وكذلك في عقد الفريد ٣ — ١٦٣

ومنع النصف [1] . ألا واني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً سراً واعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم قبل ان يغزوكم فوالله ما غُزي قوم قط في عقر دارهم الاّ ذلّوا . فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قولي ، واتخذتموه وراءكم ظهرياً حتى شُنّت عليكم الغارات. هذا أخو غامد [2] قد وردت خيله الانبار وقتل حسان (أو ابن حسان) البكري،وازال خيلكم عن مسالحها وقتل منكم رجالاً صالحين : وقد بلغني ان الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع احجالها وقلبها ورعثها [3] ، ثم انصرفوا وافرين ما كلم رجل منهم كلماً [4] . فلو ان امرءاً مسلماً مات من بعدها اسفاً ما كان عندي ملوماً ، بل كان عندي بها جديراً . فياعجباً من جدّ هؤلاء القوم في باطلهم وفشلكم عن حقكم . فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى وفيئاً ينهب يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزون ولا تغزون ، ويُعصى الله وترضون . فاذا امرتكم بالسير اليهم في الحرّ قلتم حرارة القيظ امهلنا حتى ينسلخ عنا الحرّ ، وان امرتكم بالمسير في البرد قلتم امهلنا حتى ينسلخ عنا القرّ ، كل هذا فراراً من الحرّ والقر . فإذا كنتم من الحرّ والقر تفرون فانتم والله من السيف افرّ . يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا احلام الاطفال ، وعقول ربات الحجال ، وددت ان الله أخرجني من بين ظهرانيكم ، وقبضني إلى رحمته من بينكم . والله لوددتُ اني لم اركم ولم أعرفكم معرفتكم . والله حرت ندماً ووريتم صدري غيظاً ، وجرعتموني الموت أنفاساً وافسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى قالت قريش ان ابن ابي طالب شجاع ولكن لا علم له

---

1 النصف الانصاف .

2 سفيان المذكور وهو من رجال معاوية وكان قد دفعه إلى هذه الغارة .

3 أي الخلاخيل والاسورة والاقراط .

4 أي ما جرح جرحاً .

بالحرب . لله ابوهم وهل منهم احد أشدّ لها مراساً وأطول تجربة منّي ؟ لقد مارستها وما بلغت العشرين ، فها قد نيفت على الستين ، ولكن لا رأي لمن لا يطاع » .

• • •

وللامام عليّ خطب وأقوال كثيرة جمعها الشريف الرضي في كتاب نهج البلاغة . على ان البعض من أهل النقد والتجريح يرون فيها ما لا تصح روايته [1] ، ويستندون في ذلك إلى أسباب شتّى من سياسية ومذهبية وانشائية ولهم في ذلك كلام لا مجال لذكره الآن . ولا بدّ من النظر الدقيق في مثل هذه المرويات ، فانّ الزام الناقد نفسه ما لا يلزم من التجريح هو في الغالب اسلم عاقبة من قبوله الاشياء على علاتها أو من التساهل في غربلتها ونخلها .

خطبة الحجاج في الكوفة يوم قدمها أميراً من قبل عبد الملك وكانت نفوس أهلها يومئذ تنز بكره الامويين — (وقد أهملنا مقدمتها الشعرية) — قال [2] :

« يا أهل الكوفة اني لأرى رؤوساً قد اينعت وحان قطافها واني لصاحبها وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى .

اني والله يا أهل العراق ما يقعقع لي بالشّنان ولا يُغمز جانبي كتغماز التين . ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة . وان أمير المؤمنين أطال الله بقاءه نثر كنانته بين يديه فعجم عيدانها ، فوجدني امرّها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي لانكم طالما اوضعتم في الفتنة ، واضطجعتم في مراقد الضلال . والله لاحزمنّكم حزم السلَمة ، ولأضربنكم ضرب عزائب الإبل فانكم لكأهل « قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بانعم الله فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » . واني والله ما أقول الا وفيت ،

---

١ راجع مثلا نقد خليل مردم المدرج في مجلة الحديث سنة ١٣ ع ٥
٢ تلخصها عن العقد وعن البيان والتبيين (س) ٢ - ٢٤٦

ولا أهمّ الا امضيت ، ولا اخلق الا فريت . وان أمير المؤمنين أمرني باعطائكم اعطياتكم ، وان أوجهكم لمحاربة عدوّكم مع المهلب بن ابي صفرة . واني اقسم بالله لا اجد رجلاً تخلّف بعد اخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه » .

• • •

ثم التفت إلى غلامه وقال يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فقرأه فلم يقل احد شيئاً ، فقال « أسلّم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه ؟ والله لاؤدبنكم غير هذا الادب . إقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين » . فلما بلغ إلى قوله سلام عليكم لم يبقَ في المسجد احد الا وقال وعلى أمير المؤمنين السلام .

• • •

وله يخاطب أهل البصرة ويحضهم على طاعة عبد الملك [1]

« اتّقوا الله ما استطعتم فهذه لله ، وفيها مثوبة » . (ثم قال) : « واسمعوا وأطيعوا ، فهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك ابن مروان . والله لو امرتُ الناس ان يأخذوا في باب واحد وأخذوا في غيره لكانت دماؤهم لي حلالاً . عذيري من هذه الحمراءِ يرمي احدهم بالحجر إلى السماء ويقول يكون إلى ان يقع هذا خير ! والله لأجعلنّهم كأمس الدابر . عذيري من هُذيل انه زعم انه آمن عند الله ، ما هو الاّ رجم الاعراب ! والله لو أدركته لقتلتهُ » .

كتاب الحجاج الى قتيبة بن مسلم والي خراسان [2]

أما بعد فان وكيع بن حسّان كان بالبصرة (منه ما كان) ، ثم صار

١ العقد ٢ — ١٨٦

٢ نهاية الارب للنويري ٦ — ٤٢ وفي العقد فناه

لصّاً بسجستان ، ثم صار إلى خراسان . فاذا أتاك كتابي هذا فاهدم بناءه واحلل لواءه

كلام الاحنف الى ابي موسى الاشعري يوم التحكيم[1]

يا أبا موسى ان هذا مسير له ما بعده من عزّ الدنيا أو ذلّها آخر الدهر . أدعُ القوم إلى طاعة علي ، فان أبوا فادعهم ان يختار اهل الشام من قريش العراق من احبّوا ، ويختار اهل العراق من قريش الشام من أحبّوا . وإيّاك إذا لقيت ابن العاص ان تصافحه بنيّة ، وان يقعدك على صدر المجلس ، فانها خديعة ، وان يضمّك واياه بيت ، فيكمن لك فيه الرجال ، ودعه فليتكلم لتكون عليه بالخيار ، فالبادىء مستغلَق[2] ، والمجيب ناطق » .

(فما عمل ابو موسى إلا بخلاف ما قال الاحنف فلقيه الاحنف بعد ذلك فقال له) « أدخل والله قدميك في خفّ واحدة » .

من خطبة زياد بن ابيه بالبصرة[3] (وهي المعروفة بالبتراء) والفسق بالبصرة كثير فاشٍ ظاهر وأموال الناس منتهبة والسياسة ضعيفة .

« أما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغيّ المُوفي باهله على النار ما فيه سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الامور العظام ينبتُ فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الاليم لأهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لا يزول . أتكونون

---

١ نهاية الارب النويري ٧ – ٢٣٩

٢ أي ليس له خيار في رد ما يقول.

٣ عن البيان والتبيين (س) ٢ – ٤٧ والعقد ٢ – ١٨٣ وفي الروايتين اختلاف قليل .

كمن طرفتْ عينيه الدنيا ، وسدّت مسامعه الشهوات واختار الفانية على الباقية . اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الاّ بما صلح به اوّله — لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف . واني اقسم بالله لآخذنّ الوليّ بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول ، انجُ سعدُ فقد هلك سعيد [١] ، أو تستقيم لي قناتكم » .... إلى أن يقول : « فاياي ودلج الليل فاني لا أوتى بمدلج الاّ سفكت دمه ، وقد اجّلتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبر من الكوفة ويرجع اليكم ، واياي ودعوى الجاهلية [٢] ، فاني لا أجد احداً دعا بها الاّ قطعت لسانه . وقد احدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرّقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيًا . كفّوا عنّي ألسنتكم وايديكم اكف عنكم يدي ولساني ، ولا تظهر من احد منكم ريبة بخلاف ما عليه عامّتكم الاّ ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين أقوام إحَن فجعلت ذلك دُبر اذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فلينزع من اساءته . اني لو علمت ان احدكم قتله السّلال من بغضي لم اكشف له قناعاً ، ولم اهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته فاذا فعل ذلك لم اناظره . فاستأنفوا أموركم واعينوا على انفسكم فربّ مبتئس بقدومنا سيُسَرّ ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس إنّا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ، ونذود عنكم بفيءِ [٣] الله الذي خوّلنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا ، ولكم علينا العدل فيما وُلينا . فاستوجبوا عدلنا

---

١ إشارة إلى المثل اسعد ام سعيد .

٢ أي الاعتزاء إلى القبيلة والاعتزاز بها .

٣ الفيء الخراج والغنيمة .

وفيأنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أني مهما قصّرت عنه فلن اقصّر عن ثلاث — لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقاً بليل — ولا حابساً عطاءً ولا رزقاً عن إبّانه — ولا مجمراً [1] لكم بعثاً . فادعوا الله بالصلاح لائمتكم فانهم ساستكم المؤدبون لكم وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى يصلحوا تصلحوا ، ولا تُشربوا قلوبكم بغضهم فيشتدّ لذلك غيظكم ، ويطول له حزنكم ولا تدركوا له حاجتكم ، مع انه لو استجيب لكم فيهم لكان شراً لكم . أسأل الله ان يعين كلاً على كلّ . وإذا رأيتموني انفذ فيكم الامر فانفذوه على أذلاله [2] . وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىءٍ منكم ان يكون من صرعاي » .

خطبة سعيد بن العاص في الكوفة

وكان قد قدمها أميراً في خلافة عثمان قال [3] :

« والله لقد بعثت اليكم واني لكارهٌ ، ولكني لم أجد بدّاً إذ أمرت ان ائتمر . ألا ان الفتنة قد اطلعت خطمها وعينيها . والله لاضربنّ وجهها حتى أقمعها أو تعييني ، واني لرائد نفسي اليوم » .

خطبة عمرو بن سعيد في مجلس معاوية

يوم عقد البيعة ليزيد — قال بعد ان حمد الله واثنى عليه [4] :

« أما بعد فان يزيد بن معاوية املٌ تأملونه واجل تأمنونه . ان استفقم

١ اجمر الجيش حبسه في ارض العدو .
٢ على اذلاله : على حالة دون تبديل
٣ الطبري (الجملة الاولى) ٢٨٥٢
٤ الامالي ٢ — ٧٣

إلى حلمه وسعكم ، وان احتجتم إلى رأيه ارشدكم ، وان افتقرتم إلى ذات يده اغناكم . جذعٌ قارح [1] سوبق فسبق ، ومُوجد فمجد ، وقورع ففاز سهمه ، فهو خلف أمير المؤمنين ولا خلف منه » .

خطبة يزيد بن الوليد

لما قتل ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك — قال [2] :

« أيها الناس والله ما خرجت أشراً ولا بطرا ، ولا حرصاً على الدنيا ولا رغبة في الملك . وما بي اطراءُ نفسي ، واني لظلومٌ لها ، ولقد خسرت ان لم يرحمني ربي — ولكني خرجت غضباً لله ودينه ، وداعياً إلى الله وسنة نبيه ، لما هدمت معالم الهدى ، وأطفئ نور التقوى وظهر الجبار العنيد ، المستحلّ لكلّ حرمة ، والراكب لكل بدعة ، مع انه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب ، ولا يصدّق بالثواب والعقاب . وانه لابن عمي في النسب ، وكفئي في الحسب . فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره وسألته ان لا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجابني من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد وطهّر منه البلاد بحول الله وقوته لا بحولي وقوتي .

أيها الناس ان لكم علي ان لا اضع حجراً على حجر ، ولا لبنة على لبنة ولا اكري نهراً [3] ، ولا اكنز مالاً ولا أعطيه زوجاً ولا ولداً ، ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى اسدّ فقر ذلك البلد وخصاصة أهله بما يغنيهم . فان فضل فضل نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج اليه منه . وان لا أجمركم في ثغوركم فافتنكم وافتن اهاليكم ، ولا اغلق

---

١ الجذع الحديث السن من الجمال والقارح الكبير اي يجمع بين الفتوة والخبرة .

٢ البيان والتبيين (س) ٢ — ١١٥

٣ اكري أي احفر حفراً جديداً .

بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ولا أحمل على اهل جزيتكم ما أجليهم به عن بلادهم واقطع نسلهم . ولكم عندي اعطياتكم في كل سنة ، وارزاقكم في كل شهر ، حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين فيكون اقصاهم كادناهم . فاذا أنا اوفيت لكم فعليكم السمع والطاعة وحسن المؤازرة والمكاتفة ، وان أنا لم أوفِ لكم فلكم ان تخلعوني الاّ ان تستتيبوني ، فان انا تبت قبلتم مني ، وان عرفتم احداً يقوم مقامي ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه مثل ما أعطيتكم ، فاردتم ان تبايعوه فانا اوّل من بايعه ودخل في طاعته .

أيها الناس لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . اقول قولي هـذا واستغفر الله لي ولكم » .

خطبة ليزيد بن المهلب بواسط[1]

يا أهل العراق ، يا اهل السبق والسباق ومكارم الاخلاق . ان أهل الشام في أفواههم لُقمة دسمة قد زُبّبت لها الاشداق وقاموا لها على ساق. وهم غير تاركيها لكم بالمراء والجدال . فالبسوا لهم جلد النمور » .

كتاب الحجاج الى قوم قطعوا الطريق عليه[2]

أما بعد فانكم استخلصتم الفتنة. فلا عن حقّ تقاتلون ولا عن مُنكر تنهون . وايم الله إني لأهمّ ان يكون اوّل ما يرد عليكم من قِبَلي خيل تنسف الطارف والتليد وتدع النساء ايامى والابناء يتامى والديار خرابا والسواد بياضا . فايمّا رفقة مرّت باهل ماء فاهل ذلك الماء ضامنون له حتى يتصدى إلى الماء الذي يليه . تقدمة منّي اليكم ، والسعيد من وُعِظ بغيره والسلام .

١ البيان والتبيين (سندوبي) ١–٣١١
٢ البيان والتبيين (سندوبي) ١–٣٠٤

كلام عثمان بن عفان يرد على الناس لما نقموا عليه ما خص به مروان بن الحكم من الامر والمال[1]

لكلّ امة آفة . ولكل نعمة عاهة . وانّ آفة هذه الامة عيّابون طعّانون يظهرون لكم ما تحبّون ويُسرّون ما تكرهون . طغام مثل النعام يتبعون اول ناعق . لقد نقموا عليّ ما نقموه على عُمر ، ولكن قمعهم ووقمهم (قهرهم وأذلّهم) . والله اني لأقرب ناصرا واعزّ نفرا . فضلٌ من مالي فمالي لا أفعل في الفضل ما اشاء . — (اي لي فضل في مال فلماذا ألام على التصرف به كما أريد) .

خطبة يزيد بن المهلب (بواسط)[2]

قال :

« اني اسمع قول الرّعاع : قد جاء مَسلمة . وقد جاء العبّاس . وقد جاء أهل الشام . وما أهل الشام إلاّ تسعة اسياف سبعة منها معي واثنان عليّ . واما مَسلمة فجرادة صفراء . واما العبّاس فنسطوس بن نسطوس (اي رومي لأن أمه رومية) اتاكم في برابرة وصقالبة وجرامقة وجراجمة واقباط وانباط واخلاط من الناس ، اعمّا اقبل اليكم الفلاّحون والاوباش كاشلاء اللحم . والله ما لقوا أقواماً قطّ كحدّكم وحديدكم وعدّكم وعديدكم . أعيروني سواعدكم ساعةً من نهار (تصفحون بها طراطيبهم) فانما هي غدوة او روحة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الفاسقين » .

---

١ البيان والتبيين (سندوبي) ١–٢٨٩

٢ البيان والتبيين (سندوبي) ١–٢٣٧

أمثلة من الرسائل
والعهود والوصايا

كتاب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص بشأن ما عرضه صاحب الاسكندرية من دفع الجزية على ان تردّ لهم السبايا قال [1] :

« أما بعد فانه جاءني كتابك تذكر ان صاحب الاسكندرية عرض ان يعطيك الجزية ، على ان تردّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه . ولعمري لجزيةٌ قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين احبُّ اليّ من فيءٍ يقسم ثم كأنه لم يكن . فاعرض على صاحب الاسكندرية ان يعطيك الجزية على ان تخيّروا من في ايديكم من سبيهم بين الاسلام وبين دين قومه . فمن اختار منهم الاسلام فهو من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، ومن اختار دين قومه وضع عليه من الجزية ما يوضع على أهل دينه . فاما من تفرّق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لا نقدر على ردّهم ، ولا نحب ان نصالحه على أمر لا نفي له به » .

كتاب محمد بن ابي بكر الى الامام علي [2]

« بسم الله الرحمن الرحيم لعبد الله عليّ أمير المؤمنين من محمد بن

١ الطبري (الجملة الأولى) ٢٥٨٢
٢ الطبري (الجملة الأولى) ٣٣٩٥

ابي بكر سلام عليك. فاني أحمد الله اليك الذي لا اله غيره – أما بعد فاني قد انتهى إليّ كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه ، وليس احد من الناس بارضى مني برأي أمير المؤمنين ، ولا اجهد على عدوه ولا ارأف بوليّـه مني . وقد خرجت فعسكرت وآمنتُ الناس ، الاّ من نصب لنـا حرباً واظهر لنـا خلافـاً وانا متّبع أمر أمير المؤمنين وحافظه ، وملتجئٌ اليه وقائم بـه . والله المستعان على كل حـال والسلام عليك » .

وصية معاوية لابنه يزيد

قيل دعا معاوية وهو على فراش الموت ، وابنه يزيد غائب ، مسلم ابن عقبة المرّي والضحاك بن قيس الفهري ، فقـال ابلغا عني يزيد وقولا له [1] :

« انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك ، فمن أتاك منهـم فاكرمه ومن قعد عنك فتعهّده . وانظر إلى أهل العراق فان سألوك عزل عامل لهم في كل يوم فاعزله عنهم ، فانّ عزل عامل اهون عليك من سلّ مائة الف سيف ، ثم لا تدري على ما أنت عليه منهم . ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار [2] . فان رابك من عدوك ريب فارمهم بهم ، فان اظفرك الله بهم فاردد اهل الشام إلى بلادهم ، ولا يقيموا في غير بلادهم ، فيتأدّبوا بغير ادبهم . لست أخاف عليك غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وحسين بن علي . فاما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه [3] الورع ، واما الحسين فاني ارجو ان يكفيه

---

١ البيان والتبيين ١ – ١٩٨

٢ الشعار ما يلي الجسد من الثياب والدثار ما فوقه .

٣ أي غلبه أو جعله عليلا .

الله بمن قتل اباه وخذل اخاه ، واما ابن الزبير فانه خبّ ضبّ (فان ظفرت به فقطّعه اربا [1].)

كتاب الحجاج الى قطري بن الفجاءة

بسم الله الرحمن الرحيم [2]

كتب الحجاج بن يوسف إلى قطري بن الفجاءة : سلام عليك . اما بعد فانك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية ! قد علمت حيث تجرثمت [3] ذلك انك عاص لله ولولاة امره ، غير انك اعرابي جلف اميّ تستطعم الكسرة وتشتفي بالتمرة ، والامور عليك حسرة . خرجت لتنال شبعة فلحق بك طغام صلُوا بمثل ما صليت به من العيش ، يهزون الرماح ويستنشقون الرياح على خوف وجهد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظم مما جهلوا معرفته ! ثم اهلكهم الله بترحتين والسلام . »

رد قطري بن الفجاءة على الحجاج

فأجابه قطري بن الفجاءة :

« من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف : سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حرم الله ويرهبون نقمه ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه واظلع به اهل الضلالة وهدى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه ، كتبتَ إليّ تذكر اني اعرابي جلف اميّ استطعم

---

[1] ما بين قوسين ، فهو كما يقول الجاحظ ، من غير روايته .
[2] البيان والتبيين (س) ٢ – ٢٤٨
[3] سقطت من علو إلى أسفل .

الكسرة واشتفي بالتمرة ! ولعمري يا ابن ام الحجاج انك لميت في جبتك ، مطلخمّ (١) في طريقتك ، واهٍ في وثيقتك ، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك . يئست واستيئست من ربك . فالشيطان قرينك لا تجاذبه وثاقك ولا تنازعه خناقك . فالحمد لله الذي لو شاء ابرز لي صفحتك وأوضح لي طلعتك . فوالذي نفس قطريّ بيده لعرفت ان مقارعة الابطال ليست كتصدير المقال ، مع اني ارجو ان يدحض الله حجتك وان يمنحني مهجتك .

كتاب سليمان بن عبد الملك الى الوليد وجواب الوليد

قال ثعلب اشتكى الوليد بن عبد الملك وبلغه قوارص وتقريض من سليمان ابن عبد الملك وتمنّ لموته لما له من العهد بعده ، فكتب الوليد اليه يعتب عليه . وهذا جواب سليمان قال (٢)

« قد فهمت ما كتب به امير المؤمنين . فوالله لو كنتُ تمنيت ذلك تأميلاً لما يخطر في النفس ، اني لاول لاحق به وأول منعيّ إلى أهله ، فعلام اتمنى ما لا يلبث من تمنّاه الا ريثَ ما يحلّ السفر بمنزل ثم يظعنون عنه . وقد بلغ أمير المؤمنين ما لم يظهر على لساني ، ولم يرَ في وجهي . ومتى سمع من اهل النميمة ومن لا رويّة له ، اسرع ذاك في فساد النيّات والقطع بين ذوي الارحام » .

فكتب اليه الوليد :

« قد فهم أمير المؤمنين كتابك فما احسن ما اعتذرت به وحلوت عليه وانت الصادق في المقال الكامل في الفعال . وما شيء أشبه بك من اعتذارك وما شيء أبعد منك من الذي قيل فيك والسلام » .

١ مطلخم اي مضطجع
٢ ذيل الامالي ٢٢٥

عهد معاوية وعمرو بن العاص[1] (كتب سنة ٣٨هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما تعاهد عليه معاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص ببيت المقدس ، من بعد مقتل عثمان بن عفّان وحمل كل واحد منهما صاحبه الامانة . ان بيننا عهد الله على التناصر والتخالص والتناصح في أمر الله والاسلام ، ولا يخذل احدنا صاحبه بشيء ، ولا يتخذ من دونه وليجة ، ولا يحول بيننا ولد ولا والد ابداً ما حيينا ، فيما استطعنا . فاذا فتحت مصر فان عمراً على ارضها ، وامارته التي امّره عليها أمير المؤمنين . وبيننا التناصح والتوازر والتعاون على ما نابنا من الامور . ومعاوية أمير على عمرو بن العاص في الناس وفي عامة الامر ، حتى يجمع الله الامة فانهما يدخلان في أحسن امرها ، على احسن الذي بينهم في أمر الله الذي بينهما من الشرط في هذه الصحيفة » .

من رسالة هشام الى خالد بن عبد الله والي العراق

(كتبها عبد الله بن سالم ١١٩ هـ) [2] وكان قد اوغر صدر هشام عليه افراطه في الدالة واحتجان الاموال وكفر ما اسداه اليه . قال بعد البسملة :

« أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك الا لما احب من رَبِّ الصنيعة قِبَلك [3] ، واستتمام معروفه عندك ، وكان أمير المؤمنين احق من استصلح ما فسد عليه منك . فان تعد لمثل مقالتك وما بلغ أمير المؤمنين عنك رأى في معاجلتك بالعقوبة رأيه » . . « ولو أراد أمير المؤمنين افسادك لجمع بينك وبين مَن شهد فلتات خطلك وعظيم

[1] طبقات ابن سعد ج ٤ قسم ٢ ص ٢
[2] الكامل ج ٢ ص ٣٢٤ – ٣٢٦
[3] اتمام الاحسان اليك .

زللك حيث تقول لجلسائك : والله ما زادتني ولاية العراق شرفاً ، ولا ولاّني أمير المؤمنين شيئاً لم يكن مَن قبلي ممن هو دوني يلي مثله : ولعمري ان لو حاول امير المؤمنين مكافأتك في خطلك بمجلسك ، وجحودك فضله اليك وتصغير ما انعم به عليك فحلّ العقدة ونقض الصنيعة ، وردّك إلى منزلة انت أهلها ، كنت لذلك مستحقاً . ولولا ما أحب امير المؤمنين من ردّ غربك ١ ، لعاجلك بالّتي كنت أهلها ، وانها منك لقريب مأخذها سريع مكروهها . وان الله عزّ وجلّ لما رأى احسان أمير المؤمنين اليك ، وسوء قيامك بشكره قلب قلبه فاسخطه عليك ، حتّى قبحت أمورك عنده ، وآيسه من شكرك ما ظهر من كفرك النعمة عندك ، فأصبحت تنتظر سقوط النعمة وزوال الكرامة وحلول الخزي ، فتأهب لنوازل عقوبة الله بك فان الله عليك اوجد ، ولما عملت اكره ، فقد أصبحت وذنوبك عند أمير المؤمنين أعظم من أن يبكّتك الا راتباً بين يديه ٢ . والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أمير المؤمنين ما أفسدت من مال الله وضيعت من امور المسلمين ، فاذا خلوت أو توسطت ملاءً فاعرف نفسك ، وخف رواجع البغي عليك وعاجلات النقم فيك ، واعلم انّ ما بعد كتاب أمير المؤمنين هذا أشدّ عليك وافسد لك . وقبل امير المؤمنين خلف منك كثير في احسابهم وبيوتاتهم واديانهم ، وفيهم عوض منك ، والله من وراء ذلك » .

١ الغرب الحدة والنشاط .

٢ اي منتصباً بين يديه .

أمثلة من العظات الأخلاقية

ويظهر فيها الميل الى الازدواج

من خطبة قطري بن الفجاءة وهي طويلة نثبت منها ما يلي (١) :

« أما بعد فاني احذّركم الدنيا فانها حلوة خضرة ، حُفّت بالشهوات ، وراقت بالقليل ، وتحبّبت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وتزينت بالغرور ، لا تقوم نضرتها ، ولا تؤمن فجيعتها ، غرّارة ضرّارة ، وحائلة زائلة ، ونافدة بائدة ، اكّالة غوالة » ... إلى ان يقول : « فانية فانٍ من عليها ، لا خير في شيء من زادها الا التقوى . من اقلّ منها استكثر مما يؤمّنه ، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه ، ويطيل حزنه ويبكي عينه . كم واثق بها قد فجعته ، وذي حلم تنبّه اليها وقد صرعته ، وذي احتيال فيها قد خدعته ، وكم ذي ابّهة فيها قد صيرته حقيراً ، وذي نخوة ردته ذليلاً » .

« حيّها بعَرَض موت ، وصحيحها بعرض سقم ، ومنيعها بعرض اهتضام ، وملكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ،

١ نهاية الارب ٧ ص ٢٥٠ – ٢٥٤ وصبح الاعشى ١ ص ٢٢٣ – ٢٢٥

وجارها محروب » :

وذكر الذين قالوا من أشدّ منا قوّة ثم قال :

« حُملوا إلى قبورهم فلا يُدعَون ركبانا ، وانزلوا فلا يرعون ضيفانا ، وجعل الله لهم من الضريح اكنانا ، ومن الوحشة الوانا ، ومن الرفات جيرانا ، وهم في جيرة لا يجيبون داعيا ، ولا يمنعون ضيما ، ان اخصبوا لم يفرحوا ، وان قحطوا لم يقنطوا . جَمْعٌ وهم آحاد ، جيرة وهم أبعاد ، متناوؤن لا يزورون ولا يزارون ، حلماء قد ذهبت اضغانهم ، وجهلاء قد ماتت احقادهم ، لا يُرجى نفعهم ، ولا يُخشى دفعهم » — إلى ان يقول — « فاحذروا ما حذّركم الله ، وانتفعوا بمواعظه عصمنا الله واياكم بطاعته ، ورزقنا واياكم اداء حقه ».

من حكم الاحنف بن قيس[1]

« لن يهلك من قصد ، ولن يفتقر من زهد . من أمن الزمان خانه ، ومن تعظّم عليه أهانه . دعوا المزاح فانه يورّث الضغائن .

احتملوا لمن ادلّ عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر اليكم .

اطع أخاك وان عصاك ، وصله وان جفاك .

واعلم ان كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم :

ما أقبح القطيعة بعد الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد الودّ . لا تكوننّ على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا إلى البخل أسرع منك إلى البذل . »

ولما خطب زياد بن ابيه بالبصرة قام الاحنف فقال [2] :

« لله الامير ! قد قلت فاسمعت ، ووعظت فابلغت . أيها الامير إنما

١ الامالي ٢ — ٢٢

٢ نهاية الارب ٧ — ٢٣٧

السيف بحدّه ، والقوس بشدّه ، والرجل بمجده ، وانما الثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء ، ولن نُثني حتى تبتلي ، ولا نحمد حتى نُعطى » .

خطبة ابن حمزة بالمدينة واليك نخبة منها ١

« يا أهل المدينة اولكم خير اول . وآخركم شرّ آخر . إنكم اطعتم قرّاءكم وفقهاءكم ، فاختانوكم عن كتاب غير ذي عوج بتأويل الجاهلين وانتحال المبطلين ، فاصبحتم عن الحق ناكبين ، أمواتاً غير احياء وما تشعرون . يا اهل المدينة — يا ابناء المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ، ما أصحّ اصلكم واسقم فرعكم . كان آباؤكم اهل اليقين ، واهل المعرفة بالدين والبصائر الناقدة ، والقلوب الواعية ، وانتم اهل الضلالة والجهالة . استعبدتكم الدنيا فأذلّتكم ، والامانيّ فاضلتكم . فتح الله لكم باب الدين فافسدتموه ، واغلق عنكم باب الدنيا ففتحتموه . سِراعٌ إلى الفتنة ، بطاء عن السنة . عميٌ عن البرهان ، صمّ عن العرفان ، عبيد الطمع ، حلفاء الجزع . نِعمَ ما ورّثكم آباؤكم لو حفظتموه ، وبئسما تورّثون ابناءكم ان تمسكوا به . نصر الله آباءكم على الحق وخذلكم على الباطل . كان عدد آبائكم قليلاً طيباً ، وعددكم كثير خبيث . اتبعتم الهوى فارداكم ، واللهو فاسهاكم ، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزدجرون ، وتعبركم فلا تعتبرون » .

كلمة ابن القرّية في المزاح ٢

المزاح من ادنى منزلته إلى أقصاها عشرة أبواب . المزاح اوله فرح وآخره ترح . المزاح نقائض السفهاء ، كالشعر نقائض الشعراء ، والمزاح

١ مجاني الادب ٦ — ٥٠
٢ مجاني الادب ٢ — ١٢٠

يوغر صدر الصديق ، وينفّر الرفيق ، والمزاح يبدي السرائر ، لأنه يظهر المعاير ، والمزاح يسقط المروءة ، ويبدي الخنى . لم يجرّ المزاح خيرا ، وكثيرا ما جرّ شرّا . الغالب بالمزاح واتر ،والمغلوب به ثائر . والمزاح يجلب الشتم صغيره ، والحرب كبيره : وليس بعد الحرب الا عفو بعد قدرة . »

وذكر المزاح بحضرة خالد بن صفوان فقال[1] « يُنشّق احدكم اخاه مثل الخردل ، ويفرغ عليه مثل المِرجل ، ويرميه مثل الجندل ثم يقول : انما كنت أمزح :

قول ابي الدرداء لاهل الشام [2]

« يا أهل الشام مالي أراكم تبنون ما لا تسكنون ، وتجمعون ما لا تأكلون ، وتقولون ما لا تدركون . ان الذين كانوا قبلكم بنوا مشيدا ، وابلوا بعيدا ، وجمعوا كثيرا ، فأصبح املهم غرورا ، وجمعهم بورا ، ومساكنهم قبورا .

صفة الامام العادل للحسن البصري [3]

« إعلم يا أمير المؤمنين ان الله جعل الامام العادل قوامَ كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونَصَفَةَ كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والامام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله الرفيق ، الذي يرتاد لها أطيب المراعي،ويذودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر.

---

[1] مجاني الادب ٣ — ١٢٠

[2] مجاني الادب ٢ — ٢٤

[3] بتصرف طفيف عن نهاية الادب للنويري ٦ — ٢٧

والامام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده — هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم . فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله فبدّد المال وشرّد العيال فافقر أهله وفرق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين ان الله انزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ، وان الله انزل القصاص حياةً لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة اشياعك عنده ، وانصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الاكبر . واعلم ان لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك . يسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك يوم يفر المرءُ من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . فالآن يا أمير المؤمنين وانت في مهل قبل حلول الاجل ، وانقطاع الامل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلّط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة فتبوءَ باوزارك وأوزار مع اوزارك ، وتحمل اثقالك واثقالاً مع اثقالك .

الأسلوب المتوازن

أو

المزدوج غير المسجع

وهو السائد في النثر الادبي منذ عهد عبد الحميد حتى عهد ابن العميد

أي

من أوائل القرن الهجري الثاني إلى القرن الرابع

ويتناول البحث فيه

١ — النثر في أواخر العهد الاموي وصدر العهد العباسي
٢ — عبد الحميد الكاتب ورسائله
٣ — الجاحظ واسلوبه
٤ — امثلة من الاسلوب المتوازن بعد عهد الجاحظ

النثر في أواخر العصر الأموي وصدر العصر العباسي

حاولنا فيما سبق من الفصول ان نبيّـن ما كان عليه نثر صدر الاسلام وانه ظلّ – حتى استقرت طريقة عبد الحميد – أميل إلى البساطة والايجاز. ولا ينكر انه قد كان في ذلك العهد ازدواج كقول الحسن البصري يردّ على من هنأه بغلام وُلد له [1] :

« نحمد الله على هبته ، ونستزيده من نعمته ، ولا مرحباً بمن ان كنت غنياً أذهلني ، وان كنت فقيراً اتعبني ، لا أرضى له بسعيي سعياً ، ولا بكدي له في الحياة كدّاً ، أشفق عليه من الفاقة بعد وفاتي ، وأنا في حال لا يصل إليّ من همه حزن ، ولا من فرحه سرور » .

وعلى هذا النمط قول الاحنف في الولد [2] :

« هم عماد ظهورنا ، وثمرة قلوبنا ، وقرّة أعيننا ، بهم نصول على أعدائنا ، وهم الخلف منّا لمن بعدنا . فكن لهم أرضاً ذليلة ،

---

١ الامالي ٢ – ٣١

٢ الامالي ٢ – ٤٢

وضماءٌ ظليلة : إن سألوك فأعطهم ، وان استعتبوك فأعتبهم : لا تمنعهم رفدك فيملّوا قربك ، ويكرهوا حياتك ، ويستبطئوا وفاتك » .

وقول الحسن بن علي [1] :

« اعلموا ان الحكمة زين ، والوقار مروءة ، والصلة نعمة ، والاكثار صلَف ، والعجلة سفَه ، والسفه ضعف ، والغلق ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شَين ، ومخالطة أهل الفسوق ريبة » .

وهذا الكلام من قبيل الوعظ والحكم . وقد مرّ معنا ان الازدواج والتبسط يكثُران في كلام الوعاظ والحكماء من أهل الصدر الاول ، على انهما لم يكونا الطابع العام الذي وسم به كلامهم .

وهنا لا بدّ لنا من القول ان ظهور عبد الحميد لم يحوّل النثر العربي فجأةً من حال إلى حال ، بل ان هذا الكاتب إنما أقرّ طريقة التبسط والازدواج وطبع فن الرسائل بهما ، فأخذ الاسلوبان الموجز البسيط ، والمتبسط المزدوج يتنازعان السيادة ، وبقي هذا التنازع حِقبة من الزمن بدليل ما نجده من الميل إلى الايجاز في صدر الدولة العباسية حتى كان جعفر بن يحيى البرمكي يقول لكتّابه « لو استطعتم أن تكون كتبكم كالتوقيعات فافعلوا » [2]

ومن أمثلة هذا الاسلوب عند كتّاب العباسيين كتاب طاهر بن الحسين قائد المأمون إلى أبي عيسى ابن الرشيد ، وكان مع الامين . قال طاهر لكتّابه اكتبوا إلى ابي عيسى كتاباً تتقرّبون به اليه وتتباعدون ،ولا تطمعوه ولا توئسوه . فقالوا ان رأى الامير ان يعلمنا كيف ذلك ويحدّه لنا فقال اكتبوا [3] :

٣ الصناعتين ٣٢
١ أدب الكتاب للصولي ١٢٤
٢ ادب الكتاب ١٥١

« بسم الله الرحمن الرحيم – حفظك الله وأبقاك وأمتع بك : عزيزٌ عليّ ان أكتب إلى صغير منكم أو كبير [1] بغير التأمير . وقد بلغني عنك ممالأة للمخلوع [2] . فاذا كان ذلك منك ميلاً على أمير المؤمنين فقليل ما اكاتبك به كثير ، وان كنتَ كما قال الله – الاّ من أكره وقلبه مطمئن إلى الايمان – فالسلام عليك أيها الامير ورحمة الله وبركاته » .

وعلى هذا النمط ما حدّث به عبد الله بن أحمد بن يوسف عن أبيه قال [3] : « دخلت على المأمون وفي يده كتاب ورد من عمرو ابن مَسعدة وهو يردّد النظر فيه مرّات ، ثم قال لي اظنك قد افكرت في ترداي النظر في هذا الكتاب . قلت قد افكرت في ذلك . قال اني عجبت من بلاغته واحتياله لمراده كتب « كتابي إلى أمير المؤمنين أعزّه الله ومن قِبلي من قوّاده واجناده في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلّت أحوالهم » – ألا ترى يا أحمد إلى ادماجه الخلّة في الاجناد واعفائه سلطانه من الاكثار » .

ويروي ابن خلكان خبر الكتاب مع مقدمة للرشيد في البلاغة يقول فيها : البلاغة التباعد عن الاطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى [4]

ومثله كتاب طاهر بن الحسين إلى المأمون حين لقي عيسى بن ماهان وقتله ، وارسل رأسه إلى المأمون وقال [5] :

« كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يديه ، وخاتمه

---

١ أي من البيت العباسي المالك .
٢ أي الامين .
٣ ادب الكتاب للصولي ٢٣٤
٤ وفيات الاعيان ١ – ٥٥٧
٥ المثل السائر ٣٢٦

في يدي ، وعسكره مصرّف تحت أمري والسلام » .

وما كتبه محمد بن عبد الملك الزيات إلى عبد الله بن طاهر : قال ابن المدبّر : امره الواثق ان يتلطف بعبد الله بن طاهر ويعلمه انه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم وفوّض ذلك لابن عمه اسحق بن ابراهيم فكتب [1] :

« أما بعد فان أمير المؤمنين رأى ان يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

ومن ذلك كتاب عبد الله بن طاهر إلى الحسن بن عمر التغلبي قال [2] :

« أما بعد فانه بلغني من قطع الفسقة الطريق ما بلغني ، فلا الطريقَ تحمي ولا اللصوص تكفي ، ولا الرعية ترضي ، وتطمع بعد هذا في الزيادة . انك لمنفسح الامل . وايم الله لتكفينّ من قِبَلك أو لاوجهنّ اليك رجالاً لا تعرف مرة من جشم ولا عديًا من رُهم [3] ! ولا حول ولا قوّة إلا بالله . »

• • •

فمن هذه الامثلة وسواها يتضح لنا ان طريقة عبد الحميد لم تقض حالاً على الاسلوب القديم ، بل ظلت حقبة طويلة تسير معه جنباً إلى جنب حتى استقرّت السيادة أخيراً لها وأصبحت الزي الانشائي في الاوساط الأدبية . ومن مزاياها الظاهرة ما يلي :

---

١ الرسالة العذراء ٤٤

٢ من نهاية الارب ٦ — ٤٧

٣ مرة وجشم وعدي ورهم من بطون العرب .

التوازن

أي تعادل الفقرات على نحو السجع ، ويختلف عن السجع بعدم التقيّد بالقوافي . ويرى البيانيون ان حسنه قائم (كحسن السجع) على ما يلي :

١ — ان تكون الفواصل على زنة واحدة كقول بعضهم [١] « اصبر على حرّ اللقاء ، ومضض النزال ، وشدة المِصاع [٢] ، ومداومة المراس » . قال العسكري « فلو قال على حرّ الحرب ومضض المنازلة لبطل رونق التوازن » .

٢ — ان لا تكون فاصلة الجزء الاول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثاني ، فقد عيب على احد الكتبة قوله « وصل كتابك فوصل به مما يستعبد الحرّ وان كان قديم العبودية ، ويستغرق الشكر وان كان سالف ودّك لم يبق شيئاً منه [٣] » . (فالعبودية) التي هي فاصلة الجزء الاول بعيدة عن مشاكلة (منه) التي هي فاصلة الجزء الثاني .

٣ — ان تكون العبارات قصيرة متساوية ، والاّ فليكن الاخير أطول من الاول .

وسيجيء كل ذلك معنا في الكلام على السجع .

* * *

وقد يسمى هذا الاسلوب الازدواج ويسميه الرمّاني السجع العاطل [٤] ويجعله القلقشندي في مرتبتين : « الاولى ان يراعى الوزن في جميع الكلمات أو في أكثرها مع مقابلة الكلمة بما يعادلها وزناً ويسمى التوازن ،

---

١ الصناعتين ٢٠٣

٢ المصاع المجالدة .

٣ الصناعتين ٢٠٣

٤ صبح الاعشى ٢ — ٢٧٣

وهو أحسنها واعلاها [1] كالآية : « وآتيناهما الكتاب المستبين ، وهديناهما الصراط المستقيم » .

فكل كلمة في الجزء الاول من فعل ومفعول ونعت تقابل عديلتها في الجزء الثاني .

والمرتبة الثانية ان لا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الاخيرتين كالآية : « من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا ، خالدين فيها وساء لهم يوم القيامة حملا » .

وفي التوازن يقول ابن الاثير : « والكلام بذلك طلاوة ورونق ، وسببه الاعتدال لأنه مطلوب في جميع الاشياء . وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة وقعت من النفس موقع الاستحسان [2] » .

ويظهر لنا من مطالعة ما جادت به أقلام المنشئين في العهد الواقع بين عبد الحميد وابن العميد ان التوازن كان الطابع العام لنثر ذلك العهد، ولا يعني ذلك اننا لا نجد شيئاً من السجع أو البديع فيه ، بل ان السجع والبديع لم يبلغا في تلك المدّة ما بلغاه بعدها من السيادة والتحكم في الاوساط الادبية ، فلم يكونا لذلك منهجاً عاماً يتقيّد به الادباء . ويتجارون فيه : حتّى ان العسكري ، وهو من أهل القرن الرابع ، يقول : « واعلم ان الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجع ، فان جعلتها مسجوعة كان أحسن ، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد» .

وقد اشتهر بالتوازن الانشائي عدد من الكتّاب الذين نبغوا بين أواخر العصر الاموي وأواسط العصر العباسي امثال عبد الحميد وسهل بن هرون وأحمد بن اسماعيل وابراهيم بن المدبّر وابراهيم الصولي والجاحظ وسواهم . على اننا سنقف وقفة خاصة لدى ثلاثة منهم وهم عبد الحميد

---

١ صبح الاعشى ٢ — ٢٧٣

٢ المثل السائر ١٦٩

ابن يحيى وابو عمرو الجاحظ وابو حيان التوحيدي ففي ترسلهم مسا يوضح لنا بجلاء هذا الاسلوب الذي ساد الكتابة العربية منذ أواخر العصر الاموي حتى منتصف العصر العباسي ، والذي مهد الطريق لنشوء صناعة السجع والتأنق البديعي التي عرف بها القرن الرابع الهجري وما بعده؟

أسلوب عبد الحميد الكاتب

توطئة تاريخية ــ منشأه

يؤخذ من أقوال المؤرخين ان عبد الحميد فارسي الاصل . قال الاصطخري في عرض كلامه عن بلاد فارس [١] : « واما من يصلح من الفرس للدواوين من الكتاب والعمال والادباء فانّ منهم عبد الحميد ابن يحيى . وكان له في بني أمية ولاء ينسب اليهم ، وكان من كتابته واستقلاله ما أغنى عن ذكره واشتهاره » . وينسبه ابن خلكان فيقول [٢] « ابو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى بني عامر بن لؤي » . ويعيّن الطبري اسم وليّه اذ يقول [٣] « وكتب لمروان عبد الحميد مولى لعلاء بن وهب العامري » .

ويرجحون انه شامي المنشأ . فابن النديم يقول انه من أهل الشام [٤] على ذلك زيدان [٥] . ولم يرد لذلك ذكر في اليعقوبي أو الطبري

١ مسالك الممالك ١٤٥

٢ وفيات الاعيان ١ — ٤٣٥

٣ الطبري الجملة الثانية ٨٣٩

٤ الفهرست ١١٧

٥ تاريخ آداب اللغة ١ — ٣١٥

والمسعودي . واما ابن خلكان فغير صريح في أمر منشأه . ففي أول ترجمته له يتابع ابن النديم ثم يتناسى ذلك ويقول «وكان من أهل الانبار وسكن الرقة» . ولا نعلم عمن استقى ابن خلكان روايته هذه ، ولكننا لا نرى صعوبة في التوفيق بينها وبين ما ذكره ابن النديم بقولنا — وهو ما نرجحه — ان اصله فارسي من الانبار ثم انتقل بـه ذووه إلى الرقة فالشام وهنا نشأ ونبغ .

الديوان الذي خدمه

يقول ابن عبد ربه ان عبد الحميد — ويسميه عبد الحميد الاكبر — كتب لعبد الملك بن مروان ثم ليزيد ابنه وانه لم يزل كاتباً لبني أمية إلى أيام مروان بن محمد وانقضاء دولة بني امية [1] . وفي رواية ابن عبد ربه شيء من الارتباك فانه يذكر الخلفاء الذين بين عبد الملك وبين مروان ويذكر كتّابهم — كجناح كاتب الوليد ، وعبد الحميد الاصغر كاتب سليمان ، والليث بن رقية كاتب عمر بن عبد العزيز — ثم يعود إلى عبد الحميد الاكبر في أيام يزيد وما بعده . أما غيره من الادباء والمؤرخين فيذهبون إلى انه كان كاتب مروان مختصاً به . والارجح انـه تخرّج في الكتابة على يد سالم مولى هشام بن عبد الملك ، ثم التحق بمروان أيام ولايته على ارمينيا . ولما صار مروان خليفة انتقل معـه إلى الشام وفي سبيله مات .

وكل المصادر تصفه بكرم النفس والمروءة وحسن الرأي ولهم في ذلك حكايات فلتراجع [2] .

---

١ العقد ٢ — ٢٠٦

٢ لتحقق ذلك راجع خبره مع مروان وابن المقفع في وفيات الاعيان ١ — ٤٣٥ و ٤٣٦ وفي الطبري الجملة الثالثة ص ٢٦ والمسعودي ٦ — ٨١ .

منزلته الادبية

أجمع المؤرخون على انه صاحب طريقة جديدة في الانشاء العربي . قال الطبري : « وكان عبد الحميد بن يحيى من البلاغة في مكان مكين[1] » . وقال المسعودي « صاحب الرسائل والبلاغات وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب فاستعمل الناس ذلك بعده[2] » وقال ابن النديم : « وعنه أخذ المترسلون ولطريقته لزموا وهو الذي سهل سبل البلاغة في الترسل[3] » . وقد سبقهما ابن عبد ربه إلى ذلك إذ قال : « وكان عبد الحميد أول من فتق اكمام البلاغة وسهل طرقها وفك رقاب الشعر[4] » . وعلى هذا الغرار جرى ابن خلكان ولكنه نقل ما قاله المسعودي فلا لزوم لاعادته .

على ان أبا هلال العسكري يأتينا بشيء جديد فيقول : « ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الالفاظ على وجوهها بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الاولى . ألا ترى ان عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي[5] . »

فمؤرخو الادب منذ القرن الثالث مجمعون على ان الرجل ذو طريقة في الانشاء ، ويذهب بعضهم إلى ان هذه الطريقة فارسية الأصل . فما هذه الطريقة وهل هي فارسية لا تمت بقرابة إلى النثر العربي القديم ؟ ذلك ما نحاول الجواب عليه الآن فنقول :

١ الجملة الثانية ٨٣٩
٢ مروج الذهب ٦ — ٨١
٣ الفهرست ١١٧
٤ العقد ٢ — ٢٠٦
٥ الصناعتين ٥١ . ومما تحسن الاشارة اليه انه في نسخة أخرى من نفس الطبعة (الاستانة ١٣٢٠) تجد عبد الله بن المقفع بدل عبد الحميد ولعله خطأ تدورك على آلة الطبع.

عاصر عبد الحميد كاتب آخر لا يقل شهرة ومكانة عنه ، وهو عبد الله بن المقفع . وقد عرف ابن المقفع بشدة اتصاله بالادب الفارسي وكثرة نقله عنه وقد شهد له بذلك ابن النديم فقال : « وكان في نهاية الفصاحة والبلاغة وأحد النقلة في فن اللسان الفارسي إلى العربي ، مضطلعاً باللغتين ، فصيحاً بهما [1] » . وعليه فقد كان الاولى ان يكون هو صاحب الرسوم الفارسية في الانشاء العربي ومع ذلك لم يذكر بهما كما ذكر عبد الحميد . ونرجح ان ذلك ناشئ عما رأوه من الفرق في اسلوبيهما . فابن المقفع يميل في كتابته إلى ارسال الكلام دون أن يتقيد بازدواج أو توازن ، فلا يخرج بذلك عن الاسلوب العام في القرن الأول كما بيّنا سابقاً . واما عبد الحميد ففي طريقته يجري مجرى الازدواج والتبسط وبذلك يخرج عن مجرى الانشاء العام لعهده . واليك قطعتين لهما في معنى واحد نعرضهما للمقابلة :

قال عبد الله [2] :

« أعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة فيكونوا هم اخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك ، ولا يقذفنّ في رُوعك انك ان استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك ، فانك لست تريد الرأي للافتخار به ولكن تريده للانتفاع به . ولو انك مع ذلك أردت الذكر كان احسن الذكرين وأفضلهما عند أهل الفضل ان يقال لا يتفرّد برأيه دون استشارة ذوي الرأي .

انك ان تلتمس رضى جميع الناس تلتمس ما لا يدرك ، وما حاجتك إلى رضى من رضاه الجور ، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ؟ فعليك بالتماس رضى الاخيار منهم وذوي العقل فانك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه .

---

١ الفهرست ١١٨

٢ ننقل قوله من الدرة اليتيمة ١٩ و ٢٠ و ٥٨

إذا تراكمت الاعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح في مدافعتها والروغان منها فانه لا راحة لك إلا في اصدارها ، وان الصبر عليها هو يخففّها ، وان الضجر منها هو يراكمها عليك . فتعهد من ذلك في نفسك خصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الاعمال ان الرجل يكون في أمر من أمره فيرد عليه شغل آخر ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره فيكدّر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه ، حتى لا يحكم واحداً منها ، فان ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الامور ثم اختر اولى الامرين بشغلك فاشتغل به حتى تفرغ منه ، ولا يعظمنّ عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر إذا أعملت الرأي معمله ، وجعلت شغلك في حقه » .

وقال عبد الحميد بهذا المعنى [1] :

« ثمّ لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ، ودخلاؤك في سرّك ، اهل الفقه والورع من خاصة اهل بيتك ، وعامة قوّادك ، ممن قد حنّكته السنّ بتصاريف الامور ، وخبطته فصالها بين فراسن البزّل منها ، وقلّبته الامور في فنونها ، وركب اطوارها ، عارفاً بمحاسن الامور ، ومواضع الرأي وعين المشورة ، مأمون النصيحة ، منطوي الضمير على الطاعة . ثمّ أحضرهم من نفسك وقاراً يستدعي لك منهم الهيبة ، واستئناساً يعطف اليك منهم المودّة ، ولا يغلبنّ عليك هواك فيصرفك عن الرأي ، ويقتطعك دون الفكر . وتعلّم انك — وان خلوت بسرّ فالقيت دونه ستورك ، وأغلقت عليه أبوابك — فذلك لا محالة مكشوف للعامة ، ظاهر عنك ، وان استترت بربمّا ولعلّ ، وما أرى اذاعة ذلك . »

« إياك وان يظهر منك تبرّم بطول مجلسك ، أو تضجّر ممن حضرك ، وعليك بالتثبّت عند سورة الغضب ، وحميّة الانف ، وملال الصبر

---

[1] صبح الاعشى ١ — ٢٠٠

في الأمر لتستعجل بـه ، والعمـل تأمر بانفـاذه ، فان ذلك سُخف شائن ، وخفـة مُرديـة ، وجهـالة بادية ، وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله . »

فمن مقابلة هاتين القطعتين يتضح لك ان اسلوب عبد الحميد أكثر ميلاً إلى التوازن . فهل التوازن هو الرسم الذي أخذه عن الفرس حتى قيل فيه ما قيل ؟ يجوز ذلك إذا صح أمران : ١ً – إذا كان التوازن هو اسلوب النثر الفـارسي العـام أيام عبد الحميد أو ما قبله ٢ – إذا كان التوازن غير معروف في النثر العربي القديم . أما الاول فليس لدينا من النصوص الفارسية القديمة ما يحملنا على القول به ، وليس فيما ذكره مؤرخو الادب الفارسي ما يشعر بوجوده .

واما الثاني فغير صحيح ، لأن التوازن بل الازدواج موجود في النثر العربي منذ أقدم أزمانه . فهو كثير في القرآن وفي ما روي من أقوال الجاهلية وكثير في الادب الاخلاقي في العصرين الراشدي والاموي . فعبد الحميد لم ينقل رسمه عن الفارسية ولكنه اتخذه اسلوباً عاماً لرسائله فجعله بذلك طريقـة انشائية مقررة . واما الذي نقله عن الفارسية ممـا لم يكن شائعاً في الترسل العربي سابقاً فهو التحميدات الطويلة والتبسط في عرض الفكر . وقـد أصاب الاستاذ محمد كرد علي إذ قال يصف رسائله [١]

« وأكثر ما بدا في تضاعيفها الاطـالة في غير ما املال من سجع وترصيع ، ولم تكن هذه طريقة في الكتابة فيما بلغنا مألوفة في عامة دور الامويين ، لأن هؤلاء عرب اقحاح ، وكتّابهم على شاكلتهم يحاولون بالايجاز في مكتوباتهم أن يتركوا للقارىء شيئاً من المعـاني يفسرهـا بما يريد » .

---

١ مجلة المجمع العلمي العربي مج ٩ ص ٦٠٠

ثم يقول :

« ومن المحقق ان عبد الحميد اقتبس هذه الطريقة من الامم المجاورة لا سيما الفرس. ممن لم تكن حضارتهم ابتدائية كالعرب ، بل فيها المطوّل المسهب ، والمتشعّب المتعب . ولقد احتاج العرب بعد توسّعهم في الملك إلى تقرير المسائل على جليتها لا يحتورها لبس ولا اشكال . ومن مواجب الحضارة الاسهاب ، ومن دواعي البداوة الاقتضاب . فعبد الحميد اذن تشبّع بروح الدولة وروح حضارتها التي بلغت في أيامه أعلى قممها ، ورسم ببراعته صورة ما أحاط به واقتضاه الحال » . — إلى أن يقول :

« فهو مخترع طريقة ، وكاتبٌ وصّاف على الحقيقة ، استجمع كل شروط البلاغة فعُدّ أمير المنشئين غير مدافع ، واستطاب الناس إلى يومنا هذا اسلوبه المعجب المطرب » .

رسائل عبد الحميد واسلوبه

يظهر مما ذكره الذين ترجموا له انه ترك رسائل كثيرة . قال ابن النديم ولرسائله مجموع في نحو ألف ورقة [1] . ولم تصلنا جميع رسائله ولكن مما وصلنا نستدل ان له فيها القصير والطويل . واسلوبه العام هو الاسلوب المتوازن ، وقد يندفع في بعض حماساته فيسلك سبيل السجع ، كقوله إلى بعض من خرج عن الطاعة [2] :

أما بعد : بلغني كتابك تذكر انك تحمل المرُد على الجرُد ، فسترد عليك جنود الله المقرّبون ، وأولياؤه الغالبون ، ويرد عليك مع ذلك

---

١ الفهرست ١١٧

٢ صبح الاعشى ٨ — ٢٦٨

حزبه المنصور من الكهول ، على الفحول ، كأنها الوعول ، تخوض الوحول ، طوال السبال تختضب بالجريال [1] ، رجال هم الرجال ، بين رامح وناشب ، ليس معهم الا كليب محارب ، ولا ينكلون عن الاصحاب . قد ضروا بضرب الهام ، واعتادوا الكرّ والإقدام ، ليسوا بذوي هينة ولا إحجام ، يقضون بالسيوف ويخالطون الزحوف ، في أعنتهم الحتوف ، يزأرون زئير الاسود ، ويثبون وثوب الفهود ، ليس فيهم الا شاكٍ محتبك ، في الحرب مجرّب ، قد شرب على ناجذ [2] الحرب وأكل ، ذو شقشقة وكلكل [3] ، كانما أشرب وجهه نقيع الحنّاء ، قد رئِمَ الحرب ورضعها ، وغذّته والفها ، فهي أمه وهو ابنها ، يسكن اليهـا ويأنس بقربها ، فهو بطلبها أرِب ، وعلى أهلها حرِب [4] ، لا يروعه ما يروع ، ولا يزيغه ما يزيغ الغمر الجبان ، حين يشتد الوغى ، وتخطر القنا ، وتقلص الشفاه ، وتسفر الكماة ، فعند ذلك تسلمك المرد ، وتُكشَف عن الجرد . فتأهّب لذلك أهبتك ، واخطب له خطبتك ، من المساكين والحوكة ، ثم كيدوني جميعاً فلا تُنظرون ، فما اسرّنا اكثارُك الجموع ، وحشدك الخيول ، فانك لا تكثّف جمعاً ، ولا تسرّب خيلا ، الا وثقنا بان سيمدّنا الله من ملائكته ، ويزيدنا من نصره ، بما قد جرت به سنته ، وسلفت بـه عادته . »

ويقترن التوازن في رسائله عموماً بما يلي :

١ – الاطناب والتبسّط

٢ – كثرة العطف والترادف .

١ الجريال صبغ أحمر ويراد به هنا الدم .

٢ ناجذ : سن .

٣ الكلكل صدر البعير ، الشقشقة هديره وهو كناية عن شدة الوطأة .

٤ ارب ماهر . وحرب شديد .

٣ ـ رشاقة الألفاظ .

٤ ـ عدم تكلّف السجع والبديع .

وسنشرح ذلك في كلامنا على رسائله : وأهمّها اثنتان : رسالته إلى الكتّاب ، ورسالته إلى عبد الله بن مروان ، واليك شيئاً عنهما :

رسالته الى الكتاب

تقع في نحو أربع صفحات من كتاب صبح الاعشى [1] . وهي مجموعة وصايا بليغة يوصي بها الكتّاب ، وتدور على ما يجب على الكاتب معرفته وممارسته من آداب الكتابة ، وحسن العشرة ، ولزوم التعاون والاتّصاف بالاخلاق الحميدة . وقد أصبحت هذه الرسالة نموذجاً للآداب الكتابية . قال القلقشندي : « أصل هذه الآداب الذي ترجع اليه وينبوعها الذي تفجّرت منه رسالة عبد الحميد الكاتب التي كتبها إلى الكتّاب يوصيهم فيها [2] » . وقد كانت الكتابة صناعة يرتزق بها وكان أربابها طبقة خاصة تربطهم روابط الفنّ وآدابه . وفي صبح الاعشى فصول تقع في نحو ١٥ صفحة بسط فيها واضعها ما قيل في ذلك وهي حرية بان تراجع [3] لبلاغتها ، ولان رسالة عبد الحميد كما قيل سالفاً أصلها وينبوعها ، وتتناول هذه الفصول حسن السيرة وشرف المذهب وعشرة الملوك والعظماء ومعاملة الاكفاء والنظراء .

ومن أمثلة ذلك ما قيل في باب عشرة السلطان :

« فان من شروط هذه الخدمة ان يتصرّف صاحبها في كل ما يصرّف فيه ، ويسرع الانقياد إلى كل ما يدعى اليه ، ولا يكثر من الدعاء

---

١ صبح الاعشى ١ ص ٨٥ — ٨٩

٢ صبح الاعشى ١ — ٨٥

٣ صبح الاعشى ١ ص ٦٩ — ٨٤

لرئيسه والثناء عليه والشكر على ما يوليه من العوارف فان مثل ذلك يستثقل » .

ومنها : « ان لا يحضر سلطانه في ملابسه التي جرت العادة ان ينفرد بها كالوشي ونحوه ، الا ان يكون هو الذي يشرفه بها ، وان يقتصد في لباسه فينحط عما يلبسه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السوقة ، ويصرف عنايته إلى التنظف والتعطر ، وقطع الرائحة الكريهة من العرق وغيره ، حتى لا تقع عين رئيسه على دنس في أثوابه ، ولا يجد منه كريه رائحة في حال دنوه منه . ويواصل استعمال الطيب والبخور الفائق والتضمخ بالمسك ، فان الملوك ترى ان من اغفل تعهد نفسه كان لغيرها أشد اغفالا » .

ومنها : « أن يتجنب التفاصح والتعمق في مخاطبة رئيسه . والافتخار عليه بالبلاغة والبيان : لما في ذلك من الترفع عليه في الكلام . بل يجعل ما يلقيه اليه ضمن الفاظ تدل على معانيها بسهولة مع غض من صوته ، وخفض من طرفه ، وسكون من أعضائه : لأنه إنما يتسامح بالاتيان بالفصاحة والذهاب بمذهب الجزالة للخطباء الذين يثنون على الملوك في المواقف العامة ضرورة احتياجهم إلى استعمال الفاظ تقع في الاسماع أحسن المواقع » .

ومنها ما ورد في باب عشرة الاكفاء والاتباع :

« وهم وان كانوا أصحاب الكاتب ومروؤسيه وأتباعه ، فاسم الكتابة يجمع بينه وبينهم ، ومعاشرتهم داخلة في باب التكرم ، والتفضيل ، والاستئثار بمحاسن الافعال ومكارم الشيم » .

ثم قال بعد ذلك : « وينبغي ان يخصهم بالنصيب الاوفر من اكرامه ، والقسم الاغزر من ملاحظته واهتمامه ، ويفرض لهم من التقديم والاختصاص وتفقد الاحوال والشؤون ، والذي ينتهي اليه أمل المرؤوس من الرئيس : ليجعل خدمتهم له بذلك خدمة مقة

ومودة ، لا خدمة خوف ورهبة ، وان يحبب خدمته اليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ، وانالتهم من الترفيه في بعض الاوقات ما يجدون به السبيل إلى الاخذ بنصيب من لذاتهم واوطارهم التي تميل النفوس اليها ، وتتهافت عليها ، فانهم متى لحقهم التعب والنصب، اعترضهم الضجر والملال ، فقصروا في الاعمال ، وتهاونوا بالاشغال ، فلا بد لهم من راحة تصفو بها أذهانهم ويزول عنها الكلال ، ولا يفسح لهم في مواصلة الراحة والاخلال بما يلزمهم ، فان ذلك يحمل على سوء العادة وقبح المذهب . وعليه ان يحفظ لهم حقوق الصحبة والخدمة ويوجدهم من الاعانة ما فيه صلاح حالهم ، فانه يستعبدهم بذلك ويستخلص مودتهم إذ القلوب مجبولة على حب من أحسن اليها » .

أما رسالة عبد الحميد فيبدأها بمخاطبة الكتاب وتبيان شرف صناعتهم فيقول :

« أما بعد . حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ! فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً ، وان كانوا في الحقيقة سواء ، وصرفهم في صنوف الصناعات ، وضروب المحاولات إلى اسباب معايشهم ، وأبواب ارزاقهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات أهل الادب ، والمروءة ، والعلم ، والرواية. بكم تنتظم للخلافة محاسنها ، وتستقيم أمورها ، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ، وتعمر بلادهم . لا يستغني الملك عنكم ، ولا يوجد كاف الا منكم ، فموقعكم من الملوك موقع اسماعهم التي بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يبصرون ، والسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون . فامتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ! ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم ! »

ثم يحضهم على الخير والمروءة وحسن النظر في الامور ، فيقول :

« وليس أحد أحوجَ إلى اجتماع خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة ، منكم أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ان يكون حليماً في موضع الحلم ، فهيماً في موضع الحكم ، ومقداماً في موضع الاقدام ، ومحجماً في موضع الاحجام ، مؤثراً للعفاف ، والعدل والانصاف ، كتوماً للاسرار ، وفيّاً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي من النوازل ، ويضع الامور مواضعها ، والطوارق أماكنها . قد نظر في كل فن من فنون العلم فاحكمه ، فان لم يحكمه أخذ منه بمقدار يكتفي به . يعرف بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعدّ لكل أمر عدته وعتاده ، ويهيّئ لكل وجه هيأته وعادته » .

وينبّههم إلى ما يجب اتقانه وتجنبه ، فيقول :

« ثم اجيدوا الخط فانه حلية كتبكم ، وارووا الاشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فان ذلك معين لكم على ما تسمو اليه هممكم . ولا تضيعوا النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها ، وسفساف الامور ومحاقرها ، فانها مَذلّة للرقاب ، مفسدة للكتّاب ، ونزّهوا صناعتكم عن الدناءات ، واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه اهل الجهالات ، واياكم والكبر والصلّف والعظمة ، فانها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابّوا في الله عزّ وجل في صناعتكم . وتواصوا عليها بالذي هو اليق بأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم . »

• • •

ثم يتناول ما يجب عليهم من حسن التعاون والنصيحة ولطف السياسة

وبعد النظر ، فيقول :

« وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه أمره ، وان أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل تجربته ، وقدم معرفته . وليكن الرجل منكم على ما اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه احفظ منه على ولده وأخيه . فان عرضت في الشغل محمدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه ، وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه . وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال ، فان العيب اليكم معشر الكتّاب اسرع منه إلى القراء ، وهو لكم افسد منه لها »

فقد علمتم ان الرجل منكم إذا صحبه الرجل ، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه ، فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه ، وشكره ، واحتماله ، وصبره ، ونصيحته ، وكتمان سره ، وتدبير أمره ، ما هو جزاء لحقه . ويصدّق ذلك بفعاله عند الحاجة اليه ، والاضطرار إلى ما لديه .

فاستشعروا ذلكم — وفقكم الله — من أنفسكم في حالة الرخاء ، والشدّة ، والحرمان ، والمواساة ، والاحسان ، والسرّاء ، والضراء ، فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ! فاذا ولي الرجل منكم أو صُيّر اليه من أمر خلق الله وعياله أمر ، فليراقب الله عزّ وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً ، فان الخلق عيال الله ، واحبّهم اليه ارفقهم بعياله . ثم ليكن بالعدل حاكما ، وللاشراف مكرما ، وللفيْ موفّرا ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألّفا ، وعن ايذائهم متخلفا ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليما ، وفي سجلاّت خراجه ، واستقصاء حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلائقه ، فاذا عرف حسنها وقبيحها اعانه على ما يوافقه من الحسن واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة ،

واجمل وسيلة . وقد علمتم ان سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة اخلاقها ، فان كانت رموحاً لم يهجْها إذا ركبها ، وان كانت شبوباً اتّقاها من قبل يديها ، وان خاف منها شروداً توقّاها من ناحية رأسها ، وان كانت حروناً قمع برفق هواها في طريقها ، فان استمرّت عطفها يسيراً فيسلس له قيادها . وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه ، وشريف صنعته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، اولى بالرفق بصاحبه ومداراته ، وتقويم أوَده من سائس البهيمة التي لا تُحير جوابا ، ولا تعرف صوابا ، ولا تفهم خطابا ، الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها . ألا فامعنوا رحمكم الله في النظر ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الرويّة والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة ، والاستثقال والجفوة ، ويصير منكم إلى الموافقة ، وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة ان شاء الله تعالى » .

• • •

ويأخذ من هنا يحضّهم على الاعتدال وتجنّب متالف السرف — فيقول :

« ولا يجاوزنّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون امره ، قدر حقه . فانكم مع ما فضّلكم الله به من شرف صنعتكم خَدَمة لا تُحملون في خدمتكم على التقصير ، وحفَظة لا تحتمل منكم افعال التضييع والتبذير . واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم ، وقصصته عليكم . واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فانهما يعقبان الفقر ويذلاّن الرقاب ، ويفضحان اهلهما ولا سيما الكتاب ، وارباب الآداب . وللامور أشباه وبعضها دليل على بعض ، فاستدلّوا على مؤتنَف أعمالكم

بما سبقت اليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة ، وأصدقها حجة ، وأحمدها عاقبة » .

• • •

ويتقدم اليهم بتجنّب الاكثار من الكلام والوصف بقوله :

« واعلموا ان للتدبير آفة متلفة – وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ عمله ورؤيته ، فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقه ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ، وليأخذ بمجامع حججه ، فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن اكثاره . وليضرع إلى الله في صلة توفيقه ، وامداده بتسديده ، مخافة وقوعه في الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه ، فانه ان ظنّ منكم ظانٌّ ، أو قال قائل ، ان الذي برز من جميل صنعته وقوّة حركته ، إنما هو بفضل حيلته ، وحسن تدبيره ، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى ان يكله الله عزّ وجل إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كافٍ ، وذلك على من تأمّله غير خافٍ » .

ويختم الرسالة بهذه الكلمات البليغة في التواضع وعدم الاعتداد بالنفس :

« ولا يقل أحد منكم انه ابصر بالامور وأحمل لعبء التدبير من مرافقه في صناعته ، ومصاحبه في خدمته ، فان اعقل الرجلين عند ذوي الالباب من رمى بالعُجب وراءَ ظهره، ورأى ان صاحبه أعقل منه وأحمد في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين ان يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكاثر على أخيه أو نظيره ، وصاحبه أو عشيره ، وحمد الله واجب على الجميع : وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل لعزته ، والتحدث بنعمته » .

• • •

ومن التأمل في هذه الرسالة يُستشفّ ما في نفس صاحبها من أخلاق

كريمة ، ويلاحظ ان التوازن فيها مقرون برشاقة بعيدة عن التكلف الصناعي وليس فيها من الاطناب والازدواج ما نجده في بعض رسائله الاخرى ولا سيما في رسالته الكبرى التالية :

رسالته الى عبد الله بن مروان

وقد كتبها اليه عن لسان أبيه الخليفة مروان بن محمد وكان قد أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي وذلك ١٢٩ هـ . والرسالة تقع فيما يقارب الاربعين صفحة من صفحات صبح الاعشى [١] فـلا متسع لاثباتها هنا ، على اننا نلفت النظر فيما يلي إلى نقاطها الرئيسية وإلى ما يتجلى فيها من اسلوب عبد الحميد — أما نقاطها الرئيسية فهي :

١ — وصف الخارجي وأصحابه .

٢ — رغبة أمير المؤمنين مع علمه بمكان ولي العهد في الدين والخلق في ان يقدّم له لطائف العظات والنصائح مؤدّياً بذلك حق الله الواجب عليه في ارشاده وقضاء حقه وما ينظر به الوالد الشفيق لولده — ومن ذلك قوله :

« وقد تقدّم أمير المؤمنين اليك ، آخذاً بالحجة عليك ، مؤدياً حق الله الواجب عليه في ارشادك وقضاء حقك ، وما ينظر به الوالد المعنيّ الشفيق لولده . وأمير المؤمنين يرجو ان ينزّهك الله عن كل قبيح يهش له طمع ، وان يعصمك من كل مكروه حاق بأحد ، وان يحصنك من كل آفة استولت على كل امرىء في دين أو خلق ، وان يبلّغه فيك احسن ما لم يزل يعوّده ويريه من آثار نعمة الله عليك ، سامية بك إلى ذروة الشرف ، متبحبحة بك بسطة الكرم ، لائحة بك في ازهر معالي الادب

١ صبح الاعشى ج ١٠ ص ١٩٥ — ٢٣٣

مورثة لك النفس دخائل العزّ ، والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأله حياطتك ، وان يعصمك من زيغ الهوى ، ويحضرك داعي التوفيق ، معاناً على الارشاد فيه ، فانه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو » .

٣ ـ مسالك الحكمة واخلاص لقوى الله والاعتماد عليه وقراءة كتابه والحذر من الاهواء التي هي خُدع ابليس ، وهي سبب الوهن والهلاك .

ومن قوله في ذلك :

« اعلم ان للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمّها سالكا ، وركب أخطارها قاصدا ، إلى سعة عاقبتها ، وامْن سرحها ، وشرف عزها ، وانها لا تُحار بسُخف الخفة ، ولا تُنشأ بتفريط الغفلة » .

وقوله :

« واعلم ان كل أهوائك لك عدو يحاول هلكتك ، ويعترض غفلتك : لانها خُدع ابليس ، وخواتل مكره ، ومصايد مكيدته ، فاحذرها مجانباً لها ، وتوقّها محترساً منها ، واستعذ بالله عزّ وجل من شرها ، وجاهدها إذا تناصرت عليك بعزم صادق لا ونية فيه ، وحزم نافذ لا مثنويّة لرأيك بعد اصداره ، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ، ومضاءة صارمة لا أناة معها ، ونيّة صحيحة لا خلجة شك فيها » .

إلى أن يقول :

« فحاول بلوغ غاياتها محرزاً لها بسبق الطلب إلى اصابة الموضع ، محصّناً اعمالك من العُجب : فانه رأس الهوى ، واول الغواية ، ومقاد الهلكة ، حارساً اخلاقك من الآفات المتصلة بمساوئ الالقاب وذميم تنابزها ، من حيث أتت الغفلة ، وانتشر الضياع ، ودخل

الوهن . فتوقَّ غلوب الآفات على عقلك فان شواهد الحق ستُظهر بامارآتها تصديق آرائك عند ذوي الحجا ، وحال الرأي وفحص النظر . فاجتلب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصدق بالحذر لما تقدّم اليك فيه أمير المؤمنين ، متحرّزاً من دخول الآفات عليك من حيث امنك ، وقلة ثقتك بمحكمها » .

ثم يتقدم اليه بجوامع خلال هي غاية في البلاغة .

٤ — من يجب أن يكون بطانته واهل سرّه وكيف يعاملهم ويسلك معهم . ومن أهمّ ما يتصف به هنا :

ان يختارهم من أهل الورع والحنكة — ان لا يصرفه الهوى عن استشارتهم — ان يسلك أمامهم مسلك الوقار والرزانة ، وضبط النفس عن الغضب ، والبعد عن المضاحك وعنفوان الحداثة والصلف والمداعبة وكثرة تحريك الجوارح ، والاقبال على أهل السعاية .

٥ — « ان لا تنظر في المسائل قبل ان ترفع إلى كاتبك ، وتصفّح وجوه جلسائك وتفقد مجالس قوّادك » .

٦ — « لا تظهر لأحد انك بحاجة موحشة ، أو انك قاصر الفهم عن تناول الامور » .

٧ — « تجنب سخائف العادات والحركات (وهو بالحقيقة تابع لما ذكره قبلاً من الوقار وسكون الريح) واستكثر من فوائد الخير فانها تنشر المحمدة » .

٨ — « قس بين منازل أهل الفضل وبين منازل أهل النقص وانظر بصحة أيهم تنال من مؤونة الجميل وتستجمع أقاويل العامة على التفضيل » .

في لقاء العدو

٩ — « حصن جندك ، واشكم نفسك بطاعة الله في مجاهدة اعدائه ، وارجُ نصره ، وتنجّز موعوده ، متقدّماً في طلب ثوابه على جهادهم ، معتزماً في ابتغاء الوسيلة اليه على لقائهم : فان طاعتك اياه فيهم ،

ومراقبتك له ورجاءك نصره مسهّل لك وعوره ، وعاصمك من كل سبّة ، ومنجيك من كل هوّة ، وناعشك من كل صرعة ، ومقيلك من كل كبوة ، ودارىء عنك كل شبهة ، ومذهب عنك لطخة كل شك ، ومقويك بكل ايد ومكيدة ، ومعزك في كل معترك قتال ، ومؤيدك في كل مجمع لقاء ، وكالئك عند كل فتنة مغشية ، وحائطك من كل شبهة مردية ، والله وليك وولي أمير المؤمنين فيك ، والمستخلف على جندك ومن معك » .

١٠ — حاول ان تنال الظفر بحسن الحيلة دون اهراق الدماء . واعلم ان الظفر ظفران أحدهما وهو أعمّ منفعةً ما نيل بسلامة الجنود وحسن الحيلة ولطف المكيدة » .

١١ — سياسة الجواسيس : وأذكِ العيون على العدو متطلعاً أحوالهم التي يتقلبون فيها ، ولا تبدرنّ منك فرط عقوبة إلى احد من العيون بل ابسط آمالهم » .

١٢ — حسن اختيار القواد والحرّاس .

١٣ — حسن اختيار القضاة في العسكر .

١٤ — تفويض القيادة بأمر الجنود رياضة منك لهم على السمع والطاعة لامرائهم واوعز إلى القواد ان لا يذللوا الجند .

١٥ — تعبئة الجند للقاء العدو في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة وكيفية ذلك .

١٦ — حفر الخنادق حول الجند أو الحصن .

١٧ — « وكّل بخزائنك ودواوينك رجلاً ناصحاً ذا ورعٍ حاجز ودين فاصل » .

« إذا تدانى الصفان فاكثر من ذكر الله والتوكل عليه والتفويض اليه :

وليكن في معسكرك المكبّرون في الليل والنهار قبل المواقعة ، وقوم موقوفون يحضّونهم على القتال ويحرّضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكّرونهم الجنة ودرجاتها ونعيم

أهلها وسكانها ، ويقولون : اذكروا الله يذكركم ، واستنصروه ينصركم ، والتجئوا اليه يمنعكم . وان استطعت ان تكون انت المباشر لتعبئة جندك ، ووضعهم مواضعهم من رأيك ، ومعك رجـال من ثقات فرسانك ذوو سنّ وتجربـة ونجدة على التعبئة التي أمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابك ، فافعل ان شاء الله تعالى .

« أيّدك الله بالنصر ، وغلبَ لك على القوّة ، واعانك على الرّشد، وعصمك من الزّيغ ، وأوجبَ لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الاصفياء ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

مزايا الرسالة الانشائية

١ ـ الاطناب والبسط

خذ القطعة التي اولها « اعلم ان للحكمـة مسالك تفضي [١] » وهي سبعة أسطر في أكثر من سبعين كلمة فقد تلخص بما يلي :

اعلم ان للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها إلى سعة عاقبتها وقد تلقّتك اخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، بل تأثّلت منها أكرم نبعاتها واحرزت منفس ذخائرها ، فاقتعد ما احرزت ونافس فيما اصبت .

ولا يفقد الكلام بهذا التلخيص غير فخامة الاطناب . والاّ فالمعاني واحدة لم تتغير تغيراً يذكر . ومن ذلك قوله (ص ٢٠٨) في ثمانية أسطر تلخص بمـا يلي :

هذه جوامع خصال لخصها لك أمير المؤمنين ، وأهداها اليك مرشداً فخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى ، وتنل أنفس الحظوظ .

---

١ راجعها في صبح الاعشى ١٠ – ١٩٦

والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الارشاد وتتابع المزيد وبلوغ الامل ، فانه الموفق للخير وبيده الملك وهو على كل شيء قدير .

وفي صفحة ٢٠٩ كلام يقع في نحو ١٢ سطراً ويستطاع تلخيصه في نحو أربعة أو خمسة أسطر . وقل ذلك في كثير من قطع الرسالة .

والتبسّط على ما فيه من روعة وجلال ولا سيما في مثل هذا المقام يجب الاعتدال فيه ما أمكن . واذا تساوت الاسباب فالايجاز ابلغ .

٢ ــ توازن الجمل

وهو من المزايا العامة في كلامه . فكأنه يزن عباراته وزناً تتكافأ فيه كفتا الميزان كقوله (ص ١٩٨) :

فهي واقية لك سخطة ربّك ، داعية اليك رضا العامة عنك ، ساترة عليك عيب من دونك .

وقوله (ص ١٩٩) :

من ذلك ان تملك أمورك بالقصد ، وتداري جندك بالاحسان ، وتصون سرّك بالكتمان ، وتداوي حقدك بالانصاف ، وتذلل نفسك بالعدل ، الخ ...

وفي الصفحة نفسها نحو ١٣ سطراً فيها نحو ١٧ عبارة على اتزان واحد . تبدأ الأولى بقوله : « واناتك فوقّها الملال وفوت العمل » ثم تتلوها العبارات الاخرى بين طويلة وقصيرة كلها تبدأ بالمفعول يتبعه الامر كقوله : « ومضاءتك فدرّعها روية النظر ، واكنفها بأناة الحلم ، وخلوتك فاحرسها من الغفلة واعتياد الراحة ، وصمتك فانف عنه عيّ اللفظ » . ويجري على هذا النمط فيصدّر سائر العبارات بمثل هذه الالفاظ :

واستماعك ــ وعطاءك ــ وحياءك ــ وحلمك ــ وعقوبتك ــ وعفوك ــ

واستئناسك — وتعهدك — وعزماتك — إلى آخر الكلام .

وانك لتكاد تجد ذلك عاماً في أكثر رسائله .

٣ — الترادف

وهو من قبيل الاطناب كقوله (ص ٢٠١) :

فاذا قُدح لاح شرره ، وتلهب وميضه ، ووقد تضرّمه .

وقوله (ص ١٩٧) :

لأنها خُدع ابليس ، وخواتل مكره ، ومصايد مكيدته ، فاحذرها مجانباً ، وتوقّها محترساً منها ، واستعذ بالله عز وجل شرّها .

وقوله (ص ٢٠٠) :

واياك ان يغمز فيك أحد من حامّتك وبطانة خدمتك بضعفة يجد بها مساغاً إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ، ولا تخلو من لائمته ، ولا تأمن سوء الأحدوثة فيه ، ولا يرخص سوء القالة به ان نجم ظاهراً ، أو علُن باديا .

وقوله (ص ٢٠٦) :

وان تريه او احداً من اهل مجلسك ان بك حاجة اليه موحشة ، أو ان ليس بك عنه غنى في التدبير ، أو انك لا تقضي دونه رأياً .

وقوله (ص ٢٠٧) :

« وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام . والترك لفضوله ، والاغرام بالزيادات في منطقك ، والترديد للفظك ، من نحو اسمع وافهم عني ...أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة باهل العقل ،الشائنة لذوي الحجا في المنطق، المنسوبة اليهم بالعيّ » .

• • •

أما ما ذكرنا لهُ من رشاقة الالفاظ وعدم تكلف السجع والبديع فظاهر في كلامه لا يحتاج إلى اثبات أو ايضاح .

رسائل الجاحظ

توطئة تاريخية

أبو عثمان عمرو الجاحظ شخصية بارزة في تاريخ الادب العربي . والمحققون على انه عربي من كنانة ولقّب بالجاحظ لأن عينيه كانتا جاحظتين [1] . وُلد بالبصرة سنة ١٥٠ هـ وفيها نشأ وتأدّب « وقد سمع من الاصمعي وابي عبيدة وابي زيد الانصاري وأخذ النحو عن الاخفش ، وكان صديقه ، وأخذ الكلام عن النظّام ، وتلقّف الفصاحة من العرب شفاهاً بالمربد [2] » . وبقي بالبصرة دهراً ثم رحل إلى دار الخلافة بغداد وتصدّر مجالس الادب وكان « يتقلد خلافة ابراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل [3] » ، ثم عُيّن رئيساً لذلك الديوان ولكنه لم يلبث فيه إلاّ ثلاثة أيام ثم استعفى فأعفي [4] . ومن شهادة معاصريه ومن جاء بعده نستدل ان الرجل كان ذا منزلة أدبية عالية .

---

١ وفيات الاعيان ١ – ٥٥٣

٢ معجم الادباء (ياقوت) ٦ – ٥٦

٣ معجم الأدباء (ياقوت) ٥ – ٦٢

٤ معجم الأدباء ٦ – ٥٨

ومن هذه الشهادات ما نقل عن أبي الفرج الاصفهاني في حديث له عن عبد الله بن جعفر الوكيل قال : « كنت يوماً عند ابراهيم بن المدبّر فرأيت بين يديه رقعة يردّد النظر اليها فقلت له ما شأن هذه الرقعة كأنه استعجم عليك شيء منها ؟ فقال هذه رقعة ابي عثمان الجاحظ ، وكلامه يعجبني وأنا اردّده على نفسي لشدّة اعجابي [1] » .

ومن ذلك ما روي من حديث ثابت بن قرّة اذ قال [2] : « ما أحسد هذه الامّة العربية إلاّ على ثلاثة أنفس اولهم عمر بن الخطاب (ويتلو ذلك وصفه) والثاني الحسن البصري (ويصفه) والثالث ابو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ومدره المتقدّمين والمتأخرين. ان تكلّم حكى سحبان في البلاغة وان ناظر ضارع النظّام في الجدال » . إلى أن يقول : « وشيخ الادب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ورسائله افنان مثمرة ، ما نازعه منازع إلاّ رثاه آنفا ولا تعرّض له متعرّض إلا قدّم له التواضع استبقاءً . الخلفاء تعرفه ، والامراء تصفه وتنادمه ، والعلماءُ تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ، والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم والفطنة والعلم ، وبين الرأي والادب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلّته ، ووطىء الرجال عقبه ، وتهادوا اربه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب » .

وقال أبو الفضل بن العميد :

« ثلاثة علوم ، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس . أما الفقه فعلى ابي حنيفة ، وأما الكلام فعلى ابي الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسَن والعارضة فعلى ابي عثمان الجاحظ [3] » .

---

١ معجم الأدباء ٦ — ٦٧
٢ معجم الأدباء ٦ ص ٦٩ — ٧١
٣ معجم البلدان ٦ — ٧٤

وقد عُرف إلى كلّ ذلك بالظّرف والمفاكهة ، وأخباره في ذلك كثيرة تجدها مفصلة في معجم الادباء لياقوت وفي وفيات الاعيان لابن خلكان وطبقات الادباء للانباري وغيرها من كتب التراجم ، ونكتفي هنا بمثلٍ منها ننقله من معجم الادباء عن لسان رجل اندلسي قصد بغداد طالباً لقاء الجاحظ قال[1] : « خرجت لا اعرّج على شيء حتى قصدت بغداد فسألت عنه فقيل هو بسرّ من رأى (سامرّا) فاصعدت اليها ، فقيل لي انحدر إلى البصرة فانحدرت اليه وسألت عن منزله ، فأرشدت ودخلت اليه ، فاذا هو جالس وحواليه عشرون صبياً ليس فيهم ذو لحية غيره ، فدهشت فقلت أيّكم أبو عثمان ؟ فرفع يده وحرّكها في وجهي وقال من أين ؟ قلت من الاندلس . فقال طينة حمقاء ، فما الاسم ؟ قلت سلام . قال اسم كلب القرّاد . ابن من ؟ قلت ابن يزيد . قال بحق ما صرت . ابو من ؟ قلت ابو خلف . قال كنية قرد زبيدة — ما جئت تطلب ؟ قلت العلم . قال ارجع بوقت فانك لا تُفلح . قلت له ما انصفتني فقال اشتملتُ على خصال اربع : جفاء البلدية وبعد الشقة وغرّة الحداثة ودهشة الداخل . قال فترى حولي عشرين صبيّاً ليس فيهم ذو لحية غيري ، ما كان يجب ان تعرفني بها ؟ قال فاقمت عليه عشرين سنة » .

فالجاحظ أديب فكه ، وهو فوق ذلك معتزليّ ذو طريقة خاصة في الاعتزال ، وقد طرق أبواباً شتى من العلم فالّف فيها كثيراً من الكتب والرسائل حتى بلغ فهرست مؤلفاته ما يقارب المئة والستين[2] . على ان كثيراً منها فصول كتبت في مواضيع خاصة وهي أشبه بما نسميه اليوم مقالات أو رسائل — ككتاب افتخار الشتاء والصيف ، وكتاب

١ معجم البلدان ٦ — ٧٥

٢ ذكر ياقوت له نحواً من ١٢٠ مؤلفاً في معجم الأدباء ٦ص ٧٥ — ٧٨ وفي صدر كتاب الحيوان قائمة باسماء مؤلفاته . وقد عني الأستاذ حسن السندوبي في كتابه أدب الجاحظ فجمع له قائمة كاملة في ١٥٩ كتاباً فلتراجع .

التربيع والتدوير . وكرسائله في فضائل الاتراك ، ومدح النبيذ ، وفي الكرم ، وفي القضاة والولاة ، وفي العفو والصلح – إلى غير ذلك مما لا نطلق عليه اليوم عادةً اسم الكتاب .

مذهبه النظري في بلاغة الانشاء

ويظهر ذلك فيما يلي :

١ – مطابقة العبارة لمقتضى الحال

قال : « ينبغي للمتكلم ان يعرف اقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات ، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً ، ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتّى يقسم اقدار الكلام على اقدار المعاني ، ويقسم اقدار المعاني على اقدار المقامات ، واقدار المستمعين على اقدار تلك الحالات . فان كان الخطيب متكلماً (أيّ من أصحاب علم الكلام) تجنّب الفاظ المتكلمين ، كما انه ان عبّر عن شيءٍ من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً ، كان اولى الالفاظ به الفاظ المتكلمين إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الالفاظ أميل ، واليها احنّ ، وبها أشغف [١] »

ومن قوله في ذلك : « وكلام الناس في طبقات كما ان الناس أنفسهم طبقات . فمن الكلام الجزل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربيّ ، وبكلّ قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا [٢] » .. ثم يقول : « وأنا أقول انه ليس في الارض

١ البيان والتبيين (س) ١ – ١٢٩
٢ البيان والتبيين (س) ١ – ١٣٢

كلام هو أمتع ولا انفع ، ولا آنق ولا ألذّ في الاسماع ، ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويماً للبيان ، من طول استماع حديث الاعراب الفصحاء العقلاء ، والعلماء البلغاء . وقد أصاب القوم في عامة ما وصفوا ، الا انّي ازعم ان سخيف الالفاظ مشاكلٌ لسخيف المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما امتع باكثر من امتاع الجزل الفخم ، ومن الالفاظ الشريفة الكريمة المعاني ، كما ان النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً ، وانما الكرب الذي يجثم على القلوب ، ويأخذ بالانفاس ، النادرة الفاترة التي لا هي حارّة ولا هي باردة، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط . وانما الشأن في الحارّ جداً والبارد جداً .

٢ — البيان او وضوح الدلالة [١]

فمما جاء له : « قال بعض جهابذة الالفاظ ونقّاد المعاني : المعاني القائمة في صدور العباد المتصوّرة في اذهانهم ، والمتخلّجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفيّة ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه، والمعاون له على أموره وعلى ما يبلغه من حاجات نفسه ، الا بغيره . وانما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها ، وأخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها . وهذه الخصال هي التي تقرّبها من الفهم ، وتجليها للعقل وتجعل الخفي منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً ، وهي التي تخلص الملتبس ، وتحل المنعقد ، وتجعل المهمل مقيّداً ، والمقيّد مطلقاً ،

١ البيان والتبيين (س) ١ — ٧٧ و ٧٨

والمجهول معروفا ، والوحشي مألوفا ، والغفل موسوما ، والموسوم معلوما . وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الاشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون اظهار المعنى . وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الاشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو اليه ، ويحثّ عليه . وبذلك نطق القرآن ،وبذلك تفاخرت العرب وتفاضلت أصناف الاعجام .

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ، ويهجم على محصوله ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي اليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والافهام : فبأيّ شيء بلغت الافهام واوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع » .

٣ ـ الايجاز وعدم التكلف

قال « واحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه » .. ثم يقول : « فاذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزّهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلّف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة[١] » وله أيضاً :

قال بعضهم وهو من أحسن ما اجتبيناه ودوّناه : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه اسبق من معناه إلى قلبك[٢] » .

---

١ البيان والتبيين (س) ١ ـ ٨٣

٢ البيان والتبيين (المطبعة العلمية) ١ ـ ٤٩

وفي كلامه عن شبيب بن شيبة يقول : « ويقال انهم لم يروا قط خطيباً بلدياً ، الا وهو في اول تكلفه لتلك المقامات كـان مستثقلا مستصلفاً أيام رياضته كلها ، إلى أن يتوقح وتستجيب له المعاني ويتمكن من الالفاظ ، الا شبيب بن شيبة فانه ابتدأ بحلاوة ورشاقة وسهولة وعذوبة ، فلم يزل يزداد منها حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقع بكثيره [1] » .

وقد انتقد قول اياس « فالزيادة من الخير خير » بقوله : « وليس كما قـال (أي أياس) . للكلام غـاية ، ولنشاط السامعين نهـاية ، وما فضل عن مقدار الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والملال ، فذاك الفاضل هو الهذر وهو الخطل وهو الاسهاب الذي سمعت الحكماء

انشاء الجاحظ

ولا نقصد نثره المرسل في اخباره أو كتبه العلمية فهو بذلك لا يخرج عن طريقة العلماء والمؤرخين العامة ، ولكننا نقصد نثره الادبي أو ترسله الذي ينصرف فيه إلى التعبير عن خوالج نفسه أو آرائه . وقد عرف بمزايا انشائية خاصة ، وهو ولئن لم يبتدعها صار علماً فيهما ، وصارت تنسب اليه واهمها الافتنان ، والاستطراد ، والتوازن ، وقصر العبارة .

كثرة الافتنان

وذلك ظاهر في رسائله المختلفة التي طرق فيها شتى المواضيع فتراه

١ البيان والتبيين (س) ١ - ١٠٦
٢ البيان والتبيين (س) ١ - ٩٦

فيها يجمع بين الحقائق وشواذّ الاعراض وغرائب الاطوار ومستملح النكات ويقرن ذلك بما لا يحصى من الاستشهادات ، مما يدل على سعة اطلاع . خذ كتابه البيان والتبيين مثلاً فتراه مجموعة من الاقوال المختلفة في البلاغة والخطابة ، وما إلى ذلك من أخبار وشواهد وتراجم ونوادر يكثر فيها التنادر والاستطراد ، فتجيء متداخلة كثيرة الفروع ، كقوله تحت عنوان باب آخر [1] : « وكانوا يمدحون شدّة العارضة وقوّة المُنّة وظهور الحجة وثبات الجنان وكثرة الريق والعلوّ على الخصم ، ويهجون بخلاف ذلك » . ثم يأتي على ذلك بكثير من الشواهد الشعرية، وفي احد هذه الشواهد يذكر لقمان بن عاد عرضاً فيتناوله بحديث لا دخل له بالموضوع [2] ، ويستطرد منه إلى كلام آخر في انجاب الامّهات ويذكر حديث ابي حمزة الضبي . وكانه يشعر بخروجه عن الموضوع فيقول معتذراً : « وهذا الباب يقع في كتاب الانسان من كتاب الحيوان وفي فضل ما بين الذكر والانثى تاماً ، وليس هذا الباب مما يدخل باب كتاب البيان والتبيين ، ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارئ الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم كان ذلك أروح على قلبه ، وازيد في نشاطه ان شاء الله [3] » .

ولو اتسع المقام لاتينا بشواهد كثيرة من البيان والتبيين وكتاب الحيوان وسواهما على خروجه من باب البحث واستطراده في شتى الابواب . وقد اتخذ الباقلاني ذلك وسيلة لنقده فقال :

« قد يزعم زاعمون ان كلام الجاحظ من السمت الذي لا يؤخذ فيه والباب الذي لا يذهب عنه ، وانت تجد قوماً يرون كلامه قريباً،

---

١ البيان والتبيين (س) ١ – ١٥٥
٢ البيان والتبيين (س) ١ – ١٦٢
٣ البيان والتبيين (س) ١ – ١٦٤

ومنهاجه معيباً ، ونطاق قوله ضيّقاً ، حتى يستعين بكلام غيره،ويفزع إلى ما يوشح به كلامه من بيت سائر ، ومثل نادر ، وحكمة ممهدة منقولة ، وقصة عجيبة مأثورة . واما كلامه في أثناء ذلك فسطور قليلة، والفاظ يسيرة . فاذا احوج إلى تطويل الكلام – خالياً عن شيء يستعين به فيخلطه بقوله من قول غيره – كان كلاماً ككلام غيره فاذا أردت ان تحقق هذا فانظر في كتبه في نظم القرآن ، وفي الرد على النصارى، وفي خبر الواحد وغير ذلك مما يجري هذا المجرى هل تجد في ذلك كله ورقة تشتمل على نظم بديع أو كلام مليح ؟ على ان متأخري الكتاب قد نازعوه في طريقته وجاذبوه على منهجه فمنهم من ساواه حين ساماه، ومنهم من أبرّ عليه اذ باراه [1] » . وفي هذا الكلام مع ميل صاحبه إلى تحقير شأن الاسلوب الجاحظي – تعظيماً لنظم القرآن – نرى ما اشتهر بـه هذا الاسلوب من الافتنان في شتى المواضيع والاستطراد إلى ذكر الملح والنكات مما جعل له مقاماً خاصاً بين الكتبة . وهذا الباقلاني نفسه في مقام آخر في كتابه يذكر من برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها حتى جمع فيها بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة وأنشأ لنفسه منهاجاً ، ثم يقول : « فسلك تارة طريقة الجاحظ وتارة طريقة السجع وتارة طريقة الاصل [2] » . فهو يعترف ان الجاحظ إمام طريقة ليست هي طريقة المتقدمين ولا طريقة السجاعين. وهذه الطريقة على ما نرى هي التي تقرن التنادر أو الافتنان عنده بعبارة قصيرة شديدة الاتزان كثيرة الاستطراد . وسنرى ذلك في الكلام على رسائله .

على ان هذه الطريقة كما ذكرنا آنفاً لم يبتدعها الجاحظ بل أخذ فيها إخذ من تقدمه من كتاب الدولة العباسية ولا سيما سهل بن هرون .

١ اعجاز القرآن ص ١١٥
٢ اعجاز القرآن ص ٥٨

وفيه يقول الجاحظ : « كان سهل سهلاً في نفسه ، عشيق الوجه، حسن الشارة ، بعيداً عن الفدامة تقضي له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقّة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبل قبل التكشف [1] » .

وكان الجاحظ في أول أمره ينشئ الرسالة ويعزوها إلى سهل أو ابن المقفع وأضرابهما ترويجاً لها [2] . وهذا دليل على تعظيمه له وتأثره منه . وقد ذكرنا في أول هذا الفصل شيئاً من نثر سهل وتبينّا فيه توازن الجمل التي عرف بها نثر الجاحظ . وزيادة للايضاح نضيف إلى ما ذكرنا شيئاً من كتابه إلى بني عمه من آل راهبون حين ذمّوا مذهبه في البخل وهو كتاب طويل ننقل منه ما يلي [3] :

« وعبتموني حين ختمت على سلّ عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رطبة غريبة ، على عبد نهم ، وصبي جشع ، وأمة لكعاء ، وزوجة خرقاء . وليس من أصل الادب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السادة ، ان يستوي في نفيس المأكول ، وغريب المشروب ، وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فنّ ، واللباب من كل شكل ، التابع والمتبوع ، والسيد والمسود ، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ، ومواقع اسمائهم في العنوانات ، وما يستقبلونه من التحيات وكيف لا وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقده القادر ، ولا يكترثون له اكتراث العارف . ومن شاء اطعم كلبه الدجاج المسمّن ، وعلف حماره السمسم المقشّر » . فإذا تأملت هذه العبارات وقابلتها بما سننقل لك من نثر الجاحظ رأيت الشبه العظيم في تقطيع الجمل وتوازن الفقرات واشباع المعاني

---

١ البيان والتبيين (س) ١ – ٨٧

٢ التنبيه والاشراف للمسعودي ٧٦

٣ راجع العقد (بولاق) ٣ – ٣٣٥

ومثلها ما وصف به بلاغة يحيى بن خالد البَرمكي وجعفر بن يحيى إذ قال [١] :

« إن سجّاعي الخطب ، ومحبّري القريض ، عيال على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى . ولو كان كلام يتصوّر درّاً ، ويحلّه المنطق السريّ جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما ، ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته ، وتوقيعاته في كتبه فدْمَين عَيِيّن ، وجاهلَين أميّين . ولقد عمرت معهم ، وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم ، وهم يرون ان البلاغة لم تستكمل إلاّ فيهم ، ولم تكن مقصورةً إلاّ عليهم ، ولا انقادت إلاّ لهم ، وانها محض الانام ، ولباب الكرام ، وملَح الايام ، عشق منظر ، وجودة مَخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتّى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم ، والمأثور من خصالهم كثيرَ ايام سواهم ، من لدن آدم ابيهم ، إلى النفخ في الصور ، وانبعاث اهل القبور — حاشا أنبياء الله المكرّمين ، وأهل وحيه المرسلين — لما باهت الاّ بهم ولا عولّت في الفخر إلاّ عليهم . ولقد كانوا — مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول فواقهم ، وبهاء اشراقهم ، ونقاوة اعراضهم ، وتهذيب اغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم ، إلى ملء الارض مثلهم — في جنب محاسن المأمون كالنفثة في البحر ، والخردلة في المهمه القفر » .

ولا يهمنا ما في هذا الكلام من المصانعة السياسية ، ولكن يهمنا ما فيه من المزايا الانشائية التي تبرز أيضاً في نثر الجاحظ . ولم يكن سهل السابق الوحيد للجاحظ في هذا الاسلوب : فقد رأينا في الكلام على الاسلوب المتوازن ان أكثر الكتاب ، منذ أيام عبد الحميد إلى ان استقرت سيادة السجع في القرن الرابع وما بعده ، كانوا يسلكون هذا المسلك :

---

١ راجع مقالة سهل بن هرون للأستاذ محمد كرد علي في مجلة المجمع العلمي العربي مج ٧ ص ١٢

على ان الجاحظ طبعه بطابع شخصيته الفنّانة، فلا بدع ان يكون له المقام الاول فيه .

رسائله واقواله

للجاحظ رسائل وغرر كثيرة ولا يتسع المقام للكلام على كلّ منها. فنكتفي هنا برسالة من رسائله الطولى، وببعض منتخبات من بليغ أقواله التي توضح لنا اسلوبه وتعرّفنا بشخصيته :

رسالة الشكر [1]

قصد بها مدح وزير المتوكل وشكر نعمه لديه ، فصدّرها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده ، وذكر له خصالاً اربع ملأ بها أكثر من ثلاث صفحات وهي (١) – العلم بموقع النعمة من المنعَم عليه (٢) – الحرية الباعثة على حبّ المكافأة واستحسان المجازاة (٣) – الديانة بالشكر والاخلاص للمنعم في تصفية الود (٤) – وصف الاحسان باللسان البيّن حتى يصير حديثاً مأثوراً :

واليك بعض ما قاله في الخصلة الرابعة فهو يجلو لك شيئاً من اسلوبه :

« وإذا لم يكن اللفظ رائعاً ، والمعنى بارعا ، وبالنوادر موشّحا ، وبالملح مجلوّا ، لم تصغ له الاسماع ، ولم تنشرح له الصدور ، ولم تحفظه النفوس ، ولم تنطق به الافواه ، ولم يخلد في الكتب ، ولم يقيّد بالدرس ، ولم يجذل به قائل . ولم يلتذّ به سامع . ومتى لم يكن كذلك كان كلاماً ككلام اللغو ، ومعاني السهو ، وكالهُجر الذي لا يُفهم ، والمستغلق

---

١ راجعها في صبح الاعشى ١٤ ص ١٧٣ – ١٨٢

الذي لا يعلم » .

ويجري على هذه الطريقة من توازن وقصر عبارة فيقول :

« وليس – أبقاك الله – شيء أحوج إلى الحذق ، ولا أفقر إلى الرفق من الشكر النافع ، والمديح الناجع ، الذي يبقى بقاء الوشم ، ويلوح كما يلوح النجم : كما انه لا شيء احوج إلى وسع الطاقة ، وإلى الفضل في القوّة ، وإلى البسطة في العلم ، وإلى تمام العزم – من الصبر . وعلى ان الشكر في طبقات متفاوتة ، ومنازل متباينة ، وان جمعتها اسم ، فليس يجمعها حكم ، فربما كان كلاماً تجيش به الصدور وتمجّه الافواه ، وتجدف به الالسنة ، ويستعمل فيه الرأي المقتضَب ، والخاطر المحتار ، والكلام المرتجل ، فيرمى به على عواهنه ، وتبنى مصادره على غير موارده ، لا يتعذّر فيه الشاكرون لانتفاع المنعمين ، كما تعذّر المنعمون لانتفاع الشاكرين . وليست غاية القائل إلا ان يعدّ بليغاً مفوّها ، أو يستزيد به إلى نعمه السالفة آنفة ، أو ليس إلاّ ليغترّ كريما ، أو يختدع غنياً ، لا يتفقد ساعات القول ، ولا يتعرف أقدار المستمعين ؟ وليست غايته إلاّ التكسب والتعرّض ، والانتفاع والترنّح ، وعلى هذا يدور شكر المستأكلين ، واحماد المتكسّبين » .

ويتناول الفرق بين الشكر اللفظي الذي لا غاية لصاحبه الاّ ان يعد بليغاً مفوّها ، والشكر القلبي الدالّ على صدق اللهجة وخاوص النية ، ثم يأخذ بطريقته المعهودة فيقول عن لسان حكيم يصف عمر ابن الخطاب :

« ولكن العجب العجيب ، والنادر الغريب ، الذي تهيّأ في عمر ابن الخطاب (رضه) واتّسق له : وذلك انه غبر عشر حجج يفتح الفتوح ، ويدوّخ البلاد ، ويمصّر الامصار ، ويدوّن الدواوين ، ويفرض الفروض ، ويرتّب الخاصة ، ويدبّر العامة ، ويجبي الفيء ، وترمي

اليه الارض بافلاذ أكبادها ، وأنواع زخرفها ، وأصناف كنوزهـا ، ومكنون جوهرها ، ويقتل ملوكها ، ويلي ممالكها ، ويحلّ ويعقد، ويولي ويعزل ، ويضع ويرفع ، وبلغت خيله افريقية ودخلت خراسان ـ كل ذلك بالتدبير الصحيح والضبط والاتقان ، والقوّة والاشراف ، والبصر النافذ ، والعزم المتمكن » ... إلى أن يقول: « ثم غبر بعد ذلك سنيه كلهـا على وتيرة واحدة ، وطريقة مطّردة ، لا ينحرف عنها ، ولا يغيّرها ، ولا يسأمها ، ولا يزول عنها :من خشونة في المـأكل والملبس ، وغلظ المركب ،وظلف النفس عن صغيرها وكبيرها ودقيقها وجليلها ، وكلّ ما يفاخر الناس عليه ، لم يتغير في لقاء ولا حجاب ، ولا في معاملة ولا في مجالسة ، ولا في جمع ولا في منع ، ولا قبض ولا بسط ، والدنيا تنصبّ عليه صبًّا ، وتتدفق عليه تدفقا، والخصلة من خصاله ، والخلة من خلاله ، تدعو إلى الرغبة ، وتفتح باب الالفة ، وتنقض المبرم ، وتفيد المروءة ، وتفسح المنّة ، وتحل العقدة ، وتورث الاغترار بطول السلامة ، والاتكال على دوام الظفر ، وموّاتاة الايام ، ومتابعة الزمان » .

ويجري في أكثر رسالته على هذا النمط لا ينفك عنه حتى يصل إلى الممدوح فيقول : « فجمعتَ ـ والحمد لله على النعمة فيك ـ بين التواضع والتحبّب ، وبين الانصاف وقلة التزيّد ، فلا يستطيع عدوّ معان ، ولا كاشح مسرّ ، ولا جاهل غبيّ ، ولا عالم مبرّز ، يزعم انه رأى في شمائلك وأعطافك ـ عند تتابع النعم وتظاهر المنن ـ تغيراً في لقـاء ولا في بشر عند المساءلة، ولا في انصاف عند المعاملة ، واحتمال عند المطاولة . الامر واحد ، والخلق دائم ، والبِشر ظاهر ، والحجج ثاقبة، والاعمال زاجية ، والعيون ناطقة بالمحبة ، والصدور مأهولة بالمودّة ، والداعي كثير ، والشاكي قليل » .

ويتخلل الرسالة أقوال لبعض مشاهير الرجـال كسهل بن هرون

ويحيى بن خالد يجيء بهما أستطراداً أو استشهاداً وقد يكون في ذلك طول لا لزوم له كقوله في ختام الرسالة « قال يحيى بن خالد لجعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة وتكلف النهوض بأعباء الخلافة :

« أي بنيّ ، اني أخاف عليك العجز لعظم ما تقلّدت ، وجسيم ما تحمّلت . إني لست آمن ان تتفسّخ تحت ثقلها تفسّخ الجمل تحت الحمل الثقيل . قال جعفر : لكني أرجو القوّة ، وأطمع ان استقلّ بهذا الثقل وأنا مبتهل غير مبهور ، وأجيء قبل السوابق وأنا ثاني . (أي : وأنا ثانٍ عناني ، لاني لم أجهد فرسي ركضاً) . قال يحيى : ان لكل رجاء سبباً ، فما سبب رجائك ؟ قال : شهوتي لما أنا فيه ، والمشتهي للعمل لا يجد من ألم الكد ما يجده العسيف الاسيف . قال يحيى : ان نهضت بثقلها فبهذا ، وإلا فلا . وانا اسأل الله ان يصرف شهوتك إلى حب ذلك ، وهواك إلى الاحتفاظ بنعمتك ، بشكر المصلحين والتوكل على رب العالمين » .

رسالة التربيع والتدوير [1]

وهي رسالة هزلية ألّفها الجاحظ سخريةً برجل اسمه أحمد عبد الوهاب كان مفرط القِصر جعد الاطراف قصير الاصابع طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو إلى ذلك كبير السنّ ومربّع الجسم ، تحسبه لسعة ما بين جنبيه واستفاضة خاصرته مدوّرا . وكان يدّعي الرشاقة والبساطة والجمال واعتدال الشباب . قال الجاحظ في مقدمتها :

« وكان ادعاؤه لاصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلّفه للابانة عنها على قدر غباوته عنها ، وكان كثير الاعتراض ، لهجاً بالمِراء ،

---

[1] راجع مجموعة رسائل الجاحظ (مطبعة السعادة مصر ١٣٢٤) ص ٨٢ وهي تقع في ٦٦ صفحة متوسطة .

شديد الخلاف كلفاً بالمجاذبة ، مع اضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة عند قصر الزاد .. لا ينطق عن فكر ، وثيق باول خاطر ، لا يفصل بين اعتزام الغمر ، واستبصار المحقّ ، يعدّ اسماء الكتب ولا يفهم معانيها ، ويحسد العلماء من غير ان يتعلق منهم بسبب ، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الادب . فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهود منا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت ان اكشف قناعه وابدي صفحته للحاضر والبادي وسكان كل ثغر وكل مصر ، بان اسأله عن مائة مسألة اهزأ فيها وأعرّف الناس مقدار جهله » .

ثم يسوق الكلام اليه متفنناً ما شاء في الهزء بـه والتنادر في أوصافه.

أما السؤالات التي يطرحها عليه فتتناول كل أنواع المعلومات مـن تاريخية وجغرافية وفلكية وأدبية وعقلية وفقهية وسحرية وسواها مما يدل على واسع اطلاعه . وفي كلها ترى السخرية اللاذعة ـ واليك ما قاله له بعد أن غمزه بسيول سؤالاته :

« وقد تعجّب ناس من اطالتي ، ومن كثرة مسائلي ، وتعجبي من تعجبهم أشد ، والذي كان من أفكارهم أعظم ، ولو رغبوا في العلم رغبتي ، ورأوا فيه مثل رأيي وكانوا قرأوا كتابي اليك في شيبتي وأيام شباب رغبتي لاستقلوا من ذلك ما استكثروا ، ولاستقصروا منه ما استطالوا » . ويختم هذه الرسالة بقوله : « هذه جملة العذر في هذه الرسالة ، وجملة الحجة فيما قدّمنا من الافتنان والاطالة : فان كنا أصبنا فالصواب اردنا ، وإلى غايته اجرينا ، وان كنا قد اخطأنا فما ذلك عن فساد من الضمير ، ولا عن قلة احتمال بالتقصير : ولعل طبيعة خانت ، أو لعلّ علة حدثت ، أو لعلّ سهواً اعترض ، أو لعلّ شغلاً منع » .

وصف قريش[1]

« قد علم الناس كيف كرم قريش وسخاؤها ، وكيف عقولها ودهاؤها ، وكيف رأيها وذكاؤها ، وكيف سياستها وتدبيرها ، وكيف ايجازها وتحسيرها ، وكيف رجاحة احلامهما إذا خفّ الحلم ، وحدّة اذهانها إذا كلّ الحديد ، وكيف صبرها عند اللقاء ، وثباتها في اللأواء ، وكيف وفاؤها إذا استحسن الغدر ، وكيف جودها إذا حُبّ المال ، وكيف ذكرها لاحاديث غد ، وقلة صدودها عن جهد القصد ، وكيف اقرارها بالحق ، وصبرها عليه ، وكيف وصفها له ، ودعاؤها اليه ، وكيف سماحة اخلاقها ، وصونها لاعراقها وكيف وصلوا قديمهم بحديثهم وطريفهم بتليدهم ، وكيف أشبه علانيتهم سرهم ، وقولهم فعلهم ، وهل سلامة صدر أحدهم ، الاّ على قدر بعد غوره ؟ وهل غفلته الا في وزن صدق ظنه ، وهل ظنه الا كيقين غيره ؟ »

ومنها :

« بل قد علم الناس كيف جمالها وقوامها وكيف نماؤها وبهاؤها ، وكيف سرْوها ونجابتها ، وكيف بيانها وجهارتها ، وكيف تفكيرها وبداهتها فالعرب كالبدن وقريش روحها ، وقريش روح وبنو هشام سرّها ولبّها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها . وهاشم ملح الارض وزينة الدنيا ، وحي العالم ، والسنام الاضخم ، والكاهل الاعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، وثهلان[2] ذو الهضاب في الحلم ، والسيف الحسام في العزم مع الاناة والحزم ، والصفح بعد المقدرة ، وهم الانف المقدّم والسنام الاكرم ، وكالماء الذي لا

---

[1] زهر الآداب ١ – ٥٣ – و ٥٤

[2] اسم جبل .

ينجسه شيء ، وكالشمس التي لا تخفى بكل مكان ، وكالنجم للحيران ، والبارد للظمآن ، وكالذهب الذي لا يعرف بالنقصان » .... وبعد ان يعدّد جماعة من أهل المآتي الشهيرة فيهم يقول :

« والانصار أنصارهم ، والمهاجر من هاجر اليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم ، والحواريّ حواريّهم ، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم ، أو يضاف اليهم . وكيف لا يكون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الاولين والآخرين ، ونجيب المرسلين ، وخاتم النبيين ، الذي لم يتم لنبي نبوّة الا بعد التصديق به ، والبشارة بمجيئه ، الذي عم برسالته ما بين الخافقين ، واظهره الله على الدين كله ولو كره المشركون »

وصف الكتاب ١

« الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم المشتغل والحرفة ، ونعم الانيس ساعة الوحدة .. والكتاب وعاءٌ مليءٌ علما ، وظَرف حشي ظَرفا ، واناءٌ شحن مزاحا . ان شئت كان اعيى من باقل ، وان شئت كان ابلغ من سحبان وائل ، وان شئت سرّتك نوادره ، وشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مله ، وبناسك فاتك ، وناطق اخرس ، ومن لك بشيء يجمع الاول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغثّ والسمين ؟.. وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في رُدن ، وروضة تنقل في حجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء . ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ، آمن من الارض ، واكتم للسرّ من صاحب

---

١ المحاسن والاضداد ٤

السرّ ، واحفظ للوديعة من ارباب الوديعة ؟

ولا أعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً انصف ، ولا رفيقاً اطوع ، ولا معلماً اخضع ، ولا صاحباً اظهر كفاية وعناية ، ولا أقل املالاً ولا إبراماً ولا أبعد من مراء ، ولا اترك لشغب، ولا ازهد في جدال، ولا اكفّ عن قتال ، من كتاب : ولا أعمّ بياناً ولا أحسن مؤاتاة ولا اعجل مكافاة ، ولا شجرة أطول عمراً ولا اطيب ثمراً ولا أقرب مجتنى ولا أسرع ادراكاً ولا اوجد في كل إبّان ، من كتاب : ولا اعلم نتاجاً في حداثة سنّه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة والعلوم العربية وآثار العقول الصحيحة ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب .

والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك ، والصديق الذي لا يقليك ، و الرفيق الذي لا يملّك ، والمستمع الذي لا يستزيدك ، والجار الذي لا يستبطئك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق » .

أبو حيّان التوحيدي

(توفي في مستهل القرن الخامس)

نشأته

لئن كان عبد الحميد رائد الترسل المتوازن في القرن الثاني للهجرة ، وكان الجاحظ الامام المقدم في هذا الترسل خلال القرن الثالث . فالتوحيدي هو الذي حمل لواءه في عهد كانت السيادة فيه لاسلوب آخر هو الاسلوب المسجع المحلى بالبديع . فهو من ابناء القرن الرابع – قرن ابن العميد والصابي والصاحب بن عباد والخوارزمي وبديع الزمان وطبقتهم ممّن عنوا بتسجيع الكلام واهملوا الاسلوب الجاحظي القائم على توازن العبارات دون التقيد بالسجع أو البديع . ويظهر انه كان متأثراً جداً بالجاحظ فاقتفاه وجرى مجراه واولع بنسخ كتبه وقرّظه في كتاب خاص سمّاه تقريظ الجاحظ . ومن قوله في كتابته « انها الدرّ النثير واللؤلؤ المطير » وفي الجاحظ نفسه : « انه حبيب القلوب ومزاج الارواح وشيخ الادب وحجّة العرب » [1]

على ان للتوحيدي ميزة لتأخره الزمني وتطور الحياة في عهده . فالعالم

---

[1] مقدمة البصائر

العربي الذي نشأ فيه كان أوسع علماً — فيه نضجت حركة النقل عن اليونان وسواهم . وفيه تفتحت لدى الادباء والمفكرين آفاق جديدة لم يعهدها السابقون فتعدّدت المذاهب والشيع واتّسع نطاق التأليف وكثرت دور الكتب الخاصّة والعامّة . وبرغم تفكك عرى الخلافة في ذلك العهد وتجزّئها عملياً إلى دول شتّى ، فان النشاط العلمي ظلّ على ازدهاره إذ شارك عاصمة الخلافة العباسية عدد من الحواضر التي كانت تتنافس في تنشيط العلم والادب والعطف على العلماء والادباء .

نبغ التوحيدي في بغداد [١] وكان في أول أمره يمارس الوراقة والنسخ . ويظهر ان هذه الحرفة لم تدرّ عليه شيئاً يذكر . فعاش فقيراً وضيعاً . والتفت حوله فرأى الادباء يقصدون الامراء وارباب الوجاهة والثروة ، وينالون منهم العطايا الوافرة . وشعر من نفسه بتفوّق على الكثيرين منهم ، فترك بغداد وسافر إلى الريّ قاصداً ابا الفتح ابن العميد (وهو ابن الوزير الكاتب المشهور) فتقدّم اليه برسالة طويلة تقع في أكثر من ست صفحات كبيرة تجدها في معجم الادباء لياقوت الجزء ١٥ ص ٣٧ — ٤٣ ذكر فيها ما ناله من فقر وحرمان وما أصابه من نكد الناس والزمان ثم قال : « هذا بعد ان تصفحّت الناس فوجدتهم احد رجلين : رجل إذا نطق نطق عن غيظ ودفنه ، وان سكت سكت عن ضغن وإحنه — ورجل ان بذل كدّر بامتنانه بذله ، وان منع حسّن باحتياله بخله » (إلى قوله) :

« حتى لاحت لي غرّة الاستاذ فقلت حلّ بي الويل وسال بي السيل . اين أنا عن ملك الدنيا . والفلك الدائر بالنعمى ؟ اين أنا عمن يرى البخل كفراً صريحا . والافضال دينا صحيحا ؟ اين انا عن سماء لا تنثر عن التهطال ، وعن بحر لا يقذف إلاّ باللؤلؤ والمرجان . »

حتى يقول : « لم لا أقصد بلاده ؟ لم لا اقدح زناده ؟ لم لا استدعي

١ وفي معجم البلدان ١٥ — ٥ انه شيرازي الاصل قدم بغداد فأقام بها مدة .

نفعه ؟ لـمَ لا أستمطر سحابه ؟ » الخ ...

لكنه لم يجد لديه ما كان يطمع به . وبعد ان لزمه مدّة تحوّل عنه الى حمى خصمه الصاحب بن عباد . حيث بقي ثلاث سنوات لم يحصل منها الاّ على خيبة الامل . ويذهب أكثر مؤرخي سيرته ان ذلك لسوء طبعه أو لجهله بما يجب على ملازم الامراء من حسن تصرّف وحلاوة لسان [1] . فرجع من الريّ الى بغداد خائباً أو كما قال « بغير زاد ولا راحلة » [2] . وكان من ذلك انه ألّف كتابه « مثالب الوزيرين » ، فأشبعهما ذمّاً وتعريضاً وخصوصاً ابن عباد . بعد ان كان قد دبّج فيهما ما دبجه من ثناء وتعظيم .

وفي بغداد اتصل بابي عبد الله الحسين بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي ولعل اختباره المرّ في حضرة ابن العميد والصاحب بن عباد قد علّمه ان يكون أكثر حكمةً في صحبة الامراء فابتسم له الحظ حيناً ، حتى قال لابي الوفاء المهندس وهو الذي مهّد له سبيل الاتصال بابن سعدان منوّهاً بفضل هذا الوزير : « اخذ بيدي ونظر في معاشي ونشطني وبشّرني ، ورعى عهدي ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى وقلّدني بها القلادة الحسنى ، وشملني بهذه الخدمة ، واذاقني حلاوة هذه المزية ، واوجهني عند نظرائي الخ .. » [3]

ولكن ابتسام الحظ لم يدم فعاد الدهر إلى التجهّم له . وكأن ابن سعدان ملّه فتثاقل عنه ولم يعد يبالي به فاثّر ذلك في نفس التوحيدي حتى كتب إلى ابن سعدان رسالة جاء فيها : « كنت قد وصلت إلى مجلس الوزير ، وفزت بالشرف معه ، وخدمت دولته وعلاه ، وتصرّفت من الحديث في شجونه وفنونه . كلّ ذلك في حدوى آخذها . وحظوة

---

١ ياقوت ، وراجع محيي الدين في ما كتبه عن صلته بالوزراء ، ص ٢٥٩ وما بعدها

٢ ياقوت ١٥ – ٣٢ والامتاع والمؤانسة ١ – ٤

٣ المصدر نفسه ١ – ٥٠

احظى بها ، ومثالة احسد عليها ، فتقبل ذلك كلّه، ووعد عليه خيراً . ثم حصلت من ذلك الوعد والضمان على بعض تعلاّت الزمن ، وبقيت محمولاً بيني وبين اذكاره ، حيران لا اريش ولا ابري . ثم وضح الغدر المبين وذلك اني رأيت اعباء الوزارة تئود سرّه ، وتتعب باله . فلمّا تيقنت ذلك امسكت من اذكاره....واسأل الوزير ان يجنبني مرارة الخيبة وحسرة الاخفاق وعذاب التسويف »[1]

ولكنه لم يحصل على طائل . وكيف يحصل على طائل وهو من هو بعدم لباقته . فقد رمى ندماء الوزير بسهام حادة من الذمّ والتحقير حتى تألبوا عليه واغروا الوزير باهماله . وزاد الطين بلة ان بعضهم تآمروا على ابن سعدان فقتلوه وأخذوا يتكلّون بمن كانوا مقربين اليه ، فخاف التوحيدي على حياته وهرب إلى شيراز حيث اختلط بالمتصوّفة فأصبح واحداً منهم ولزم حياة الزهد والتقشف معهم[2] .

اسلوبه الادبي

وإذا كان صاحبنا ذا طبع غير محبّب وذا لسان كالمقراض لا يسلم من قوارصه احد فان اسلوبه الكتابي يتبوأ في تاريخ النثر العربي مقاماً رفيعاً . والغريب ان مؤرخي الادب السابقين لم يعيروه كبير اهتمام وبعضهم أهمله ولم ينوّه بذكره . قال ياقوت : « ولم أرَ أحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ولا دمجه في ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب » ١٥ — ٦ . وقد يكون لذلك اسباب منها ما كانوا يرون فيه من سوء أخلاقه ووضاعة نفسه ، ومنها اتهامه في دينه حتى رماه بعضهم بالكفر (٢) . ومنها انه وجد في عصر كانت الشهرة فيه وقفاً على كبار

---

١ الامتاع (١٩٤٢) ٣ — ٢٠٨

٢ انظر ما رواه السندوبي عن ابن فارس ،مقدمة كتاب المقابسات(١٩٢٩) ص ١٥

كتاب الدواوين ونظرائهم ممّن جروا في طريقة السجع وتأنقوا بطرائف المحسّنات البديعية . فخسف نوره ازاءهم . وهكذا بقي محجوباً حتى جاء العصر الحديث وتحوّل النظر عن الصناعة اللفظية إلى جلال العبارة القائمة على سموّ المعاني وعمق التفكير وحسن التسلسل الفكري ، فزالت عنه الحجب وأخذ النقّاد ينظرون اليه بعين غير عين أهل الصنعة اللفظية. ومما يذكر انه لم يتخذ السجع اسلوباً الاّ في كتاب واحد من كتبه وهو كتاب الاشارات الالهية . وليس ذلك بمستغرب فاننا نلاحظ ان الترسل الديني كان في كل العصور يميل إلى الجري في سنن السجع أو الازدواج المقفّى . أمّا في سائر ترسّله فقد لزم الاساوب المتوازن على طريقة الجاحظ ولم يعمد إلى التسجيع إلاّ قليلاً وذلك عادة في المواقف العاطفية .

وإذا استثنينا رسالة السقيفة التي مرّ ذكرها في كلامنا على مزايا الانشاء في عصر الفتوح رأينا مصنفاته نوعين : كتباً ورسائل . فالمطبوع من النوع الاول ما يلي : المقابسات — الامتاع والمؤانسة — الهوامل والشوامل — البصائر والذخائر — والاشارات الالهية . ومن الرسائل رسالة الصداقة والصديق — رسالة في علم الكتابة — رسالة الحياة — ورسالة في العلوم .

ولا يزال من مصنفاته المخطوطة : مثالب الوزيرين — الحجج — تقريظ الجاحظ — والمحاضرات . وهناك عدّة رسائل تعتبر في حكم المفقودة .

ومن هذه المصنفات ما يرجع إلى أوائل عهده الكتابي وهو على العموم من باب المسامرات أو الاخبار الادبية المتقطعة أو الغرائب والنوادر .

ومنها ما وضعه بعد ذلك فطبع بطابع التعمق ودقة النظر وحسن المنطق . ويشمل آراءه وآراء غيره في العلم والفلسفة والادب كل ذلك

بطريقة جذّابة تثير الخيال وتحرّك القلب .

ومما يؤسف له انه احرق مؤلفاته وهو شيخ ينيف على الثمانين ، وحاول ان يعتذر عن فعله باعذار لا طائل تحتهـا [1] ، والواقع انه فعل ذلك تحت تأثير ضعفه وبؤسه ونقمته من الحياة . ولحسن الحظ ان أكثرها كان محفوظاً في خزائن بعض الادباء وهكذا وصلت الينا .

وها نحن نثبت نماذج من ترسّله وسنلاحظ فيها دقة أوصافه وقصر عباراته وحسن ايقاعها وميله إلى الاطناب والطباق .

قال في « رسالة الحياة » يصف حياة الديانة والسكينة :

« وبها ينال صاحبها خير العاجلة والآجلة . لأن سربال الدين ضاف ، وعقباه مأموله ، وسريرته ظاهرة . وعلانيته مرضية . فبالدين يكمل الناقص ، ويزداد الراجح ، ويسجو المُشهي ، ويبسرأ العليل ، ويرشد الغويّ ، ويستبصر العميّ ... وتمجيد الدين طويل لا غاية له فيوقف عندها ، ولا حدّ له فينتهي اليه » .

وقال من الرسالة نفسها مقـابلاً في حديثه عن الموت بين الغني والفقير :

« والاول إنما يكرهه لأنه يحب ان ينال اللذّة ، ويغرق في الشهوة ، ويستمتع بالنعمة ، وان كانت غايته في هذه الحال ، الكلال والانحلال والانقطاع .

والثاني (اعني الفقير) إنما يتمنى الموت ليتخلّص من الحسرة الخانقة ، والحرقة اللازقة . والحاجة الفاضحة ، والاسف الراتب ، والضجـر الغالب — فهذان على تقابلهما منقوصان منحوسان ، قـد زلاّ وضلاّ وتردّيا في الهوّة السفلى . وما لهما ناعش ولا ناصر ، ولا شفيـق ولا ناصح » .

ومنها . « واعلم ان الناظر في هذا الكتاب رجلان . رجل ينظر

---

[1] ياقوت ١٥ من ١٦ — ٢٦

إلى الاشياء ورجل ينظر في الاشياء . فالاول يحار فيها لأن صورها وأشكالها وتخاطيطها تستفرغ ذهنه ، وتستملك حسّه ، وتبدّد فكره . فلا يكون له منها ثمرة الاعتبار ، ولا زبدة الاختيار . واما الناظر في الاشياء فانه يتأنّى في نظره ، وتأنيه يبعثه على التصفح البالغ ، والتصفّح البالغ يؤدّي به إلى تمييز الصحيح من السقيم ، والباقي من الفاني ، والدائم من العارض ، وما هو قشر مما هو لبّ . وما هو شفاء مما هو دمار » :

ومن فصوله في كتاب المقابسات ما ورد في المقابسة الثانية في بطلان علم التنجيم قال بعد ان اثبت فوائد سائر العلوم :

« وليس علم النجوم كذلك . فان صاحبه وان استقصى ، وبلغ الحد الاقصى في معرفة الكواكب وتحصيل مسيرها ، واقترانها ورجوعها وضروب مزاجها في مواضعها من بروجها وأشكالها ، ومقاطعها ومطالعها .... فانه لا يستطيع البتة قلب عين شيء ولا صرف أمر إلى أمر ، ولا تنفير حال قد دنت ، ولا نفي ملمّة قد كتبت ، ولا دفع سعادة قد أجمّت واظلّت » . (إلى ان يقول) : « وهذ باب طويل ، والحديث فيه ذو شجون . وكأنّ العالم به ، والحاذق فيه ، المتناهي في حقائقه ، بعد هذا التعب والنصب ، وبعد هذه الكلفة الشديدة ، مستسلم للمقدار ، ومستجد لما يأتي به الليل والنهار . وعادت حاله مع علمه الكبير ، وبصيرته النافذة ، إلى حال الجاهل بهذا العلم الذي انقياده كانقياده ، واعتباره كاعتباره . ولعلّ توكّل الجاهل به احسن من توكّل العالم ، ورجاءه في الخير المتوقّع والشرّ المتوقّى أقوى وأرسخ من رجاء هذا المدل بزيجه وحسابه ، وتقويمه واصطرلابه » .

والمقابسات فصول تنطوي على اقتباسات من أحاديث بعض المفكرين رواها التوحيدي لنا بلغته الخاصة ، وهي نظرات فلسفية في الحياة والطبيعة والانسان وما تعلق بكل منها . وتشمل مئة وست مقابسات ؛ وقد نشرها حسن السندوبي ١٩٢٩ وقدّم لها مقدّمة وافية في حياة التوحيدي وآثاره :

ومما جاء في كتاب الامتاع والمؤانسة قوله مقابلاً بين الفلسفة والشريعة الدينية[1] : « ان الفلسفة حق لكنها ليست من الشريعة في شيء ، والشريعة حق ولكنها ليست من الفلسفة في شيء . وصاحب الشريعة مبعوث ، وصاحب الفلسفة مبعوث اليه ، واحدهما مخصوص بالوحي ، والآخر مخصوص ببحثه . والاول مكفيّ ، والثاني كادح . وهذا يقول أمرت وعلّمت ، وما أقول من تلقاء نفسي ، وهذا يقول نظرت واستحسنت واستقبحت . وهذا يقول نور العقل اهتدي به ، وهذا يقول نور الخالق اهتدي بضيائه » :

(وهذه القطعة من حديث طويل من أحاديث الليلة السابعة عشرة في الكتاب المذكور) .

وقوله في الطبيعة من حديث طويل تجده في الليلة الخامسة والثلاثين جواباً على قول بعضهم ما الطبيعة :

فهي أيضاً قوة نفسية . فان قلت عقلية لم تبعد ، وان قلت الحيّة لم تبعد .

وهي التي تسري في أثناء هذا العالم محرّكة ومسكّنة ، ومجدّدة ومبلية ، ومنشئةً ومبيدة ، ومحييةً ومميتة . وتصاريفها ظاهرة للحسائس . وهي بالموادّ اعلق ، والموادّ لها اعشق . وليس لها ترقّي النفس (في الثاني) إلى عالم الروح . لانه لا كون هناك ولا فساد . فلو رقيت إلى هنالك لبقيت عاطلة . وليس كذلك النفس . فان لها في عالمها البهجة والغبطة ، والحبور والسرور ، والدوام والخلود ، والخلافة الالهية . وهذا هناك في مقابلة ما كان لها ههنا من الفضائل التي لا يأتي عليها احصاء ، ولا يحصّلها استقصاء » .

وكتاب الامتاع والمؤانسة كسائر تصانيفه مليء بالحكم والنوادر والأقوال البليغة المروية عن الحكماء والبلغاء . ومن أمثلته ما رواه عن علي بن

---

١ الامتاع والمؤانسة (مصر ١٩٤٢) ج ٢ ص ١٨

عيسى بن ماهان ، لما توجّه إلى حرب طاهر بن الحسين قائد جيش المأمون، فسأل قوماً وردوا من الريّ عن طاهر « فقالوا انه مجدّ» . فقال وما طاهرٌ . إنما هو شوكة من اغصاني ، وشرارة من ناري . ثم قال لاصحابه ، والله ما بينكم وبين ان ينقصف انقصاف الشجر من الريح العاصفة الاّ ان يبلغه عبورنا عقبةَ همذان . لان السّخال لا تقوى على النطاح ، والثعالب لا صبر لها على لقاء الاسود . فقال يحيى بن علي : أيها الامير ان العساكر لا تساس بالتواني ، والحروب لا تدبّر بالاغترار ؛ وان الشرارة الخفيّة ربما صارت ضراما ، والنّهلة من السيل ربما صارت بحراً عظيما » . (والمعروف في التاريخ ان طاهراً انتصر في الحرب وقتل علي بن عيسى بن ماهان) جرى هذا الحديث في الليلة الحادية والثلاثين؛ والغاية منه وجوب الرأي في الحرب والحزم والتيقظ وقلة الاستهانة بالخصم .

والخلاصة : ان التوحيدي يمثّل في اسلوبه الطريقة التي جرى عليها المترسّلون منذ القرن الثاني حتى القرن الرابع ؛ وذلك قبل ان طغى السجع على اقلام الكتّاب وأصبح التنميق البديعي غاية الغايات في هذا الباب ؛ وقد أصاب الاستاذ السندوبي إذ قال فيه [1] :

« وكان من خصائصه احتذاء الجاحظ في التفنن في كل شيء مطبوعاً على ذلك إلى الحد الاقصى . غير أنه أولع بوضع الاحاديث والاسماء ووقائع التاريخ في الصورة الروائية ، فلا يكتفي بايراد الحادث على ما عُرف وتناقله الرواة ، بل يعرض له ويرسل صيّباً مدراراً من فائض بلاغته ، وزاخر بيانه ، فاذا هو قصّةٌ ذات وقائع وأشخاص وابطال ، تروع إذا مُثّلت ، وتروق إذا قرئت ، وتملك المشاعر والقلوب إذا استمعت . ومع ما يدخله عليها من أصباغ ؛ وما يطليها به من الوان ، فهو لا يعدو في النتيجة ان يمثل الحقيقة في أصدق

---

١ راجع كتاب المقابسات ص ١٧

مظاهرها . فهو الكاتب القصصي الماهر الذي أهدته الينا الأعصار الأول . وله طبع دافق ، وفكر سابق ، وعقل فياض بالحكمة وفصل الخطاب . ومن أخص مزاياه انه يمزج الادب بالحكمة ، والتصوف بالفلسفة . ويولد من بين هذا المزيج مذهباً خاصاً له لم يسبق اليه » :

عهد الانفصال

من الأسلوب المتوازن الى الأسلوب البديعي المسجع

في القرن الرابع الهجري أخذت الصناعة البديعية تشتد لكنها لم تقض على الاسلوب المتوازن الذي عرفناه في الجاحظ ومن حذا حذوه من كتاب ذلك القرن وما بعده . والواقع ان الاسلوب المسجع لم تتم له السيادة في التصنيف كما تمت له في الترسل والخطابة وما اليهما من ضروب الانشاء الادبي – كما سنرى بعد .

فبينا كان المترسلون في القرن الرابع وما بعده يعتمدون السجع والبديع ، ويفتنون فيهما كان ارباب التصنيف الادبي على العموم لا يزالون يعتملون التوازن دون التقيد بقيود الصناعة البديعية . واليك للايضاح أمثلة من تصانيفهم :

من أدب الكتاب لمحمد بن يحيى الصولي (٣٣٥هـ) قال :

« من خدم السلطان بلا علم واستقلال ، وتجربة وكمال ، كان بمنزلة راكب فيل صعب ، وسابح في بحر قد جف : ومع ذلك فان الأتباع إذا أحسوا من الرؤساء بتفويض اليهم ، على قلة علم منهم ،واضطرار لمثل كفاءتهم . ولم يحس الاتباع منهم حسن مجازاة على جميل افادتهم ،

وسوء مكافاة على قبيح أفعالهم ، حتى يستوي عندهم محسنهم ومسيئهم، وخائنهم وأمينهم ، وكافئهم وعاجزهم ، انتقل الامين عن مرّ الوفاء إلى حلاوة الخيانة ، وازداد الخائن بصيرة فـآثر الاضرار ، وقصّر الكافي عن اتعاب النفس وكدّ الانتصاح ، فقد يرى الامين صنيعة فيخون ، ويرى الخائن جرماً فيعفّ ، فيضطرب عند ذلك الحبل ، وينتشر الامر، وتنعكس مساوئ قوم محاسن آخرين » .

وفي كتاب الوساطة لعلي بن عبد العزيز الجرجاني المتوفى ٣٩٢ هـ ، قال في كلامه على رشاقة الالفاظ في الشعر المحدث [١] :

« ومتى سمعتني اختار للمحدث هذا الاختيار ، وابعثه على التطبّع ، واحسن له التسهيل ، فلا تظننّ اني اريد بالسمح السهل الضعيف الركيك، ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنّث . بل أريد النمط الاوسط ، ما ارتفع عن الساقط السوّقي ، وانحط عن البلوي الوحشي ، وما جاوز سفسفة نصر ونظرائه ، ولم يبلغ تعجرف هميان [٢] بن قحافة وأضرابه : نعم ولا آمرك باجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً ، ولا ان تذهب بجميعه مذهب بعضه ، بل أرى لك ان تقسم الالفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مدحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك ، ولا هزلك بمنزلة جدّك ، ولا تعريضك مثل تصريحك ، بل ترتّب كلاً مرتبته وتوفيه حقه ، فتلطف إذا تغزّلت ، وتفخّم إذا افتخرت ، وتتصرّف للمديح تصرّف مواقعه : فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ، ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام : فلكل واحد من الامرين نهج هو املك به، وطريق لا يشاركه الآخر فيه .

وملاك الامر ، في هذا الباب خاصة ، ترك التكلف ورفض التعمل،

---

١ الوساطة ٢٦ و ٢٧ و ٢٨

٢ نصر وهميان كاتبان .

والاسترسال للطبع ، وتجنّب الحمل عليه ، والعنف به . ولست اعني بهذا كل طبع ، بل المهذّب الذي قد صقله الادب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وأُلهِم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح » .

وقال في اختياره لغرر المتنبي [1] :

« قد وفينا لك بما اقتضاه شرط الضمان ، وزدنا وبرأنا اليك مما يوجبه عقد الكفالة ، وافضلنا ولم تكن بغيتنا استيفاء الاختيار ، واستقصاء الانتقاد ، فيقال هلاّ ذكرت هذا فهو خير مما ذكرت ، وكيف اغفلت ذاك وهو مقدم على ما أثبت ، وإنما دعوناك إلى المقاصّة ، وسمناك في ابتداء خطابك المحاجّة والمحاكمة ، فلزمنا طريقة العدل فيها ، والتقطنا من عروض الديوان أبياتاً لم نذهب — ان شاء الله — في أكثرها عن جهة الاصابة ، فان وقع في خلالها البيت والبيتان ، فلأن الكلام معقود به المعنى لا يتمّ بدونه ، وما يتقدمه وما يليه مفتقر اليه ، أو لغرض لا تعظم الفائدة بذكره ، ويضيق هذا القدر من الخطاب عن استقصاء شرحه ، أو لسهو عارض التمييز ، وغفلة لابست الاختيار ، وقد جعلنا لك ان تحذف منه ما أحببت ، وأبحنا لك أن تسقط ما أردت ، فان الذي يفضل نقدك منه ، ويوافقنا رأيك عليه ، ينجز وعدك ، ويبلغ غايتك ، وبقي ما وقعت الموافقة عليه بيننا وبينك ، ثم طالع بقية شعره ، وتصفح فضالة ديوانه ، لتعلم انّا لم نقصد استيعاب عيوبه ، وأخذ صفوته ولبابه .

ولعلك إذا رأيت هذا الجد في السعي ، والعنف في القول . تقول انما وقفت موقف الحاكم المسدّد ، وقد صرت خصماً مجادلا ، وشرعت شروع القاضي المتوسط ثم أراك حرباً منازعا ، فان خطر ذلك ببالك ، وحدّثتك به نفسك فأشعرها الثقة بصدقي .

---

[1] الوساطة ١٣٩ و ١٤٠

وقرّر عندهما انصافي وعدلي ، واعلم اني رسول مبلّغ ، وسامع مؤدّ ، واني كما اناظرك اناظر عنك ، وكما أخاصمك اخاصم لك ، فان رأيتني جاوزت لك موضع حجّة ، فردّني اليها ، ونبّهني عليها ، فما ابرئ نفسي من الغفلة ، ولا أدّعي السلامة من الخطأ » .

والكتاب كله على هذا النمط .

وعلى هذا النمط يجري معاصره ابو هلال العسكري المتوفى ٣٩٥ هـ . فالتوازن بارز في كتابه « الصناعتين » ولا سيما إذا تبسط مترسّلاً كقوله يصف الكلام الجيد[١] :

« فاذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة، والسهولة والرصانة، مع السلاسة والنصاعة ، واشتمل على الرونق والطلاوة ، وسلم من حيف التأليف ، وبعدَ عن سماجة التركيب ، وورد على الفهم الثاقب قبله ولم يردّه ، وعلى السمع المصيب ، استوعبه ولم يمجّه . والنفس تقبل اللطيف . وتنبو عن الغليظ ، وتقلق من الجاسي البشع ، وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقه ، وتنفر عمّا يضادّه ويخالفه . والعين تألف الحسن ، وتقذى بالقبيح ، والانف يرتاح للطيّب ، وينفر للمنتن ، والفم يتلذّذ بالحلو ، ويمجّ المرّ ، والسمع يتشوّق للصواب الرائع ، وينزوي عن الجهير الهائل . واليد تنعم باللّين ، وتتأذّى بالخشن ، والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ، ويسكن إلى المألوف ، ويصغي الى الصواب ، ويهرب من المحال، وينقبض عن الوخم ، ويتأخر عن الجافي الغليظ . ولا يقبل الكلام المضطرب الاّ الفهم المضطرب والروية الفاسدة » .

ففي هذا الوصف تجد تعادل الفقرات والاطناب على أتمها . وكل الترسّل في الصناعتين على هذا النمط ، بل كل قول للكاتب غير منقول عن سواه ، لا نستثني من ذلك تعريفه للأشباه كقوله في

التوشيح[1] :

« وهو ان يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد لعجزه ... وخير الشعر ما تسابق صدوره واعجازه ، ومعانيه والفاظه ، فتراه سلساً في النظام ، جارياً على اللسان ، لا يتنافى ولا يتنافر ، كأنه سبيكة مفرغة ، ووشيٌ منمنم ، أو عقد منظّم ، من جوهر متشاكل ، متمكن القوافي غير قلقة ، وثابتة غير حرجة ، الفاظه متطابقة ، وقوافيه متوافقة ، ومعانيه متعادلة : كل شيءٍ منه موضوع في موضعه ، وواقع في موقعه . فإذا نُقض بناؤه ، وحلّ نظامه ، وجُعل نثراً ، لم يذهب حسنه ، ولم تبطل جودته في معناه ولفظه ، فيصلح نقضه لبناءٍ مستأنف ، وجوهره لنظام مستقبل » .

ومن أقواله التي تدلّ على اسلوبه الانشائي ما كتبه في فصلٍ إلى بعض أهل الادب قال[2] :

« قُرْبكَ أحبّ اليّ من الحياة في ظلّ اليسر والسعة، ومن طول البقاء في كنف الخفض والدّعة ، ومن اقبال الحبيب مع ادبار الرقيب، ومن شمول الخصب بعد عموم الجدب ، وأقرّ لعيني من الظفر بالبغية بعد اشرافي على الخيبة ، وأسرّ لنفسي من الأمن بعد الخوف،والانصاف بعد الحيف ، واسأل الله ان يطيل بقاءك ، ويديم نعماءك ، ويرزقني عدلك ووفاءك ، ويكفيني نبوّك وجفاءك » .

* * *

وفي كتاب يتيمة الدهر لابي منصور الثعالبي (المتوفى ٤٢٥ ﻫ) وهو كثيراً ما يجمع في وصفه بين التوازن والتسجيع :

---

١ الصناعتين ٣٠٢

٢ الصناعتين ٢٨٩

في ابي فراس[1]

« كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدباً وفضلاً ، وكرماً ونبلاً ، ومجداً وبلاغة ، وبراعة وفروسية وشجاعة ، وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة والجزالة ، والعذوبة والفخامة ، والحلاوة والمتانة ، ومعه رواء الطبع وسمة الظرف ، وعزّة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلاّ في شعر عبد الله بن المعتز : وابو فراس يعد اشعر منه عند اهل الصنعة ونقدة الكلام » .

في ابي القاسم الاصبهاني[2]

« شاعر ملء ثوبه ، محسن ملء فمه ، مرغوب في ديباجة كلامه ، متنافس في سحر شعره ، ولم يقع إليّ ديوانه بعد ، وانما حصلت من أفواه الرواة على قطرة من سبيج غرره ، وغيض من فيض ملَحه » .

في ابي بكر الخوارزمي[3]

« باقعة الدهر ، وبحر الادب ، وعلَم النثر والنظم ، وعالم الفضل والظرف ، وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة ، والبلاغة المفيدة ، ويحاضر باخبار العرب وايامها ودواوينها ، ويدرّس كتب اللغة والنحو والشعر ، ويتكلم بكل نادرة ، ويأتي بكل فقرة ودرّة ، ويبلغ في محاسن

---

١ اليتيمة ١ — ٢٢
٢ اليتيمة ٣ — ١٤٦
٣ اليتيمة ٤ — ١١٤

الادب كل مبلغ ، ويغلب على كل محسن ، بحسن مشاهدته ، وملاحة عبارته ، ونعمة نعمته ، وبراعة جدّه ، وحلاوة هزله » .

في بديع الزمان الهمذاني [1]

« هو أحمد بن الحسين بديع الزمان ، ومعجزة همذان ، ونادرة الفلك ، وبكر عطارد ، وفرد الدهر ، وغرة العصر ، ومن لم يُلْقَ نظيره في ذكاء القريحة وسرعة الخاطر ، وشرف الطبع ، وصفاء الذهن ، وقوة النفس ، ومن لم يدرك قرينه في ظرف النثر وملحه ، وغرر النظم ونكته ، ولم يُرَ ولم يروَ ان احداً بلغ مبلغه من لب الادب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها انه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ، ويؤدبها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفاً ، ولا يخل معنى » .

ثم يقول :

« وكان مع هذا كله مقبول الصورة ، خفيف الروح ، حسن العشرة ، ناصع الطرف ، عظيم الخلق ، شريف النفس ، كريم العهد ، خالص الود ، حلو الصداقة ، مر العداوة ، وفارق همذان سنة ثمانين وثلاثمائة ، وهو مقتبل الشبيبة ، غضّ الحداثة ، وقد درس على ابي الحسين بن فارس وأخذ عنه جميع ما عنده واستنفد علمه ، واستنزف بحره ، وورد حضرة الصاحب ابي القاسم فتزوّد من ثمارها وحسن آثارها ، ثم قدم جرجان واقام بها مدة على مداخلة الاسماعيلية ، والتعيش في اكنافهم ، والاقتباس من أنوارهم » .

والذي يتحرّى المصنّفات الادبية ما بعد القرن الخامس الهجري يرى

---

[1] اليتيمة ٤ ص ١٦٧ – ١٦٩

انه برغم سيادة السجع التي امتدّت إلى عهد قريب منا ، وبرغم ما ظهر في النهضة الاخيرة من انحداره أمام بساطة النثر المُرسل ، لا يزال الازدواج المطلق حيّاً ، وكثيراً ما يظهر في أقوال الخطباء والمترسلين . نعم انه فقدَ ما كان له من السيادة في صدر الدولة العباسية ، ولم يتُح له بعد ذلك ان يكون اسلوب الترسّل العام ، ولكنك تجده في كل قرن وفي كثير من حلقات النثر المُرسل ولا سيما إذا فاضت عواطف الفؤاد ، واتّقدت ، فتطلّبت الاتزان في العبارات والتعادل في المعاني ؛

وفي ترسّل أدبائنا المتأخرين شواهد كثيرة على توازن العبارات أو ازدواجها وستتناول ذلك في كتاب خاص نعرض فيه المناحي النثرية في الادب الحديث .

الأسلوب المسجّ

اطنه

١ ـ نظرة عامة في خصائصه
٢ ـ الرسائل الديوانية ,بية
٣ ـ الرسائل والمصنغوحية
٤ ـ المقامات وال

السَّجْع

نظرة عامة في خصائصه

منذ القرن الرابع الهجري الى النهضة الادبية الاخيرة

عرفنا ان السجع قديم يرجع إلى العهود الجاهلية ، وانه لم يخلُ منه عصر من عصور الادب ، ولا نستثني من ذلك عصر صدر الاسلام . الاّ ان اهل ذلك العصر لم يبلغوا به حدّ الصناعة المحكمة الاصول ، ولم يجعلوه منهاج الترسّل العام كما فعل الادباء في القرن الرابع الهجري وما بعده .

ففي القرن الرابع أخذ هذا الاسلوب الانشائي يسيطر على الادب المنثور ، واقترنت سيطرته بسيطرة البديع فكانت البلاغة العربية منذ ذلك الحين إلى عهد غير بعيد عنا عبارة عن حسن التسجيع مقروناً بالتوفّر على المحسنات اللفظية والمعنوية . وعلى ذلك قال ابو هلال العسكري [1] :

« لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً لا يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج

[1] الصناعتين ٢٠٠

لكان القرآن لانه في نظمه خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلاً عما تزاوج في الفواصل منه » :: « واما ما زوّج بينه بالفواصل فهو كثير مثل قوله تعالى — فاذا فرغتَ فانصَب ، وإلى ربِّك فارغب — وقوله سبحانه — فاما اليتيمَ فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر — » ..

ثم يذكر السجع في كلام النبي وكرهه لكلام الكهان ويعلق على ذلك بان النبي لم يكره السجع لكونه مسجعاً وانه هو استعمله في كلامه « بل ربما غيّر الكلمة للموازنة بين الالفاظ واتباع الكلمة اخواتها كقوله (ص) — اعيذه من الهامّة ، والسامّة ، وكل عين لامّة — وإنما اراد ملمة ،

وقوله — ارجعن مأزورات ، غير ماجورات وانما اراد موزورات من الوزر . قال العسكري : « وإذا سلم (أي السجع) من التكلف وبرىء من التعسف لم يكن في جميع صنوف الكلام احسن منه » .

ويجري ضياء الدين بن الاثير مجرى العسكري في التدليل على فضل السجع وانه اعلى درجات الكلام ، ويستند في ذلك إلى القرآن والحديث ويأتي بكثير من الامثلة فليراجعها من أراد[١] .

وشروط السجع البليغ عنده ما يلي[٢] :

١ — ان تكون الالفاظ حلوة حادّة طنّانة رنانة لا غثّة ولا باردة .

٢ — ان تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذي دلّت عليه أختها .

ويتّفق جميع البيانيين على ان أفضل السجع هو القصير الفقرات ، المتساوي الفصول ، ويتلوه ما كان الفصل الثاني أطول من الاول طولاً لا يخرج به عن حدّ الاعتدال . ويعيب ابن الاثير ما كان فيه الفصل

---

١ و ٢ المثل السائر ص ١١٤ — ١١٨ و ص ١٤٧ — ١٥١

الثاني أقصر من الاول [1] . والحقيقة ان هذا العيب نسبيّ فاذا لم يخرج عن حدّ الاعتدال لم يعدّ عيباً . وقد استشهد العسكري على ذلك بما جاء في الحديث النبوي – رحم الله من قال خيراً فغنم ، أو سكت فسلم – وقوله (ص) للانصار – « انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع [2] وجاراه القلقشندي [3] واستشهد من القرآن بالآيتين : « اذ يُريكَهمُ الله في منامك قليلاً ولو اراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الامر ولكنّ الله سلّم انه عليم بذات الصدور . واذ يُريكموهم إذ التقيتم في اعينكم قليلاً ويقلّلكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولا وإلى الله تُرجع الامور » . فالأولى عشرون كلمة والثانية تسع عشرة .

وقد اعجب العرب السجع حتى استعملوه في منظوم كلامهم وسمّى اهل الصنعة هذا النوع من الشعر المرصّع [4] .

اقتران السجع بالبديع

والبديع كالسجع قديم في النثر العربي ، على انه لم يجعل فناً إلا في صدر العصر العباسي . وقد رافق الاسلوب المسجع واقترن به فصار السجاعون يفتنّون في غرائبه افتنان الشعراء . ولايضاح ذلك نثبت هنا ما استخرجه عبد الرحمن بن علي اليزدادي من هذه الغرائب البديعية في رسائل الامير شمس المعالي قابوس بن وشمكير المتوفى ٤٠٣ . قال :

١ المثل السائر ص ١٥٠
٢ الصناعتين ٢٠٢
٣ صبح الاعشى ٢ – ٢٧٨
٤ الصناعتين ٢٠٣

« ثم استخرجت من هذه الرسائل أنواعاً لم يكن وجدها قدامة فيما فتّش من كلام الفصحاء وتولّيت تسميتها بما شاكلها من النعوت وعددها أربعة عشر وهي [1] :

المجنح — كقوله : صام عن جواب ما نفذ اليه ، ونام عما لزمه في حق الاعتماد عليه ، وكذلك : قد طال مقام فلان فتجاوز كل طول ، وأقفل باب رجوعه فلا يرجى له قفول .

المتزاوج — كقوله : فاني مؤمّل غمام ، غير جهام ، ومُعمل حسام غير كهام ، وكذلك : فمن مرّ على ارجاء بحره الهيّاج ، ونظر في لألاء بدره الوهاج .

المثل — كقوله : وراض صعباً ساء خلقه ، وانهض صبحاً تبلّد فالقه ، وحلّ عقداً تولى الدهر شده ، وشب ضراماً أصلد الزمان زنده ، وكذلك تخال انه مكتف بجاهه وعرضه ، ومتعزّز بسمائه وأرضه ، ولا يشعر اني كلّ لبعضه ، وطول في عرضه .

المبالغة — كقوله : فانه معتكف مقيم ، على ضامن كريم ، والكريم إذا ضمن لم يخلف ، وإذا نهض لفضيلة لم يقف .

ابداع القرائن — كقوله : لا سيما إذا كان فيما بدر منه ساهياً ، ولما كتب عليه سوء الاتفاق ماحيا ، وكذلك : فأفاض في وصف ما تلألأ من غرر افعاله ، وابرّ على كل جميل بجماله .

المجانس — كقوله : وكيف يعرض عمن تعرض رفاهة العيش باعراضه ، وتنقبض الارزاق بانقباضه ، واضاء نجم الاقبال إذا أقبل ، وأهلّ هلال الجدّ إذا تهلل .

المتضادّ — كقوله : من أقعدته نكاية الايام ، اقامته اغاثة الكرام ، ومن ألبسه الليل ثوب ظلمائه ، نزعه النهار عنه بضيائه .

[1] كمال البلاغة ص ١٩ — ٢٢

المتوأم — كقوله : قاصم الاصلاب ، وقاسم الاسلاب ، وكذلك خالمت خيله ، وسالمت سيله .

المخلخل — كقوله : اثّرت فيه خجلة العثار ، ونهكته ذلة الاعتذار .

المردد — كقوله : ومن رام ان يفري فيها كما يفري ، ويسري بنجومها كما يسري .

المتشابه — كقوله : وهاجر بهجره ، واصرّ على صرمه ، ومال إلى الملال ، ولم يصلَ نار الوصال .

مشابهة الصورة — كقوله : التردّد بين الرخاء والبأس ، والرجاء واليأس . وكقوله : إذا حالف ، فاحسبه قد خالف . وإذا اعار ، فاحسبه قد أغار .

المعكوس — كقوله : شيمته رفع الخامل الوضيع ، ووضع الفاضل الرفيع ، وقوله : فاعلم انه لا يسوءُني ما يسرّك ، ولا يسرّني ما يسوءُك ، واني لا اكره ما تحبه ، ولا احب ما تكرهه .

• • •

وذكر عبد الرحيم بن شيت القرشي في كتابه معالم الكتابة القاب السجع فعدّد منها نحو ثلاثين نوعاً نذكر منها ما يلي [1] :

الرجع — وهو كل كلمتين جاءتا على صيغة واحدة في اللفظ والخط لا تخالف احداهما الاخرى إلا بأول الحروف أو بترتيب الحروف كقوله تعالى « ويل لكل هُمَزَة لُمَزَة » . وكقول القائل : الدنيا دار ممر ، والآخرة دار مقرّ . وكقولهم فلان ارفع القوم عمادا ، واورعهم معادا .

الترصيع — ومنه ترصيع اللغو وهو كل كلمتين جاءتا في النثر على صورة واحدة لا يفرق بينهما إلا بالشكل والنقط كقوله وانا فيما فعلته وعائد لا عائذ ، وحابس لا خائس .

---
[1] معالم الكتابة ٦٨ — ٨٥

الإلمام — وهو ان يلم الكاتب في صدر كلامه بكلمة فيبني عليها فصلاً ، ثم يعكس هذه الكلمة في اول الفصل التالي كقوله : أفاض الله عليك نعمه واضاف اليك قسمه .

التوشيع — كقوله : ان فلاناً يميل إلى الخير واتيانه ، وعن الشر واستحسانه (فلفظ يميل يحتمل ان يكون إلى الشيء وعنه وهذا هو التوشيع) .

التتميم — كقوله : فلان عال عالم ، وقاض قاضب ، وغال غالب .

التكرير — ومنها تكرير القافية كقوله : لا زال عالي المنار ، حامي الذمار ، عزيز الجار ، هامي النعم ، وافي المجد ، نامي الحمد ، جديد الجدّ ، وافر القسم .

أو تكرير اللفظة كقوله : باسم الايام ، باسم الايادي ، باسم الخدام ، ماضي الامر ، ماضي العزم ، ماضي الحسام .

الهدم — ان تنقض صفة بصفة أخرى على طريق الاستدراك كقوله : هو سبط الخلائق إلا انه جعد الانامل .

الجحد — وهو ان تنكر شيئاً لا تتحقق فيه الانكار بل هو على حكم المبالغة — مثاله : وقلبي قلق لما بلغني من تأملك ، ولا والله مالي بقلبي منذ بلغني ذلك عهد : وعندي من الالم ما لا أستطيع التعبير عنه ، ولا والله ما أعرف الالم بعدم الاحساس بالحال التي احدثها عندي الوجد .

التفسير : ان يكون في صدر الكلام جملة يفسرها ما بعده — كقوله قد جعلت لك عيني وقلبي حرساً وسكناً ، ومع ذلك فما اجد عليك شيئاً عندي مؤتمناً .

الاستخدام — وهو ان تكون الكلمة تقتضي معنيين فتستخدم فيهما

جميعاً كقوله : انا على عهدك الذي تعلمه لم أحلّ من أمرك عقداً ، ولا مكاناً آنس منك فيه فقداً ــ (فقد استعمل احلّ في المعنيين) .

الاستطراد ــ وهو ان يكون في قضية فيخرج منها إلى اخرى ويفيد بذلك معنى من مدح أو ذم كقوله : ادام الله سعادة الحضرة حتى يوجد لها سبب في الفضائل ، وحتّى يقلع فلان عما فيه من الرذائل . وفي قلبي من حرّ الشوق اليها ما يقع ذكرها منه موقع الماء الزلال ، وفي حشاي من الوجد بها ما في صدر فلان من الغيظ عند التماس النوال .

التعليق ــ هو ان يعلّق معنى بمعنى ومثاله : وانت ابداً تردّ على قولي حتى كأني الومك فيا طُبعت عليه من النوال ، أو اسومك ان تكون وانت من سادات الكرام من البخّال .

التّرديد ــ هو ان تردّ آخر الكلام على أوله ومثاله : وسيدنا سريع إلى من يحدّثه إلى الخير ، متقاعد عن الانحدار إلى الشر غير سريع ، مَريع الجانب للآوي اليه ، وللواشي منيع غير مريع .

وهناك الاحتراس والتورية والمقابلة والموازنة والتقسيم والاعتراض وسواها ، ناهيك بالاستعارة والجناس والطباق من أنواع الصناعة البيانية المشهورة التي اولع بها الادباء والتي نراها مفصلة في كتب البيان والبديع .

• • •

والمهم هنا ان نعرف ان صناعة السجع وصلت في العصر العباسي إلى حدّ عظيم من التأنق ، وأصبحت في ذلك العصر ، وفي العصور التي تلته الزي الانشائي العام فسيطرت الاناقة البديعية على دواوين الانشاء في الدول المختلفة ، وأصبحت المقياس الاعلى في حلقات الادب بل تعدّت ذلك إلى التاريخ والعلم كما سنرى بعد .

وعلى هذا المقياس تناول القلقشندي وهو من منشئي القرن التاسع الهجري خمس نسخ أو رسائل من « تذكرة اللبيب » لمحمد بن المكرم وانتقدها فقال[١] :

« وليس منها ما هو حسن الترتيب ، رائق الالفاظ ، بهج المعاني ، بليغ المقاصد ، غير النسخة الاخيرة المعقودة بين الملك الاشرف وبين الملك « دون حاكم » . اما سائر النسخ المتقدمة فانها مبتذلة الالفاظ ، غير رائقة الترتيب ، لا يصدر مثلها من كاتب عنده أدنى ممارسة لصناعة الكلام . والعجب من صدور ذلك في زمن « الظاهر بيبرس » و « المنصور قلاوون » وهما من هما من عظماء الملوك ! وكتابة الانشاء يومئذ بيد بني عبد الظاهر الذين هم بيت الفصاحة ورؤوس ارباب البلاغة ولعل ذلك إنما وقع ، لأن الفرنج كانوا مجاورين للمسلمين يومئذ ببلاد الشام ، فيقع الاتفاق والتراضي بين الجهتين على فصل فصل ، فيكتبه كاتب من كل جهة من جهتي المسلمين والفرنج بالفاظ مبتذلة غير رائقة ، طلباً للسرعة ، إلى أن ينتهي بهم الحال في الاتفاق والتراضي ، إلى آخر فصول الهدنة ، فيكتبها كاتب الملك المسلم على صورة ما جرى في المسوّدة ، ليطابق ما كتب به كاتب الفرنج . إذ لو عدل فيها كاتب السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الالفاظ وبلاغة التركيب ، لاختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً ، فينكرونه حينئذ ، ويرون انه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى ابقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسوّدة . وبالجملة فاءنا ذكرت النسخ المذكورة — على سخافة لفظها ، وعدم انسجام ترتيبها — لاشتمالها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما لعله يحضر بباله من مقاصد المهادنات ، اغنانا الله تعالى عن الحاجة اليها » .

---

١ صبح الاعشى ١٤ — ٧٠

وممن شعروا بوطأة هذا الاسلوب المتكلّف فثاروا عليه الكاتب المشهور ابن خلدون فقال [١] : « وقد استعمل المتأخرون أساليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسيب بين يدي الاغراض وصار هذا المنثور إذا تأملته من باب الشعر وفنه ، لم يفترقا إلا في الوزن . واستمر المتأخرون من الكتّاب على هذه الطريقة ، واستعملوها في المخاطبات السلطانية وقصروا الاستعمال في المنثور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وسلطوا الاساليب فيه ، وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق وصارت المخاطبات السلطانية لهذا العهد عند الكتّاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي اشرنا اليه » . ثم ينتقد ابن خلدون هذا الاسلوب وينعته بالبعد عن البلاغة وانه غير مطابق لمقتضيات الحال . إلى أن يقول :

« وما حمل عليه أهل العصر الا استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن اعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال ، فعجزوا عن الكلام المرسل لبعد أمده في البلاغة وانفساح خطوبه وولعوا بهذا المسجع يلفّقون به ما نقصهم من تطبيق الكلام على المقصود ، ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع والالقاب البديعة ، ويغفلون عما سوى ذلك » .

وقد نشأ ابن خلدون في القرن الثامن الهجري وتوفي في مستهل القرن التاسع . ومن كلامه يدرك الباحث ما بلغه السجع من التأثير في الاسلوب الانشائي وليس غرضنا هنا ان نحلل انتقاد ابن خلدون ونرى اوجه الصواب والخطأ فيه ولكن ان نشير إلى حالة النثر في أيامه .

ولم تكن ثورة هذا المؤرخ والاديب الكبير كافية للقضاء على سيطرة السجع : فان المترسلين الذين نشأوا بعد ابن خلدون جروا على منهاج

---

١ المقدمة ٥٦٧ و ٥٦٨

أسلافهم فدخل العصر العثماني وقد اتسعت الشقة بين هذا الاسلوب الترسلي المتكلف وبين ما كان عليه الانشاء (رسائل وخطباً) في صدر الاسلام . وسنرى فيما نعرضه من نصوص النثر العباسي وما تلاه، ان الترسل العربي أخذ لتحكم الصناعة فيه تضعف روحه وفارقته تلك المزايا القديمة وهي : الايجاز، والإحكام، وارسال الكلام على السجية، وانصرف الكتاب عن ابتكار المواضيع التي توحيها إلى الادب مشاهد الطبيعة، وحركات الحياة والعمران، إلى ابتكار المعاني البيانية والتنافس في نسج الحلل اللفظية .

وكرت القرون على الانشاء وهذا حاله : الخلف يقلد السلف متقيداً بما وضع له من قواعد لغوية وبيانية، جارياً وعيناه إلى الوراء في سبيل الحياة الادبية . وزاد الطين بلة انهيار العنصر العربي في الشرق، وتتابع دول أعجمية لم يكن لها من علاقة بالادب العربي إلا ما كانت تقتضيه الغيرة الدينية أو المصلحة السياسية، حتى قامت الدولة العثمانية فاعتمدت لسانها التركي : ومع انها ظلت على احترامها الديني للغة العربية فقد أخذت هذه اللغة في أيامها تضعف وأخذ الانشاء ينحط، فلم يكد يدخل القرن الثامن عشر والتاسع عشر للميلاد حتى أصبح الترسل رث الديباجة ركيك العبارة .

واتصل هذا الضعف بكتب العلم والتاريخ والادب لم ينج منه إلا أفراد قلائل ممن عنوا بدراسة الادب القديم وحافظوا على تراثهم اللغوي المجيد .

وصحب ذلك انحطاط عام في المعرفة وفي أسباب العمران . ولا ينكر ان الانحطاط بدأ قبل العصر العثماني، ولكن الدولة العثمانية كانت جواً ملائماً له، فاتسعت دائرته حتى وصل الادب العربي فيه إلى أحط دركاته .

وسنرى كيف حدثت النهضة الاخيرة في الانشاء حتى بلغ ما بلغه في القرن العشرين ، وكيف غلب السجع والتأنق البياني على امرهما بعد سيادة مئات من السنين .

مواطنه

يظهر السجع في الادب العربي في أربعة مواطن رئيسية وهي :

١ — الرسائل الديوانية أي المنشورات الاميرية وما اليها .

٢ — الرسائل الادبية — ويدخل فيها النفثات الادبية الخاصة من اخوانيات ومناظرات وأوصاف وخطب وحكايات وما يجري مجراها .

٣ — المقامات — وهي معروفة .

٤ — مقدمات الكتب .

وقد تجد السجع عاماً في بعض كتب التاريخ والاخبار والتراجم :

كاليتيمة للثعالبي .

واليميني للعتبي .

وقلائد العقيان للفتح بن خاقان .

والخريدة للعماد الاصبهاني .

وريحانة الالباء للخفاجي [١] .

وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه .

وسلك الدرر للمرادي .

فلنتقدم الآن إلى البحث في كل باب من هذه الابواب :

١ وله أيضاً كتاب خبايا الزوايا وهو كتاب تراجم على نسق الذخيرة وقلائد العقيان (لغة العرب ١ — ٢٠٩)

الرّسائل الدّيوانيّة

(قديماً وحديثاً)

ويمتاز الانشاء فيها ببسط الكلام . وهو يتناول التهنئات بالنصر وتقليد الوظائف ومكاتبات العمال والملوك والامراء وما إلى ذلك . ويختلف اسلوبها بحسب أغراضها .

ففي التهنئات مثلاً يذهب الكاتب إلى بسط الكلام في شكر الله وتعظيم النصر وذكر ما يتّصف به الممدوح من عزم واقدام وجلَد ، ووصف جيشه وعدّته وعدده والتهويل بذكر العدوّ ووصف جمعه وعدده وغير ذلك مما تقتضيه عظمة النصر وحال الممدوح .

وفي تقليد وظيفة تعتبر كثرته وقلته بحسب الرتب ويراعى فيه أمور عامّة ، منها : الاستهلال بذكر الرتبة أو الحال وقدر النعمة ولقب صاحب التقليد واسمه . جاءَ في كتاب حسن التوسّل في صناعة الترسّل [1] : « ويحسن ان يكون الكلام منقسماً في التقليد على أربعة أقسام متقاربة المقادير :

فالربع الاول : الخطبة (اي مقدّمة الرسالة) .

---

[1] حسن التوسل ١٥٦ و ١٥٧

والربع الثاني : ذكر موقع الإنعام في حقّ المقلّد وذكر الرتبة وتفخيم أمرها .

والربع الثالث : في أوصاف المقلّد وذكر ما يناسب تلك الرتبة ويناسب حاله من عدلٍ وسياسة ومهابة وبُعد صيت وسمعة وشجاعة الخ ...

والربع الرابع : في الوصايا .

وسترى أمثلة ذلك كله في الكلام على المنشئين . ولكي تعلم الفرق بين الايجاز الكتابي وبين الانشاء الديواني ننقل لك مرّة أخرى كتاب طاهر إلى المأمون لتقابله بما هو في معناه من انشاء ضياء الدين بن الاثير وقد كتبه لاظهار الفرق بين الايجاز والاطناب .

قال طاهر : « كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يديه وخاتمه في يدي وعسكره مصرّف تحت أمري والسلام » .

فتوسع به ابن الاثير وقال [1] :

« اصدر كتابه هذا وقد نَصر بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة،وانقلب باليد الملأى والعين القريرة ، وكان انتصاره بجدّ أمير المؤمنين لا بحد نصله — والجدّ اغنى من الجيش وان كثرت أمداد خيله ورَجله — وجيء برأس عيسى بن ماهان وهو على جسدٍ غير جسده ، وليس له قدم فيقال انه يسعى بقدمه ، ولا يدٌ فيقال انه يبطش بيده . ولقد طال وطوله مؤذن بقصر شأنه ، وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه . واحضر خاتمه وهو الخاتم الذي كان يجري على نقش اسطره ، وكان يرجو ان يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورود المنيّة دون مصدره . وكذلك البغي مرتعه وبيل ، ومصرعه جليل ، وسيفه وان مضى فانه عند الضرب كليل : وقد نطق الفأل بانّ الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك ورأسه . وهذا الفتح أساس لما يُستقبل بناؤه ، ولا يستقرّ البناء إلاّ على أساسه

[1] المثل السائر ٣٣٩

والعساكر التي كانت على أمير المؤمنين حرباً صارت له سلماً ، واعطته البيعة علماً بفضله وليس من تابع تقليداً كمن هو تابع علماً ؛ وهم الآن مصرّفون تحت الاوامر ، ممتحنون بكشف السرائر ، مطيفون باللواء الذي خصّه الله باستفتاح المقالد واستيطاء المنابر . وكما مرّت خطوات القلم في أثناء هذا القرطاس ، فكذلك طلائع الرعب قبل الطلائع في قلوب الناس . وليس في البلاد ما يغلق بمشيئة الله باباً ، ولا يحسر نقاباً . وعلى الله اتمام النعم التي افتتحها ، واجابة أمير المؤمنين إلى مقترحاته التي اقترحها والسلام » .

وهذا الكتاب يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين من المعنى الا أنه فصّل ذلك الاجمال . والذي نراه ان تفصيل ابن الأثير او اطنابه نموذج لما وصل اليه الانشاء الديواني بعد ان ساده التأنق البياني وانصرف الكتاب إلى المحسّنات اللفظية .

• • •

وقد أصبح للانشاء البياني مع الزمان قواعد مقرّرة منها ما يلي (ملخصة عن صبح الاعشى الجزء السادس) :

١ ــ براعة الاستهلال أو التحميدات « بان يأتي في صدر المكاتبة بما يدلّ على عجزها . فان كان الكتاب بفتح اتى في أوّله بما يدلّ على التهنئة ، أو بتعزية أتى في أوّله بما يدلّ على التعزية ، أو في غير ذلك من المعاني أتى في أوّله بما يدلّ عليه ليعلم من مبدإ الكتاب ما المراد منه . وفضلاء الكتّاب وائمتهم يعتنون بذلك كل الاعتناء [١]

٢ ــ ان يأتي الكاتب في المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدّمة تكون بساطاً لما يريد فإذا كان الكلام في الجهاد أو الفتح أو جباية الخراج أو غير ذلك كانت المقدمات مشتملة على الغرض المطلوب . أما الامور التي لا تشتمل على المقاصد الجليلة كرقاع التحف والهدايا فلا

---

١ صبح الاعشى ٦ ــ ٢٧٦

يجعل لها مقدّمة تكون أمامها [١] .

٣ — ان يراعي مواقع آيات القرآن وابيات الشعر في المكاتبة وليس لهم في ذلك قاعدة خاصة ، بل مذاهبهم مختلفة ومقاصدهم متباينة بحسب الأغراض [٢] .

٤ — ان يراعى في المكاتبات ما يعمل فيه على الايجاز أو على التبسط والاطناب ، ولذلك اماكن معروفة عند الكتاب ذكرها القلقشندي في صبح الاعشى [٣] .

٥ — استعمال البديع أو المحسّنات اللفظية والمعنوية وقد مرّ معنا شيء مما ذكروه من هذه البدائع الفنية فلا لزوم لاعادتها هنا .

• • •

وقد نقل ابن عبد ربه في العقد الفريد كلاماً للشيباني في ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز ، وهو يجمع بين مراعاة طبقات المخاطَبين وبين ما يجب استعماله أو تجنبه من الالفاظ والعبارات . واكثره داخل في باب البلاغة فنقتصر هنا على الاشارة اليه [٤]

وجعل ابو هلال العسكري الاصول الانشائية ما يلي [٥] :

١ — مكاتبة كل فريق على مقدار طبقته .

٢ — حسن الدعاء .

٣ — الازدواج .

٤ — عدم تكرار الحروف .

٥ — حسن الترتيب .

ومن الكتب التي تبحث في قواعد الكتابة الديوانية كما كان يفهمها

---

١ صبح الاعشى ٦ — ٢٧٨ و ٢٧٩

٢ راجع ذلك في صبح الاعشى ٦ ص ٣٠٦ — ٣١٢

٣ راجع تفصيل ذلك في صبح الاعشى ٦ ص ٣١٥ — ٣٢٢

٤ العقد ٢ — ٢١٣ و ٢١٤

٥ راجع الصناعتين ١١٥ و ١١٩

كتّاب العصر العباسي وما بعده : « معالِم الكتابة » وقد مرّ ذكره و « حسن التوسّل في صناعة الترسّل » لشهاب الدين الحلبي . و « موادّ البيان » و « التعريف بالمصطلح الشريف » وسواهـا . وكل هـذه الكتب ممـا اعتمد عليه صاحب صبح الاعشى وهي حرية بالمراجعة والدرس .

وقد كانوا في العصر العباسي يتخيّرون للانشاء الديواني بلغاء الكتّاب لما يترتب عليه من التبعات الجسيمة . وكان لأولئك الكتّاب منه رزق واسع وجاه عريض ، فاقبلوا عليه وتغالوا في الافتنان به . ولا يظهر انه طرأ على الاسلوب الديواني بعد العباسيين تغير يذكر . فقد ظلت اللغة العربية طيلة العصر المغولي لغـة السياسة والعلم والدين ، فنبغ في أثنائه جملة صالحـة من أشهر حملة الاقلام . وكانت حواضر مصر والشام مراكز العلوم والآداب العربية فتكاثرت فيها المدارس . وفي هذا العصر وضع عدد من أهم الكتب اللغويـة والتاريخية والادبية والموسوعات العامة يضيق المقام عن استيعاب اسمائها ، فلتراجع في مظانّـها . والذي يهمنا هنا ان نلفت النظر إلى أن الانشاء العربي ظل في كل ذلك العهد ، بل وإلى ما بعده ، بقليل ، على مكانته التي كانت له قبلاً ؛ ويكفيك للدلالة على ذلك ان نذكر بعضاً من مشاهير ادبائه ومجيدي الانشـاء فيه — فمنهم :

ابن خلكان — (المتوفى ٦٨١ هـ) وقد اشتهر بكتابه وفيات الاعيان .

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (المتوفى ٦٩٢) وهو مؤرخ وكان مترسلاً على طريقة القاضي الفاضل .

ابن الطقطقى — (المتوفى ٧٠١) صاحب كتاب الفخري .

جمال الدين الوطواط (٧١٨) صاحب غرر الخصائص الواضحة ، ومباهج الفكر ، وله رسائل طبعت بمصر ١٣١٥ .

ابن فهد — (٧٢٥) صاحب ديوان الانشاء عند الظاهر بيبرس .

عمر بن الوردي (٧٤٩) وهو الاديب الشاعر المعروف .

صلاح الدين الصفدي – (٧٦٤) صاحب الوافي بالوفيات وغيره ، وقد تولى ديوان الانشاء في صفد ومصر ثم في حلب ، وهو من أعظم الكتاب .

لسان الدين بن الخطيب – (٧٧٦) أديب الاندلس ومن أشهر مؤرخيها ، وستأتي ترجمته بعد .

ابن خلدون (٨٠٨) وهو اشهر من ان يعرّف .

ابو العباس القلقشندي (٨٢١) صاحب صبح الاعشى وأحد كبار المنشئين .

تقي الدين بن حجة الحموي (٨٣٧) كان رئيس أدباء عصره وقد تولى الانشاء في مصر وله مؤلفات نثرية وشعرية .

ابن عربشاه (٨٥٤) صاحب « عجائب المقدور » و « فاكهة الخلفاء » وقد تولى ديوان الانشاء لمحمد الاول العثماني في آسيا الصغرى .

شمس الدين النواجي (٨٥٩) صاحب حلبة الكميت .

• • • •

وجاء العصر العثماني وحال الانشاء كما ذكرنا ، لكن الدولة العثمانية احتفظت عموماً بلسانها التركي للمخاطبات والمكاتبات ، فأدّى ذلك مع الزمان إلى ضعف الانشاء العربي في دواوين الحكومة حتى في البلدان العربية . ولا ينكر ان العثمانيين كانوا كثيراً ما يقرّبون العلماء وينشطونهم ، وقد ظهر من هؤلاء جماعة تذكر في ميادين العلم والتاريخ والادب مثل :

ابن اياس	٩٣٠ هـ	صاحب بدائع الزهور
طاش كبري زاده	٩٦٨ هـ	صاحب مفتاح السعادة
العاملي	١٠٠٣	صاحب الكشكول

الحسن البوريني	١٠٢٤ هـ	صاحب تراجم الاعيان وشرح ابن الفارض
المقري	١٠٤١	صاحب نفح الطيب
حاجي خليفه	١٠٦٨	صاحب كشف الظنون
الخفاجي	١٠٦٩	صاحب طراز المجالس، وشفاء الغليل
البديعي	١٠٧٣ هـ	صاحب الصبح المنبي
المحبّي	١١١١	صاحب خلاصة الأثر
عبد الغني النابلسي	١١٤٣	الاديب الرحالة المشهور
الزَبيدي	١٢٠٥	صاحب تاج العروس
المرادي	١٢٠٦	صاحب سلك الدرر

وكثيرون سواهم .

• • •

ولكن ذلك لم يَحُلْ دون تدرج الانشاء الديواني نحو الضعف الذي استولى عليه في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة كما سنرى فيما نثبته من منثور ذينك القرنين . وهذا الضعف يظهر في وجهين :

١ — في تكلف السجع والبديع تقليداً لمن تقدم من كبار المترسلين ه

٢ — في الركاكة والاسفاف إلى دركة العامية .

وتأييداً لذلك نثبت النصوص التالية وما هي الا نماذج لمئات غيرها من مخلّفات القرنين الماضيين تجدها في مظانّها التاريخية (١) .

١ من أحب الاطلاع عليها فليراجع الكتب التالية : تاريخ الامير حيدر ، تحقيق الأستاذين اسد رستم وفؤاد بستاني — الاصول التاريخية للدكتور اسد رستم — المجلة البطريركية السورية — كتاب الانيس المفيد نشر دي ساسي — كتاب الشيخ ظاهر العمر لمخايل الصباغ — محررات سياسية لفيليب وفريد الخازن — وسواها ..

أمثلة من الرسائل الديوانية

في العهد العثماني المتأخر [1]

١ . تعريف السلطان مصطفى بولادة ابنه سليم سنة ١١٧٥ ﻫ أو ١٧٦١ م

« دستور مكرّم ، مشير مفخّمُ ، لنظام العالم ، مدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب ، متمم مهمات الانام بالرأي الصايب ، ممهد بنيان الدولة والاقبال ، مشيد اركان السعادة بالاجلال ، المتحُوف بعواطف الملك المتعال ، وزيري والي صيدا نعمان باشا ادام الله تعالى اجلاله ، وقدوة القضاة والحكام ، معدن الفضل والكرم ، مولانا قاضي صيدا زيد فضله .

وبعده نعلمكم في هذا التوقيع الرفيع السلطاني الواصل اليكم ، بأن حضرة واهب الوجود ، تقدّست ذاته عن الوالد والمولود ، بارادته الالهية ، ومشيئته الازلية : فمن عطاياه السنية جعل برسم السعادة ان تكون من هذه الدولة سلاطين عظام ذو انصاف وخواقين كرام ، وزيّنها بنقش الزينة الزايدة وعلى تخت سلطنتها وتاج

١ نثبت هذه الرسائل بنصوصها الاصلية دون تحوير ما في اللغة والعبارة .

مجدها يتزايد الامن والامان ، والحماية إلى عباد الرحمن . وجعله وسيلة في قطع عروق ارباب البغي والطغيان ، باتصال جوهر نسبها الجليل ، وبزود سلالتها الطاهرة بالتناسل السليل ، مستازماً في ذلك ترتيب نظام العالم ، ومستحكماً رباطات سعود بني آدم ، ومن حين ما تيسر جلوسنا على هذا التخت المانوس العالي القوى السلطاني إلى الآن .

نعم ان العطايا كيف كانت فهي من الرب الكريم « يهب لمن يشاء الاناث [1] ويهب لمن يشاء الذكور » . فقبل الآن نلنا من مواهبه الربانية هبة الله ، والآن أشرق في طالع سلطنتنا نجلاً طالعه في كوكب السعادة والاقبال ، التي كانت ساير الاقطار تسترصد موقعه ، وتترقب ظهوره ومرتعه ، فالآن انارت نوراً ، وأشرقت العطية السبحانية ، وتلالت أنوار المنحة الصمدانية في اليوم السابع والعشرين من جماد الاول . نهار الخميس المبارك بزغ الكوكب المنير من سلالتنا سلطان سليم ، اقرن الله تعالى شانه في البقاء والتكريم ، وجعله متعافياً في مهده ، راضعاً حليب المسرة من نهده ، فاقتضى اننا اشهرنا ، واظهرنا بشاير البهجة والافراح ، وعلايم السرور والانشراح إلى جميع من هم تحت ذرى حمايتنا وسلطنتنا داخل وخارج مملكتنا . وقد اشهرنا هذه المسرات العظيمة أولاً في مقر تختنا وعتبتنا العلية واجرينا مراسيمنا في علايم الافراح إلى جميع ممالكنا المحروسة ، ومسالكنا المانوسة ، وإلى كافة العباد ، بانهم يمجدون الله تعالى على هذه النعمة الكبرى والعطية المفتخرة ، كون انها نعمة من باري جليل ، يجب لها أنواع المسرات والتبجيل ، فلزم اصدار بشارتنا لكم عن يد افتخار الاماجد والاكارم قبجي باشي دام مجده ، ففي وصوله اليكم تعملون دعا في دوام سلطنتنا ، وامتداد عمر سليلتنا ، انتم وساير

---

[1] كذا وفي الآية اناثاً .

العباد والزهاد ، وتشهرون ذلك في المحافل والمساجد بالدعا على المعتاد القديم ، وتزينوا الاسواق والمصادر ، والحصون والقلاع ، وتشهروا ذلك باطلاق المدافع والشنك بالبندق واظهار أنواع المسرات من غير اذية ولا مضرّة على الرعية ، واتبعوا مضمون فرماننا هذا واعتمدوا عليه غاية الاعتماد [1] » .

٢ . كتاب السلطان عبد الحميد الاول الى امارة البندقية

سنة ١١٨٧ هـ أو ١٧٧٣ م

قال بعد مقدمة يصف فيها عظمته وسعة املاكه [2] :

« انا الشاه العالي السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد بن السلطان الشريف أحمد خان من ذرية السلطان عثمان شاه ، جلّ الاله الذي علاه وولاه ، قد ابرزت هذا الدستور المكرم إلى فخر الامراء المسيحيين الذي اليهم تلتجي بالصحيح ، اشراف واعيان عبادة المسيح ،السادات الشريف قدرهم ، والجليل ذكرهم ، العالي مقامهم ، والجليل احترامهم ، اي امرآ البندقية ، جعل الله لهم النهاية السعيدة ، والهداية المفيدة ،على سبيل الخلاص إلى الحياة العتيدة .

أما بعد فاننا نوضح اليكم بانه قد درج بالوفاه ، إلى سعادة مولاه ، السيد العظيم اخي الاكبر السلطان مصطفى ، تغمده الخالق بنور مجده الفايق ، واسبغ عليه انعامه الالهية ومراحمه الازلية ، فبموجب حقوق الخلافة المستقيمة ، والقوانين القديمة ، والعهود المستديمة ، ارتقينا بالاختيار ، بكل عدل واختيار ، إلى سدة العز وتخت الانتصار ، في نهاية الجمعة السعيدة في عاشر ذي القعدة سنة ١١٨٧ أي في ستة أيام

---

١ راجع الرسالة في تاريخ الامير حيدر ٥٥

٢ الامير حيدر ١٠١

خلت من كانون الثاني سنة ١٧٧٣ مسيحية ، دُرج اسمنـا في السكة الملوكية ، وانتشرنا في جميع جدود حكمنا في قيامنا وعدلنا ورفعنـا الظلم الكليم الكثيف ، باشراق حلمنا اللطيف وبموجب العوايد الاقدام ، المحفوظة من سلفاينا الكرام ، وجب اننا نعلن جلوسنا السعيد على سدة الملوكية ، باصحاب الدولة العلية ، المرتبطون معنـا بالصداقة الحقيقية ، بكتاباتنا إلى السيد المعظم ، والامير المفخم ، المشهور بالعز واليقين ، بين دول المسيحين ، اعني بـه بولص دينارخان ، وإلى امرا البندقية ذو المناقب الملوكية ، ختم الله نهـاية حياتهم النقية ، بالسعادة الابدية ، وإلى ساير الاراكنة الاكرام ، صاحب الدولة المشهورة ، في البـلدة المذكورة ، لكي يحصلوا على أفراح جلوسنا السعيد ، وقيامنا المجيد ، وكما يقتضي لناهجهم الحميد ، بموجب العهدنامات الاتفاقية ، والشروط القانونية ، المرتبطـة مع بلاطنا الملوكي في بابنا العالي ، يقدروا يوضحوا سرورهم ، ويشهدوا حبورهم إلى أرباب الدول التي في حكمهم ، لكي يثبتوا على حفظ العهود والشروط ، وعلى اتصال العمل بها ، وقيـام جميع الشرطنامات القديمة من كل حكمنا السعيد ، ولا يبدي من طرفهم شيء يفسد السلامة ، ومن جلالتنا الملوكية لا يمكن اننا نضع شيئاً حديثاً ضد ما ذكر ، ومهما كان قليلاً ، وذلك ان لكي المحبة والصداقـة الخالصة ، المستحيلة من الطرفين تنما وتزداد دايماً لاجل رد الراحـة والطمانينة لرعايا الجهتين » .

٣ . فرمان السلطان الى الشيخ ضاهر العمر [١]

سنة ١١٨٨ هـ أو ١٧٧٤ م

« قدوة الاماجد والاعيان الشيخ ضاهر العمر زيد قدره نعرفك بعد

١. الامير حيدر ١٠٧

وصول أمر همايوننا هـذا يكون معلومك بانك من قديم الزمان من المتنعمين بنعيم الدولة العلية ، ومحقق صدق عبوديتك ببرهان الخدامات الصادقة ، وكنت صاحب الشهرة والشان بصدق النية وخلوص الطوية ، يشار اليك بالبنان ، وكنت تؤدّي الاموال الميرية قبل كل انسان ، وقط ما عرّجت عن صـدق الخدامـة ، وطرق الاستقامة ، الاّ منذ ازمنة قريبة لحدوث بعض أسباب ، وبحسب البشرة لاجل حفـظ النفس اظهرت خمس سنوات التردد والوحشة . ولكن في هذا الوقت وصل إلى سدتنا الملوكية عرض حالك بواسطة دستور مكرمْ ، مشيّد مفخم ، نظام العالم ، ناظم منتظم الامم ، المدبر الجمهور بالفكر الثاقب ، ومتمم مهمات الانام بالراي الصايب ، ممهد بنيان الدولة والاقبال ، مشيد اركان السعادة والاجـلال ، مرتب مراتب الكرام ، مكمل ناموس السلطنة العظام ، المتحوف بعواطف الملك العلام ، الصدر الاعظم قوي الهمم ، دام الله اجلاله ، وضاعف بالتأييد اقتداره ، واقباله .

وكان مفهوم عرض حالك لسدتنا الملوكية بانك إذا حصلت على العفو عما جرى منك من الحركات الغير مستحسنة صرت منظور بنظر الرحمة، وملحوظ بعين الشفقة . فتضع قـلادة الطاعة في رقبة العبوديـة ، فبناء على شوايع اطاعتك وثبوت عبوديتك (واتباعاً) لقوله تعالى فمن « عفا واصلح اجره على الله [١] » ، واقتداءً للحديث النبوي « فمن اقـال نادماً اقاله الله يوم القيامة » وحبذا هذا كونه من الشيم السلطانيـة ، والسجايا الملوكية ، بشرط ان تسلك من بعد الآن سلوك الطاعة والعبودية، ولا تنحرف عن منهج الاستقامة المرضية ، ولو باقل الامور وأصغرها ، ولا تصرف وجهك عن تنظيم قطر الرعية وتحصيل الاموال الميرية سابقاً، ولاحقاً ، ومن كل الوجوه اصرف سعيك في تحصيل رضانا ، الكاين عنه النمو والسعادة .

١ الآية « فمن عفا واصلح فأجره على الله » .

فعلى هذه الشروط المذكورة أجرينا قلم مضى ما مضى عن صفايح ذنوبك إلى يومنا هذا كل شيء صدر منك ومن ارفاقك . ومن توابعك ولواحقك وعشايرك ، فصاروا مشمولين بالعفو السلطاني ، فاشكروا نعمة الله ان كنتم إياه تعبدون ، واعلموا هذه الرحمة السلطانية من النعم العظيمة ، وقدموا شكراً إلى يوم القيامة . وان دمت على طاعة الاحكام الجليلة السلطانية ، قايماً بالخدمة المرضية مظهراً حسن الصداقة والطوية ، فلا تشاهد من طرفنا السلطاني الا اللطف والعناية ، وكن أمين البال ، مطمان الاحوال ، وهمايوننا هذا اربطه على عضدك الايمن ، والاظهار بانعطافنا نحوك ارسلنا هذا الخط الهمايوني صحبة افتخار الاماجد الكرام ، قبوجيلار كتخواسينا أحمد هاشم دام مجده ، وليكن معلوماً عند الجميع ان سلطنتنا المخلدة البنيان ، المشيدة الاركان ، قايمة على أساس الرحمة . فان صدر بحسب البشرية اجرا الذنوب من البيوت العتق واتبعوه بالتوبة والانابة ، وتعلقوا باذيال المغفرة ، فالعفو عنهم من خصايص جدادنا الكرام ، ونحن اقتداء بهم قد عفونا عن ذنوبك لكبر سنك وشيخوختك ، وشفقة منا على الرعايا والبرايا ، فعليك راى الله وامانه وراى الرسول ورابنا السعيد ، فاحفظ همايوننا هذا قرط جوهر في عنقك ، واعتمد على علاماتنا السلطانية ، والحذر ثم الحذر من الخلاف » .

٤ . من محفل الديوان الخصوصي بمصر
إلى الاقاليم المصرية [١] سنة ١٢١٤ هـ أو ١٧٩٩ م

« النصيحة من الايمان ، قال الله تعالى في محكم القرآن : فلا تتبعوا خطوات الشيطان : وقال تعالى : لا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون

١ الامير حيدر ٢٦٩

في الارض ولا يصلحون : فعلى العاقل ان يدبر الامور قبل وقوع المحذور ، نخبركم يا معشر المؤمنين انكم لا تسمعوا كلام الكذابين فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، وقد حضر إلى محروسة مصر المحمية أمير الجيوش الفرنسوية حضرة ابونابارته محب الملة المحمدية ، ونزل بعسكر في العادلية ، سليماً من العطب والاسقام ، شاكراً الله موحداً للملك العلام ، ودخل إلى مصر من باب النصر يوم الجمعة عاشر محرم سنة ١٢١٤ من هجرته عليه السلام ، في موكب كبير عظيم بشنك جليل فخيم ، وعسكر كثير جسيم ، وصحبته العلما الازهرية، والسادات البكرية ، والعنانية والدموراشية ، والخضوية والاحمدية ، والرفاعية ، والقادرية ، والوجاقات السبعية الساطانية ، وارباب الاقلام الديوانية واعيان التجار المصرية . وكان اليوم يوماً مشهوداً عظيماً لم يقع نظيره في المواكب السابقة قديماً ، وخرجت سكان مصر جميعاً لملاقاته فوجدوه هو الامير الاول ابونابارته بذاته وصفاته وظهر لهم ان الناس يكذبون عليه ، وشرح الله (صدره للاسلام) ، ونظر الله بعين لطفه اليه والذي أشاع عنه هذه الاخبار الكاذبة العربان الفاجرة والغز الهاربة . ومرادهم بهذه الاشاعة هلاك الرعية ، وتدمير أهل الملة الاسلامية ، وتعطيل أموال الديوانية : لا يحبون راحة العباد . قد ازال الله دولتهم من شدة ظلمهم وقد بلغنا ان الالفي توجه إلى الشرقية ، مع بعض المجرمين من عربان والقبائل الفجرة المفسدين يسعون في الارض بالفساد وينهبون أموال المسلمين ، ان ربك لبالمرصاد ويزورون على الفلاحين مكاتيب الكاذبة ، ويدعون ان عساكر السلطان حاضرة ، والحال انها ليست بحاضرة ،فلا أصل لهذا الخبر ولا صحة (له ولا أثر) . وإنما مرادهم وقوع الناس في الهلاك والضرر ، مثلما يفعل ابراهيم بيك في غزه ، حين كان يرسل فرمانات بالكذب والبهتان ويدعي انها من طرف السلطان ، ويصدقوه اهل الارياف خسفا

العقول ، ولا يقرون بالعواقب فيقعون بالمصايب » — انسخ الكتاب وهو طويل .

• • •

فمن الرسائل المار ذكرها يتضح ما كان عليه الانشاء العربي الديواني في القرن الثامن عشر. وهو عادة عبارات ركيكة التسجيع واهية التركيب وكثيراً ما تُسفّ إلى دركات العامية ، كرسائل فخر الدين المعني إلى دوق تسكانا [1] ، ورسالة عثمان باشا للامير يوسف بالعفو عن الشيخ ظاهر العمر [2] .

ولم تنحصر هذه الركاكة في مصر وسوريا وما اليهما من الاقطار العربية التي كانت تحت تأثير تركيا المباشر ، بل تعدّتهما حتى إلى الاقطار النائية كما تشهد بذلك مراسلات سلطان مراكش وإمام عمان وشريف مكة واليك أمثلة منها [3] :

كتاب سلطان مراكش

إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر [4]

« صدر هذا المكتوب العلي الامامي الكريم المرواني الخليفي الهاشمي الفاطمي الحسني عن الامر النبوي الشريف العلوي الذي دانت لطاعته الكريمة ممالكه الاسلامية وانقادت لدعوته الشريفة الاقطار المغربية وخضعت لاوامره العلية جبابرة الملوك السودانية وأقطارها القاصية والدانية إلى الملك الذي له بين ملوك النصرانية والملل المسيحية الرتبة العالية والمنزلة الرفيعة السامية المعظم سلطان فرانصة السلطان لويز بن السلاطين الكبار الذين لهم

---

١ راجع المجلة البطريركية السنة ٧ ج ٦ و ٧

٢ راجع كتاب ظاهر العمر لمخائيل الصباغ ص ١٦٤ — ١٦٧

٣ تجد هذه المراسلات في الأنيس المفيد (لدي ساسي) مج ١ ص ٤١٣ — ٥١٤

٤ الأنيس المفيد ٤١٣

المكانة السامية المنار :

أما بعد حمد الله مولى الحمد ومستحقه والصلاة والسلام على أفضل البرية من خلقه والرضى عن آله الباذلين بمهجهم في نصرتهم والقيام بحقه ومواصلة الدعاء لهذا المقام العلي الامامي المرواني العلوي الحسني النبوي بنصر متصل الدوام دايم الاتصال وتأييد كفيل بالسعد المتوالي في الحال والاستقبال .

فكتابنا هذا اليكم من حضرتنا العلية مدينة مراكش المحروسة بالله المحمية ولا زايد بحمد الله الا ماسناه لايالتنا الشريفة من عوايد النصر والاقبال وصنايع الله الجميلة المفعمة السجال المنثالة في البكر والآصال لله المنة والشكر .

هذا موجبه اليكم التعريف انه لما ورد خديمكم المرعي الملحوظ الرزيلي علي مرسي ثغر أسف المحروس بالله واسلم كتابكم المصحوب معه لخدامنا الذين بالثغر بادروا بوصوله الينا في الفور فوقفنا منه على جميع ما اودعتم فيه من تقرير المحبة وتأسيس المدنة بين الجانبين إلى ما اشرتم اليه في شأن الاسارى الفرانصيين الذي رغبت من مقامنا العلي تسريحهسم فأخذنا في ذلك أتم الاخذ وأكمله إلى أن استوفى ذلك على احسن وجه وأجمله واجبناكم عن فصول كتابكم كلهـا فوجهنا بـه وبالنصارى المذكورين صحبة خديمنا الوجيه الاثير النفيل النبيه القايد يحيى بن محمد الجناتي قصد ان يلتقي مع خديمكم المذكور ان تأتى له الاجتماع معه في البر ، وان تعذر عليه ذلك يبعث لخديمنا من يقوم مقامه ممن هـو مثله وبمثابته في اغراضكم ليسلم له النصارى المذكورين ويتكلم معه في اغراض الجانبين . ثم ان خديمنا المذكور لمـا بلغ الثغر اسف حرسه الله فقد خديمكم من المرسي فسال عنه فقيل له قد اقلع منذ أربعة أيـام فاقتص بعض الخدام اثره في البحر فلم يجد له اثراً . هذا وقد كـان خديمكم على علم ويقين ان خديمنا المذكور قادم اليه وفي أثناء الطريق

فقلق قبل وصوله والخديم الذي يكون بصدد اغراض ضيفه لا يستفزه شيء عن قضاياها ولا ينبغي له الانزعاج قبل استيفائها . فعرفناكم بالواقع لتوقنوا إننا لم نقصر في اغراضكم المتلقاة لدينا بالقبول وبه وجب الكتب اليكم » .

ومثله في الركاكة الكتب المتأخرة التي صدرت من مراكش إلى لويس السادس عشر [١] .

كتاب إمام عمان الى قنصل فرنسا في بغداد [٢]

سنة ١٢٠٠

« إشرف ما تتهاداه اهل الوداد واكمل ما تتعاطاه اهل المحبة والاتحاد دعاء لا تحصيه الاقلام وتحيات على ممر الدهور والاعوام يهدى ويتحف ويجلي ويزف بانواع المعالي والتحف إلى جناب العالي الجاه والجناب محبنا ومودّنا الاكرم المكرم المحتشم سلمه الله تعالى من شر المحن وكفاه الله شر ما ظهر وبطن بجاه محمد سيد اهل المنن . ثم ان تحرك الخاطر العاطر بالسؤال عن حال من لا حال عن المحبة والاتحاد فمن حمد الله وكرمه في نهاية الاعتدال كثيرون السوال عنكم وعن أحوالكم لا زلتم سالمين بجاه رب العالمين .

ثم في ابرك الساعات واشرف الاوقات ورد علينا مشرفكم الشريف الحاوي المعنى اللطيف فاسر الخاطر وأبهج الناظر حيث انه انبأ عن صحة ذاتكم واعتدال أوقاتكم وحمدنا الله سبحانه وتعالى على سلامتكم وما ذكرتم صار عندنا مفهوماً ومعلوماً وعنها ذكرتم لما كنتم في حضرة السلطان المعظم بالولاية وبلغكم ما وقع وصار علينا من امر

---

١ راجعها في الانيس المفيد ٤٤٠ — ٤٤٧

٢ الانيس المفيد ٤٤٨

بالمركب ولا جاز له هذا الامر ونحنا نعرف يقيناً بان لا يجوز اليه ولا يعجبه الامور التي تصدر على غير الحساب وجنابكم لما تكلمتم في حقنا بكلام الحسن الجميل الطيب فذلك من حسن سجيتكم وطيب مرضعكم فجزاكم الله عنا كل الخير . وانتم غير خفي عليكم محبتنا مع الفرنس من قديم الزمان في الحال والمال والرجال والبنادر كلهما واحدة والقلوب شواهد . وانشاء الله تعالى متى وصلت مراكب السركار إلى بندرنا المعمور عرفنا الوكيل خلفان بن محمد بانه يقوم لهم بجميع اللوازم الذي يحتاجون اليه من قليل أو جليل . ولا يحتاج إلى توصية . وبحول الله وقوته ما تسمعون من جنابنا إلا الاخبار التي تسر الخاطر . وعما ذكرتم ان السلطان المعظم أمر بتوصيل المركب الموشور الجديد مع لوازمه . فيا عزيزنا انه إلى هذا الآن بعده لم يصل وانشاء الله تعالى متى وصل بالسلامة فهو مقبول ونجعله علماً بين العدوّ والصديق . ولا كان يحتاج إلى كل هذا التصديع حيث ان المال والحال واحد، والضرر والنفع واحد ، ولكن ما نحسبه على باب التصديع بل انما نحسبه على باب المحبة والشفقة ، ولا زلتم محضراً لكل خير انشاء الله تعالى . ونحنا عرفنا وذكرنا إلى الوكيل خلفان بن محمد عن الرجل المتوفي بمسقط ولا بد ان يذكر لكم . والمرجو ان لا تقطعونا من اخبار سلامتكم واخبار السركار ومن عندنا الاولاد يقرونكم الدعاء . والسلام خير ختام » .

كتاب شريف مكة غالب الى مدير الحدود العامة بمصر [1]

سنة ١٢١٣

« .. وبعد فانه وصل الينا كتابك وفهمنا كامل ما حواه خطابك

١ الانيس المفيد ٤٩٩

مما ذكرت من وصول قنجتنا واتك ارسلت هجماناً برفع العشور عن البن وبذلت الهمة في شأن التصرف في نفاذ بيعه فهذا ما نؤمله من حميد الحركات ووفا المصادقات ، فاوجب ذلك عندنا وافر السرور ومزيد الود والحبور . وتأملنا في كتابك فوجدنا من صدق مقاله ما اوجب تمسكنا بوثاق الاعتماد عن تموّه غياهب الشك في كل مراد :

ووجب الآن علينا تكوين أسباب المصادقة والمبادرة فيما ينظم مهمّات تسليك الطرق بيننا وبينكم عن الوعث وزوال المناكرة وشهّلنا الآن إلى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة في هذا الاوان ، ولا امكن لنا خروج هذا المقدار إلا باشد علاج مع سلب اطمينان التجار لأن كثرة اكاذيب الاخبار اوجبت لديهم مزيد الارتياب والاعذار بحيث ما بيننا وبينكم الا العربان المختلفة رواياتهم على مر الازمان . وأما نحن فقد جاتنا منكم قبل هذا المكاتيب التي اوجبت عندنا من خطاب كتبكم زوال تلك الظنون والاكاذيب فخاطرنا مستقر بالطمانينة من قبلكم لما ثبت عندنا من الفاظ كتبكم » .

والكتاب طويل وكله على هذا النسق العامي الذي يدلّ على ما بلغته لغة الدواوين من الانحطاط ، بعد ان كان رجالها في العصور السابقة ينتخبون من أمهر الكتّاب .

ظلت هذه الركاكة عامّة في كثير من الدواوين الاميرية حتى منتصف القرن التاسع عشر للميلاد : يدلك على ذلك مكاتبات ابراهيم باشا المصري وسائر الحكام الذين كانوا في مصر وسوريا في النصف

الاول من القرن المذكور [1] بل وإلى ما بعد ذلك [2].

• • •

أما تكلّف السجع فقد تأخر إلى عهد اسماعيل باشا المصري فكانوا يلتزمونه في الاوامر والشهادات الرسمية والمنشورات الدورية وسواهـا واليك أمثلة منهـا :

رد مجلس الشورى على خطبة العرش

في ٢٦ نوفمبر ١٨٦٦ . وعباراته كما يقول ناشره [3] :

« تعطينا صورة من الروح التي تسود المجلس ومن اسلوب الكتابة في ذلك العصر ومـا تحويه من العبارات الطويلة والسجع المتكلف والتملّق البـالغ لولي الامر » . ومن فقراتـه مـا جاء في وصـف اسماعيل باشا :

« ونفحتنا النفحات الالهية ، واسعفتنا العنـاية الربانية ، بالحضرة الاسماعيلية واعطى القوس باريها ، لطفـاً من الله بهذه الديار ومـن فيها ، وتولاّهـا العزيز ابن العزيز ذلك الجناب الافخم ، والداوري الاكرم ، فقـام بتنظيم أمورهـا على ساق وقدم ، وشمّر عن ساعد الجدّ والاجتهـاد في تجديد مـا انهدم ، واحياء ما انعدم ، وأخـذ يداوي تلك العلل ، ويبيد مـا تخلّل بعد أبيه من الخلل ، وسعى في مقاصد أبيه وجدّه ، باذلاً في موجبـات التقدّم والتمـدّن الوطني غاية جهده » .

---

١ تجد أمثلة كثيرة من هذه المكاتبات في الاصول التاريخية للدكتور أسد رستم وفي محررات سياسية لفيليب الخازن وسواها .

٢ راجع المقالة الخديوية في مجلس الشورى في مجلة الجنان للبستاني سنة ١٨٧٦ ص ٨٤٣ وراجع منتخبات الجوائب ج ٥ ص ١٠٤

٣ الرافعي في مجلة الهلال ٤٠ ص ٧٠٠ وهو منقول عن مضبطة المجلس .

ومنها ذاكراً حسنات الخديوي في انشاء مجلس الشورى :

« لما يعلمه من ان جمع الآراء في أمور العالمين ، والمداولة في مصالح الرعية مع عقلاء الوطنيين ، من مقتضيات حسن النظام ، وموجبات كمال الالتئام ، وتمام راحة الانام » .

وختم الجواب بالشكر :

« لتلك الحضرة العلية ، والتباهي بتلك المنقبة البهية ، ورفع اكفّنا آناء الليل وأطراف النهار بالدعوات ، في أجلّ الاوقات واسعد الحالات ، ان يخلد عزّ قطرنا هذا بلوام سعود افندينا الافخم ، وولي عهده حضرة محمد توفيق باشا الاعزّ الاكرم ، وكذا بقية الانجال الفخام ، ولا يحرم جمعنا من حسن انظارهم ، ونفائس محاسن أفكارهم ، بجاه خاتم الرسل الكرام ، عليه أفضل الصلاة وأتم السلام » .

ومثل ذلك الشهادات الرسمية كالّتي كانت تصدر من مدرسة القصر العيني الطبية حوالي ١٨٧٢ [١] .

على ان هذا السجع المتكلف لم يلبث ان ضعف أمره وذلك ان البلدان العربية كانت قد بدأت بنهضة اجتماعية علمية انتهت باحياء الاسلوب المرسل والقضاء على ما كان يسود الانشاء من تكلّف لفظي وتنميق بديعي . وإذا قابلت رد المجلس الذي مر ذكره بردّ المجلس نفسه بعد ١٣ سنة (أي ١٨٧٩) اتضح لك ما نذهب اليه . واليك هذا الردّ [٢] :

« نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها المدافعون عن حقوقها ، الطالبون لمصلحتها التي هي في نفس الامر مصلحة الحكومة ، نرفع إلى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل ، حيث عُنيت بتشكيل

---

١ راجع نصها في مجلة المقتطف مج ٤٠ ص ١٥٣

٢ الهلال مج ٤٠ ص ١٢٥٦

مجلس شورى النواب . الذي هو أساس المدنية والنظام . وعليه مـدار العمران ، وهو السبب الموجب لنوال الحرية ، التي هي منبع التقدّم والترقي ، وهو الباعث الحقيقي على بث المساواة في الحقوق التي هي جوهر العدل وروح الانصاف » ... إلى ان يقول :

« ونعلن من صميم الفؤاد سرورنا ، وكمال ابتهاجنا بما تشرّفت به مسامعنا من خطـاب جلالتكم الذي انبأ عما انطوت عليـه تلك السريرة الطاهرة الزكية من الميل الغريزي إلى اصلاح الامة المصرية ، والرغبة الخالصة في صعودها على معارج التقدّم ، وترقيها إلى ذروة السعادة ، ونيلها الحرّية في تصرّفاتها قولاً وفعلاً ، حيث أبانت عظمتكم ان الغرض من اجتماع هذا المجلس هو المذاكرة مع نظار حكومتكم في المسائل المتعلقة بالمالية ، الاشغال الداخلية .

فبعث فينا ذلك الخطـاب روح الـ ـ الجديـد ، واحيا آمال هذه الامة التي لا تزال راجية ان تنـال شرفهـا التليد ، الذي شهدت به التواريخ وانبـأت به الآثار ، بمساعي الحضرة الخديوية وهممها العالية .

وانّا لا نألو جهداً في دقة النظر والعناية بما فيه منفعة الوطن ومصلحة الحكومة ، قيامـاً باداء واجباتنا التي هي في الحقيقة مقاصد ولي النعم .

فليحيَ الخديوي المعظم ، وانجاله الكرام ، ولتحيَ الحريـة تحت ظلّ رعايته وحمايته آمين » :

وهذا التحسن في عبارة الانشاء الديواني اخـذ يعمّ جميع الاقطار العربية حتى أصبح اليوم لا يختلف عن الانشاء العام في الاوساط الادبية.

نخبة من امراء الانشاء الديوالي

ظهر في تاريخ الادب عدد كبير من كتّاب الدواوين الذين اشتهروا بالاقة الانشاء كابن العميد ، والصاحب ، والصابي ، والببغا ، وقابوس ، والثعالبي ، والخوارزمي ، والقاضي الفاضل ، وعماد الدين الاصبهاني ، وابن الاثير ، وابن نباتة ، وسواهم ممّن[1] تقدّم ذكرهم في الفصل السابق :

ولما كان الانشاء الديواني في كل القرون على نسق واحد لم يتغير تغيراً يذكر إلاّ في عصر الانحطاط اللغوي الذي مرّ معنا ذكره[2] رأينا أن نختار من مشاهير رجاله أربعة يمثلون هذه الطبقة خير تمثيل ، وهم :

ابن العميد	من أهل القرن الرابع	وزير بني بويه في فارس .
الصابي	من أهل القرن الرابع	كاتب الخلافة في بغداد .
القاضي الفاضل	من أهل القرن السادس	وزير الدولة الايوبية بمصر ؛
ابن الخطيب	من أهل القرن الثامن	وزير غرناطة وأديب الاندلس ؛

وسنترجم لهم ونحاول عرض مزاياهم واثبات نصوص وافية

١ راجع ص ٢٣٤ و ٢٣٥
٢ أي العهد العثماني المتأخر راجع ص ٢٣٦ وما بعدها

آثار اقلامهم . .

وقد مرّ معنا انه نشأ بعد هؤلاء جملة من مشاهير الكتّاب ولكنهم انما جروا على منهاج من تقدّمهم ، وليس في الترجمة لهم والاستفاضة في ذكر آثارهم إلاّ الاطالة التي لا فائدة منها .

ابنُ العَميد

توفي ٣٦٠ هـ

توطئة تاريخية

يرجع ابو الفضل ابن العميد إلى اسرة فارسية من مدينة قُمّ . وكان ابوه وزيراً وكاتباً فنشأ الولد في بيت أدب وكتابة . قال الثعالبي [1] : « ولم يرث ابن العميد الكتابة عن كلالة بل كان كما قال ذو الرمّة في وصف صيّاد حاذق :

– الفى اباه بذاك الكسب يكتسب –

لان اباه ابا عبد الله الحسين في الرتبة الكبرى من الكتابة ورسائله مدوّنة بخراسان . وذكر ابو اسحق الصابي في الكتاب التاجي ان رسائل ابي عبد الله لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه ابي الفضل . وعندي ان هذا الحكم من ابي اسحق فيه حيف شديد على ابن العميد والقاصّ لا يحب القاصّ » .

وفي سنة ٣٢٨ هـ تولى الوزارة لركن الدولة البويهي فحمل عنه اعباء الادارة وخاض معه غمرات السياسة والحرب . وبقي كذلك حتى توفّاه الله وذلك سنة ٣٦٠ هـ .

• • •

---

١ يتيمة الدهر ج ٣ – ٣

وقد أجمع الذين ترجموا له على الاشادة بفضله وتعظيم فنه : نذكر منهم قيّم كتبه مسكويه صاحب تجارب الامم ، وأبا منصور الثعالبي صاحب يتيمة الدهر ، وابن خلكان صاحب وفيات الاعيان ، حتى ان ابا حيّان التوحيدي — وهو الذي ألّف فيه وفي الصاحب ابن عبّاد كتاباً سماه مثالب الوزيرين ضمّنه معايبهما [1] — لم يتمالك عندما قارب الفراغ من كتابه عن ان يقول فيهما [2] « ولولا ان هذين الرجلين كانا كبيري زمانهما ، واليهما انتهت الامور ، وعليهما طلعت شمس الفضل ، [و]بهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا ، والقبيح يؤثر عنهما اثرا ، لكنت لا اتسكّع في حديثهما هذا التسكع ، ولا انحي عليهما بهذا الحدّ ، ولكن النقص مما يدّعي التمام اشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة ، والجهل من العالم منكر » . إلى ان يقول : « ولو أردت مع هذا كله ان تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجبل والديلم إلى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد » .

• • •

ولا يسعنا — برغم التحرّس الذي لا بدّ منه ازاء ما يذكرونه من مناقب العظماء — الاّ ان نرى في حياته ما يلي :

١ — انه كان بعيد النظر حسن التدبير . وتتبين حسنَ تدبيره فيما رووه من أعماله الوزارية وخدماته السياسية ، كالذي ذكره صاحب تجارب الامم من حديث السلاّر المرزبان يوم اسره ركن الدولة ودفعه إلى ابن العميد ليحتفظ به : وكان ابن العميد قد تحقق ان الديلم يراسلون المرزبان وقد اعدّوا العدّة لتحريره من أيدي آسريه ، فاحبط بدهائه عملهم . واليك وصفه هو لهذه الحادثة قال [3] :

---

١ وفيات الاعيان ٢ — ٨٨

٢ معجم الأدباء (ياقوت) ٢ — ٣٠٢ و ٣٠٣

٣ تجارب الأمم مجلد ٢ ص ١٣٣ — ١٣٥

« لما كنا بين الريّ واصبهان تحقق عندي مراسلة الديلم اياه واجتماعهم على ان يأخذوه قهراً ويحلّوا قيوده ويفتكوا بي ، وظهر ذلك حتى كادت المكاشفة تقع . فلما خفت فوت التدبير سايرته وهو في عمارته وحادثته ، وهو ينتظر في ذلك اليوم ان يتم له ما يريد ، وجعلت اقاربه والينُ له فاظهر التوجع والتألم ممـا حصل فيه . فلما اطمعته في نفسي (وكان لا يطمع في ذلك من قبل) أمال إليّ رأسه وقال : أنت مقبل فان كنت صادقـاً فابدأ بحل قيودي وعليّ لك كيت وكيت . وضمن الضمانات التي تبذل في مثل ذلك الوقت . فأوهمته اني لا أعرف شيئاً من مواطـأة الديلم له وقلت : أخشى الاّ يساعدني من معي على ذلك . فقال : غفر الله لك انت لا تعرف الصورة . جميع من معك قد عملوا على فك قيودي والفتك بك ، وأنا أريد ذلك الساعة ان شئت . فقلت : يكفيني ان أثق بذلك ثم انا أول عبد خدمك وناصحك وتابعك حتى يتم لك ما تريده » .

ثم يأخذ في سرد مـا قـاله وفعله حتى حصل على ثقـة السلاّر إلى أن يقول :

« وقمت عنه وليس عنده شك في حصول الملك له بمواطـأتي ، انه قد أقبل جدّه وتمّت سعادته بتمام تدبيري . وشاع في أصحابه ومن كان واطأه انّا في تدبير ، فسكنوا بعد ان كانوا همّوا بما هموا به . وسرت آمناً حتى حصلت باصبهان فلما تمكنت من الرجال والتدبير بدأت بالقبض على اولئك القوّاد واستظهرت على المرزبان بثقاتي حتى حصلته في القلعة بقيوده » .

° ° °

ومما يدلّ على بعد نظره ما رواه ، بعد ان زار اذربيجان وتفقّد أحوالهـا ورأى زكاءَ أرضهـا وكثرة ريعها واحتمالهـا للعمارة وسوء تدبير متوليها ابراهيم السلاّر ، فكتب إلى ركن الدولة بالواقع وطلب

منه عزل ابراهيم عنها لكن ركن الدولة ابى لغرض في نفسه فكظم ابن العميد الامر واخذ يحدّث مسكويه بالشدّة التي قاساها هو وعسكره في سفرته وقلة جدواها وغمرتها ثم قال [1] :

« ولكني سأضرب لك مثلاً لما نحن فيه وتأمّله الآن لتتذكّره فيما بعد . اما شهدت من يغزل الابريسم ويفتله بالمغازل الكثيرة المعلقة بالصنّارات على شبيه الصوالجة من الزجاج ؟ قلت : بلى . قال: اما تعلم ان الصانع انما يتعب حتى ينصب هذه الآلة وينظمها ثم يكفيه بعد ذلك ان يتتبع اذناب تلك المغازل ويتعاهدها بالفتل ؟ فنحن قد احكمنا الآلة ، والمغازل دائرة ، والابريسم ممدود ، والفتل مستمر ، فاذا فارقنا الموضع ابتدأت القوّة التي في الدوران تضعف وليس لها من يمدها بحركة ، فيبتدئ في الاسترخاء ، وتضعف سرعة دوران المغازل ، ثم تبتدئ في الانتكاس وتنقلب راجعة بعكس ما كانت تدور ، ثم لا تجد أيضاً من يتعاهدها فيتساقط اولاً اولاً حتى لا يبقى منها شيء » .

قال مسكويه :

« فكأنّ هذا المثل كان وحياً فانه ما اخطأ شيئاً من صورة ابراهيم بعد خروجنا وانتهى أمره بعد ذلك النظم الذي نظم له إلى ان طمع في ملكه حتى انسلخ منه شيئاً بعد شيء إلى ان اسر وحبس في بعض تلك القلاع كما سنحكيه فيما بعد ان شاء الله » .

وقد وصف حسن تدبيره في فصل سابق فاراجع [2] .

٢ . سعة معارفه

كان ابن العميد مغرماً باقتناء الكتب شديد الحرص على مطالعتها .

---

١ تجارب الأمم ٢ – ٢٣٠
٢ تجارب الأمم ٢ – ٢٨٠ و ٢٨١

يذكر مسكويه ان الخراسانيين ثاروا على ركن الدولة وهاجموا الري فدافعهم ابن العميد مسدة ثم تقهقر إلى دار الامارة فدخلوا المدينة ينهبون . قال [1] :

« واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه وكانت موفورة جامعة إلى أن أتى الليل وانصرفوا . وكان اليّ خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنه ولم يتعرّض لها . فلما انصرف إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماء ، فانفذ اليه ابن حمزة العلوي فرشاً وآلة . واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعزّ عليه منها ، وكانت كثيرة فيها كل علم ، وكل نوع من أنواع الحكم والاداب تحمل على مائة وقر وزيادة . فلما رآني سألني عنها فقلت : هي بحالها لم تمسّها يد . فسرّي عنه وقال : اشهد انك ميمون النقيبة . اما سائر الخزائن فيوجد منها عوض ، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها . ورأيته قد اسفر وجهه وقال : باكر بها في غد إلى الموضع الفلاني ، ففعلت . وسلمت باجمعها من بين جميع ماله » .

وفي تفننه العلمي يقول المؤرخ المذكور [2] :

« ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدّعيها أحد كعلوم الحيل التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة والحركات الغريبة وجر الثقيل ومعرفة مراكز الاثقال ، واخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع ، والحيل على الحصون ، وحيل في الحروب مثل ذلك ، واتخاذ اسلحة عجيبة وسهام تنفذ امداً بعيداً ، وتؤثر آثاراً عظيمة ، ومرائي تحرق على مسافة بعيدة جداً ، ولطف كفّ لم يسمع بمثله ، ومعرفة

---

١ تجارب الأمم ٢ – ٢٢٤
٢ تجارب الأمم ٢ – ٢٧٨

بدقائق علم التصاوير وتعاطٍ له بديع . ولقد رأيته يتناول من مجلسه الذي يخلو فيه بثقاته واهل انسته التفاحة ومـا يجري مجراها ، فيبعث بها ساعة ثم يدحرجها وعليها صورة وجه قـد خطّها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدّة وفي الايام الكثيرة ما استوفى دقائقها ولا تأتّى له مثلها » .

وله فصل في جملة فضائل ابن العميد جاء فيه [1] :

« ومن ذلك انه كان اكتب اهل عصره واجمعهم لآلات الكتابة حفظاً للغة والغريب ، وتوسعاً في النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظاً للدواوين من شعراء الجاهلية والاسلام . ولقد حدثني ابو الحسن علي بن القاسم رحمه الله قال : كنت اروي ابي ابا القاسم القصائد الغريبة من دواوين القدماء لأن الاستاذ الرئيس كان يستنشده إذا رآه ، وكان لا يخلو إذا انشده من ردّ عليه في تصحيف أو لحن مما يذهب علينا ، فكان ذلك يشق عليّ وأحب ان تصحّ له قصيدة لا يعرفها الاستاذ الرئيس » .

ثم يقول :

« فاما تأويل القرآن وحفظ مشكله ومتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الامصار ، فكان منه في ارفع درجة واعلى رتبة . ثم إذا ترك هذه العلوم واخـذ في الهندسة والتعاليم فلم يكن يدانيه فيهـا أحد . فاما المنطق وعلوم الفلسفة والالهيات منهـا خاصة فما جسر احد في زمانه ان يدعيها بحضرته إلا أن يكون مستفيداً أو قاصداً قصد التعلم دون المذاكرة . وقـد رأيت بحضرته ابا الحسن العامري رحمه الله ، وكان ورد من خراسان وقصد بغداد وعاد وعنده انه فيلسوف تام ، وقد شرح كتب ارسطاطاليس وشاخ فيها ، فلما اطلع على علوم الاستاذ الرئيس وعرف اتساعه فيها وتوقّد خاطره وحسن حفظه للمسطور

---

[1] تجد الفصل في تجارب الأمم ٢ ص ٢٧٥ – ٢٨٢

يرك بين يديه واستأنف القراءة عليه . وكان يعدّ نفسه في منزلة من يصلح ان يتعلم منه ، فقرأ عليه عدّة كتب مستغلقة ففتحهـا عليـه ودرّسه اياهـا .»

ونحا نحو مسكويه في ذلك الثعالبي فوصفه بالضرب في الآداب بالسهام الفائزة ، والاخذ من العلوم بالأطراف القاصية ، وقال يدعى الجاحظ الاخير والاستاذ الرئيس [1] .

وجاراهما ابن خلكان فقال في ترجمته : « وكان متوسعاً في علوم اللغة والنجوم » . ولما مدحـه المتنبي ضرب على هذا الوتر نفسه فقـال من قصيدة معروفة :

من مبلغُ الأعراب اني بعدهم شاهدت رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدّياً متحضّرا
ولقيت كلّ الفاضلين كأنمـا ردّ الاله نفوسهم والاعصرا
نُسقوا لنا نسق الحساب مقدّماً واتى فذلك إذ اتيت مؤخّرا
قطف الرجال القول وقت نباتـه وقطفتَ انتَ القول لما نوّرا

منزلته الادبية والاجتماعية

لابن العميد في عالم الادب والاجتماع منزلة عالية لا تنكر : على ذلك أجمع الادباء من مقرّظ كمسكويه والثعالبي ، وغير مقرّظ كابي حيّان التوحيدي . ولم يكن ذلك فقط لنفوذه السياسي والاداري : فكم من وزير أو أمير مات وادرج في مطاوي النسيان : بل لانـه قرن المركز العـالي بأدب عالٍ دفع معاصريه إلى ان يلقبوه بالاسـتاذ الرئيس ، بل دفع الثعالبي إلى القول انه اوحد العصر في الكتابة [2] .

١ اليتيمة ٣ – ٢
٢ اليتيمة ٣ – ٢

وقال مسكويه :

« واما كتابته فمعروفة من رسائله الملوّنة . ومن كان مترسّلاً لم يخف عليه علوّ طبقته فيها ، وكذلك شعره الذي جدّ فيه وهزل فانه في أعلى درجات الشعر [1] . ويخطو ابن خلكان خطوة أخرى فيقول :

« واما الادب والترسل فلم يقارنه فيه احد في زمانه ، وكان كامل الرياسة جليل القدر من بعض اتباعه الصاحب بن عباد » . ويدلّك على منزلته وفود الادباء والعلماء عليه من مختلف الاقطار . قال ابن خلكان :

« وقصده جماعة من مشاهير الشعراء من البلاد الشاسعة ومدحوه باحسن المدائح [2] » . ويكفيك من ذلك ان المتنبي قصده ومدحه ولم يكن بعد اتصاله بسيف الدولة يقصد غير الامراء ، وقد ابت عليه انفته ان يقصد الصاحب أو يهمّ بالوزير المهلّبي ، وهما من هما في الادب والرئاسة .

وكما ان للادب العالي يداً في اعلاء المقام الاجتماعي كذلك للاخلاق والعادات . وقد ذكرنا شيئاً من دهاء ابن العميد السياسي وحسن تدبيره ، على ان عارفيه ينعتونه أيضاً بمناقب تحبّبه إلى الناس وتحملهم على احترامه . فمن ذلك ما ذكره مسكويه إذ قال [3] :

« وكان الاستاذ الرئيس (رضه) قليل الكلام ، نزر الحديث ، إلا إذا سئل ووجد من يفهم عنه ، فانه حينئذ ينشط فيسمع منه ما لا يوجد عند غيره مع عبارة فصيحة والفاظ متخيّرة ومعان دقيقة لا يتحبّس فيها ولا يتلعثم . ثم رأيت بحضرته جماعة ممن يتوسل اليه بضروب من الآداب والعلوم فما احد منهم كان يمتنع من تعظيمه في ذلك الفن الذي

١ تجارب الأمم ٢ — ٢٧٧
٢ الوفيات ٢ — ٨٣
٣ تجارب الأمم ٢ — ٢٧٧ و ٢٨٢

قصده به . واطلاق القول بانه لم ير مثله ولا ظن انه يخلق . وكان رحمه الله لحسن عشرته ، وطهارة أخلاقه ، ونزاهة نفسه ، إذا دخل اليه أديب أو عالم متفرد بفن ، سكت له واصغى اليه واستحسن كل ما يسمعه منه استحسان من لا يعرف منه الا قدر ما يفهم به ما يورد عليه . حتى إذا طاوله واتت الشهور والسنون على محاضراته ، واتفق له ان يسأله عن شيء أو يجري بحضرته نُبَذ منه فرغب اليه في اتمامه ، تدفّق حينئذٍ بحره وجاش خاطره وبهت من كان عند نفسه انه بارع في ذلك الفنّ والمعنى ، وما أكثر من خجل عنده من المعجبين بانفسهم ، ولكن بعد ان يمدّ لهم في الميدان ، ويرخي من اعنتهم، ويمسك عنهم مدة ، حتى ينفد ما عندهم ، ويجزل لهم العطاء عليه» .

ويختم قوله فيه بهذه العبارة : « ولعلّ من يطلع على هذا الفصل من كتابنا ممن لم يشاهده يظن انا عرناه شهادة أو ادّعينا له أكثر من قدر علمه ومبلغ فضله : لا والذي انطقنا بالحق ، واخذ علينا الاّ نقول إلاّ به » .

فنه الانشائي

ابن العميد من أهل القرن الرابع الهجري وهو قرنٌ اخرج نخبة شهيرة من أرباب الاقلام كابي اسحق الصابي وابي بكر الخوارزمي والصاحب بن عباد وبديع الزمان الهمذاني وابي هلال العسكري وابي حيان التوحيدي وابي الفرج الببغا وقابوس بن وشمكير وابي الفضل الميكالي وسواهم . وقد نبغ فيه من أهل اللغة والادب والتاريخ والعلم في الشرق وفي الاندلس اعلام لا يتسع المقام لذكرهم .

ويمتاز هذا القرن عما سبقه باستقرار السجع في الانشاء الديواني وشيوعه في حلقات الادب حتى أصبح الزي الانشائي السائد . على ان

هذه السيادة لم تكن فجسائية ، وليس هناك حدّ زمني فاصل بين عهدي الازدواج المسجّع والازدواج غير المسجّع ، ولكن لفتةٌ عمومية إلى الرسائل الديوانية والادبية في هذا القرن ، واليها في القرون السابقة ، كافية لاثبات ما يتجلى لنا من غلبة السجع وشيوعه بين منشئي القرن الرابع .

في هذا القرن أصبح الانشاء الادبي فنّاً ذا أصول . وأهمّ مزاياه كما هو معروف التزام السجع والبديع والتأنق في تحليته بالشعر والامثال . ويظهر انه كان لابن العميد يد تذكر في ذلك حتى عدّه البعض إمام الكتّاب في عصره [1] ، (ذكرنا آنفاً طرفاً من أقوالهم فيه فابراجع) . وقد ذهب الزمان بأكثر رسائله فلم يبق لنا منها الا نتف مبثوثة في كتب الادب ، وليست وحدها كافية لتقديمه على سواه . على ان الذي أهاب بنا إلى ذلك أمورٌ منها :

١ — ان المؤرخين القدماء من معاصرين وغير معاصرين قد اجمعوا على تقديمه .

٢ — ان نثره صلةُ وصلٍ بين عهد السجع المتأنق والعهد الذي سبقه .

أما النقاد الحديثون فعلى اختلاف بيّن في الحكم عليه . فمنهم من يرى فيه الصنعة والتزويق ، وان الادب في نظره ضرب من ضروب التسلية والتلهّي والترفيه واظهار البراعة والغلوّ والاغراق والبعد عن الحقيقة في التصوير والامعان في التزويق [2] » ، ومنهم من يرى عكس ذلك فيقول [3] : « فاننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية تخرّ

١ عنوان المرقصات والمطربات ٦

٢ ابن العميد (مردم) ص ٤٨

٣ النثر الفني في القرن الرابع ١ — ٢٠٢

لها الجبابر ساجدين . وهو حين يكتب لا يطالعك بفنّه كما كان يفعل معاصروه ، وإنما يطالعك بقلبه وروحه وعقله بحيث تبدو كلّ كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو روح يثور . فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً برّاقاً يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتّاب ، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمي بهما كما يرمي البركان باقباس الهلاك . وقد يرقّ فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل » وهو في رقّته وجزالته وغضبه وحنانه عبقريّ لا يعبث برجع الحديث المعاد ، وانما يجدّ بابداع الرأي الصائب والقول الرصين » .

فالمتأمّل يرى بين النقدين بوناً شاسعاً يتعذّر معه التقريب بينهما ؛ ولعلّ ذلك لما فيهما من الاندفاع إلى ابداء حكم عام . فلنترك ذلك لهما ولنتقدّم إلى درس رسائله الديوانية والادبية وفي دراستها نرى ما يلي :

١ — انه على تصنّعه معتدل يبرز السجع في كلامه ولكنه لا يتقيد به دائماً تقيّد المتأنقين الذين عاصروه أو أتوا بعده ، بل قد ترى في رسائله أحياناً ما يذكرك باسلوب العهد السابق كقوله[١] في شهر رمضان :

« أسأل الله ان يعرّفني بركته ، ويلقّيني الخير في باقي أيامه وخاتمته ، وارغب اليه في ان يقرب على الفلك دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول عن ساعاته ، ويرد عليّ غرّة شوال ، فهي اسنى الغرر عندي ، واقرها لعيني ، ويطلع بدره ، ويريني الايدي متطلّبة هلاله ببشر ، ويسمعني النعي لشهر رمضان ، ويعرض عني هلاله اخفى من السحر ، واظلم من الكفر ، وانحف من مجنون بني عامر ، وابلى من أسير الهجر ، واستغفر الله جلّ وجهه مما قلت ان كرهه ، واستعفيه من توفيقي لما

١ زهر الآداب ٢ — ٢٤٤

يذمه ، واسأله صفحاً يفيضه ، وعفواً يوسعه : انه يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور » .

فهو يمزج السجع بغير السجع مزجاً معتدلا . أما سجعه فأكثره من القصير الفقرات الحسن الازدواج .

وهاك قوله من رسالة كتبها إلى بعض اخوانه : ففي القسم الاول منها يأخذ بالسجع لا يحيد عنه ، ثم لا يلبث ان يمزج السجع بغير السجع فيجري فيهما بين قوافٍ وفواصل حتى يصل إلى آخر الرسالة . وفي هذه الرسالة يكثر من الطباق والاطناب مع شيء من الاستعارة والتشبيه ، ولكن أين ذلك من اسراف الصاحب وقابوس والمعرّي والقاضي الفاضل وعماد الدين الاصبهاني ولسان الدين بن الخطيب وسواهم من السجّاعين الذين قرنوا السجع بالبديع قرناً خرجوا به عن حد الاعتدال وتجاوزوا فيه مطالب البلاغة ؟ — قال[1] :

« أنا أشكو اليك جعلني الله فداك دهراً خؤوناً غدوراً ، وزماناً خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح الا ريثَ ما ينتزع ، ولا يبقي فيما يهب الا ريث ما يرتجع ، يبدو خيره لمعا ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع . وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، ان يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض ، وكنا نلبسه على ما شرط ، وان حاف فيه[2] وقسط ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستتمّ بقصده وظلمه ، ونعتدّ من أسباب المسرّة ان لا يجيءَ محذوره مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ما عرفناه سنّة مبتدعة ، وشريعة متّبعة ، وأعدّ لكل صالحة من الفساد حالا ، وقرن بكل خلة من المكروه خلالا .

---

[1] زهر الآداب ٢ — ٢٤٤

[2] في الأصل خاف منه .

وبيان ذلك جعلني الله فداك انه كان يقنع من معارضته الإلفَين ، بتفريق ذات البين ، فقد انثني ممنوّاً فيك بجميع ما اوغره ، وما اطويه من البلوى منك اكثر مما انشره ، واحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ، والزمته جرماً لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقي اليه ، ولو انك اعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتني بيع الخَلَق وليس فيمن زاد ، ولكن فيمن نقص ، ثم اعرضت عني اعراض غير مراجع ، واطّرحتني اطراح غير مجامل ، فهلا وجدت نفسك اهلاً للجميل حين لم تجدني هناك ، وانفذت من حل ما عقدت من غير جريمة ، ونكث ما عهدت من غير جريرة . فاجبني عن واحدة منهما .

ما هذا التغالي بنفسك ، والتعالي على صديقك ، ولمَ نبذتني نبذ النواة ، وطرحتني طرح القذاة ؟ ولمَ تلفظني من فيك ، وتمجّني من حلقك ، وانا الحلال الحلو ، والبارد العذب ؟ وكيف لا تخطرني ببالك خطرة ، وتصيرني من اشغالك مرة ، فترسل سلاماً ان لم تتجشم مكاتبة ، وتذكرني فيمن تذكر ان لم تكن مخاطبة ؟ واحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصوّر شخصه حتى تتذكر : فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك تتعجب من طمعي فيك وقد توليت ، واستمالتي لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال » .

٢ – يتكلف البديع أحياناً كقوله ١ :

« وصل كتابك فصادفني قريب العهد بانطلاق ، من عنت الفراق ، واوقفني مستريح الاعضاء والجوانح من جوى الاشتياق ، فان الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الاحوال ، ومضى على رسمه المعروف

١ زهر الآداب ٣ ص ٢٢٤ و ٢٢٥

في تبديل الاشكال ، واعتقني من مخالتك عتقاً لا تستحق بـه ولاء ، وابرأني من عهدتك براءة لا تستوجب معها دركا ولا استثناء ، ونزع من عنقي ربقة الذل في احائلك ، بيدي جفائك ، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلو ، وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس » ... إلى أن يقول :

« وكشف عن عيني ضبابات ما القاه الهوى على بصري ، ورفع عنها غيابات ما سدله الشك دون نظري ، حتى حسر النقاب عـن صفحات شيمك ، وسفر عن وجوه خليقتك ، فلم أجد إلا منكراً ، ولم الق الا مستكبراً ، فوليت منها فراراً ، وملئت رعباً ، فاذهب فقد القيت حبلك على غاربك ، ورددت اليك ذمم عهدك . »

وله من هذه الرسالة :

« واما عذرك الذي جزمت بسطه فانقبض ، وحاولت تمهيده وتقريره فاستوفز واعرض ، ورفعت بضبعه فانخفض ، وقد ورد ولعتبه وجـه يؤثر قبوله على رده ، وتزكيته على جرحه ، فلم يف بما بذلته من نفسك ، ولم يقم عند ظناك بـه . اني وقد غطى التلمثم وجهه ، ولف الحياء رأسه ، وغض الخجل طرفه ، فلم تتمكن من استكشافه ، وولى فلم تقدر على ايقافه ، ومضى يعثر في فضول ما يغشاه من كرب حتى سقط » .

٣ – يتغارب في اشاراته التاريخية واللغوية والعلمية ولكن تغاربه في الرسائل التي وصلت الينا قليل بالنسبة إلى تغارب سواه . ومن هذا النمط رسالة بعث بهـا إلى أبي العلاء السروي في شهر رمضان قال فيها [١] :

« كتابي جعلني الله فداك وانا في كد وتعب منذ فارقت شعبان ، وفي جهد ونصب من شهر رمضان ، وفي العذاب الادنى دون العذاب

[١] يتيمة الدهر ٣ – ٨ وقد ذكر بعضها قبلا .

الاكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعف حرور لو ان اللحم يصلى ببعضها غريضاً اتى اصحابه وهو منضج ، وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب ، ويصرف وجه الحرباء عن التحنّف، ويزويه عن التبصر ، يقبض يده عن امساك ساق وارسال ساق : وممنوّ بأيام تحاكي ظل الرمح طولاً ، وليال كابهام القطاة قصرا ، ونوم كلا ولا قلّة ، وكحسو الطائر من ماء الثّماد دقة ، وكتصفيقة الطائر المستحرّ خفة ، وأحمد الله على كل حال واسأله ان يعرفني فضل بركته ، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته ، وارغب اليه في أن يقرّب على القمر دوره ، ويقصر سيره ويخفف حركته » .

إلى أن يقول :

« ويرينيه مغمور النور مقمور الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ودرجة مشتركة ، وينقضّ من أطرافه كما تنقض النيران من طرف الزند ، ويبعث عليه الارَضة ، ويهدي اليه السوس ، ويغري به الدود ، ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ، ويجتحفه بالذرّ ، يجعله من نجوم الرجم ، ويرمي به مسترق السمع ، ويخلصنا من معاودته ، ويريحنا من دوره ، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصنع به صنعه بالالوان ، ويقابله بما تقتضيه دعو السارق إذا افتضح بضوئه ، وتهتك بطلوعه (ويرحم الله عبداً قال آمينا) . واستغفر الله جل وجهه مما قلته ان كرهه ، واستعفيه من توفيقي لما يذمه ، واسأله صفحاً يفيضه ، وعفواً يسيعه ، وحالي بعد ما شكوته صالحة ، وعلى ما تحب وتهوى جارية » .

وله في ذلك فصل من رسالة إلى أحدهم قال فيه وقد ذكر دعواه في العلم [1] :

« وهبْك افلاطون نفسه فاين ما سننته من السياسة فقد قرأناه

---

[1] زهر الآداب ٣ - ٢٣٧

فلم نجد فيه ارشاداً إلى قطيعة صديق ؟ فاحسبك ارسطاطاليس بعينه : أين ما رسمته من الاخلاق ؟ فقد رأيناه فلم نر فيه هداية إلى شيء من العقوق .

واما الهندسة فانها باحثة عن المقادير ، ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه وله ، بل لك في رؤساء العربية منادح ومضطرَب ، ولسنا نشاحّك ، لكن انحب ان نتحقق بالغريب من القول ، دون الغريب من الفعل ؟ وقد اغتربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه ، واما النحو فلن ترفع عن حذق فيه ، وبصر به ، وقد اختصرته اوجز اختصار ، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة ، ويرضى بك اسوة ، فقلت الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحبهما مخفوض .

وقد نصب الصديق عندك ، ولكن غرضاً يرشق بسهام الغيبة ، وعلما يقصد بالوقيعة ، ولست بالعروضي ذي اللهجة فاعرف قدر حذقك فيه ، الا اني لا أراك تتعرض لكامل ولا وافر وليتك سحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب » .

• • •

وفي رسائله الديوانية ما يُشعر بثقته بنفسه وحنكته في مخاطبة الملوك وسواهم . واليك بعضها :

رسالة الى ابن بلكا

عند استعصائه على ركن الدولة ١

« كتابي وانا مترجّح بين طمع فيك ، ويأس منك ، واقبال عليك ، واعراض عنك ، فانك تُدلُّ بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ،

١ نثبت هنا ما نقله الثعالبي في يتيمة الدهر ٣ – ١٠ و ١٢

ايسرهما يوجب رعاية ، ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية : وادنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك .

لا جرم أني وقفت بين ميل اليك ، وميل عليك ، اقدّم رجلاً لصدمك ، واؤخر أخرى عن قصدك ، وابسط يداً لاصطلامك واجتياحك ، واثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، واتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضنّاً بالنعمة عندك ، ومنافسة في الصنيعة لديك ، وتأميلاً لفيئتك وانصرافك ورجاء لمراجعتك وانعطافك : فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة فالى رخاء ، وكل غمرة فالى انجلاء .

وكما انك أتيت من اساءتك بما لم تحتسبه اولياؤك فلا بدع ان تأتي من احسانك ، بما لا ترتقبه اعداؤك . وكما استمرت بك الغفلة حتى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب ان تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت ، وسوء ما آثرت . وسأقيم على رسمي في الابقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستيناء والمطاولة ما أمكن طمعاً في انابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك ، فلست أعدم فيما اظاهره من اعذار ، واردفه من انذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فان يشأ الله يرشدك ، ويأخذ بك إلى حظك ويسددك : فانه على كل شيء قدير وبالاجابة جدير » .

ومنها :

« وزعمت انك في طرف من الطاعة بعد ان كنت متوسطها ، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها ، وحلبت شطريها . فنشدتك الله لما صدقت عما سألتك ، كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما

صرت اليه ؟ ألم تكن من الاول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء عديّ ، وماء رويّ ، ومهاد وطيّ ، وكن كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، يقيك المتالف ، ويؤمنك المخاوف ، ويكفك من نوائب الزمان ، ويحفظك من طوارق الحدثان ؟

عززت به بعد الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وايسرت بعد العسرة ، واثريت بعد المتربة ، واتسعت بعد الضيقة ، وظفرت بالولايات ، وخفقت فوقك الرايات ، ووطىء عقبك الرجال ، وتعلقت بك الآمال ، وصرت تكاثر ويكاثر بك ، وتشير ويشار اليك ، ويذكر على المنابر اسمك ، وفي المحاضر ذكرك . ففيم الآن انت من الامر ، وما العوض عما عددت ، والخلف مما وصفت ، وما استفدت حين اخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ، وما الذي اظلك بعد انحسار ظلها عنك ؟ اظلّ ذو ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب ، قل نعم كذلك ، فهو والله اكثف ظلالك في العاجلة ، واروحها في الآجلة ، ان اقمت على المحايدة والعنود ، ووقفت على المشاقة والجحود » .

ومنها :

« تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك وانظر هل يحسّ ؟ واجسس عرقك هل ينبض ؟ وفتّش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حدثي بصدرك ان تظفر بفوت سريح ، أو موت مريح ؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده وآخر شأنك بأوله » .

* * *

ومن دراسة هذه الرسالة يتبين لك فيها أهم مزاياه الانشائية وهي :

١ — عدم التقيد بالسجع مع شيوعه فيها .

٢ — ميله فيها إلى الترادف والاطناب كقوله :

« فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللبّ ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح » — وغير ذلك .

٣ — لهجته الخطابية البليغة كقوله سائلاً : « كيف وجدت ما زلت عنه ، وكيف تجد ما صرت اليه ، ألم تكن من الاول في ظل ظليل ونسيم عليل » الخ ... وكقوله آمراً :

« تأمل حالك ، والمس جسدك ، وانظر هل يحسّ ، واجسس عرقك هل ينبض » الخ الكلام .

٤ — طلاوتها وقصر فقراتها — قال ابن سعيد :

« هذه الرسالة وان اطنبوا فيها وجعلها الثعالبي واسطة لعقد ترسّل ابن العميد فانها من طبقة المقبول ، ولكن قد خامرها من تغلغل الفكر في ترصيفها ، واثارت ما انطوت عليه من المقاصد الماثلة بالاسماع ما يعلق باهداب المطرب [١] » .

رسالته الى عضد الدولة

وهي تدلّ على تلطف في اداء المعنى وبراعة في سلوك المقاصد ومنها [٢] :

« وقد يعدّ اهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها ، وانتقاض مررها ، والاحوال الداعية إلى ارتفاع جلّ الموجود منها ، وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من هجوم الاوباء ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء ، فان كل ذلك يخترم العلوم اختراما ، وينتهكها انتهاكا ، ويجتثّ اصولها اجتثاثا ،

١ عنوان المرقصات والمطربات ٧

٢ اليتيمة ٣ — ١٢

وليس عندي الخطْبُ في جميعَ ذلك ما يولده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته ، فان البلاء به لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل ، كالامير الجليل ، الذي احله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهي نور ، نوافر مما لاقت حتى تصير اليه ، وشرّد نوازع حيث حلّت حتى تقع عليه ، تتلفت اليه تلفّت الوامق ، وتتشوّف نحوه تشوّف الصب العاشق ، قد ملكتها وحشة المضاع ، وحيرة المرتاع » .

رسالته الى عضد الدولة يهنئه بولدين [1]

وفيها يظهر اسلوبه المسجع القصير الفقرات

« اطال الله بقاء الامير الاجل عضد الدولة ، دام عزّه وتأييده ، وعلوّه وتمهيده ، وبسطته وتوطيده ، وظاهر له من كل خير مزيده ، وهناه ما احتظاه به على قرب البلاد ، من توافر الاعداد ، وتكثر الامداد ، وتثمّر الاولاد ، واراه من النجابة في البنين والاسباط ، ما اراه من الكرم في الآباء والاجداد ، ولا اخلى عينه من قرّة ، ونفسه من مسرّة ، ومتجدّد نعمة ، ومستأنف مكرمة ، وزيادة في عدده ، وفسح في أمده ، حتى يبلغ غاية مهله ، ويستغرق نهاية امله ، ويستوفي ما بعد حسن ظنه : وعرفه الله السعادة فيما بشّر عبده من طلوع بدرين هما انبعثا من نوره ، واستنارا من دوره ، وحفّا بسريره ، وجعل وفدهما متلائمين ، وورودهما توأمين ، بشيرين بتظاهر النعم ، وتوافر القسم ، ومؤذنين بترادف بنين يجمعهم منخرق

[1] زهر الآداب ٤ — ١٨٠

الفضا [1] ويشرق بنورهم افق العلا ، وينتهي بهم امد النماء إلى غاية تفوت غاية الاحصاء ، ولا زالت السبل عامرة ، والمناهل غامرة ، يصافح صادرهم بالبشر وآملهم القاصد بالنيل [2] .

١ كذا في الأصل ولعله يعني الفضاء الواسع .
٢ في الأصل (بصفائح صادرهم بالبشر وآملهم بالنيل القاصد) وليس لدينا رواية أخرى نعارضه بها فصححناه كما ترى أعلاه .

أبو إسحق الصابي

٣١٣ – ٣٨٤ هـ

نشأته ونبوغه

لا نعرف عن حداثة هذا الكاتب المشهور إلاّ انه لما أدرك سنّ العلم صرفه والده – وكان طبيباً – إلى درس الكتب الطبية . وكان غرضه ان يخرجه طبيباً يعيش من هذه المهنة . ولكن الفتى (ابراهيم) لم يكن ميالاً إلى الطب ميله إلى الادب ، فاضطرّ والده بعد لأي ان يجاريه في ذلك الميل . وفي ذلك يحدّثنا الصابي عن نفسه قال [١] :

« كان والدي ابو الحسن يلزمني في الحداثة والصبى قراءة كتب الطبّ والتحلّي بصناعته ، وينهاني عن التعرّض لغير ذلك . فقويتُ فيها قوّة شديدة وجُعل لي برسم الخدمة في البيمارستان عشرون ديناراً في كل شهر . وكنت أتردد إلى جماعة من الرؤساء خلافةً له ونيابة عنه . وأنا مع ذلك كاره للطب ، ومائل إلى قراءة كتب الادب : كاللغة والشعر والنحو والرسائل والادب . وكان إذا احسّ بهذا مني يعاتبني

١ راجع الحديث في معجم الأدباء ج ١ ص ٣٣٩ – ٣٤٠

عليه ، وينهاني عنه ، ويقول يا بنيّ لا تعدل عن صناعة اسلافك . فلما كان في بعض الايام ورد عليه (والد المترجم) كتاب من بعض وزراء خراسان يتضمن أشياء كثيرة كلفه اياها ، ومسائل في الطب وغيره سأله عنها . وكان الكتاب طويلاً بليغاً وقد تأنق منشئه وتغارب . فاجاب عن تلك المسائل ، وعمل جملاً لما يريده وانفذها على يدي إلى كاتب لم يكن في ذلك العصر ابلغ منه ، وسأله انشاء الجواب عنه . قال (صاحب الترجمة) فمضيت وانشأت انا الجواب ، واطلته وحررته وجئت به اليه . فلما قرأه قال يا بنيّ سبحان الله ما افضل هذا الرجل وابلغه ! قلت له هذا من انشائي . فكاد يطير فرحاً وضمّني اليه ، وقبّل بين عينيّ وقال قد اذنت لك الآن فامض فكن كاتباً » .

ويؤخذ ضمناً من هذا الحديث ان الكتابة حتى المراسلات العادية بين الخاصة كانت قد أصبحت في زمن الصابي صناعة يتولاها طائفة من المنشئين ويجرون فيها على قواعد واصول متعارفة . والا فما الذي اضطر والده ان يعهد بالجواب إلى منشىء معروف يدبج له الاجوبة التي اعدها لترسل إلى الوزير الخراساني ؟

على أثر تلك الحادثة تحول كاتبنا عن الطب ، وحصر مجهوده في صناعة الكتابة فاتقنها اتقاناً لفت نظر الخاصة في ذلك الحين . ويزيد على ذلك القفطي انه كان له يد طولى بالرياضيات ولا سيما الهندسة والهيئة [1] .

واتصل — وهو لا يزال حدثاً — بالوزير المهلبي وكان الوزير أديباً ، وله مجلس انس يحضره الادباء . وهناك ظهرت براعته حتى قدمه الوزير . وقد نقل ياقوت عن المحسّن (ابن صاحب الترجمة) حديثاً لا بأس من ايراده هنا ، وخلاصته : ان الوزير كان في مجلس انس له ، وعنده جماعة من الكتّاب والادباء يشربون ، إذ حضر رسول

---
[1] أخبار الحكماء ٥٤

الامير معزّ الدولة وطلب من الوزير ان يكتب عنه كتاباً إلى صاحب كرمان يخطب فيه ابنته لبختيار ابن الامير . فالتفت الوزير إلى كتّابه وكان السّكر قد فعل فعله فيهم فلم يتمكّنوا من كتابته . قال الصابي ورآني الوزير مصغياً متشوّفاً . فقال تكتبه يا أبا اسحق ؟ قلت نعم . قال افعل . فقمت إلى صُفّة يشاهدني فيها واستدعيت دواتي ودرجاً منصورياً وكتبت الكتاب ، والجميع يلاحظونني ، ويعجبون من إقدامي . فلمّا فرغت حملته اليه ، فوقف عليه ووجهه متهلّل . وقال للجماعة هذا كتاب حسن دالّ على الكفاية المبرّزة . قم يا أبا اسحق من موضعك واجلس هنا حيث اجلستك الكفاية . واومأ إلى جانب ابي الغنائم ابنه » الخ الحديث [1] .

من تلك الساعة أخذ نجمه بالصعود ، وصار من المقرّبين عند الوزير حتى حسده سائر الكتّاب والادباء . وما زال يرتقي حتى قُلّد دواوين الرسائل والمظالم تقليداً سلطانياً كتب به عن المطيع لله إلى أصحاب الاطراف .

ولا يذكر ياقوت السنة التي نبغ فيها الصابي ، وعُهد اليه بالديوان ، ولكننا نستدلّ من ابن خلكان انه تقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ أي وهو في السادسة والثلاثين من عمره . ويظهر لنا من اخباره ان المهلّبي اصطنعه حدثاً فقرّبه اليه وما زال في خدمته حتى قلد ديوان الرسائل ، ففاز بتلك المكانة العالية التي كان يتشوّف اليها كبار المنشئين . ومما يدلّ على تفوقه ان الرجل كان صابئاً مستضعفاً في جوّ مسلم قويّ وكان بين المسلمين في ذلك العهد كثيرون من أرباب الاقلام واللغة ، فلم يلبث برغم ذلك ان بزّ معاصريه حتى شهدوا له ، وسلمه الخليفة ديوانه . ولما مات رثاه الشريف الرضي بقصيدة مشهورة مطلعها :

أعلمتَ من حملوا على الاعواد ِ   أرأيت كيف خبا ضياء النادي

[1] راجع تفصيله في معجم الأدباء ج١ ص ٣٤٢ و ٣٤٣

جبلٌ هوى لو خرّ في البحر اغتدى　　من وقعه متتابع الازباد
ما كنت أعلم قبل دفنك في الثرى　　ان الثرى يعلو على الاطواد

فعاتبه الناس لكونه شريفاً يرثي صابئاً . فقال إنما رثيت فضله [1] .

وقال الثعالبي فيه : « اوحد العراق في البلاغة ، ومن به تثنى الخناصر في الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة [2] » .

وكان الصاحب بن عبّاد — وهو من هو في الجاه والادب — يحبه أشدّ الحبّ ، ويتعصب له ، ويتعهده على بعد الدار بالمُنح . وكان (الصاحب) يتمنى ان يَقدُم ابو اسحق اليه بعد ان نُكب وينحاز إلى جنبه فيكفل له الرغائب ، ولكنّ الصابي ذهب مذهب المتنبيء فلم يتواضع للاتّصال بحلقة الصاحب . على انه مع انفته ان يصبح تابعاً لمن كان قبلاً من نظرائه لم يظهر التشامخ والاستكبار كالمتنبي بل قرن رفضه باللّين والدّعة، وكان يمدح الصاحب عن بعد ويعظمه ويقبل منه الصّلات . وقد نقل الثعالبي فصلاً من كتاب في ذكر صلة وصلت منه اليه ، وفيه يظهر لينه وحسن موّاتاته قال :

« ورد — اطال الله تعالى بقاء سيدنا ومولانا — ابو العباس أحمد ابن الحسين ، وابو محمد جعفر بن شعيب حاجّين فعرّجا إليّ ملمين ، وعاجا عليّ مسلّمين . فحين عرفتهما ، وقبل ان اردّ السلام عليهما مددت اليد اليهما كما مدّها حسّان بن ثابت إلى رسول جبلة بن الأيهم ثقة منه بصلته ، وتشوّقاً إلى تكرمته ، واعتياداً لاحسانه ، وإلفاً لموارد إنعامه ، وتيقّناً ان خطوري بباله مقرون بالنصيب من ماله ، وانّ ذكراه لي مشفوعة بجلواه . وقمت عند ذلك قائماً ، وقبّلت الارض ساجداً ، وكرّرت الدعاء والثناء مجتهداً . وسألت الله تعالى

---

[1] وفيات الأعيان ١ — ١٨
[2] اليتيمة ٢ — ٢٣

ان يطيل له البقاء كطول يده بالعطاء ، ويمد له في العمر ، كامتداد ظله على الحر ، وان يحرس هذا البدد ، القليل العدد ، من مشيخة الكتاب ومنتحلي الآداب ما كنفهم به من ذراه، وافاء عليهم من نداه، واسامهم من مراتعه ، واعذب لهم من شرائعه [1] » .

ومما يظهر لك ما بلغه الصابئ في أول عهده انه لما مات والده جاءه الوزير المهلبي معزياً . قال الصابي : « فحين عرفت قدومه بادرت لتلقيه . واستعفيته من الصعود . فامتنع من الاجابة إلى ذلك وجلس ساعة يخاطبني فيها بكل ما يقوي النفس ، ويشرح الصدر ، ويصف والدي ويقرظه لي ، ثم ينهض واقسم علينا ان لا يتبعه أحد منا ، وانفذ إلي في بقية ذلك اليوم خمسة آلاف درهم . ولم يبق احد من اهل الدولة الا جاءني بعده معزياً [2] » .

وقد اتصلت شهرته بسيف الدولة ابن حمدان وكان له كما لسواه من الامراء رغبة في ان يمدحه كبار الادباء . فارسل اليه بذلك رسولاً ووصله وأضاف إلى ذلك رسماً كان ينفذه كل سنة [3] .

وله مع المتنبي حديث ذكره ولده قال نقلاً عن لسان والده [4] :

« راسلت ابا الطيب المتنبي في ان يمدحني بقصيدتين واعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بيني وبينه رجلاً من وجوه التجار . فقال (اي المتنبي) قل والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولا أوجب علي في هذه البلاد احد من الحق ما أوجبت ، وان انا مدحتك تنكر لك الوزير يعني أبا محمد المهلبي وتغير عليك لانني لم امدحه . فان كنت لا تبالي هذه الحال فانا اجيبك إلى ما التمست وما أريد منك منالاً ، ولا عن شعري عوضاً .

---

١ اليتيمة ٢ – ٢٧
٢ معجم الأدباء ١ – ٣٢٨
٣ معجم الأدباء ١ – ٣٢٩
٤ راجع معجم الأدباء ١ – ٣٤٦

قال والدي فتنبهت على موضع الغلط ، وعلمت انه قد نصح فلم أعاوده » .

افول نجمه ونكبته

وظلّ الصابئ يتقلّب في النعماء ، مكرّماً من الامراء والوجهاء حتى سنة ٣٥٢ وهي السنة التي مات فيها وليّ نعمته الوزير المهلّبي . فاعتقل في جملة عمّال المهلبي ، ثم أطلق سبيله وأعيد إلى عمله . ولم يزل « يطير ويقع » — كما قال الثعالبي — « وينخفض ويرتفع ، إلى ان دفع في ايام عضد الدولة إلى النكبة العظمى والطامة الكبرى » . كان ذلك في السنة ٣٦٧ وهو في الرابعة والخمسين من عمره ، وكان بين عضد الدولة البويهي أمير فارس وبين بختيار بن معزّ الدولة صاحب الامر في بغداد منافسات على الرئاسة . وكان بختيار قد حمل الخليفة الطائع لله ان جدّد له الامر فانشأ لذلك الصابي كتاباً قال فيه :

« وقد جدّد له أمير المؤمنين مع هذه المساعي السوابق ، والمعالي السوامق ، التي تلزم كل دانٍ وقاص ، وعام وخاصّ ، ان يعرف له حقّ ما كرم به منها ، ويتزحزح عن رتبته المماثلة فيها » .

فلما اطلع عضد الدولة على هذه الجملة الاخيرة لم يشكّ في التعريض به ، فنقم ذلك واسرّها في نفسه إلى ان ملك بغداد وسائر المشرق . فلما استقرّ فيها امر الصابي بتأليف كتابٍ في اخبار الدولة الديلمية يشتمل على ذكر قديمه وحديثه ، وشرح سيره في حروبه وفتوحه . فامتثل وأخذ بتصنيفه ، ولكن بعضهم وشى به ورفع إلى عضد الدولة ان الصابي سئل عن هذا الكتاب فقال : « اباطيل أنمّقها ، وأكاذيب ألفّقها » . فحرّك ذلك كوامن الحقد في قلب عضد الدولة ، وامر بأن يُلقى تحت ارجل الفيلة . فاستشفع اليه بعض الوجهاء في أمره ، وتلطّفوا في استيهاب

دمه ، حتى استحياه وامر باعتقاله ، واستصفاء أمواله . وبقي في السجن نحو أربع سنوات . ثم خرج وقد رزحت حاله ، وتهتك ستره [1] . ويذكر ياقوت هذا الخبر مفصلاً ومطولاً مع شيء من الاختلاف ، ولكن مجمل الحديث واحد [2] . ويؤيد كل ذلك كتاب كتبه للصاحب بن عباد يشكو فيه حاله وما أصابه فيه [3] ... ومنه :

« فان نوب الدهر تردد منذ سنين علي ، وعلى أهل صناعتنا المنحوسة بالعراق ، منيخة بنوازلها ، ملقية بكلاكلها ، كالحة بوجوهها ، كاشرة عن أنيابها ، لتعاقب الايدي الوالية علينا ، وتدرجها في الاساءة الينا ، وتزايدها في الفظاظة بنا ، وتجاوزها المنزلة إلى المنزلة في الاستئصال لاحوالنا ، وقد توفر قسطي في تأثيرها بحسب ضني بعرضي ، وصوني نفسي ، وبذلي دونهما مالي ووقايتي اياهما بما ملكت يدي ، حيث لم أسأل المعونة احداً ، ولا سمحت ان استميح مسوّداً ولا سيداً ، راجعاً إلى شيء مما يرجع اليه الناس من موروث تالد ، ومكتسب طارف ، حتى انتهت مغارمي إلى نحو خمسمائة الف درهم لم يبق لي بعدها ضيعة ، ولا منزلة ، ولا باطن ولا ظاهر . فلما صارت صروف الدهر تتوغل بعد التطرف ، وتجحف بعد التحيف ، وصادف ما تجدد علي منها في الوقت اشلاء منهوكة ، وأعظماً مبرية ، وحشاشة مشفية ، وبقية مودية ، فارقت الايثار ، وأطعت دواعي الاضطرار ، وجعلت اختار الجهات ، واعتام الجنبات ، لأنحو منها ما لا يعاب سائله إذا سأل ، ولا يخيب آمله إذا أمل ، فكان سيدي ادام الله عزه اولها إذا عددت ، واولاها إذا اعتمدت » .

---

١ راجع أخبار نكبته في اليتيمة ٢ - ٢٧

٢ معجم الأدباء ج ١ ص ٣٣١ - ٣٣٦

٣ رسائل الصابي ص ٢٨١

اخلاقه

من ينعم النظر في أخلاق الصابي وامياله النفسية يتراءى له من بينها مزيّتان بارزتان همـا تمسكه بمعتقده ، وحسن تأدّبه في معـاشرته : وتظهر المزية الاولى فيما رواه الثعالبي من « ان الخلفاء والوزراء أرادوه كثيراً على ترك مذهبه واعتناق الاسلام ، وأداروه بكل حيلة وتمنية جليلة : حتى ان عزّ الدولة بختيار عرض عليه الوزارة إن أسلم فلسم يهده الله تعالى للاسلام [1] » . وقد روى ذلك أيضاً ياقوت في ما كتبه عنه [2] ، وابن خلكان [3] في الوفيات . والجميع مجمعون على ثباته في معتقده برغم مـا كان يلوح له من المجد في تركه ، واعتناق مذهب الدولة . وذكره القفطي بالغيرة على مصلحة أهله وطائفته [4] .

بل قد ذهب المؤرخون إلى تشدّده في تعاليم دينه وتعففه عن محرّماته : ولولا انه عُرف في ذلك لما ذكروه ذكراً خاصاً حتى قيل : بذل له عزّ الدولة بختيار الف درهم على ان يأكل الفول — وهو محرّم على الصابئة — فلم يفعل . وفي اليتيمة [5] :

« سمعت ابا منصور سعيد بن أحمد ببخارى يقول ان ابا اسحق الصابي كان من نسّاك اهل دينه ، والمتشدّدين في ديانته في تصوّنه عمـا يدعو اليه الهوى » . وفيها عن ابي نصر سهل بن المرزبان قال « بلغني ان الصابي حضر يوماً مائدة المهلّبي فامتنع عن الاكل لباقلاء كانت عليها ، لأنه محرّم على الصابئة كيف ما كان — مع السمك والخنزير ولحم الجمل وفراخ الحمام والجراد — فقال له المهلّبي لا تبرد وكل معنا من

---

١ اليتيمة ٢ — ٢٤

٢ معجم الأدباء ١ — ٣٢٤

٣ وفيات الأعيان ١ — ١٧

٤ أخبار الحكماء ٥٤

٥ اليتيمة ٢ — ٢٤

هذه الباقلاء . فقال : ايها الوزير لا أريد ان اعصي الله في مأكول . فاستحسن ذلك منه » . ولا يستدل مما ذكروه ان الرجل كان يفعل ذلك رياءً أو لغرض شخصي : فان مقامه في دار الخلافة والوزارة – محاطاً بكل المغريات له على تغيير دينه ، أو اقاله على عدم التشدّد فيه ، ثم اباؤه ذلك – لدليل على ما في نفس الرجل من انفة مذهبية، وكرامة شخصية ، تنزّهانه عن التساهل بمبدأ يدين به (خطأ أو صواباً) للحصول على منافع مادّية . والذي يذكر انه لم يلقَ من جراء ذلك غير اكرام الناس له واحترامهم شخصيته .

وقد قرن تلك المزية بمزية أخرى قد تظهر لاول وهلة مناقضة لها، اعني ما ذكرناه من حسن تأدّبه في مجاراته من يعيش معهم . ونعلم ذلك مما ذكره الذين دوّنوا سيرته . فقد ذكروا لنا انه مع محافظته على دينه يعاشر المسلمين أحسن عشرة ، ويخدم الاكابر أرفع خدمة ، حتى كان يشاركهم في صيام رمضان [1] . ولما عطف عليه الوزير المهلّبي (كما ذكرنا سابقاً) وقدّمه على من عنده من شيوخ الكتّاب والمتأدّبين نقموا ذلك ، ولزم بعضٌ منهم منزله وجداً وغضباً ، واظهر بعضهم التعالل . قال الصابي : « فلم أزل اتلطف واداري وأغضي على قوارص تبلغني حتى صارت الجماعة اخواني واصدقائي [2] » .

فالرجل قد قرن في نفسه الانفة بدماثة خلق متناهية اكسبته مودّة الصغير والكبير ، وقرّبت اليه العدوّ والحسود . كان صبوراً على الاذى ، بعيداً عن التشامخ ، صادق الخدمة ، ناعم اللسان ، فنال بهذه الصفات وما يقترن بها من حذق فنيّ ما ناله من المنزلة الرفيعة . ولو أردنا ان نجمع ظواهر تأدّبه في كلمة واحدة لقلنا هي حسن المداراة أو القوّة على التكيّف وملاءمة البيئة . وإذا روعي فيها الاعتدال ورجاحة الخلق

---

١ اليتيمة ٢ – ٢٤ ووفيات الأعيان ١ – ١٧

٢ معجم الأدباء ١ – ٣٤٢

كانت صالحة لصاحبها ولسواه وجاءت منطبقة على قول زهير :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة ... يضرّس بانياب ويوطأ بمنسم

والا فهي الرياء والمداجاة وما اليهما من تراخي الاخلاق وضعف الارادة . ولم يكن صاحبنا كذلك بدليل ما أثبتناه من تعففه عن المنافع المادية يكتسبها بنبذ ما يعتقد صوابه .

كان الصابي حكيماً مدارياً يضع الامور مواضعها ، فاذا نطق بلسان رؤسائه احلّ نفسه محلّهم متناسياً امياله النفسية واغراضه الذاتية . ومن ذلك ما نراه في رسائله من مدح الاسلام وذم اعدائه كقوله من رسالة عن لسان المطيع إلى ركن الدولة بخبر اسر الدمستق قائد الروم سنة ٣٦٢ — قال [١] : « وامتثل (اي عزّ الدولة) امر أمير المؤمنين في انجاد ابي تغلب بجمع كثيف من الرجال الذين يصاحون للقاء الروم ، وبالابطال المختارة من طوائف الاعراب والاكراد » — إلى أن يقول : « وتوكلوا على ربّ العالمين ، واستنجحوا بشعار أمير المؤمنين ،واثّروا في الطغاة الكفرة ، والبغاة الفجرة اثراً بعد اثر ، وظفروا بهم ظفراً بعد ظفر » .

ثم يقول في موضع آخر من الكتاب نفسه :

« ووردوا ظاهر آمد فعرفوا صحة خبر الدمستق — لعنه الله — وحصوله على أفواه الدروب في خمسين الف رجل . وتلوّم اصحابنا بها يريحون ، والكفرة على مسافة منهم مقيمون . مرّةً تقدم بهم الآجال ، ومرّةً تحجم بهم الاوجال . ثم تدانى الفريقان ، والتقت حلقتا البطان ، في يوم الجمعة الذي ختم الله بـه شهر الصيام ، وحتم فيه بالظهور للاسلام . فثبت الطغاة اغتراراً بوفور عددهم ، ومحاماةً عن صاحبهم وعظيم كفرهم » — وهنا يصف الملحمة وصفاً شائقاً ويردف ذلك بقوله: « واستلحمتهم السيوف ، واحتكمت فيهم الحتوف . وأخذ المسلمون

---

١ رسائل الصابي ص ٤٨

منهم الثار ، وعجل الله بارواحهم إلى النار » .

فأنت ترى انه في هذا الكتاب الذي يصف فيه انهزام الروم وهم يومئذ اعداء المسلمين يضع نفسه موضع المسلم الحقيقي : وهو يقف هذا الموقف في الكثير من رسائله كما كتب عن لسان بعض الامراء واصفاً النبيّ العربي ورسالته ، قال[1] :

« فكان آخرهم في الدنيا عصرا ، وأولهم يوم الدين ذكرا ، وارجحهم عند الله ميزاناً ، وأوضحهم حجة وبرهانا ، وابعدهم في الفضل غاية ، وأبهرهم معجزة وآية ، محمد صلى الله عليه وسلّم تسليما ، الذي اتخذه الله صفيّاً وحبيبا ، وأرسله إلى عباده بشيراً ونذيرا ، على حين ذهاب منهم مع الشيطان ، وصدوف عن الرحمن ، وتقطيع للارحام ، وسفك للدماء الحرام ، واقتراف للجرائم ، واستحلال للمآثم : انوفهم في المعاصي حميّة ، ونفوسهم في غير ذات الله أبيّة ، يدعون معه الشركاء ، ويضيفون اليه الاكفاء ، ويعبدون من دونه ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنهم شيئاً . فلم يزل صلى الله عليه وسلم يقذف في اسماعهم فضائل الايمان ، ويقرأ على قلوبهم قوارع القرآن ، ويدعوهم إلى عبادة الله باللطف لمّا كان وحيدا ، وبالعنف لما وجد انصاراً وجنودا ، لا يرى للكفر اثراً إلا طمسه ومحاه ، ولا رسماً الا ازاله وعفّاه ، ولا حجة مموّهة الا كشفها ودحضها ، ولا دعامة مرفوعة إلا حطمها ووضعها ، حتى ضرب الحق بجرانه ، وصدع ببيانه ، وسطع بمصباحه ، ونصع باوضاحه .

اسلوبه الانشائي وادبه

ظهر الصابئ في عصر نبغ فيه ابن العميد والصاحب بن عبّاد

[1] الرسائل ص ١٥ – ١٧ راجع مثل ذلك أيضاً ص ٤٤ و ٨٢ و ١١٨ و ١٥٧ و ١٦١ وسواها

وهما من هما في الكتابة والوجاهة ، فعرف الادباء والامراء فضله وعهد اليه كما ذكرنا سابقاً بديوان الانشاء في بغداد . قال الثعالبي في اليتيمة : « ومدحه شعراء العراق في جملة الرؤساء وسار ذكره في الآفاق ، ودوّن له من الكلام البهي النقيّ ما تتناثر درره وتتكاثر غرره » . وهذا الوصف العام قد يصدق على كل كاتب كبير : على ان للصابي على ما يظهر منزلة ممتازة ولا سيما في السلطانيات . وفي ذلك يقول ابن الاثير في المثل السائر [1] :

« وكيف أضع من الصابي وعلم الكتابة قد رفعه ، وهو إمام هذا الفن والواحد فيه . ولقد اعتبرت مكاتباته فوجدته قد أجاد في السلطانيات كل الاجادة واحسن كل الاحسان . ولو لم يكن له سوى كتابه الذي كتبه عن عزّ الدولة بختيار بن بويه إلى سبكتكين عند خروجه عليه ومحاصرته اياه بالعصيان لاستحق به فضيلة التقدّم . وكيف وله من السلطانيات ما اتى فيه بكل عجيبة ، ولكنه في الاخوانيات مقصّر ، وكذلك في كتب التعازي » .

* * *

ولقد حاول ابن الاثير نقد الصابي فضعّفه في وجهين — تكرار العبارات وعدم ملائمة التحميد لغرض الكتاب . فالاول كقوله :

« ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها » .

وقوله عن النبي :

« لم يرَ للكفر اثراً إلاّ طمسه ومحاه ، ولا رسماً إلاّ ازاله وعفّاه » .

وقوله في الدولة العباسية : « ولم تزل على سالف الايام وتعاقب الاعوام تعتلّ طوراً ، وتصحّ اطوارا ، وتلتاث مرّة وتستقل مرارا ، من حيث اصلها راسخ لا يتزعزع ، وبنيانها ثابت لا يتضعضع » :

---

[1] المثل السائر ١٤٨

ومثل ذلك كثير في كلام الصابي : فقرات متساوية المعاني يؤتى بها لاطّراد الكلام أو لاقامة الوزن . وقد أصاب ابن الاثير في انتقاده لكن الصابئ لم ينفرد بتكرير الاسجاع بين المنشئين . وإذا رجعت إلى خطبهم ورسائلهم وجدتهم سواءً في ذلك . بل هذه رسائل ابن الاثير نفسه تجد فيها كثيراً مما عابه على الصابي . فقد نقلنا له فيما سبق قوله « اجاد كل الاجادة واحسن كل الاحسان » . وانظر إلى قوله في تقليد يفاخر بسجعه ويقول انه السجع الذي يثبت على المحكّ « فانه يأخذ في انشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسه ، واستدام سجوده على صفحته حتّى لم يكد يرفع من رامه »[1] .

وقوله :

« طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق ، ويشير اليك بان الانعام قد اطاف بك اطافة الاطواق بالاعناق »[2]

وقوله : « ولك انت من هذا الدعاء حظّ على قدر محلك من العناية التي جذبت بضبعك ، ومحلك من الولاية التي بسطت من ذرعك ، فخذ هذا الامر اخذ من لم يتعقّبه بالنسيان ، وكن في رعايته ممن إذا نامت عيناه كان قلبه يقظان »[3]

و ولو استعرضت كلام عبد الحميد والجاحظ وابن العميد والصاحب سواهم من ائمة الانشاء لوجدت التكرار صفة ملازمة لهم . ولا نقصدة بذلك مدحاً أو ذماً ، ولكن نفياً لما قد يتبادر إلى الذهن من كلام ابن الاثير ان التكرار من مزايا الصابي دون سواه .

واما تحميداته وموافقتها لغرض الرسائل ففيها يجيد الصابئ أحياناً ويسيء احياناً . فمن اجادته تحميده في رسالته عن عزّ الدولة إلى ركن

---

١ المثل السائر ١٤١

٢ المثل السائر ١٤٣

٣ المثل السائر ١٤٤

الدولة . فقد جعل حمد الله هنالك مقروناً بقدرته على كبت الاعداء وتذليل صعاب الخطوب وتنوير الدياجي وردّ الطغاة . وكل ذلك موافق لمقام الكلام [1] . ومثل ذلك ما كتبه عن نفسه إلى الامير عضد الدولة [2] . وغير ذلك من التحميدات التي جاءت موافقة لغرض الكتاب .

ومن اساءاته في هذا الباب ما انتقده ابن الاثير فاصاب إذ قال: « انه كتب كتاباً يتضمن فتح بغداد وهزيمة الاتراك عنها . فجاء بتحميدة لا تناسب الكتاب ولكنها تصلح ان تكون في صدر مصنّف من مصنّفات أصول الدين » [3]

واليك قوله في هذه التحميدة :

« الحمد لله رب العالمين ، الملك الحق المبين ، الوحيد الفريد ، العليّ المجيد ، الذي لا يوصف الاّ بسلب الصفات ، ولا يُنعت إلا برفع النعوت ، الازليّ بلا ابتداء ، الابديّ بلا انتهاء ، القديم لا منذ أمد محدود ، الدائم لا إلى أجل معدود ، الفاعل لا من مادّة استمدّها ، ولا بآلة استعملها ، الذي لا تدركه الاعين بالحاظها ، ولاّ تحدّه الالسن بالفاظها ، ولا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها ، ولا تضارعه الاجسام باخطارها ، ولا تجانسه الصور باعراضها ، ولا تجاريه أقدام النظر ولا الاشكال ، ولا تزاحمه مناكب القرناء والامثال ، بل هو الصمد الذي لا كُفْءَ له ، والفذّ الذي لا توأم معه ، والحيّ الذي لا تخرمه المنون ، والقيّوم الذي لا تشغله الشؤون ، والقدير الذي لا تؤوده المعضلات ، والخبير الذي لا تعييه المشكلات » .

وإذا تجاوزت ما ذكره ابن الاثير من هذه المآخذ على الصابي

---

١ راجع الرسائل ٥٢

٢ الرسائل ٧٤

٣ المثل السائر ٤١٠

وراجعتُ رسائله ناظراً فيها نظر المتعم المدقق رأيته يشارك كبار المنشئين في مزايا انشائية عامّة . منها :

صحة التقسيم وتوازن الفقرات

كقوله [1] : « ولا يقبل على ذي هيئة لهيئته ، ولا يُعرض عن دمم لدمامته ، ولا يزيد شريفاً على مشروف ، ولا قوياً على ضعيف ، ولا قريباً على أجنبيّ ، ولا ملبّساً على ذمّي ، ما جمعهما التخاصم ، وضمّهما التحاكم . ومن احسّ منه بنقصان بيان ، أو عجز عن برهان ، أو قصور من عام ، أو تأخّر في فهم ، صبر عليه حتى يستنبط ما عنده ، ويستشفّ ضميره ، وينقع بالاقناع غلته ، ويزيح بالايضاح علته » .

ومثل ذلك قوله من كتاب إلى الرعية يحذّرهم من شيطان الفتنة [2] :

« فحقيق على كل ناظر لنفسه ، وحافظ لدينه ، ان يتحرّز من الوقوع في اشراكه المبثوثة ، وحبائله المنصوبة ، وخطاطيفه الحجن ، التي تجتذب القلوب ، وتغتال الالباب . وان يتّهم هواجس فكره ، ووساوس صدره . ويعرضهما على نظره وفحصه ، وتأمّله وبحثه . فاذا خلصت من الشوائب ، وسلمت من المعايب ، وضاقت على الشيطان فيهما حيله ، وانحسمت عنهما غيله ، وخولف فيها الهوى الذي قليلاً ما يشاكلها ويضاهيها ، وكثيراً ما يخالفهما وينافيهما ، كان اتيانه ما يأتيه منهما ، عن نية لا شكّ معهما ، ووثيقة لا طعن عليها ، ويقين من السلامة في اولاهما وأخراهما ، والسعادة بفاتحتها وعقباهما » .

---

١ رسائل الصابي ١٢٠

٢ الرسائل ١٩٧

وأكثر رسائله على هذا النسق :

الاطناب والتكرير

وقد اشرنا إلى ذلك في ذكرنا لنقد ابن الاثير فلا حاجة إلى بسطه الآن ، وهو ظاهر في رسائله ظهوره في أكثر انشاء الطبقة الاولى من ذلك العصر ، ومن أراد أمثلة خاصة فليراجع الصفحات التالية من رسائله [1] . ونجتزئ منها هنا بما يلي : كقوله (ص ١٩)

« في حماية البيضة ، وحياطة الحوزة ، وذَبّ العداة ، وقمع الطغاة ، وكبح الجامح ، وبعث الجانح ، وتقويم الزائغ ، وتسديد الرائغ » .

وقوله (ص ٤١) : « والله في ذلك كله ناصرنا وخاذله ، ومظفرنا وقاتله ، ومعلينا ومسقطه ، ومديلنا وموّرطه » .

وقوله (ص ٧٥) : « واصبحت الدنيا متحلية منه بأفضل حليها ، ومتجلية له في أفخر حللها ، وضاربة من آثاره وافعاله بمعلّى قداحها ، ومفضية من تدبيره وسياسته إلى نهاية اصلاحها . فلا اعدمه الله السعي الرشيد ، والمقام الحميد ، والطائر السنيح ، والمتجر الربيح » الخ ...

وقوله (ص ١٩٧) : « ويعرضها على نظره ، وفحصه ، وتأمله ، وبحثه » الخ ...

اطراد الوصف وجزالة الكلام

كقوله من كتاب عن الطائع إلى عضد الدولة بعد وقوع الوحشة بينه

[1] الرسائل ١٩-٢٨-٣٠-٣٢-٤١-٤٧-٧٤ و ٧٥-١٧٥-٢١٠

وبين عزّ الدولة [١] .

« ولم يزل امير المؤمنين منذ نزغ الشيطان بينك وبين عزّ الدولة ابي منصور ، ايدكما الله ، مغضوض الجفون على قذى ، منطوي الجوانح على اذى ، وقيذاً من ان تنتقض نعم الله عنده فيكما ، بتنافس يقدح في تعاستكما ، وتقاطع يعترض ذات بينكما » — إلى ان يقول :

« واعتقد ان يبتديك بالدعاء إلى ارشد الطريقة واحسن الخليقة في الايجاب له ، والقبول منه ، والتصرّف على مراده وايثاره ، والزوال عن جوالب عتبه وانكاره . ولا سيما وانت وعزّ الدولة في الملاحاة التي خرجتما اليها ، والوحشة التي المتما بها بمرأى ومسمع من اباعد وأقارب ، ان يكن منهما وليّ صديق فقد سوّئماه وعققتماه ، أو عدوّ كفيتماه وشفيتماه ، وما يختار ذلك مثلكما ، ممن تقدّمت قدمته ، وعلت منزلته ، وبعد صيته ، ونبه ذكره . وظاهر ما بينكما ظاهر : انت المحجوج فيه لأنه ما تطرّق اليك عملاً ولا افسد عليك امراً .... »

ثم يقول :

« وقد يجوز ان تكون بلاغات المتنحّين هاجتك . وحكايات المتوقّين احفظتك ، وان تكون انكرت من الصفاء تكدّرا ، ومن الود تغيرا . فاين الاستعتاب بالحسنى ، والاستعادة إلى الاولى ، والاخذ بفضل من قدمته السنّ والحُنكة ، وتحلّى بالثبات والمُسكة ؟ والا كاتبت أمير المؤمنين بما هجس في نفسك وصرحت اليه بحوجاء صدرك ، والتمست منه ما عساك ان تبلغه منه بالملاطفة والموادعة ، دون المخاشنة والمنازعة » .

والكتاب كله من هذا الطراز العالي . بل كيفما وقعت عينك على رسائله تجد انشاءه يتجلى في جزالة مشبعة واطراد بليغ وعبارات طنانة حسنة

---

١ الرسائل ٢٢٤ و ٢٢٥

التوقيع . ومما يذكر للصابئ – عدم اسرافه في تكلف المحسنات اللفظية [1] . فهو من هذا القبيل شبيه بكتاب صدر الدولة العباسية . والذي يظهر ان هذا الاسراف لم يملك على المنشئين مذاهبهم إلا بعد هذه الطبقة كما تجد من المقابلة بين انشاء ابن العميد والصابي والصاحب وبديع الزمان ، وانشاء القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني والحريري واضرابهم .

اطلاعه اللغوي

وقد اولع الصابئ بالقرآن وحفظه وكان كثير الاستشهاد به في كتبه [2] . ومن عباراته تظهر سعة اطلاعه اللغوي وانه ملك زمام الالفاظ يتصرّف بها كيف شاء ، وقد لا يتورّع عن استعمال الغريب منها اداءً لمعنى أو شرحاً لعاطفة . وهو جريءٌ في استعمال المجاز المناسب للحال .

وللتمثيل على سعة اطلاعه وتصرّفه في مجازاته ننقل العبارات التالية مع الاشارة إلى مظانها في رسائله :

		صفحة
نزت به نوازي البطنة	(أي ابطره الغنى)	٢١
وكشف ما اظلّ وكرث	(ما اتى بالكارثة)	٢٢
نقضت مرائره	(وهت حباله اي عزائمه)	٢٣
جثم الحتف على صدره		٢٣

١ الا في مواقف الصيد فيشتد حينئذ سجعه ويكثر تقطيع فقراته .

٢ راجع مثالا على ذلك الصفحات التالية من رسائله – ١٥ و ٢٧ و ٣١ و ٤٣ و ٤٥ و ٨٨ و ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٧ و ١١٢ و ١٢١ و ١٢٤ و ١٣٢ و ١٣٣و ١٤٩ و ١٥٧ و ١٩٨ و ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢١٢ وسواها .

حلّ منّي محلّ الغيث عند التّربة (عند الجدب) ٢٣
وملك عليهم ما وراء الجبال ٢٦
ولم يلبثوا فيها الا فَواقاً آخذين على سَمت الموصل : ٣٦
(فواقاً قليلاً — سمت طريق)
المتردّي من ذروة طاعتنا (المتردي الهاوي) ٣٣
يدبّ الضراء (أي يمشي مختفياً في شجر الضراء . بمعنى المكر) ٣٣
يُوكي على الغشّ عيابه (يقفل عليه خزائنه . يضمر الغش) ٣٣
امتدّت في الغيّ اشطانه (اي حباله) ٣٤
عهد مُحصَد (أي متين محكم) ٣٦
وتنابحت اليه كلاب الغارة الشعواء ، وتعادت اليه ذئاب الصيلم الصماء ٣٨
(الصيلم الداهية)
فتشوّف الينا من كان استغرّه منهم بأحذه ٣٩
(أي من كان قد غرّهم بسحره) ٣٩
وتباكّوا عليه (أي ازدحموا) ٤٢
فقد ارقدتما طرفه بيقظتكما ٤٧
التقت حلقتا البطان (البطان الحزام) يقال للامر إذا اشتدّ ٥٠
ويفتتح معاصمهم واعصارهم (ملاجئهم) ٥٢
الرأي الزنيق (المحكم) ٥٤
واستباحهم في موبل بعد موبل (في شدّة بعد شدة) ٥٧
فتناوله باطراف العذل ملوّحا ثم باثباجه مفصحاً مصرّحا ٨٤
ومتى التوى ملتوٍ بحقٍّ يحصل عليه ، ودين يستقرّ في ذمته ، قادوه ١٠٨
إلى ذلك بازمّة الصّغار ، وخزائم الاضطرار ؟
وبحراسة السكك ان تتناولها الايدي المدغلة والجهات الظنينة ١١٣
تقيّل مذاهب ابيه نزع اليه في الشبه ١٥٥
نحلهم اياه من المفخر العِدّ (العدّ — القديم الشريف) ١١٧
فان الشورى لقاح العقول والمباحثة رائد الصواب ١٤٥

صلي بالنائرة التي فوه نفخ لها (النائرة — نار الفتنة) ٩٨١
فان الشيطان لا يزال يكسو الخدع والشبهات سرابيل الحجج ١٩٧
والبيّنات ، ليستضلّ بها الاحلام ويستزلّ الأقدام
وله مثل ذلك كثير .

• • •

والخلاصة ان الصابي من ائمة الانشاء الديواني وهو يقرن في نفسه ثقافة البلاط السلطاني بذكاء الاديب المتفنن ، وقد تمكّن بهاتين الخلتين من إحراز أعلى المناصب الكتابية والتمتع بنصيب وافر من النعم السنية .

نخب من رسائله

من كتاب كتبه عن الخليفة الطائع إلى رعية خرجت عن طاعته [١]
وفيه يظهر عدم تقيّده بالسجع

« وتواترت إلى أمير المؤمنين أخبار اهمّته ، وانباء أرمضته ، من اجتماع طوائف من أحداثكم على امر خرجوا فيه عن طاعته ، ونكثوا بيعته مما أظهروه من مشايعة من لم يجعل أمير المؤمنين له ولاية عليكم ، ولا سبيلاً إلى تقلد شيء من أموركم : بل هو مقيم من عناده ، والعيث في بلاده ، على مركب سيستوعره ، ومشرب سيستمرّه . وهذه حال لا ينتظم لكم معها نظامُ صلاة ولا زكاة ، ولا مناكحة ولا محاكمة إذ كان ذلك إنما يصح ان يتولاه أمير المؤمنين أو من يقلّده اياه أو يستخلفه عليه من اوليائه الراشدين . واما إذا اقتديتم فيه بيدٍ قد خرجت عن عصمته ، وسقطت من جملته ؛ وبرئت ذمّته منها وانبتّت الاسباب بينه وبينها ، فأنتم في هذا الفعل خارجون آثمون ،

[١] الرسائل ص ١٩٨ و ١٩٩

غاوون ضالون ، وكل راضٍ منكم به ، فقد اسخط الله ونبيه وإمامه ».

ولو كنتم — والله يعصمكم — كفاراً لأوجب أمير المؤمنين على نفسه ان يبدأكم في الدعاء إلى الحق بالقول الاحسن ، والطريق الالين ، رجاء ان يعطف الله بكم إلى الهدى ، ويشعركم شعار اهل الحجى ، من حيث لا يسفك لكم دم ، ولا ينتهك محرم . فأما وأنتم مسلمون مؤمنون ، لكنكم مخطئون غالطون فاحرى واولى ان يصبر عليكم لتنزعوا ، ويتأناكم لترجعوا ، ويقيم في أنفسكم الحجة ، ويردكم إلى سواء المحجة : لكن قد جعل الله لذلك حداً محدوداً ، وأمداً معلوماً. ومتى قل انتفاع أمير المؤمنين منكم ، وأطلتم عناءه فيه ، ورآكم على المعصية مصرين ، وللقمة مستجرين ، فهل يجد بداً من تسريب العساكر اليكم ، واطلاق اعنتها عليكم ، وهل يماز لها حينئذ بريئكم من سقيمكم ، وبركم من اثيمكم ؟ ألا ترون إلى قول الله : واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة : واي فتنة هي أعظم من طاعة الشيطان ، ومعصية السلطان ، والعيث في الدماء والديار ، واتباع السفهاء الاغمار ، الذين يحملونكم على أشنع خطة ؛ ويلجئونكم إلى أضيق ورطة ؟ هيهات ما اضل ذلك من رأي ، واسوأه من اختيار ، وابعده من سداد وصواب ، واخلقه بعائدة نكال ووبال ! وأمير المؤمنين يُعذر ويُنذر ، ويعظ ويزجر ، ويخوف ويحذر ويعيد ويكرر ابقاء عليكم ورعاية للحق الذي يوجبه فيكم : فمن رجع القهقرى ونزع وارعوى ، فالتوبة تنفعه ، والانابة تنعشه ، والعفو يسعه ، والحلم يغمره ؛ ومن دام على لجاجه ، وأصر على اعوجاجه ، فجيوش أمير المؤمنين تطرقه ، وعساكره ترهقه ، والمعاصم تلفظه ، والمعاقل تسلمه ، والشقي من كان معه ، والسعيد من برئ منه » .

من كتاب كتبه عن معز الدولة

عند ظفره بروزبهان العاصي عليه بالاهواز

قال بعد تحميدة طويلة تقع في ثلاث صفحات [1] :

« وكان الغامطُ لانعامنا ، الجاحد لاحساننا ، المتردّي من ذروة طاعتنا ، الهاوي في هوة معصيتنا ، الخالع ربقة ذمتنا ، النازع جنة مشايعتنا ، روزبهان بن ونداد خرشيذ ، تصنّع عندنا في قديم امره بالولاية ، وتنفّق بالكفاية ، واظهر لنا غروراً من سعيه في الخدمة وكدحه ، وسراباً لامعاً من وفائه ونصحه ، وهو يَدِبُّ الضراء ويُسر، حسواً في ارتغاء ، ويوكي على الغش عيابه ، ويحنو على النكث ضلوعه وحجابه ، ولا يبدي لنا بادية وفاق الا عن خافية نفاق ، ولا يطلع طالعة وداد الا عن خبيئة عناد ، ولا يبرز في شيمةٍ من شيم التقرّب منا والتوصل إلى قلوبنا ، الا كانت غطاء على حيلةٍ يعملها أو غيلةٍ يرصد لها ، وغشاءً على فرصة ينتهزها وغرّةٍ يهتبلها . ونحن نحمل امره على ظاهرهِ ، ونظنّ غائبه مثل حاضره ، وباطنه مثل عالنه ، بل كلما زدناه احساناً وامتناناً ، زدنا اليه سكوناً وركوناً ، وكلما ارتقينا به إلى منزلةٍ ورتبةٍ ، ارتقينا فيه إلى مثلها من انسةٍ وثقةٍ ، حتى استبطناه من الحضيض الاوهد ، إلى السناء الامجد ، وجذبنا بضبعه من المسقط المنحط إلى المرفع المشتط ، وانتهينا في الانافة بقدره ، والاشادة بذكره ، والتفخيم لامره ، والتقديم لقدمه إلى الغاية التي لا تسمح بها نفس باذل ، ولا تسمو اليها همة آمل ؛ فلما عزّ بعد الذلة ، وكثُر بعد القلة ، وبعد صيته بعد الخمول ، وطلع سعده بعد الافول ، وجمّت عنده الاموال ، ووطئت عقبه الرجال، وتضرّمت بحسده جوانح الاكفاء ، وتقطعت بمنافسته انفاس النظراء ، نزت به بطنته ، وادركته

---

[1] الرسائل ٣٢ و ٤٠ و ٤١

شقوته ، ونزغ له شيطانه ، وامتدت في الغي اشطانه ، فنصب اشراكه وحبائله واعمل مكايده ومخاتله .

وبثثنا رسلنا إلى اوليائنا الحاصلين مع هذا الخائن الذين كل منهم احد الرجلين ، إما مسفّ إلى تناول حطامه ، عازم على خذلانه واسلامه ، أو مغلوب على رأيه محام عن حوبائه ، طالب لنفسه فرصة الانسلال ، وخلسة الانتقال ، فاستجابوا إلى الواجب ، واذعنوا بالحق اللازب ، واقاموا ضروباً من العذر عندنا ، ولاذوا بالعفو والغفران منا .

فلما تراءى الناس هلال شوال ، وكادت تغشاهم غواشي الظلام ، انزل الله نصره على اوليائه ، وشفع لهم وعده بوفائه ، فانهزم الخائن هزيمة قوّض الله بها عروشه ، وفضّ جيوشه ، وضلّل وساوسه ، وابطل هواجسه ، واستلحمت رجاله السيوف ، وحرقتهم نار الحتوف ، واقتسمتهم المكاره شعاعا ايدي سبا بين قتيل مرمّل ، واسير مكبّل ، وهارب مفلول ، ومستأمن ذليل .»

رسالة في التطفل [1]

وهي من باب الكتابة الهزلية

« هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي ، حين استخلفه على احياء سنته ، واستنابه في حسن رسومه ، من التطفّل على اهل مدينة السلام ، وما يتصل بها من ارباضها واكنافها ، ويجري معها في سوادها واطرافها ، لما توسّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقم ، وجودة المضم ، ورآه اهلاً من سدّ مكانه ، والرفاهة المهملة التي فطن لها ، والرقاعة

١ نثبت هنا بعضها . وتجدها كاملة في صبح الأعشى ١٤ ص ٢٦٠ – ٢٦٥

المطّرحة التي اهتدى اليها ، والنعم العائدة على لابسيها بملاذّ الطعوم، وخصب الجسوم .

وامرّه ان يتأمل اسم التطفيل ومعناه ، ويعرف مغزاه ومنحاه ، ويتصفّحه تصفّح الباحث عن حظه بمحموده ، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده ، فان كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله ، وكرهه لمن استعمله، ونسبه فيه إلى الشرّه والنّهم ، وحمله منه على التّفه والقرَم . فمنهم، من غلط في استدلاله ، فاساء في مقاله ، ومنهم من شحّ على ماله ، فدافع عنه باحتياله ، وكل الفريقين مذموم ، وجميعهما ملوم ، لا يتعلقان بعذر واضح ، ولا يعرّيان من لباس فاضح ، ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان ، فهي تتدله إذا كان لها وتتدلل عليه إذا كان لغيرها ، وترى ان المنّة في المطعم للهاجم الآكل ، وفي المشرب للوارد الواغل ، وهي أحق بالحرّية ، واخلق بالخيرية ، واحرى بالمروّة ، واولى بالفتوّة .

وامرّه ان يعتمد موائد الكبراء والعظماء بنزاياه ، وسُمط الامراء والوزراء بسراياه ، فانه يظفر منها بالغنيمة الباردة ، ويصل عليها إلى الغنيمة النادرة ، وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الالوان، الملذّة للسان ، وبدائع الطعوم ، السائغة في الحلقوم ، ما لا يجده عند غيرهم ، ولا ينال إلا لديهم ، لحذق صناعتهم ، وجودة أدواتهم ، وانزياح عللهم ، وكثرة ذات بينهم ، والله يوفر من ذلك حظنا ، ويسدد نحوه لحظنا ، ويوضح عليه دليلنا ، ويسهل اليه سبيلنا .

وامرّه ان يصادق قهارمة الدور ومدبّريها ، ويرافق وكلاء المطابخ وحمّاليها ، فانهم يملكون من أصحابهم ازمّة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل مودّاتهم ومعارفهم ، وإذا عدّت هذه الطائفة احداً من الناس خليلاً من خلانها ، واتّخذته

اخاً من اخوانها ، سعد بمرافقتها ، ووصل إلى متحابته من جهاتها ، ومآربه في جنباتها .

وامره ان يروض نفسه ، ويغالط حسّه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً ، ويطوي دونه كشحا ، ويستحسن الصمم عن الفحشا . وان اتته اللكزة في حلقه ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وان وقعت به الصفعة في رأسه ، صبر عليهـا لموقع اضراسه ، وان لقيه لاقٍ بالجفاء ، قابله باللاطف والصفاء ، إذ كان قد ولج الابواب ، وخالطَ الاسباب ، وجلس مع الحضور ، وامتزج بالجمهور ، فلا بـدّ ان يلقاه المنكر لامره ، ويمرّ بـه المستغرب لوجهه : فان كان حراً حييـاً امسك وتذمّم ، وان كان فتلّـاً غليظـاً همهم وتكلم ، وتجنب عند ذلك المخاشنة ، واستعمل مع المخاطب له الملاينة ، ليبرّد غيظه، ويفلّ حدّه ، ويكفّ غربه ، ويأمن شغبه . ثم إذا طال المدى تكررت الالحاظ عليه فعرُف ، وانست النفوس به فألف ، ونال من المحالّ المجتمع عليها ، منال من حُشِم وسئل الذهاب اليها .

هذا عهد عليكا بن أحمد اليك ، وحجته لك وعليك . لم يألك فيه ارشادا وتوفيقا ، وتهذيباً وتثقيفا ، وبعثاً وتبصيرا ، وحثـاً وتذكيرا ، فكن باوامره موتمرا ، وبزواجره مزدجرا ، ولرسومه متّبعا ، وبحفظها مضطلعـا ، ان شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

القاضي الفاضل[٧]

(٥٢٩ — ٥٩٦ ﻫ)

نشأته ومكانته

ولد « كاتبنا » واسمه عبد الرحيم بن علي البيساني في عسقلان وكان والده قاضياً فيها [١] . ولما ترعرع ظهر فيه ميل إلى الأدب فرأى والده ان يلحقه بديوان المكاتبات ليتخرّج هناك على كبار المنشئين . فارسله إلى مصر أيام الحافظ الفاطمي [٢] . وكان رئيس الديوان في تلك الايام الموفّق بن الخلاّل . قال القاضي الفاضل [٣] : « فلما مثلت بين يديه ، وعرّفته من أنا وما طلبتي رحب بي وسهّل ، ثم قال لي ما اعددت لفنّ الكتابة من الآلات ، فقلت ليس عندي شيء سوى اني احفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة . فقال في هذا بلاغ ، ثم امرني بملازمته ؛ فلما تردّدت اليه وتدرّبت بين يديه امرني بعد ذلك ان احلّ شعر الحماسة فحللته من اوّله إلى آخره ، ثم امرني ان احلّه مرة ثانية فحللته » .

١ وفيات الاعيان ٢-٦٠٨
٢ الوشي المرقوم ٩
٣ الوشي المرقوم ٩

أما ابن خلكان فيصحح الرواية السابقة التي ذكرها ابن الاثير ويقول ان القاضي الفاضل دخل مصر أيام الظاهر بن الحافظ وان والده ترك بيسان لخلاف بينه وبين والي الناحية فاستدعي إلى مصر وصودر ماله وتوفي هناك[1] ، أي لما كان صاحب الترجمة في السابعة عشرة من عمره .

والمهمّ من الروايتين ان القاضي الفاضل أمّ مصر حدثاً وتأدّب فيها . وبعد موت والده ترك مصر إلى الاسكندرية وقصد ابن حديد قاضيها وعرّفه بنفسه فعطف عليه واستكتبه . وكانت مكاتبات ابن حديد ترد إلى مصر بخطّه[2] وهي غاية في البلاغة . فاثار ذلك حسد كتّاب الانشاء وخافوا ان يتقدّم عليهم فسعوا إلى الظافر به : ولكنّ هذه السعاية كانت لخيره ، فان الظافر الفاطمي استقدمه اليه واستخدمه[3] .

ولما تولى صلاح الدين الايوبي المشهور امر مصر جعله وزيره[4] . فنال غاية الشرف لديه . وبعد وفاة صلاح الدين ابقاه ولده الملك العزيز على حاله من الرفعة ونفاذ الامر . ولم يزل كذلك أيام العزيز وايام ولده الملك المنصور حتّى دخلت مصر في حوزة الملك العادل فتوفي فجأةً اول دخوله اليها وذلك سنة ٥٩٦ ﻫ . قال ابن خلكان : «وقد زرت قبره بسفح المقطم مراراً وقرأت تاريخ وفاته على الرخام وكان من محاسن الدهر» .

ومن مآثره انه بنى مدرسة بمصر ، ووقف لها اوقافاً ، ونقل اليها بعض كتبه[5] . ونقل طاش كبري زادة المتوفى ٩٦٢ ﻫ انه اشترى

١ الوفيات ٢–٥٤٦

٢ و ٣ وفيات الأعيان ٢–٦٠٩

٤ وفيات الأعيان ١–٤٠٢

٥ مرآة الزمان ٨ص ٣٠٥

أكثر كتب خزانة الفاطميين ووقفها على المدرسة المذكورة [1] : واستفتح التدريس بها مستهلّ المحرّم من سنة ٥٨٦ ه أي وهو في السابعة والخمسين من عمره . ومما يذكر انه وقف على الاسارى وقفاً عميماً فاستنقذ به خلقاً عظيماً ومع ذلك لم يخل من هجاء بعض الناقمين عليه [2] .

قلنا انه نال غاية الشرف عند أهل الامر . ويكفي للدلالة على علو منزلته ان صلاح الدين كان يقول في ملأ من الناس « لا تظنوا ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل [3] » .

رجل مثل القاضي الفاضل يبلغ من الادب ما بلغ ويحظى من شرف الرئاسة بما حظي حقيق ان يمدحه الناس في عصر كان المدح بضاعة الادباء ، كما كان ايام ابن العميد والصاحب بن عبّاد . وقد كثر مدّاحه حتى قال العماد الاصفهاني انه مدح بمئة الف بيت من الشعر [4] ونجتزئ من مدح المدّاحين له بما انشأه العماد نفسه في خريدته إذ قال على طريقته من التأنق والغلوّ في التقريظ : « ربّ القلم والبيان ، واللّسن واللسان ، والقريحة الوقّادة ، والبصيرة النقّادة ، والبديهة المعجزة ، والبديعة المطرزة . فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع ، ورسخت بها الصنائع . يخترع الافكار ، ويطلع الانوار ، ويبدع الازهار . وهو ضابط الملك بآرائه ، رابط السلك بلألائه . ان شاء انشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة . أين قسّ عند فصاحته ، واين قيس في مقام حصافته ، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته ؟ » الخ ...

ولمعاصره الشاعر المعروف بابن الساعاتي جملة مدائح . منها قصيدة

---

١ مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٤١ وراجع المقريزي ج-٤ ص ١٩٧ حيث يقول انه وقف مائة الف مجلد.
٢ مرآة الزمان ٨ -٣٠٥
٣ مرآة الزمان ٨-٣٠٤
٤ مرآة الزمان ٨-٣٠٤
٥ مرآة الزمان ٨-٣٠٥

مطلعهـا :

اماط لثاماً فاجتلى القمر الادنى والقى وشاحاً فاجتنى الغصن اللدنا

ومنها في مدح انشائه :

هو العارض الوسميّ وهو وليّـه فيسراه فيها اليسر واليمن في اليمنى
إذا ما انبرى في طرسه قالت النهى قفوا فانظروا مايصنع الناحل المضنى
وإمّا اتى يوماً عدوّاً كتـابه ثنى جيشه ثاني العنان وقد اثنى
هو الدهر فالطرس الصباح تبلّجت ثناياه والنّقس الظلام إذا جنّـا
فهل خطّهُ خطيّةٌ سمهريّـة فلم نرَ خطّاً غيره يهزم القرنا
بنا طرَبٌ ممـا يصوغ يراعـه فهل صاغ حلياً للمسامع او لحنـا

ومثل ذلك قوله من قصيدة ومطلعها :

محيّاك احيا الوجد بل اتلف الصبّا وقُلبك امسى ساكناً يزعج القلبا

وفي مديحه يقول :

هو الشمس لم تجنح لغرب دنيّـة هو السيف لم يُفلل له مضرب غربا
تحمّل عبء الملك مضطلعـاً بـه وفاض على العافين كالبحر إذ عبّا

إلى أن يقول :

أقام لسان العُرب بعد اعوجاجـه اخو كَلم يستعبد العجم والعُربا
له قلمٌ مثـل الحسام ذبابـه بانمله كم بذّ خلقاً وكم ذبّا
خميس إذا ما الخمس حاطت جهاته وإما تمادى خاطباً افحم الخطبـا
يميت ويحيي كاتبـاً ومكتّبـاً لداعيه والعادي الكتائب والكتبا

ومنها :

طوى ذكر سحبان فأقبل ساحباً لديه ذيول العجـز تستلم التربـا
سحابٌ همى خصباً وجدباً وقلما رأيت سحاباً يمطر الخصب والجدبا

وله فيه كثير غير ذلك[1] :

اسلوبه الانشائي

لا يخرج انشاء القاضي الفاضل عمّا كان عليه الانشاء الديواني منذ أيام ابن العميد والصابي والصاحب ، إلاّ انه يمتاز كما يمتاز معاصره وزميله العماد الاصبهاني ومن جاراهما من منشئي ذلك الزمان بالتوفّر على صناعة البديع . والعصر الذي نشأ فنه صاحب الترجمة أي القرن السادس الهجري عصر بلغ فيه التأنّق البياني في الشعر والنثر مبلغاً عظيماً وقد ظهر تأثيره في كل العصور التالية حتّى انصرفت عناية المتأدبين ولاسيما المنشئين إلى ما يلبسون الكلام من زخارف الزينّ اللفظية . ومما لا ريب فيه انّه كان للقاضي الفاضل يد طولى في هذه الحركة حتّى عُدّ شيخ الصناعة الكتابية ، وحتّى صاروا يقولون الطريقة الفاضليّة . واليك أهم مزاياها :

البيان المجازي

ونعني بذلك تشخيص المعاني والتوفّر على الاستعارات : كقوله من رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الخليفة ببغداد يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة وانهزام ملكها بعساكره[2] . وهي طويلة بدأها بالصلاة ثم بتعظيم الخليفة ثم بذكر الفتح وتفنّن في كل ذلك ما شاء حتّى وصل إلى ذكر الهزيمة ، فقال يصف جلاء العدو عن دياره :

١ راجع ديوانه الذي نشرناه في جزأين كبيرين.
٢ راجع صبح الأعشى ٦ ص ٥١١ – ٥١٥

« ولم يبقَ الاّ مواقد نيران رحلت قلوبهم بضرامها ، واثافيّ دهمٌ اعجلت المهابة ما ردّ سغبتهم عن طعامها ، وغربان بين كأنها في الديار ما قُطع من رؤوس بني حامها ، وعوافي طير كانت تنتظر من اشلائهم فطرَ صيامها . وعادت الرّسُل المنفّذة لاقتفاء آثارهم ، واداء اخبارهم ، ذاكرةً انهم لبسوا الليلَ حداداً على النعمة التي خلعت ، وغسلوا بماء الصبح اطماع نفس كانت قد تطلّعت ، وأنهم طلعوا الاوعار اوعالاً ، والعقاب عقباناً ، وكانوا لمهابط الاودية سيولاً ، ولأعالي الشجر قضباناً — فرأى المملوك ان الكتاب فيهم قد بلغ أجله ، والعزمَ منهم قد نال امله ، والفتكَ بهم قد اعمل مُنْصُلَه ، وأنّ سيوف عساكر أمير المؤمنين منزّهة ان تُريق الاّ دماء اكفائها من الابطال ، وان تلقى الاّ وجوه انظارها من الرجال ، وانّ المذكورين نملٌ حطّمه سليمان عليه السلام وجنودُه ، ورملٌ اطاره العاصف الذي يسحفهُ ويقوده . واصدر هذه الخدمةَ والبلادُ من معرّتهم عارية ، والكلمة بانخفاضهم غالية عالية ، ويد الله على اعدائه عادية ، وانفُس المخاذيل في وثاق مهابته العالية عانية » .

• • •

فالقارئ يرى في هذه القطعة ميل كاتبها إلى الاستعانة بالمجاز — فان ارتحال القلوب ، واعجال المهابة ، ما ردّ السغَب ، وعوافي الطير ، ولبس الليل حداداً ، وغسل ماء الصبح ، وطلوع الاوعار اوعالاً ، وهبوط الاودية سيولاً ، وإعمال الفتك منصله ، والانفس في وثاق المهابة ، وغير ذلك مما في الرسالة من تجسيم المعاني ، وتشخيص الجماد . كلّ ذلك دليل على تأنّق متكلف ، وصناعة في ذلك العصر رائجة .

ومن تأنّقه بهذا الضرب من الانشاء قوله من رسالة عن صلاح الدين

إلى ديوان الخلافة ببغداد أيام الناصر لله يبشره بفتح القدس ، وذلك سنة ٥٨٣ هـ. والمقام طبعاً يقتضي التعظيم والتهويل ، ولم يقصّر فيهما القاضي الفاضل إذ قال واصفاً انخذال العدوّ [١] :

« وقد أظفر الله بالعدوّ الذي تشظّت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفة ، وغضّت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نُطف الكرى من الجفون ، وجُدعت انوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون » .

ثم يقول :

« فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة » — ويقول :

« فكم اهلّة سيوف تقارضن الضراب بهـا حتى صارت كالعراجين ، وكم انجم اسنّة تبادلت الطعـان حتى صـارت كالمطاعين ، وكم فارسيّة ركض عليها فارسها السهمَ إلى اجل فاختلسه ، وفغرت تلك القوس فاها فاذا فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه » .

ومن غريب هذا الاسلوب قوله من الرسالة عينها يذكر هجـوم المسلمين على سور القدس وهدمه : « فصافحت (القسيّ) السـور باكنافه فاذا اسهمها في ثنايا شُرفاته سواك ، وقدّم النصر نسرا من المنجنيق يُخلد اخلاده إلى الارض ، ويعلو علوّه إلى السماك . فامكن النقّاب ان يسفر للحرب النقاب ، وان يعيد الحجر إلى سيرتـه الاولى من التراب . فتقدّم إلى الصخر فمضغ سَرْده بانيساب معوله ، وحلّ عقده بضربه الاخرق الدالّ على لطافـة انمله ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبّله ، وتبرّأ بعض الحجارة من بعض ، واخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الارض » .

* * *

---

١ صبح الأعشى ٦ — ٤٩٩

ونشير اشارة خاصة في هذه القطعة الاخيرة إلى جعله الاسهم مساويك في ثنايا الشرفات — واتياب المعول تمضغ الصخر الاصمّ في السور — والخراب يأخذ على الحجارة موثقاً فلن تبرح الارض . وفي كلامه كثير من مثل هذه المجازات المتكلفة التي كان يعنى بها أتم العناية ، ويتوخى استعمالها تعظيماً للمقام ، واظهاراً لبراعته في فنون الكلام .

الجنـــاس

والجناس من الفنون المستحبّة عند المنشئين . قال ابن الاثير (وهو ممن دخلوا في خدمة صلاح الدين على يد القاضي الفاضل) : « اعلم ان التجنيس غرّة شادخة في وجه الكلام وقد تصرّف العلماء من ارباب هذه الصناعة فيه فغرّبوا وشرّقوا لا سيما المحدَثين منهم ، وصنّف الناس فيه كتباً كثيرة وجعلوه ابواباً متعددة . وحقيقته ان يكون اللفظ واحداً والمعنى مختلفاً » الخ [1]

• • •

وقد اولع به القاضي الفاضل وتكلّفه في رسائله . ومن امثلة ذلك قوله [2] : « والشرق يهتدي بانواره ، بل ان ابدى نوراً من ذاته هتف به الغرب بأن واره » فانوار الاولى جمع والثانية مؤلفة من ان الوصيلة والامر من يواري وفي ذلك ما فيه من التصنع . ومنه قوله عن العدوّ [3] : « راسل ورأى سلّ السيوف يغمده ، وماكر وما كرّ لعامه ان الحتف يعمده » . فالجناس في راسل ورأى سلّ وماكر وماكرّ ويغمده ويعمده .

١ راجع تفصيل ذلك في المثل السائر ١٥٣ — ١٦١
٢ صبح الأعشى ٦—٤٩٨
٣ صبح الأعشى ٦—٥١٣

ومن تفننه في الجناس قوله [1] : « فالحمد لله الذي صدقه وعده ، واورثه الارض وحده ، وجدّد علاه ، واعلى جَدّه ، واسعد نجمه ، وانجم سعده ، ووعده نجحه وانجح وعده ، وأورده وصفه واصفى ورده » فأنت ترى فيه انعكاس الالفاظ في القرينتين وهو ما يسمونه بالجناس المعكوس .

وقوله [2] : « والحمد لله الذي اعاد الاسلام جديداً ثوبه ، بعد ان كان جديداً حبله » . ويراد بجديداً الثانية منقطعاً .

وقوله [3] : « وان عزّ اول الاسلام بحطّ تاج فارس ، فكم حطّت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس » — ففارس الاولى بلاد الفرس والثانية صاحب الفروسية .

وقوله [4] : « والكلمة بانخفاضهم غالية عالية ، ويد الله على اعدائه عادية ، وانفس المخاذيل في وثاق من مهابته العالية عانية » .

وقوله [5] : « فلم يخرج من مراوغة تحتها مغاورة ، ومكاسرة وراءها مكاشرة » .

وقوله [6] : « وكان النيل قدماً قد فرّت عن الفرات ابناؤه ، وتحصّنت غُلل المؤمنين عنه فلم يتغلغل اليها ماؤه » .

* * *

ومثل الجناس في الشيوع الطباق وهو كثير في كلام القاضي الفاضل ونكتفي هنا بالاشارة اليه .

١ صبح الاعشى ٦–٥١١
٢ صبح الأعشى ٦–٥١٨
٣ صبح الأعشى ٦–٥١٩
٤ صبح الاعشى ٦–٥١٤
٥ صبح الأعشى ٦–٥١٤
٦ صبح الأعشى ٦–٥٠٨

سعة الترسل او التبسط

ولعني به الميل إلى العطف والترادف والاطناب كقوله يصف الاسلام في عرض رسالة عن صلاح الدين إلى الخليفة المستضيء يبشره بفتح بلد من بلاد النوبة [1] :

« ان الله قد رفع ملة الاسلام على الملل ، وكفل نصرها وكفى ما كفل ، وحمى ملكها وحمل . وجعل لها الارض في ايدي المخالفين ودائع ، ومكّن يده من اعناقهم فهي امّا تعقد الاغلال أو تصوغ الصنائع . والحقّ بها قائم العمود ، والسيف الكفاية لازم الغمود ، والبشائر تمسّك الصباح وتخلّق الدجى ، والخيل على طول ما تشتمل الوحى تنتعل الوجى ، والايام زاهرة ، وعزّة اوليائها قاهرة ، وذلة اعدائها ظاهرة ، وعنايات الله لديها متوالية متظاهرة . إذا تغرّب اسمها يوماً عن منبر أعيد إلى وطنه غداً ، وإذا أوقدت نار فتنة في معصيتها أوقدت في طاعتها نار هدى » .

ففي هذه القطعة ترى الكاتب ينسج معنى واحداً هو عظمة الاسلام وازدهار ملكه في نحو خمس عشرة سجعة متشابهة – ارتفاع الاسلام ونصر الله له ، وتمكنه من اعناق الاعداء ، وقيام الحق به ، وازدهار الايام ، وعزّة الاولياء ، وذلة الاعداء ، وعناية الله – كل هذه العبارات أشكال مختلفة لشيء واحد . وانما تبسّط فيها تعظيماً لموضوع الكلام كما فعل في الفقرات التالية من الرسالة نفسها تحقيراً لاعداء الاسلام قال :

« فهل ترى لهم من باقية ، أو تسمع لهم من لاغية ، أو تجد اليهم من صاخية . فاصبحوا لا ترى إلا مساكنهم أو مساكينهم ، وحصدوا حصد الهشيم ثم لا تخاف سيوفهم ولا سكاكينهم ، واستنزلوا من

---

[1] صبح الأعشى ٦–٥٠٧

عقاب اللّوح ، وسجنوا في الهمّ من طول مداومة عقاب الروح : ثم تداركوا إلى الدرْك ، واشتركوا في الشرْك ، واقفرت منهم عراص ، وزهدت فيهم خواصّ ، وعُلمَ ان ليس لله غالب ، وان ليس يفوته طالب ، وان الملك لله وحده ، وانّ الويل لمن تجاوز امره وحدّه » .

فكل هذه الاسجاع لو جمعت معانيها لما تجاوزت قولنا : خربت ديارهم وقهرت رجالهم وأدركهم عقاب الله وهو الغالب القهار .

ولو أردنا أن نستشهد بما للقاضي الفاضل من ذلك لتحتّم علينا ان ننقل جميع رسائله أو جلّها فانك قلما ترى له رسالة لا تظهر فيها جميع مزاياه ولا سيما هذا العطف أو الترادف الترسّلي ، ويكثر ذلك طبعاً في رسائل الفتوح حيث يقتضي المقام التعظيم والتفخيم . وتقترن هذه المزايا التي ذكرناها له بما يشترك به كبار المنشئين من توازن العبارات وحسن سبك الالفاظ ومتانة التركيب ، وسترى ذلك كله في المختارات التالية من رسائله :

نخب من رسائله

كتاب عن صلاح الدين الايوبي

إلى بردويل ملك القدس معزّياً له في ابيه [1]

« أما بعد — خصّ الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجدّ الصاعد ، والسعد الساعد ، والحظ الزائد ، والتوفيق الوارد ، وهنأه من ملك قومه ما ورّثه ، واحسن من هداه فيما اتى به الدهر واحدثه : فان كتابنا صادر اليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الاصادق ، والنعي

[1] صبح الأعشى ٧ — ١١٥

الذي وددنا ان قائله غير صادق ، بالملك العادل الاعزّ الذي لقّاه الله خير ما لقّى مثله ، وبلّغ الارض سعادته كما بلّغه محله ، معزّ بمـا يجب فيه العزاء ، ومتأسف لفقده الذي عظمت فيه الارزاء : الاّ ان الله سبحانه قد هوّن الحادث ،بأن جعل ولده الوارث ، وانسى المصاب، بان حفظ بـه النّصاب ، ووهبه النعمتين : الملك والشباب ، فهنيئاً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده الذي حق له الفداء لو جاز ، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين ، ادام الله سلامته ، قائم عنا باقامة العزاء من لسانه ، ووصف ما نالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه ، وكيف لا يستوحش ربّ الدار لفرقـة جيرانه ؟ وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا وودّنا الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا . فليلق التحية بمثلهـا ، وليـأت الحسنة ليكون من أهلهـا ، وليعلم انّا لـه كما كنا لأبيه : مودّة صافية ، وعقيدة وافية ، ومحبة ثبت عقدهـا في الحياة والوفاة ، وسريرة حكمت في الدنيا بالموافاة ، مع مـا في الدين من المخالفات . فليسترسل الينا استرسال الواثق الذي لا يخجل ، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذي لا يحمل عن والده ما تحمّل ، والله يديم تعميره ، ويحرس تأميره ، ويقضي له بموافقة التوفيق ، ويلهمه تصديق ظن الصديق » :

كتـاب بفتح القدس

كتبه سنة ٥٨٣ عن صلاح الدين إلى الخليفة الناصر ببغداد ، وهو كبير يقع في نحو ٨ صفحات من صبح الاعشى [١] ؛ نثبت منه هنا ما يلي — وقد مرّ معنا بعض فقراته :

« وكتاب الخادم هذا وقد اظفر الله بالعدو الذي تشظّت قنـاتـه

١ صبح الاعشى ٦ ص ٤٩٦ — ٥٠٤

شُقَقًا ، وطارت فرَقه فِرَقا ، وفُلّ سيفه فصار عصا ، وصُدِعت حصاته وكان الاكثر عدداً وحصا ، فكلّت حملاته وكانت قدرة الله تصرّف فيه العنان بالعيان ، عقوبةً من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثّرت قدمه وكانت الارض لها حليفة ، وغُضّت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نُطف الكرى من الجفون ، وجُدعت انوف رماحه وطالما كانت شائلة بالمنى أو راعفة بالمنون .

فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية ، وشجعانه المتوافية . مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة . ولا في فناء الافنية لهم نصرة ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة . وبدّل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت الله عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي اصحاب الميمنة .

ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد . واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد . وظنوا انها من الله مانعتهم . وان كنيستها إلى الله شافعتهم[1] : فلما نازلها الخادم رأى بلداً كالبلاد . وجمعاً كيوم التّناد ، وعزائم قد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرْصته . وهان عليها مورد السيف وان تموت بصرعته . فزاول البلد من جانب فاذا اودية عميقة ، ولجج وعرة غريقة . وسور قد انعطف عطف السوار ، وابرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار . فعدل إلى جهة أخرى كان للمطامع عليها معرّج ، وللخيل فيها متولّج . فنزل عليها ، واحاط بها ، وقرب منها ، وضربت خيمته بحيث يناله السلاح باطرافه ، ويزاحمه السور باكتافه . وقابلها ثم قاتلها . ونزلها ثم نازلها . وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها . فضمها ضمةً ارتقب

---

١ كذا في الاصل بدون جواب « لما » وهو مفهوم من المقام .

بعدها الفتح ، وصدع اهلها فاذا هم لا يصبرون على عبودية الجدّ عن عتق الصفح ، فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدة ، وقصدوا نَظرةً من شدة ، وانتظاراً لنجدة ، فعرفهم في لحن القول ، واجابهم بلسان الطّول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون عصيّها وحبالها ، واوتر لهم قسيّها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ، ولا يفارق سهامها نصالها . فصافحت السور باكتافه فاذا اسهمها في ثنايا شرفاتها سواك ، وقدّم النصر نسراً من المنجنيق يخلد اخلاده إلى الارض ويعلو علاوه إلى السماك ، فشجّ مرادع ابراجها ، واسمع صوت عجيجها ، ورفع مثار عجاجها ، فاخلى السور من السيّارة ، والحرب من النظّارة ، فامكن النقّاب ، ان يسفر للحرب النقاب ، وان يعيد الحجر إلى سيرته من التّراب ، فتقدم إلى الصخر فمضغ سرده بانياب معوله ، وحل عقده بضربه الاخرق الدال على لطافة انمله ، واسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته إلى أن كادت ترقّ لمقله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، واخذ الخراب عليها موثقاً فلن تبرح الارض ، وفتح في السور باب سدّ من نجاتهم ابوابا ، واخذ نقبٌ في حجره قال عنده الكافر : يا ليتني كنت ترابا ، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور . وجاء أمر الله وغرّهم بالله الغرور .

واوزع الخادم بردّ الاقصى إلى عهده المعهود ، واقام له من الائمة من يوفيه ورده المورود . واقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان . فكادت السموات يتفطّرن للسّجوم لا للوجوم ، والكواكب ينتثرن للطرب لا للرجوم ، ورفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدودة ، وظهرت قبور الانبياء وكانت بينهم بالنجاسات مكدودة ، وأقيمت الخمس وكان التثليث يقعدها ، (وجهرت الالسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها) وجهر باسم أمير المؤمنين في قطبه الاقرب من المنبر . فرحب به ترحيب من بر بمن برّ ، وخفق علماه في حفافيه . فلو طار به سروراً لطار بجناحيه » .

لسان الدين ابن الخطيب

(٧١٣ – ٧٧٦ هـ)

توطئة تاريخية

نشأ لسان الدين في بيت علم ورئاسة . فأبوه عبد الله كان من أهل الادب والطب ، وجدّه الاعلى (وهو أول من تلقب بالخطيب) عُرف بالعلم والدين والخير ، وكذلك جدّه الاقرب [١] . وكان بيتهم يعرف ببني الوزير ثم ببني الخطيب . قال ابن خلدون عند ذكر نسبه :

« اصل هذا الرجل من لوشه على مرحلة من غرناطة . كان له بها سلف معدود في وزرائها ، وانتقل ابوه عبد الله إلى غرناطة واستخدم للملوك بني الاحمر واستعمل على مخازن الطعام . ونشأ ابنه محمد هذا (أي لسان الدين) بغرناطة » [٢] . ولما مات ابوه كان ابن الخطيب لا يزال في مفتتح شبابه لكن ذلك لم يحل دون خدمته للسلطان ، وفي هذا الصدد يقول :

١ نفح الطيب ٣–٣

٢ تاريخ ابن خلدون ٧–٣٣٢

« خلفني (اي ابوه) عالي الدرجة ، شهير الخطة ، مشمولاً بالقبول مكنوفاً بالعناية ، فقلدني السلطان سرّه ولمّا يستكمل الشباب ، ويجتمع السنّ ، معزّزاً بالقيادة ورسوم الوزارة ، واستعملني في السفارة إلى الملوك، واستنابني بدار ملكه ، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه ، واستأمنني على صوان حضرته ، وبيت ماله ، وسجون حرَمه ، ومعقل امتناعه . ولما هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي ، وأعلى مجلسي ، وقصر المشورة على نصحي ، إلى أن كانت عليه الكائنة [1] » .

أما ابن خلدون وهو معاصر له فيقول : « ان ابن الخطيب رقي إلى خدمة السلطان ابي الحجاج وأثبت في ديوانه مرؤوساً بأبي الحسن ابن الجيّاب [2] شيخ العدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الادبية وكاتب السلطان بغرناطة وان ابن الجياب استبد برئاسة الكتاب إلى ان هلك بالطاعون وذلك سنة ٤٤٩ . فولّى السلطان يومئذ ابن الخطيب رئاسة الكتاب ببابه وثنّاه بالوزارة ولقّبه بهما فاستقلّ بذلك » [3] ؛ فيكون عمر كاتبنا إذن يوم تولى الوزارة ورئاسة الكتّاب ستّاً وثلاثين سنة . وهذا لا يصدق حسب الظاهر على ما ذكرناه له آنفاً من الكلام على علاقته بالسلطان . ويمكن الجمع بين القولين بان ابن الخطيب دخل في خدمة السلطان وهو حدث واخذ كما قال ابن خلدون يرتقي حتى بلغ اوج الارتقاء بعد وفاة ابن الجيّاب .

وفي سنة ٧٥٥ قتل سلطانه ابو الحجاج فانتقل إلى خدمة ولده السلطان محمد وزيراً وكاتباً وسفيراً . بل وجعله رديفاً له في امره [4] ، فجرت الدولة على احسن حال واقوم طريقة . لكن الحال لم تدم على صفائها فنشبت ثورة افصت السلطان عن عرشه إلى وادي آش فقبض

---

١ الاحاطة نقلا عن نفح الطيب ٣–٤٠

٢ في تاريخ ابن خلدون الحباب وقد تابعنا في لفظها نفح الطيب ودائرة المعارف الاسلامية .

٣ ابن خلدون ٧–٣٣٢

٤ ابن خلدون ٧–٣٣٣

الثوار على ابن الخطيب والقوه في السجن . وكانت بينه وبين الخطيب ابن مرزوق (وهو احد مشايخه) مودّة فزيّن ابن مرزوق لسلطان المغرب ابي سالم استدعاء ملك غرناطة المخلوع لاغراض سياسية ، فارسل إلى أهل الاندلس سفيراً يطلب منهم تسهيل طريقه إلى المغرب وحمّله الشفاعة في ابن الخطيب وحلّ معتقله . فقبلوا شفاعته وصحب السفر لى سلطان المغرب فاكرم مثواه[1] . ويظهر ان ابن الخطيب ملّ حياة الوزارة ودسائسها ، وأراد التخلّي عن خدمة الملوك ، والتحلي بزينة أهل التصوّف والسلوك ، فلم يرد الله ما أراده ابن الخطيب .

وكان قد احسّ من شيخه ابن مرزوق حنيناً إلى الدنيا وغرورها فكتب رسالة يصف فيها خدّام الدولة ومصايرهم ، وينبّهه إلى النظر في عواقب الرئاسة — قال المقّري « وكأن لسان الدين اشار ببعض فصولها إلى نفسه ، ونطق بالغيب في نكبته التي قادته إلى رمسه » . ومن هذه الرسالة قوله :[2]

« ليت شعري ما الذي غبّط سيدي بالدنيا ، وان بلغ من زبرجدها الرتبة العليا ، ألتوقّع المكروه صباحاً ومساءً ، وارتقاب الحوالة التي تديل من النعيم البأساء ، ولزوم المنافسة التي تعادي الاشراف والرؤساء ؟ ألترتّب العتب على التقصير في الكتب ، وضغينة جار الجنب ، وولوع الصديق باحصاء الذنب ؟ ألنسبة وقائع الدولة اليك وانت بري ، وتطويقك الموبقات وانت منها عري ؟

ألقطع الزمان بين سلطان يُعبد ، وسهام للغيوب تكبّد . وعجاجة شرّ تلبّد ، وأقبوحة تخلد وتؤبّد ؟ ألوزير يصانع ويداري ، وذي حجة صحيحة يجادل في مرضاة السلطان ويماري . وعورة لا توارى ؟ المباكرة كل غرّن حاسد ، وعدوّ مستأسد ، وسوق للانصاف والشفقة

---

١ ملخصة عن ابن خلدون ٧ ص ٣٢٣–٣٢٥

٢ نفح الطيب ٣ ص ٧٨ و ٧٩

كاسد ، وحال فاسد ؟ ألوفود تتزاحم بسدّتك ، مكلّفة لك غير ما في طوقك ، فان لم يقع الاسعاف قلبت عليك السماء من فوقك ؟ ألجلساء يبابك ، لا يقطعون زمان رجوعك وايابك ، الا بقبيح اغتيابك ؟

وما الفائدة في فرش تحتها جمر الغضى ، ومال من ورائه سوء القضا ، وجاه يحلّق عليه سيف منتضى ؟ وإذا ولعت النفس إلى الالتذاذ بما لا تملك ، واللجاج حول المسقط الذي تعلم انها فيه تهلك ، فكيف تنسب إلى نبل ، أو تسير من السعادة في سبل ؟ وان وجدتْ في القعود بمجلس التحية ، بعض الاريحية ، فليت شعري اي شيء زادها ، أو معنى افادها ، إلا مباكرة وجه الحاسد ، وذي القلب الفاسد ، ومواجهة العدو المستأسد ؟ أو شعرتْ ببعض الايناس في الركوب بين الناس ، ما التذّت الا بحكم كاذب ، أو جذبها غير الغرور جاذب ، إنما راكبك من يحدّق إلى الحلية والبزة ، ويستطيل مدة العزة ، ويرتاب إذا حدثت بخبرك ، ويتبع بالنقد والتجسس مواقع نظرك ، ويمنعك من مسايرة انيسك ، ويحتال على فراغ كيسك ، ويصرم التردّد لك ولرئيسك . وأي راحة لمن لا يباشر قصده ، ويمشي إذا شاءَ وحده ؟ »

ثم يذكر مشاغل الوزير ومتاعبه فيقول :

« أما ليله ففكر أو نوم ، وعتب بجراء الضرائر [1] ولوم ، واما يومه فتدبير ، وقبيل ودبير ، وأمور يعيا بها ثبير ، وبلاءٌ مبير ، ولغط لا يدخل فيه حكم كبير ، وانا يمثل ذلك خبير »

والرسالة طويلة تقع في اربع صفحات من صفحات نفح الطيب ، وكلها على هذا النسق من الموعظة والنصيحة .

وفي سنة ٧٦٣ عاد السلطان محمد إلى ملكه بالاندلس فاستقدم ابن الخطيب ودفع اليه تدبير المملكة . قال ابن خلدون « وانفرد بالحل

[1] كذا في الأصل وفيه ابهام

والعقد وانصرفت اليه الوجوه ، وعلقت عليه الآمال ، وغشي بابه الخاصة والكافة وغصت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية فيه[1] » .

« وخيّل لابن الخطيب ان السلطان مال إلى قبولها فرحل عن الاندلس إلى تلمسان تخلصاً من دسائس اعدائه فتلقاه سلطانها عبد العزيز بالتكرمة ووفر الاقطاع له ولبنيه . ولما مات هذا السلطان اخذ نجم كاتبنا بالافول وكان له اعداء وحساد في المغرب وفي الاندلس فاكثروا الوشايات فيه واتّهموه بالزندقة [2] فقبض عليه والقي في السجن . قال ابن خلدون ما ملخصه :

« وحين بلغ الخبر بالقبض على ابن الخطيب إلى السلطان (اي سلطان غرناطة) بعث كاتبه ووزيره بعد ابن الخطيب وهو ابو عبد الله ابن زُمرك فقدم على السلطان ابي العباس (سلطان المغرب) . وأحضر ابن الخطيب إلى مجلس الخاصة والشورى ... ووُبخ ونكل وامتحن بالعذاب بمشهد ذلك الملأ ، ثم افتوا في قتله ودسّوا اليه بعض الاوغاد فقتلوه خنقاً » .

والغريب ان يكون لابن زمرك يد في قتله وهو أحد تلامذته وبه نال الجاه والعز . وكان لسان الدين يكرمه وقد اثنى عليه في كتابه الاحاطة . ولابن زمرك فيه مدائح كثيرة ، قال المقري : « ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته ، وكم من صديق لك ضرّك وعقّك بعد ما برّك [3] » . وفيه يقول ابن لسان الدين : « هو أخسّ عباد الله استعمله ابي في الكتابة السلطانية فجنينا أيام تحولنا عن الاندلس منه

---

١ ابن خلدون ٧-٣٣٥

٢ يقول المقري ان كتابه روضة التعريف بالحب الشريف وهو كتاب تصوف تكلم فيه على طريقة أهل الوحدة المطلقة فاغتنم ذلك أعداؤه ونسبوا اليه مذهب الحلول وغيره ، نفح الطيب ٤-٢٤٣

٣ نفح الطيب ٣-٤٤٦

كل شر ، وهو كان السبب في قتل ابي اللذي رباه وادّبه واستخدمه حسبما هو معروف ، وكفانا الله شر من احسنّا اليه واساء الينا [1] » .

نشأته الادبية

يؤخذ مما كتبه عن نفسه في الاحاطة ومما ذكره ابن خلدون والمقري انه كان واسع المعرفة ملمّاً باكثر علوم زمانه . وقد تأدّب على أهمّ مشايخ الاندلس والمغرب [2] . فاخذ العلوم اللسانية عن ابي عبد الله ابن مرزوق وابي الحسن بن الجياب وابي سعيد المقّري ، وابي بكر ابن شبرين ، وابي الحكيم الرندي ، وكثيرين من طبقتهم من أهل العدوتين . واخذ علوم الاوائل كالطب والمنطق والتعديل والفلسفة عن الامام ابي زكريا بن زهر والحكيم يحيى بن هذيل . فنشأ ابن الخطيب أديباً عالماً . قال ابن خلدون :

« وبرّز في الطب وانتحل الادب وأخذ عن اشياخه ، وامتلأ حوض السلطان من نظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه ، وبلغ في الشعر والترسل حيث لا يجارى فيهما ، وملأ الدولة بمدائحه ، وانتشرت في الآفاق قدماه فرقّاه السلطان إلى خدمته الخ [3] » .

وهو احد اعلام المؤرخين . وله من المصنفات المشهورة ما يلي [4] :

١ — الاحاطة في اخبار غرناطة في ثلاثة مجلدات .

٢ — والحلل المرقومة وهو تاريخ الخلفاء في المشرق والاندلس وافريقية .

---

١ نفح الطيب ٣—٤٤٧

٢ راجع مشيخته في نفح الطيب ٣ ص ٣٧٢—٣٧٥

٣ ابن خلدون ٧ — ٣٣٢

٤ راجع قائمة مصنفاته في نفح الطيب ٤ ص ٢٤٣ — ٢٤٦ وما بعدها . وفي دائرة المعارف الاسلامية 397—II . وفي تاريخ آداب اللغة لزيدان ٣—٢١٧

٣ — والحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية .

٤ — اللمحة البدرية في الدولة النصرية . وهو تاريخ امراء غرناطة إلى سنة ٧٦٥ .

٥ — نفاضة الجراب في وصف مدن الاندلس وعلمائها ومكاتبها .

وله أيضاً كثير من الرسائل والاشعار ،وقد ألّف في الطب والفلسفة والرياضيات والفقه فجمع في نفسه الاديب والعالم ، وترك في نفوس معاصريه ومن تلاهم اثراً عظيماً حتى نوّه بفضله كبار الرجال من امراء وعلماء ومدحه كبار الادباء من منشئين وشعراء [١] .

اسلوبه الانشائي في رسائله

نبغ ابن الخطيب في القرن الثامن الهجري وكانت الاناقة الانشائية من سجع وبديع وتغارب لا تزال في اوجها ، وقد شارك ادباء الاندلس والمغرب أدباء المشرق في ذلك . فاذا التفتّ إلى الرسائل الديوانية وسواها في ذلك العصر تجدها على نمط واحد في القاهرة ودمشق وفارس وقرطبة وسواها : كلها مسجّعة وكلها محلاّة بانواع الزخارف اللفظية والنكات المعنوية . فكلامنا على ابن الخطيب في غرناطة يصدق على كتّاب الامصار العربية عموماً إذ هو يمثّل روح العصر وأدبه ويوضح لنا في انشائه الاسلوب العام لانشاء معاصريه . والذي يراجع رسائله يرى فيها ثلاث مزايا بارزة وهي :

١ — انه مطيل يميل إلى الاسهاب والاكثار . وقد قال فيه بعض علماء الشرق .

« وهو خليق بالتعظيم جدير بمزيد التمجيد والتكريم . كيف لا وهو شاعر مفلق ، وخطيب مصقع ، وكاتب مترسل بليغ لولا ما في انشائه

١ لمعرفة أقوال الناس فيه راجع نفح الطيب ٣ ص ٣٧٥—٤١٠ وما بعد ذلك .

من الاكثار الذي لا يخلو من عثار ، والاطناب الذي يفضي إلى الاجتناب . والاسهاب الذي يقدّ الاهاب ، ويورث الالتهاب [1] » . وقد علّق على ذلك المقّري بقوله : « وهذا الانتقاد غير مسلّم فان لسان الدين وان اطنب واسهب فقد سلك من البلاغة احسن مذهب [2] » .

والذي ينظر في كلام الاثنين يرى أنهما على اختلاف نظريهما يتفقان على اكثار ابن الخطيب . وقد رجعنا إلى عدد كبير من رسائله فوجدناها تزكّي ما اتفقا عليه واليك أمثلة على ذلك :

رسالة [3] عن سلطانه ابن الاحمر إلى المستنصر بالله ابي اسحق خليفة الموحدين . والرسالة طويلة يفتتحها بوصف الخلافة والدعاء لها فيملأ نحو ثلاث صفحات كبيرة من مثل قوله : « فامتزاجنا بعلائها المنيف ، وولائها الشريف ، كما امتزج الماء والسلاف ، وتناوُنا على مجدها الكريم ، وفضلها العميم ، كما تأرّجت الرياض الانواف ، لما زارها الغمام الوكّاف ، ودعاؤنا بطول بقائها واتصال علائها يسدو به إلى قرع أبواب السموات العلا الاستشراف » .

ثم يصف كتاب الخليفة الذي ورد إلى غرناطة فيطيل ويتفنن في نحو ثلاث صفحات كقوله : « ولله من قلم دبّج تلك الحلل، ونمّ بمجاج الدواة المستمدّة من عين الحياة العلل . فلقد تخارق في الجود . مقتدياً بالخلافة التي خلّد فخرها في الوجود . فجاد بسرّ البيان ولبابه . وسح في سبيل الكرم حتى بماء شبابه . وجمع لشرط سياسته وفرائده ، بيد شهادة السيف بشهادته . فمن من الترحيب في الطرس الرحيب على امّ هامته » . ويأخذ من ذلك بوصف الهدية في نحو اربع صفحات فيتغارب ما شاء في وصف الخيول من أحمر واشقر وادهم واشهب

---

١ نفح الطيب ٣–٤٠٧

٢ نفح الطيب ٣–٤٠٨

٣ راجع الرسالة في صبح الاعشى ٦ ص ٥٣٦–٥٥٨

كقوله في وصف الاصفر منها :

« واصفر قيّد الاوابد الحرّة ، وامسك المحاسن واطلق الغــرّة ، وسئل من أنت في قوّاد الكتائب ، واولي الاخبار العجائب ، فقال انا المهلّب بن ابي صفرة ، نرجس هذه الالوان ، في رياض الاكوان ، تحيا به وجوه الحرب العوان ، أغار بنخوة الصائل ، على معصفرات الاصائل ، فارتداها وعمد إلى خيوط شعاع الشمس ، عند جانحــة الامس ، فالحم منها حلّته واسداها ، واستعنّدت عليه ملك المحاسن فما اعداها . فهو أصيل تمسك بذيل الليل عُرفه وذيله ، وكوكب يطلعه من القتام ليله ، فيحسده فرقد الافق وسهيله » . وعلى هذا النمط الغريب وصفه لسائر الخيول .

ويتقدّم من ذلك إلى ذكر العهود التي بين البلدين وشرح حــال الاندلس وما قام به ابن الاحمر سلطان غرناطة من غزو العدوّ، فيصف المدن التي افتتحها والحروب التي خاضها في نحو اثنتي عشرة صفحــة وصفاً مسهباً يتكلف فيه المجاز الغريب والبديع المكدود والتنطس في الاشارات العلمية كقوله في غزوهم مدينة جيّان :

« وهذه المدينة هي الأمّ الولود ، والجنة التي في النار لسكانها من الكفار الخلود ، وكرسيّ الملك ومجنبته الوسطى من الممالك ، باءت بالمزايا العديدة ونجحت ، وعند الوزان بغيرها من امّات البلدان رجحت ، غاب الاسود ، وجُحر الحيات السود ، ومنصب التماثيل الماثلة، ومعلّق النواقيس الصائلة » .

ثم وصفه للمعركة :

« في موقف يذهل الوالد عن الولد ، صارت السهام فيه غماما ، وطارت كاسراب الحمام تهدي حماما ، وأضحت القنا قصدا ، بعد ان كانت شهاباً رصدا ، وماج بحر القتام بامواج النصول ، وأخــذ الارض الرجفان لزلزال الصياح الموصول ، فلا ترى الا شهيداً تظلل

مصرعه الحور ، وصريعاً تقذف به إلى الساحل أمواج تلك البحور ، ونواشب تبأى [1] بها الوجوه الوجيهة عند الله والنحور ، فالمقضب ، فوده مخضب ، والاسمر ، غصنه يستثمر ، والمغفر ، حماه مخفر ، وظهور القسي تقصم ، وعصم الجند الكوافر تفصم ، وورق اليلب في المنقلب يسقط ، والبتر تكتب ، والسمر تنقط ، فاقتحم الربض الاعظم لحينه ، واظهر الله لعيون المبصرين والمستبصرين عزة دينه ، وتبرأ الشيطان من خدينه ، ونهب الكفار وخذلوا ، وبكل مرصد جدلوا ».

إلى أن يقول :

«وتخارق السيف فجاء بغير المعتاد ، ونهلت القنا الرُدينية من الدماء حتى كادت تورق كالاغصان المغترسة والاوتاد ، وهدت افلاك القسي وسحّت وأرنّت حتى بحّت ، ونفدت موادها فشحّت بما الحتّ ، وسدت المسالك جثث القتلى فمنعت العابر ، واستأصل الله من عدوّه الشأفة وقطع الدابر ، وازلف الشهيد وأحسب الصابر ، وسبقت رسل الفتح الذي لم يسمع بمثله في الزمن الغابر ، تنقل البشرى من أفواه المحابر ، إلى آذان المنابر » .

والرسالة كلها على هذا المنوال وهي أفضل مثال على اسلوبه وقس عليها أكثر رسائله . على انه مع اطالته في الوصف لا يطيل العبارات ، فازدواج الكلام في انشائه مستساغ حسن الايقاع : سواء في ذلك رسائله الديوانية أو الادبية . واليك رسالة كتبها إلى أبي عبدالله يهنئه بالرجوع إلى التعليم وفيها مداعبة طريفة قال منها :

« وتعرّفتُ ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم ،والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله . وان لاحظ اللاحظ ، ما قال الجاحظ ، فاعتراض لا يردّ ، وقياس لا يطّرد . حبذا والله عيش التأديب ، فلا بالضنك ولا بالجديب ، معاهدة الاحسان

[1] تبأى تفخر .

ومشاهدة الصور الحسان . بمينا ان المعلمين ، لسادة المسلمين ، واني لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، امراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدِرّة ، متقطب الاسرّة ، متنمر للوارد تتمرّ الهرة ، يغدو إلى مكتبه ، كالامير في موكبه ، حتى إذا استقلّ في فرشه ، واستوى على عرشه ، أظهر للخلق احتقارا ، وازرى بالجبال وقارا ، ورفعت اليه الخصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم : فتقول كسرى في ايوانه ، والرشيد في اوانه ، أو الحجاج بين أعوانه ! فاي عيش كهذا العيش؟ وكيف حـــال أمير هذا الجيش ؟ طاعة معروفة ، ووجوه اليه مصروفة . فان اشار بالانصات لتحقق القصات ، فكأنما طمس على الافواه ، ولأم بين الشفاه ، وان أمر بالافصاح ، وتلاوة الالواح ، عـلا الضجيـج والعجيج ، وحُفّ بـه كما حف بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدسّ ، وغمرة لا تحس . ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجـل وتحفز . هنأ الله سيدي ما خوله ، وانساه بطيب اخراه اوله » .

٢ — ولعه بالمجاز والبديع ، وقد المعنا إلى ذلك في وصفنا لرسالته إلى المستنصر ابي اسحق ، بل الرسالة كلها تعج بمثل قوله :

فهو (الفرس) اصيل تمسّك بذيل الليل عرفه وذيله .

حديقة بيان استثارت نواسم الابداع من مهابها .

وخصّوا الحديث بفري الاديم (أي ذموا الحديث) .

واجبناه بجهد ما كنا لنقنع من جناه المهتصر . بالمقتضب المختصر ، لولا طروء الحصَر .

فحرّكنا اولى الحركات ، وفاتحة مصحف البركات .

وعملنا في رمّ ما ثام القتال وبقر من بطون مسالحه الرحال (يتكلم عن ترميم الحصن) .

ولسان الحمية ينادي يا لثارات الاسرى .

قبل ان يلتقي الخديم بالمخدوم ويركع المنجنيق ركعتي القدوم .

وقد ضاقت ذروع الجبال عن اعناق الصهب السبال .

وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد ان شقّت غـدر السوابغ خلجانا .

ورفرف على المدينة جناح البوار .

وارسلنـا رياح الغارات لا تذر من شيءٍ اتت عليه إلاّ جعلته كالرميم .

• • •

ومثل ذلك كثير في سائر رسائله – كقوله من رسائل شتى في نفح الطيب :

ولا حصر ينفض بـه المنجنيق ذوائبه . ويظهـر بتكرار الركوع انابته .

وبكتابك تحيي جوامد الافهام وبمذنّتك تشرّد دئاب الاوهام .

بعد خطوب تسبح فيها الاقلام سبحاً طويلا ، وتوسعها الشجون شرحاً وتأويلا ، وتلقي القصص منها على الآذان قولاً ثقيلاً .

وجزنا البحر وضلوع موجـه اشفاقـاً علينا تخفق ، واكفّ رياحه حسرة تصفق .

وطوينا بساط العتاب طي الكتاب ، وعاجلنـا سطور المؤاخـذة بالاضطراب .

واما ضده من عدوّ يتحكم وينتقم ، وحوت نئيٍ يبتلع ويلتقم ، وثعبان ثياد يعضّ الساق . وشؤبوب عذاب يمزّق الابشار الرقاق .

. .

ولا نبالغ إذا قلنا ان هذا هو الغالب في ترسله وهو ينسج فيـه على منوال القاضي الفاضل . وعلى ذلك جرى المنشئون من بليغ وغير بليغ حتى دالت دولة الانشاء المزخرف في القرن الماضي

ومما يدلك على ولع ابن الخطيب بالسجع انه لم يحصره في رسائله بل

كان اسلوبه الانشائي في . ترجماته وقصصه ونجد من ذلك كثيراً في الاحاطة ونفح الطيب .

٣ — كثرة الاشارات التاريخية والعلمية . ولايضاح ذلك ننقل له ما يلي [١]

« واكرم به من حكيم افصحَ بملغوز الإكسير ، في اللفظ اليسير ، وشرحَ بلسان الخبير ، سرّ صناعة التدبير ، كأنما خدم الملكة الساحرة بتلك البلاد ، قبل اشتجار الجلاد ، فآثرتهُ بالطارف من سحرها والتلاد ، او عثر بالمعلّقة ، وتيك القديمة المطلّقة ، بدفينةِ دار ، أو كنز تحت جدار ، أو ظفر لباني الحنايا ، قبل ان تقطع به عن امانيه المنايا ، ببديعه ، أو خلف جرجير الروم ، قبل منازلة القدوم ، على وديعه ، أو اسهمه ابن ابي سرح ، في نشب للفتح وسرح ، أو حتم له روح بن حاتم ببلوغ المطلب ، أو غلب الحظوظ بخدمة آل الاغلب أو خصه زيادة الله بمزيد ، أو شارك الشيعة في امر ابي يزيد ، أو سار على منهاج ، في مناصحة بني صنهاج ، وفضح بتخليد امداحهم كل هاج .... وقوله [٢] :

« حربٌ لم تنسج الازمان على منوالها ، ولا اتت الايام الحبالى بمثل اجنة اهوالها ، من قاسها بالفجار افكَ وفجَر ، أو مثّلها بجفر الهباءة [٣] خرف وهجر ، ومن شبهها بحرب داحس والغبراء فما عرف الخبر ، فليسأل من جرّب وخبر ، ومن نظرها بيوم شعب جبلّه ، فهو ذو بلّه ، أو عادلها ببطن عاقل ، فغير عاقل ، أو احتج بيوم ذي قار ، فهو إلى المعرفة ذو افتقار ، أو ناضل بيوم الكديد ، فسهمه غير السديد » ...

وقوله [٤] :

---

١ صبح الأعشى ٦—٥٤٠

٢ صبح الأعشى ٦—٥٥٤

٣ الفجار وجفر الهباءة من أيام العرب وكذلك ما يليها .

٤ صبح الاعشى ٦—٥٤٩

« والليل من خوف الصباح ، على سرحه المستباح ، قد شابت غدائره ، والنسر يرفرف باليمن طائره ، والسماك الرامح يثأر ثغر الاسلام ثائره ، والنعائم راعدة فرائص الجسد ، من خوف الاسد ، والقوس يرسل سهم السعادة ، بوتر العادة ، إلى أهداف النعم المعادة ، والجوزاء عابرة نهر المجرّة ، والزهرة تغار من الشعرى العبور بالضرّة ، وعطارد يسلي في حيل الحروب على البلد الحروب ويلحم ، ويناظر على أشكالها الهندسية فيفحم ، والمشتري يبلي في فضل الجهاد ويحيد ، وزحل على الطالع متزحل ، وعن العاشر مرتحل ، وفي زلق السقوط وحل ، والبدر يطارح حجر المنجنيق ، كيف يهوي إلى النيق ، ومطلع الشمس يرقب ، وجدار الافق يكاد بالعيون عنها ينقب » .

ومن مصطلحاته العلمية ما ورد له في نفح الطيب :

مولاي فتّاح الاقطار والامصار ، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار .

وجد عبدكم الذي خلص ابريز عبوديته لملك ملككم المنصور .

واقتحمت الابهاء والمقاصر وتفرّقت الاجزاء وتحللت العناصر .

وكأن ماءه ذوب لقي اكسيرا .

لكنني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ، وعارضت القواعد الموحشة بالفروق .

وتعترف به الابصار والاسماع وان جحدت عارضها الاجماع .

• • •

ومثل ذلك كثير في كلامه . فاذا قرنته بتقاربه البديعي وبميله إلى الاطالة والاطناب وجدت نفسك أمام اسلوب متكلّف مكدود يشق على القارئ فهم معانيه أو تتبع مقاصده .

المختار من رسائله الديوانية

لابن الخطيب كتاب سماه « ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب » قال فيه

المقّري [1] : « وهذا الكتاب اشتمل من الانشاء على كثير في اغراض شتّى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وغير ذلك من أحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتّى ملوك النصارى ، وذكر في صدره خطب بعض كتبه . وفي آخره بعض مقاماته وتحلية لاهل عصره وغير ذلك . وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابه » . ويذكر زيدان ان منه نسخاً في المتحف البريطاني وليدن وسواهما [2] . على اننا لم نطلع عليها ولا نعلم انها مطبوعة . وقد اعتمدنا ما ورد منها في الجزءين الثالث والرابع من نفح الطيب وهما أهم مصدر لدينا ، وفيهما مجموعة كبيرة من رسائله — وكذلك ما ورد في صبح الاعشى وفيه اطول رسالة وقد مرّ ذكرها . ولما كان الغاية من درس رسائله ان نتفهم اسلوبه الخاص واسلوب عصره العامّ فاننا نكتفي هنا ان نثبت منها ما يلي :

١ . رسالة الى السلطان ابي عنان [3]

ابن السلطان ابي الحسن المريني صاحب فاس عند ورود كتابه إلى الاندلس بفتح تلمسان

قال بعد مقدمة :

« من الضريح المقدّس : وهو الذي تعدّدت على المسلمين حقوقه ، وسطع نوره ، وتلألأ شروقه ، وبلغ مجده السماء لما بسقت فروعه ، ورسخت عروقه ، وعظم بتبوّئكم فخره فما فوق البسيطة فخر يفوقه : حيث الجلال قد رست هضابه ، والملك قد سترت باستار الكعبة الشريفة قبابه ، والبيت العتيق قد أُلحفت الملاحد الامامية أثوابه ، والقرآن

١ نفح الطيب ٤–٢٤٣
٢ تاريخ آداب اللغة ٣–٢١٧
٣ صبح الأعشى ٧–١٠٠

العزيز ترتّل احزابه ، والعمل الصالح يرتفع إلى الله ثوابه ، والمستجير يخفي بباطنه سؤاله فيجهر بنعرة العز جوابه ، وقد تفيّأ من اوراق الذكر الحكيم حديقة . وخميلة انيقة . وحط بجُودِيّ الحق نفساً في طوفان الضرّ غريقة ، والتحف برق الهيبة الذي لا تهتدي للنفس فيها الا بهداية الله طريقة ، واعتزّ بعزّ الله وقد توسط جيش الحرمة المرينية حقيقة ، إذ جعل المولى المقدس المرحوم ابا الحسن مقدّمه واباه . سقاه المولى الكريم بهذا المجد سيب رحماه .

فالحمد لله الذي اقال العثار . ونظم بدعوتكم الانتشار . وجعل ملككم يجدّد الآثار ويأخذ الثار . والعبد يهنّئ مولاه . بما انعم الله به عليه وأولاه . وما اجدره بالشكر واولاه ! فاذا اجال العبيد قداح السرور فللعبد المعلّى والرقيب . وإذا استهموا حظوظ الجذل فلي القِسَم الوافرة والنصيب ، وإذا اقتسموا فريضة شكر الله تعالى فلي الحظ والتعصيب . لتضاعف أسباب العبودية قِبَلي ، وترادف النعم التي عجز عنها قولي وعملي . وتقاصر في ابتغاء مكافآتها وجدي وان تطاول املي .

فمقامكم المقام الذي نفّس الكربة ، وآنس الغربة . ورعى الوسيلة والقربة . وانعش الارماق . وفك الوثاق . وادرّ الارزاق . واخذ على الدهر بالاستقالة بالعهد والميثاق . وان لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء . ويتمثل بين يدي الخلافة العظيمة السنا والسناء . ويمد بسبب البدار إلى تلك السماء . فقد باشر به اليد التي يحنّ مولاي لتذكّر تقبيلها . ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الابوية وتكميلها . ووقفت بين يدي مالك الملوك الذي احال عليها القداح . ووصل في طلب وصالها المساء بالصباح .

وقلت يهنيك يا مولاي ردّ صالتك المنشودة . وخبر لقطتك المعرفة المشهودة . ودالّتك الموددة . فقد استحقها وارثك الارضى . وسيفك

الامقى ، وقاضي دينك ، وقرّة عينك ، مستنقذ دارك ممن يسد غاصبها ، ورادّ رتبتك إلى مناصبها ، وعامر المثوى الكريم ، وستر الاهل والحريم .

مولاي ! هذي تلمسان قد اطاعت ، واخبار الفتح على ولدك الحبيب اليك قد شاعت ، والامم إلى هنائه قد تداعت ، وعدوّك وعدوّه قد شرّدته المخافة وانضاف إلى عرف الصحراء فخفضته الاضافة ، وعن قريب تتحكم فيه يد احتكامه ، وتسلّمه السلامة إلى حمامه .

فلتطب يا مولاي نفسك ، وليستبشر رمسك ، فقد نمت بركتك ، وزكا غرسك . نسأل الله ان يورد على ضريحك من انباء نصره ما تفتح له ابواب السماء قبولا ، ويرادف اليك مدداً موصولا وعدداً آخرته خير لك من الاولى ، ويعتّريه بركة رضاك ظعناً وحلولا ، ويضفي عليه منه ستراً مسدولاً . »

٢ ـ رسالته عن لسان سلطان غرناطة ١

إلى المنصور أحمد بن الناصر قلاوون ملك مصر والشام يعلمه فيه
بما فعل به الثوار وكيف اضطروه إلى ترك الوطن
والالتجاء إلى المغرب وهي طويلة نجتزئ منها بما يلي

« إلى ان كان الخروج عن الوطن بعد خطوب تسبح فيها الاقلام سبحاً طويلا ، وتوسعها الشجون شرحاً وتأويلا ، وتلقي القصص منها على الآذان قولاً ثقيلا ، وجزنا البحر وضلوع موجه اشفاقاً علينا تخفق ، وأكفّ رياحه حسرة تصفّق ، ونزلنا من جناب سلطان بني مرين على المثوى الذي رحب بنا ذرعه ، ودلّ على كرم الاصول فرعه ، والكريم الذي وهب فاجزل ، ونزل لنا عن الصهوة وتنزّل ، وخبر وحكم ،

١ نفح الطيب ٣ ص ٤٨—٥٠

ورد على الدهر الذي تهكم واستعبر وتبسم ، وآلى واقسم ، وبسمل وقدم ، واستركب لنا واستخدم » .

إلى أن يقول :

« واستقل على اريكته ، استقلال الظليم على تريكته، حاسر الهامة، متنفقاً بالشجاعة والشهامة ، مستظهراً باولي الجهالة والجهامة ، وساءت في محاولة علو الدين سيرته ، ولما حصحص الحق انكشفت سريرته ، وارتابت لجبنه المستور جيرته ، وفتح عليه طاغية الروم فمه فالتقمه ، ومد عليه الصليب ذراعه فراعه ، وشد الكفر عليه يده ، فما عضده الله ولا ايده ، وتخرمت ثغور الاسلام بعد انتظامها ، وشكت اليه باهتضامها ، وغصت باشلاء عباد الله وعظامها ظهور اوضامها ، واشتدت المجاعة ، وطلعت شمس دعوتنا من المغرب فقامت عليها الساعة ، وركبنا البحر تكاد جهتاه تتقارب تيسراً ، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيراً ، وكأن ماءه ذوب لقي اكسيراً ، ونهضنا يتقدمنا الرعب ويتقدمنا الدعاء ، وتجأجئ بنا الاشارة وتخفرنا الاستدعاء ، واقصر الطاغية عن البلاد بعد ان ترك ثغورها مهتومة ، والاخافة عليها محتومة ، وطوابعها مفضوضة ، وكانت بنا مختومة ، وأخذت الخائن الصيحة فاختبل، وظهر تهوره الذي عليه جبل ، فجمع اوباشه السفلة واوشابه ، وبهرجه الذي غش به المحض وشابه ، وعمد إلى الذخيرة التي صانتها الاغلاق الحريزة ، والمعاقل العزيزة ، واحتمل عدد الحرب والزينة ، وخرج ليلاً عن المدينة ، واقتضت آراؤه الفائلة ، ونعامته الشائلة ، ودولة بغيه الزائلة ، ان يقصد طاغية الروم بقضّه وقضيضه ، وأوجه وحضيضه ، وطويله وعريضه ، من غير عهد اقتضى وثيقته ، ولا امر عرف حقيقته ، الا ما امل اشتراطه من تبديل الكلمة ، واستئصال الامة المسلمة . فلم يكن الا ان تحصّل في قبضته ، ودنا من مضجع ربضته ، واستشار نصحاءه في أمره ، وحكّم الحيلة في جناية غدره وشهره ببلده ، وتولى

قتله بيده ، والحق به جميع من امدّه في غيه ، وظاهره على سوء سعيه ، وبعث الينا برؤوسهم فنصبت بمسور غدرها ، وقلدت لبة تلك البنية بشذرها ، وأصبحت عبرة للمعتبرين ، وآية للمستبصرين ، واحق الله الحق بكلماته وقطع دابر الكافرين .

وعدنا إلى اريكة ملكنا كما رجع القمر إلى بيته ، أو العقد إلى جيده، بعد انتثار فريده ، أو الطير إلى وكره ، مفلتاً من غول الشرك ومكره ، ينظر الناس الينا بعيون لم تروَ مذ غبنا من محيا رحمة ، ولا طشّت عليها بعدنا غمامة رحمة ، ولا باتت للسياسة في ذمة ، ولا ركنت الدين ولا همة ، فطوينا بساط العتاب طي الكتاب ، وعاجلنا سطور المؤاخذة بالاضطراب ، وآنسنا نفوس اولي الاقتراف بالاقتراب، وسهلنا الوصول الينا ، واستغفرنا الله لنفسنا ولمن جنى علينا . »

٣ . رسالته الى المستنصر خليفة الموحدين

ذكرنا آنفاً انها تقع في نحو اثنتين وعشرين صفحة كبيرة وقد اثبتنا مختارات منها في كلامنا على اطالته . ولما كانت هذه الرسالة اطول رسائله واهمها وادلّها على ما بلغه الانشاء الديواني في عصره ، فاننا نثبت منها أيضاً القطعة التالية في غزو قرطبة قال [١] :

« ثم تأهبنا لغزو امّ القرى الكافرة ، وخزائن المداين الوافرة ، وربة الشهرة السافرة ، والانباء المسافرة ، قرطبة وما أدراك ما هيه ، ذات الارجاء الحالية الكاسية ، والاطواد الراسخة الراسية ، والمباني المباهية، والزهراء الزاهية ، والمحاسن غير المتناهية : حيث هالة بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ، ونهر المجرّة من نهرها الفياض . المسلول حسامه من غمود الغياض ، قد لصق بها جارا ، وفلك الدولاب المعتدل

١ صبح الأعشى ٦-٥٥٢

الانقلاب قد استقام مدارا ، ورجع الحنين اشتياقاً إلى الحبيب الاول وادّ كارا : حيث الطود كالتاج ، يزدان بلجين العذب المُجاج ، فيزري بتاج كسرى ودارا : حيث قسيّ الجسور المديرة ، كأنها عوج المطي الغريرة ، تعبر النهر قطارا : حيث آثار العامري المجاهد ، تعبق بين تلك المعاهد شذى معطارا : حيث كرائم السحائب ، تزور عرائس الرياض الحبائب ، فتحمل لها من الدر نثارا : حيث شَمول الشمال تدار على الادواح ، بالغدوّ والرواح ، فترى الغصون سكارى وما هي بسكارى : حيث ثغور الاقاح الباسم ، تقبلها بالسحر زوّار النواسم ، فتخفق قلوب النجوم الغيارى : حيث المصلّى العتيق قد رحب مجالا وطال منارا ، وازرى ببلاط الوليد احتقارا : فما شئت من جوّ صقيل ، ومعرّس للحسن ومقيل ، ومالك للعقل وعقيل ، وخمائل كم فيها للبلابل من قال وقيل ، وخفيف يجاوب بثقيل، وسنابل تحكي من فوق سوقها ، وقضب بسوقها ، الهمزات فوق الالفات ، والعصافير البديعة الصفات ، فوق القضب المؤتلفات ، تميل بهبوب الصبا والجنوب ، مائلة الجيوب بدرر الحبوب ، وبطاح لا تعرف عين المحل ، فتطلبه بالذحل ، ولا تصرّف في خدمة بيض قباب الأزهار ، عند افتتاح السوسن والبهار ، غير العبدان من سود النخل ، وبحر الفلاحة الذي لا يدرك ساحله ، ولا يبلغ الطيّة البعيدة راحله ، إلى الوادي وسمّر النوادي ، وقرار دموع الغوادي ، المتجاسر على تخطّيه ، عند تمطّيه ، الجسر العادي ، والوطن الذي ليس من عمرو ولا زيد ، والفرا الذي في جوفه كل صيد ، اقلّ كرسيّه خلافةَ الاسلام ، واعاد بالرصافة والجسر دار السلام ؛ وما عسى ان تطنب في وصفه ألسنة الاقلام ، أو تعبر عن ذلك الكمال فنون الكلام » .

ثم يصف حربها فيقول :

« ومرعى نفوس لم يفِ بوصفه لسان مرتاد ، وزلزال جبال اوتاد ،

ومتلف مذخور لسلطان الشيطان وعتاد ، أعلم فيه البطل الباسل ، وتورّد الابيض الباتر وتأوّد الاسمر العاسل ، ثم افضى امر الرماح إلى التشاجر والارتباك ، ونشبت الاسنّة في الدروع نشب السمك في الشباك ، ثم اختلط المرعى بالهمل وعُزل الرديني عن العمل ، وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا ، بعد ان شقت غدر السوابغ خلجانا ، واتحدت جداول الدروع فصارت بحرا ، وكان التعانق فلا ترى الا نحراً يلازم نحرا ، عناق وداع ، وموقف شمل لذي انصداع ، واجابة مناد إلى فراق الابد وداع ، واستكشفت مآل الصبر الانفس الشفّافة ، وهبت بريح النصر الطلائع المبشّرة الهفافة ، ثم امد السيل ذلك العباب ، وصقل الاستبصار الالباب ، واستخلص العزم صفوة اللباب ، وقال لسان النصر : ادخلوا عليهم الباب ، فاصبحت طوائف الكفار ، حصائد مناجل الشفار فمفارقهم قد رضيت حرماتها بالاعقار [1] ، ورؤوسهم محطوطة في غير معالم الاستغفار ، وعلت الرايات من فوق تلك الابراج المستطرفة والاسوار ، ورفرف على المدينة جناح البوار ، لولا الانتهاء إلى الحد والمقدار ، والوقوف عند اختفاء سر المقدار : »

---

١ كذا في الأصل ولعلها الأغفار .

الرسائل الأدبية

نظرة عامة

لا تختلف هذه الرسائل من حيث الصناعة اللفظية عن الرسائل الديوانية فاكثرها يسود فيه السجع والبديع ، وانما افردنا لها باباً خاصاً لاختلاف اغراضها عن اغراض المكاتبات الرسمية . فبينا تتناول هذه عادةً ما يصدر عن الديوان السلطاني أو الاميري من أوامر واحكام ، ترى تلك تتناول اغراضاً عامة من مكاتبات اخوانية أو مناظرات أدبية أو وصف مشاهدات شخصية . وكثيراً ما يكون كتّابها من ارباب الدواوين ، على ان ذلك ليس بقاعدة مطّردة . فقد نبغ من ارباب الانشاء الادبي جماعة ممن لم يدخلوا في خدمة الديوان كبديع الزمان الهمذاني ، وابي عامر ابن شُهَيد (الاندلسي) وابي العلاء المعري وابي بكر الخوارزمي وكثير غيرهم .

ولما كان الاسلوب النثري في هذه الرسائل مماثلاً لاسلوب النثر الديواني فقد رأينا ان لا نترجم لاحد من اربابها بل نقصر الكلام على النظر في بعض الرسائل المشهورة وفي أغراضها ، ثم نعقّب على ذلك بما بلغته في بلد نهضتنا الاخيرة .

وتسهيلاً للبحث نجمل هذه الرسائل تحت المواضيع التالية :

١ ـ الاخوانيات : وهي تشمل ما كان يجري من المكاتبات الشخصية بين اثنين أو أكثر من اخوان الادب :

٢ ـ المفاكهات : ويدخل فيها المكاتبات الهزلية والمباسطات الادبية .

٣ ـ المناظرات : اي ما كان يجري بين الادباء من محاورات ومناظرات ومنافسات .

٤ ـ الأوصاف : وهو باب واسع يدخل فيه كل ما يراد به وصف محسوس كالمراكب والمعارك والحيوان ، أو غير محسوس كالبلاغة والشعر والصيد والاخلاق . ويلحق الاوصاف المديح والهجاء وما شاكل ؟

٥ ـ الحكايات ويدخل تحتها أنواع القصص المختلفة والمقامات ، وسنفرد لهذه باباً خاصاً .

ومما يعدّ في باب الانشاء الادبي بعض المصنّفات التاريخية التي تُكلّف فيها من التأنّق الانشائي ما تكلف في الرسائل . وقد ذكرنا بعضها في كلامنا عن مواطن السجع ، ونضيف على ما ذكرناه هناك الفتح القسّي لعماد الدين الاصبهاني (٥٩٧ هـ) الذخيرة لابن بسام(٥٤٢) نفحة الريحانة للمحبي (١١١١) سلافة العصر لابن معصوم (١١٠٤) إعلام الناس للاتليدي (١١٠٠) .

وقس على ذلك كثيراً مما تجده في كل عصر حتى العصر الاخير ، فقد وقفنا على مخطوطة حديثة في أعلام القرن الثالث عشر الهجري لمؤلفه عبد الرزاق البيطار وهو على نمط الكتب الآنفة الذكر من التزام السجع . وليس غرضنا هنا دراسة هذه الكتب بل غرضنا الاشارة اليها وإلى مقام أمثالها في تطور الانشاء العربي .

امثلة من الرسائل الأدبية

اشرنا في فصل سابق إلى تطور النثر الديواني وكيف انه أخذ منذ القرن الحادي عشر الهجري بالهبوط حتّى بلغ احط دركاته قبيل النهضة الحديثة . كذلك كان شأن الانشاء الادبي . فاذا نظرت في الرسائل التي وصلتنا من منتصف العهد العباسي إلى أوائل العهد العثماني وجدت اسلوبها برغم التـأنّق البديعي فيه محافظـاً على رونقه ومتانته ، ثم أخذ الفساد يتسرّب اليه مع الزمن حتّى أصبح في القرن الثامن عشر للميلاد وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر غثـّاً ركيك المادة والصنعة كما سيتبين لك بعد . واليك نماذج من الرسائل الادبية قبل ان دخل الانشاء عصر الانحطاط .

الرسالة الاغريضية [1]

لابي العلاء المعرّي (٤٤٩ هـ) . ارسلها إلى ابي القاسم الحسين بن علي المغربي جواباً على كتاب ورد منه . والمعرّي في هذه الرسالة كما في أكثر رسائله شديد التكلف للسجع وللغريب . كثير التوفر على البديع والاشارات التاريخية واللغوية . ولذلك ترى رسائله عادة عويصة المعاني مكدودة الالفاظ تعيي قارئها ببعد اشاراتها وقلة طلاوتها . كقوله في مفتتح هذه الرسالة مشيراً إلى كتاب ابي القاسم المغربي :

« السلام عليك ايتها الحكمة المغربية ، والالفاظ العربية . أيّ هواءٍ رقاك وايّ غيث سقاك . برقه كالإحريض ، وودقه مثل الاغريض [2] ؟ حللتِ الربوة ، وجللت عن الهبوة . اقول فيك ما قال اخو نُمير ،

---

١ رسائل المعري ١٤—٢٠

٢ الاحريض : العصفر .والاغريض : طلع النخل أي برقه أصفر ومطره قوي كالسهام .

لفتاة بني عُنمير :

زكا لك صالحٌ وخلاك ذمٌ   وصبّحك الايامن والسعود

«أنا آسف على قربك من الغراب الحجازيّ ، على حسن الزيّ ، لمّا اقفر ، وركب السفر ، فقسدم جبال الروم في نوٍّ ، انزل البرس [1] من الجوّ » .

إلى أن يقول مادحاً مطرياً :

« فحرس الله سيدنا حتّى تدغم الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء، وذلك ان هذين ضدّان ، وعلى التضادّ متباعدان ، رخو وشديد، وهاوٍ وذو تصعيد » ...

ويجري كذلك إلى قوله :

« واني وان غدوت في زمان كثير الدّد [2] ، كهاء العدد ، لزمت المذكر فأتت بالمنكر ... ونوائب الحقت الكبير بالصغير كانها ترخيم التصغير ... لامدنّ صوتي بتلك الآلاء مدّ الكوفيّ صوته في هؤلاء . »

ويأخذ في هذا الضرب من الكلام فيطيل ويُبرم وقد يتكلف تشابيه الاقلمين فيقول واصفاً شوقه :

« ما حاملة طوقٍ من الليل ، وبُرد من المرتبيع مكفوف الذيل [3] ، اوفت الأشاء [4] ، فقالت للكئيب ما شاء ، تُسمعه غير مفهوم ، لا بالرمل ولا بالمذموم [5] ، كأن سجيعها قريض ، ومراسلها الغريض [6] قد ماد لشجوها العود ، وفقيدها لا يعود ، تندب هديلا [7] فات ،

١ البرس القطن ، يقصد الثلج .
٢ الدد اللهو واللعب .
٣ يعني بذلك الحمامة المطوقة بلون أسود كالليل ، اللابسة برداً كالربيع .
٤ حطت على النخل .
٥ نوع من الالحان .
٦ مغن مشهور .
٧ الهديل ذكر الحمام البري .

وأتيح له بعض الآفات — بأشوق إلى هديلها من عبده إلى متساسمة انبائه » ... إلى آخر هذا الكلام .

ثم يرجع إلى الاطراء ووصف الفاظ صاحبه وحسن نظمه كقوله :

« واني للكندي [1] قواف كهجمة السعدي [2]

إذا اصطكت بضيق حجرتاها تلاقي العسجدية واللطيمُ [3]

ونختم كلامنا على هذه الرسالة التي تملأ نحو سبع صفحات كبيرة بقوله يصف ادبه . قال بعد ان شبه الادب بالغيث :

« واني نزلت من ذلك الغيث ببلد طسم [4] ، كأثر الوشم ، منعه القزاع [5] من الامراع : يابوس ، بني سدوس ! العلوّ حازب [6] ، والكلأ عازب ، يا خصب بني عبد المدان ! ضأن في الحربث وإبل في السعدان [7] فلما رأيت ذلك اتعبت الاظلّ [8] ، فلم اجد الا الحنظل : فليس في اللبيد [9] الا الهبيد [10] ، جنيته من شجرة اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار .

وكل الرسالة على هذا النسق الذي ذكرناه من تكلف في الصناعة وغرابة في الالفاظ وتنطس في الاشارات اللغوية والتاريخية . ومثلها كل رسائل المعرّي الطويلة — كرسالة الغفران والمنيح وملقى السبيل وسواها [11] .

١ أي امرؤ القيس .
٢ كنياق السعدي .
٣ العسجدية حاملة الذهب ، واللطيم حاملة الطيب .
٤ قفر .
٥ خلو السماء من الغيم .
٦ شديد .
٧ الحربث والسعدان من نباتات المراعي الطيبة .
٨ الاظل باطن المنسم . أي أتعبت ناقتي .
٩ الهبيد المخلاة .
١٠ الهبيد الحنظل .
١١ أما رسالة الغفران فهي برغم تكلف المعري جديرة بعناية الأدباء ، وذلك لما فيها من مشاهد وحاسطات خيالية ترفعها الى مقام خاص في الأدب العربي .

رسالة ابن زيدون (٤٦٣)

وكان بينه وبين الوزير ابي عامر بن عبدوس منافسة في حبّ ولادة بنت المستكفي . وكان هذا الوزير قد ارسل اليها مرة امرأة تستميلها اليه وتذكر لها محاسنه ومناقبه وترغبها في التفرّد به دون سواه ، فبلغ ابن زيدون ذلك فكتب عن لسانها هذه الرسالة يتهكم عليه ويتنقص منه وارسلها اليه من قبل ولاّدة فبلغت منه كل مبلغ واشتهر ذكرها في الآفاق . قال في مطلعها :

« أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورّط بجهله ، البيّن سقطه ، الفاحش غلطه ، العاثر في ذيل اغتراره ، الاعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب ، (إلى قوله) متصدّياً من خلّتي لما قرعت دونه انوف اشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوّادة ، كاذباً نفسك ستنزل عنها اليّ ، وتخلف بعدها علي .

ولا شك انها قَلَتْك إذا لم تضنّ بك ، وملّتك إذا لم تعزّ عليك ، فانها اعذرتْ في السفارة لك ، وما قصرت في النيابة عنك ، زاعمة ان المروّة لفظ انت معناه ، والانسانية اسم انت جسمه وهيولاه ، حتى خيّلت ان يوسف (عليه السلام) حاسنك فغضضت منه ، وان امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ، وان قارون اصاب بعض ما كنزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ، والاسكندر قتل دارا في طاعتك ، وازدشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن جماعتك » .

ثم يجري على هذا النمط من التهكم فيذكر نحواً من اربعين علماً من اعلام التاريخ العربي وغيره حتى يصل إلى قوله :

« فكلمت في غير مكلم ، واستسمنت ذا ورم ، ونفخت في غير

ضرم ، ولم تجد لريح مهزاً ، ولا لشفرة محزاً ، بل رضيت من الغنيمة بالاياب وتمنيت الرجوع بخفّي حنين » .

ويشير إلى الامرأة التي ارسلها فيقول :

« ولولا ان للجوار ذمّة ، وللضيافة حرمة ، لكان الجواب في قذال الدمستق [1] ، والنعل حاضرة ان عادت العقرب ، والعقوبة ممكنة ان اصرّ المذنب ، وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ملؤها حبيبها ، حسن فيهما من تودّ ، وكانت انما حلّتك بحلاك ، ووسمتك بسيماك ، ولم تعرك شهادة ، ولا تكلفت لك زيادة ، ولم تكن كاذبة فيما اثنت به عليك ، فالمُعيدي تسمع به خير من ان تراه .

هجين القذال ، ارعن السبال ، طويل العنق والعلاوة ، مفرط الحمق والغباوة . جافي الطبع ، سيء الجابة [2] والسمع ، بغيض الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوسواس ، منتن الانفاس ، كثير المعايب ، مشهور المثالب ، كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، وبيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مخرقة .

فوجودك عدم ، والاغتباط بك ندم ، والخيبة منك ظفر ، والجنة معك سقر ، كيف رأيت لؤمك لكرمي كفاءً ، وضعتك لشرفي وفاءً ، وانّى جهلت ان الاشياء انما تنجذب إلى أمثالها ، والطير انما تقع على أشكالها ، وهلاّ علمت ان الشرق والغرب لا يجتمعان ، وشعرت ان المؤمن والكافر لا يتقاربان ، وقلت الخبيث والطيب لا يستويان » .

ثم يضع على لسانها ما يصمه به من ادّعاء وغرور وحسد فيقول :

---

[1] الدمستق قائد الروم وهو يشير الى قول المتنبي فيه .

[2] الجابة الجواب والمثل يقول اساء سمعاً فأساء جابة .

« ولعلك انما غرّك من علمت صبوتي اليه ، وشهدت مساعفتي له من اقمار العصر ، وريحان المصر ، اللذين هم الكواكب علوّ همم ، والرياض طيب شيم .

فحنّ قدحٌ ليس منها ، ما انت وهم . وانّى تقع منهم ، وهل انت الا واو عمرو فيهم ، وكالوشيظة في العظم بينهم ، وان كنت انما بلغت قعر تابوتك ، وتجافيت عن بعض قوتك ، وعطّرت اردانك ، وجررت هميانك ، واختلت في مشيتك ،وحذفت فضول لحيتك،واصلحت شاربك ، ومططت حاجبك ، ورققت خط عذارك ، واستأنفت عقد ازارك ، رجاءَ الاكتنان فيهم ، وطمعاً في الاعتداد منهم ، فظننت عجزاً . والله لو كساك محرّق البردين ، وحلتك مارية بالقرطين ،وقلدك عمرو الصمصامة ، وحملك الحرث على النعامة . ما شككت فيك ، ولا سترت اباك ، ولا كنتَ الا ذاك » .

ويختم الرسالة بالاهابة به ان يعرف قدر نفسه ولا يتطاول إلى ما ليس من شأنه « ذلك بما قدمت يداك ، لتذوق وبال امرك ، وترى ميدان قدرك » . والرسالة طويلة تكثر فيها الاشارات التاريخية ، والامثال العربية . وقد شرحها ابن نباتة في كتابه سرح العيون فليراجعها من شاء [1] .

رسالة النمس [2]

للقاضي محيي الدين ابي الفضل يحيى ويرجع نسبه إلى عثمان بن عفان كتبها حين وروده إلى القاهرة وذلك سنة ٦٢٩ هـ.

ذكر القلقشندي هذه الرسالة في باب ما يكتب به الحوادث والماجريات

١ ولابن زيدون رسالة الى أبي الوليد ابن جهور شرحها ابن ايبك وقد نقل بعضها في المقتبس ٥٤٢-٥٤٦ فلتراجع . وقد ترجم له احمد الاسكندري في مجلة المجمع العلمي بدمشق ١١-٥١٣ وذكر بعض رسائله .

٢ صبح الأعشى ١٤ ص ٢٥٢ - ٢٦٢

وقال : « ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فاذا وقعت للاديب ماجرية واراد الكتابة بها إلى بعض اخوانه حكى تلك الماجرية في كتابه مع تنميق الكلام في ذلك ، اما ابتداءً او جواباً ، عند مصادفة ورود كتابه إذ ذاك اليه[1] » .

وهي من النوع الثاني — يبدأ كاتبها بوصف رسالة وردته من بعض معارفه ويتأنق في ذلك الوصف في نحو صفحتين من مثل قوله :

« وفضضتها عن مثل النور تفتحه الصبّا ، وبرود الرياض تساهمت في اكتساء وشيها الاهضاب والربا .. في كل فقرة روضة ، وكل معنى كأس مدام ، وكل ألف ساقٌ وكل سين طرّة غلام ، وكل واو عطفة صدغ ، وكل نون تقويس حاجب ، وكلّ لام مشقة عذار ، وكلّ صاد خطة شارب ، فلما اجتليت منها المعاني المسهبة في اللفظ الموجز ، وأجلت طرفي منها ما بين نزهة المطمئن وعقلة المستوفز ... سألت خاطري الجامد ان يعارض بوابله طلّها ، وان يقابل بجثمانه ظلها » .

ثم يأخذ بوصف حاله حين ورود الرسالة اليه وانشغال خاطره بمحاربة الزمان له وقلقه لتراكم الهموم عليه ويملأ من ذلك نحو ثلاث صفحات ثم يقول :

« فبينا انا أعوم في هذه الخواطر متفكرا ، واقرع سنّ الندم على تقضّي عمري في غير مأربي متحسّرا ، واتسلّى بمصارع الاولين اخرى معتبرا ... فاستروحتُ إلى فتح باب كان مُرتجا ، وارتدتُ باستجلاء محيّا السماء من بعض همّي فرجا .... ففتحته عن شُباك كتخطيط الآفاق ، أو كرقعة شطرنج وضعت بين الرفاق ...؛ يُشرف إلى غيضة قد التفّت اشجارها ، ورقصت اغصانها إذ غنّت اطيارها » ...

ويجري كذلك في وصف الروضة والليل والكواكب والنسيم :

---

[1] صبح الاعشى ١٤ — ٢٥٢ — ٢٦٢

« حتى هتف بشير النجح بمن احيا ليلته ، لما تمزّق قميص الليل والفرى : عند الصباح يحمد القوم السرى » .

ثم يقول :

« فبينا انا اتفكر في ان جملة ما عاينته سيصبح زائلاً ، وعن تلك الصبغة العجيبة حائلا ، إذ اهدت إليّ الايام احدى طُرفها وغرائبها ، وكبرى اوابدها وعجائبها ، فطرق سمعي من الشباك نبأة، وتلتها وجبة تتبعها وثبة ... وإذا بنمس قد فارق وجاره إلى وجاري ، واختارني على الصحراء جارا فارتضيته لجواري » .

ويعقب ذكره لصلاته ثم انفتاله من المصلّى ورؤيته غلامه جريحاً وقد انتضى سيفاً هزّه في وجه النمس ، فيزجر الغلام ويقبض على الحيوان فيستجلي صورته ثم يصف في نحو صفحتين خلقه واعضاءه وحركاته ويحدّثنا بعد ذلك انه شدّ وثاقه وانصرف إلى البلد لبعض شأنه . قال :

« فلما قضيت نهمتي من نجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألفيته عمد إلى الوثاق فقرضه وصال على شيخة تستمد بدعائها ، وتفزع ان دهمنا همّ قبل نداء اولي البطش إلى ندائها » .

وبعد ان يصف حال تلك الشيخة المسكينة بنحو عشرة اسطر يقول :

« واتيته بسلسلة تنبو انيابه عن عجمها . ولا تتبت شياطين مكره برجمها .... فتغيّظ تغيّظ الاسير على القدّ ، ونظر إليّ بطرف حديد ، وتذلّل بعد يأس شديد ، وبصبص بذنبه فقلت « أذكراً وانت في الحديد » ؟.

وبعد حديث النمس يختم الرسالة إلى صديقه معتذراً بقوله :

« فلما تمّ ما ذكرته ، وأبدأته وأعدته ، وردت رقعة سيدنا على عقابيل هذه الوقعة التي وقعت ، وصدّت عن الجواب ومنعتْ ، واقتصى بي الحال كتابة هذه الخرافة وان تشبثت باذيال الجدّ ،

فاخرجتها مخرج الهزؤ وان دلت على علو حوز قصبات المجد ، ليعلم ان في الزوايا خبايا ، واذا صحّ ان عليهـا ينبت الشجر ، فانا ابن جلا وطلاع الثنايا » .

ويستمر على ذلك إلى آخر الكلام .

* * *

ويكثر في هذه الرسالة عدا التسجيع والبديع اقتباس الامثال ومأثور الكلام كقوله :

وكيف توقّي ظهر ما أنت راكبه .

افرغ من حجام ساباط — مثل .

يرى بالجود طلعة نائر ، وبالعرمس (الناقة) غرّة آئب — من بيت لابي تمام .

إذا ذلّ مولى المرء فهو ذليل — من بيت .

فشق له من الظلماء فجرا وابدى له وجهاً مكفهرًا — من شعر لابن بشر في الاسد .

والعوان لا تعلَّم الخِمرة — مثل .

كأنه كوكب في اثر عفريت — من بيت .

فلقد انصف القارة من راماها [1] — مثل .

فالفحل يحمي شوكهُ معقولا — مثل .

وغير ذلك من هذه المقتبسات .

رسالة الشكر على نزول الغيث [2]

لابى عبد الله محمد بن ابي الخصال الغافقي الاندلسي (من أهل

[1] القارة اسم قبيلة مشهورة بالرماية .

[2] صبح الأعشى ١٤ ص ٢٣١

القرن السادس الهجري) قال بعد الحمد والشهادة - يصف الجدب :

« ولما لقحت حرب الجدب عن حيال، واشفق ربّ الصريمة والعيال، وتنادى الجيران للتفريق والزيال ، وتناوحت في الهبوب ريحا الجنوب والشمال ، وتراوحت على القلوب راحتا اليمين والشمال ، وأحضرت انفس الاغنياء الشحّ ، وودوا ان لا تنشأ مزنة ولا تسحّ ، وتوهم خازن البُرّ ، ان صاعه يعدل صاع الدرّ ، وخفّت الازواد ، وماجت الارض ، واصبحت كل قنّة فدعاء ، وهضبة درعاء : انشأ الله العنان ، وقال له : كن فكان .

فبينما النجوم دراريها الاعلام ، واغفالها التي لا تحمد عندهم ولا تلام ، قد اختلط مرعاها بالهمل ، ولم تدر السدة بالحمل ، ولا علم الجدي بالرئبال ، ولا احسّ الثور بالرامي ذي الشمال ، إذ غشيتها ظُلَل الغمام ، وحجبتها استار كاجنحة الحمام ، واخذت عليها في الطروق، مصادر الغروب والشروق ، فما منها الا مقنّع بنصيف ، أو مزمّل في نجادٍ خصيف ، لم تترك له عين تطرِف ، ولا ثقبة يطلع منها أو يشرف ، فباتت بين دور متداركة السقوط ، وديَم منحلّة الخيوط ، وجيوش منصورة الاعلام ، ثابتة الاقدام ، وكتائب صادقة الهجوم ، صائبة الرجوم ، تطلب المحلّ ما بين التخوم والنجوم ، وما زالت ترميه باحجاره وتحرّشه في اجحاره ، وتغزوه في عقر داره ، حتى عفت على آثاره ، وأخذت للحزن والسهل بثاره .

فيا أيها المؤمن بالكواكب ، انظر إلى الديم السواكب ، واسبح في لجج سيولها ، وارتع في ممر ذيولها ، وسبح باسم ربك العظيم الذي قذف بالحق على الباطل ، وأعاد الحلي إلى العاطل ، فبرود الظواهر مخضرّة ، وثغور الازاهر مفترّة ، ومسرّات النفوس منتشرة ، والدنيا ضاحكة مستبشرة ، وارواح الادواح حاملة ، واعطاف الاغصان مائلة، واوراق الاوراق تفصّل ، واجنحة الظلال تراش وتوصل . وخطباء

الطير تروي وتخبر ، وشيوخ المحارب تهلل وتكبر ، وانْ من شيء الا يخضع لجبروته ، ويشهد لملكوته ، وتلوح الحكمة ما بين منطقه وسكوته . »

ثم يصف حال الطيور بعد ذلك الغيث وما نالها من فرح وحبور وينتقل إلى وصف الزهور « من نرجس ترنو الرواني باحداقه ، وتستعير الشمس بهجة اشراقه » ...

إلى « اقحوان جرى على الثنايا الغرّ ، وسبك من ناصع الدر » ؟

« وبنفسج كاطواق الوُرق ، أو كاليواقيت الزرق » الخ ...

إلى أن يقول :

« وكل ربوة قد أخذت زخرفها وازّينت ، وبيّنت من آيات الله ما بينت كما تتوّج في إيوانه كسرى ، واستقبلته وفوده تترى ، وانقلبت عن حسن ناديه النواظر حسرى ؛ وكل تلعة مذانب نصولهـا تسـلّ ومضارب فصولها لا تثنى ، واراقم تنساب ، ولجين يدأب ويذاب ، على حافاتها نجوم من النور مشتبكة ، وجيوب عن لبّات الغواني منتهكة، فلو افتتحت الظهور والبطون ونطقت السهول والحزون ، لقالت : « قتل الخرّاصون الذين هم في غمرة ساهون » .

ويختم الرسالة بعشرة اسطر في شكر الله وتعظيمه والاقرار بوحدانيته والتماس الخير منه .

مفاخرة بين السيف والقلم [1]

للقلقشندي صاحب صبح الاعشى انشأها للمقرّ الزيني الظاهري سنة ٧٩٤ وسمّاها « حلية الفضل وزينة الكرم ، في المفـاخرة بين السيف والقلم » .

---

[1] صبح الأعشى ١٤ ص ٢٤٠

وباب المفاخرة في الانشاء العربي واسع وقد تفنن الكتبة فيه فنطقوا بلسان الازهار والعلوم وادوات الملك وغير ذلك . وكل هذه المفاخرات من قبيل الرسائل الادبية وهي تجري على وتيرة واحدة من حيث المحاورة في وصف المفاخر الذاتية والتزام السجع والنكات البديعية .

وهذه المفاخرة انموذج حسن لهذا الضرب من الترسّل — تبدأ بحمد الله والصلاة على النبي وآله وصحبه « الذين قامت بنصرتهم دولة الاسلام فسمت بهم على سائر الدول ، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعادت بخلوق النصر لا بحُمرة الخجل » .

ثم يذكر تحاسد المتقاربين في الرتبة وانه « لما كان السيف والقلم قد تدانيا في المجد وتقاربا ، واخذا بطرفَيْ الشرف وتجاذبا .... جرّ كلٌّ ثوب الخُيَلاء فخراً فمشى وتبختر ، واسبل رداء العُجب تيهاً فما تخبّل ولا تعثّر ، واتسع له المجال في الدعوى فجال ، وطاوعته يد المقال فقال وطال » .

• • •

ويبدأ القلم مفاخرته فيقول بعد مقدّمة : « واني لأول مخلوق بالنص الثابت والحجة القاطعة ، والمستحقّ لفضل السبق من غير منازعة ، أقسم الله تعالى بي في كتابه ، وشرّفني بالذكر في كلامه لرسوله وخطابه .. فكان لي من الفضل وافر القسمة ، وخصّصت بكمال المعرفة ، فجمعت شوارد العلوم ، وكنت قيّم الحكمة . »

فيجيبه السيف : « وانت وان ذكرت في التنزيل .... فقد حرّم الله تعالى تعلّم خطّك على رسوله ، وحرمك من مسّ انامله الشريفة ما يؤسى على فوته ، ويسرّ بحصوله ، لكني قد نلت من هذه الرتبة اسنى المقاصد ، فشهدت معه من الوقائع ما لم تشاهد » .

وتستعر نار المساجلة فتتفجر ينابيع الفصاحة من حدّيهما ، فلا يأتي هذا على ذكر مفاخر له معروفة حتى ينبري ذاك فيعارضها بمفاخر أعلى .

ولقد ترامى الخصمان بلواذع الكلام كقول القلم للسيف « أنسيت إذ انت في المعدن تراب تداس بالاقدام ، وتسفك الرياح وتُزري بك الايام . ثمّ صرت إلى القَين تقعد لك السنادين بالمراصد ، وتدمغك المقامع وتسطو بك المبارد » .. فيقول السيف :

« انّا لله ! لقد استأسدت الثعالب ..... فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق ابناء جنسك ، ووقفت عندما حُدّ لك ، وذكرت عجزك وكسلك لكان اجدر بك ، وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك » .

وبعد جدال طويل عِلّ القلم لرقة طبعه الخصام ، فيميل إلى الصلح ، ويجنح إلى السلم . قال الكاتب :

« واقبل على السيف بقلب صاف ، ولسان رطب غير جافّ ، فقال لقد طالت بيننا المجادلة ، وكثُرت المراجعة والمقاولة ، مع ما بيننا من قرابة الشرف .. فهل لك ان نعقد للصلح عقداً لا يُتعدّى حدّه ، ولا يُحلّ على طول الزمان عقده » فقبل السيف ذلك .. قالا :

« لا بدّ من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم نرجع في ذلك اليه ، لنحظى بزيادة الشرف ، ونظفَر من كمال الرِفعة بغرف من فوقها غُرَف . ولسنا بفائزين بطلبتنا ، وظافرين ببغيتنا الاّ لدى السيد الاكمل (إلى آخر نعوت الممدوح) وتجري نعوته في نحو صفحة كبيرة »

« ثم لم يلبثا ان كتبا بينهما كتاباً بالصلح والمصافاة . وتعاهدا على الودّ والموافاة .... وزالت عنهما الاحقاد والإحن . وباتا في اعزّ مكان واشرف وطن »

• • •

ومما يجري مجرى الرسائل الادبية ما جرت عادة الكتّاب عليه من انهم يتكاتبون بالمسائل اما على سبيل الاستفهام واما عن سبيل الامتحان والتعجيز . قال القلقشندي [1] : « ثم تارة يُجاب على تلك الاسئلة

---

[1] صبح الاعشى ١٤ ص ٢٤٠

باجوبة فتكتب ، وتارة لا يجاب عنها بحسب ما تقتضيه الحال » . ومن أمثلة ذلك رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المصري إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الانشاء بالمملكة الشامية . وقد بلغه ان بعض اهل الديوان نال منه ، وان الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع فكتب اليه يشكره على ذلك ويسأل كتّاب الديوان عن اسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الانشاء واكثرها يرجع إلى فنّ التاريخ [1] ومن تلك الاسئلة قوله :

من كتب في الورق واستنبطه ؟ ومن ختم الكتاب بالطيف وربطه ؟
ومن غيّر طين الكتاب بالنشا وضبطه ؟
وما اوجز مكاتبة كُتب بها عن خليفة في معنى . وما ابلغ جواب واوجزه اجاب به عن خليفة من لا سمّى ولا كنّى ؟
وكيف يهنّىء من زوّج بعد موت أبيه أمه ، ويعزّي والداً قتل ولده وولداً قتل والده ويصوّب حكمه ؟

إلى غير ذلك من هذه الاسئلة التي كانوا يتساءلونها اظهاراً لفضل او تعجيزاً لخصم [2] .

رسالة في صيد الملك الناصر بن الملك منصور قلاوون[3] (٧٤٠)

للقاضي تاج الدين البازياري نثبت منها ما يلي :

« وفي خلال كل عام تصرف عزائمه الشريفة إلى ابتغاء صيد الوحش والطير : لما في ذلك من تمرين النفوس على اكتساب التأييد ، وحصول المسرة بكل ظفر جديد ، فيرسم — خلد الله سلطانه — في الوقت الذي

١ صبح الأعشى ١٤ ص ٢٤١
٢ راجع تفصيل ذلك في صبح الأعشى ١٤ ص ٢٤٠ — ٢٥١
٣ صبح الأعشى ١٤ ص ١٦٥ — ١٧٢

يرمم به من مشتى كل عام باخراج الدهليز المنصور فينصب في بر الجيزة بسفح الهرم ، في ساعة مباركة آخذة في اقبال الجود والكرم ، فتمد بالتأييد اطنابه وترفع على عمد النصر قبابه ويحاط بحراسة الملائكة الكرام رحابه ، وتضرب خيام الامراء حوله وطاقا ، وتحف به مثل النجوم بالبدر اشراقا » .

وبعد ان يصف عبوره النيل يقول :

« واستقرّ على جواد شرفت صهوته ، وقرنت بالاناة والسكون خطوته ، عربي النّجار ، يختال في سيره كأنما انتشى من العقار .

وسار في زروع مخضرّة ، وثغور نبات مفترّة ، وقد طلعت للظفر شموسه وبدوره ، وأعدّت للصيد بزاته وصقوره ، من كل متوقّد اللحظ من الشهامة ، محمول على الراحات من فرط الكرامة ، يتُوسم فيه النجاح ، قبل خفق الجناح ، ويخرج من جو السماء ولا حرج ولا جناح .

ويأمر – خلد الله سلطانه – امراءه فيضربون على الطير حلقة وهي لاهية في التقاط حبّها ، غافلة عما يراد بها ، فيذعرونها بخفق الطبول وضربها ومولانا السلطان – خلد الله ملكه – لنافرها مترقّب ، ولطائرها بالجارح معقّب ، فما يدنو الكركي مقرورا ، حتى يؤوب مقهورا ، ساقطاً من سمائه إلى أرضه ، ومن سعته إلى قبضه . فسبحان من خلق كل جنس وقهر بعضه ببعضه : هذا والجارح قد انشب فيه مخالبه ، وسدّ عليه سبله في جوّ السماء ومذاهبه ، ولم يزل – خلد الله تعالى سلطانه – عامة يومه متوغلاً في التمتع بلذات صيوده ، واوقات سعوده ، وحصول اربه ومقصوده ، وجنود الملائكة حافّون به وبجنوده ، حتى ينسخ الليل النهار بظلمائه ، ويلمع الطارق باضوائه ، فيعود عند ذلك الركاب الشريف إلى المخيّم المنصور والجوارح كاسبة ، والاقدار واهبة ، والجوارح مسرورة ، والطيور مأسورة ، والنفوس ممتّعة ،

والمواهب منوّعة ، والأرجاء مضوّعة .

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير ، فعند ذلك يثني عنان السير ، إلى اقتناص الوحش فيعد لامساكها كل هيكل قيد الاوابد ، قد عقد الخير بناصيته فاصبح حسن المعاقد » .

ويتقدم بعد ذلك إلى وصف خيسله واوابد الوحش جنساً جنساً وجند السلطان وامرائــه ثم قفوله إلى القلعــة « فيأخذ فيها بَطن من مصالح المسلمين وظهر ، وتنشده ألسنة السلامــة مــا املى عليهــا العز والتأييد والظفر » .

والرسالة طويلة وهي في غــاية الاناقــة الانشائية المعهودة في ذلك العصر .

وصف قصيدة نظمها ابن حجاج[1]

من انشاء القلقشندي صاحب صبح الاعشى (٧٨٢هـ)

يبدأ الكلام بتحميدة تقع في ستة اسطر وبعد ان يذكر انه اطلع على هذه البديعية يقول في وصفها[٢] :

« فالفيتها الدرة الثمينة غير انها لا تسام ، والخريدة المخدّرة الا انها لا يليق بها الاحتشام ، قد اتخذت من الاحتشام معقلاً وحصناً لا يُغشى ، وانتبذت من حسادها مكاناً قصيّاً فلا تخاف دركاً ولا تخشى .

اراد المدعي بلوغ شأوها والجري في مضمارها فقيل : كلاّ ، ورام الملحد في آياتها الغضّ منها عناداً فابى الله الاّ .

فامسوا في معارضتها غير طامعين ، وتلت عليهم آيات بلاغتهــا :

---

١ صبح الأعشى ١٤ ص ٣٣٧–٣٤٠

٢ نثبت منها النثر دون ما يتخلله من أشعار

« فظلت اعناقهم لها خاضعين » .

وكيف لا تخضع لها الاعناق ، وتذل لها رقاب الشعراء على الاطلاق وهي اليتيمة التي أعقمت الافهام عن مثلها ، والفريدة التي اعترف كل طويل النجاد بالقصور عن وصلها ، وانّى بذلك وقد اخذت من المحاسن بزمامها ، واحاطت من الطلاوة بكمامها ، واحدقت رياض الادب بحدائقها ، واقتطفت من افنان الفنون ثمار معان تلذّ لناظرها وتحلو لذائقها ، وتصرّفت في جميع العلوم وان كانت على البديع مقصورة ، وشرفت بشرف متعلّقها فاصبحت بالشرف مشهورة .

لا جرّم اضحت أمّ القصائد وكعبة القصّاد ، ومحط الرّحال ومنهل الورّاد ، فأربت في الشهرة على « المثل السائر » ، واعترف بفضلها جزالة البادي وسهولة الحاضر .

فاعجب بها من بادرة جمعت بين متضادين سِحرٍ وسَمَر ، وقرنت بين متباعدين زُهرٍ وزَهر ، وجادت بمستنزهين روضٍ ونهر ، وتفننت في أساليب الكلام وجالت ، وطاوعتها يد المقال فقالت وطالت ، ودعت فرسان العربية إلى المبارزة فنكصوا ، وتحقق المفلقون العجز عن مؤاخاتها ولو حرصوا .

ان ذكرت الفاظها فما الدر المنثور ؟ أو جليت معانيها اخجلت الروض الممطور ، أو اعتبر تحرير وزنها فاق الذهب تحريرا ،أو قوبلت قوافيها بغيرها زكت توفيراً وسمت توقيرا ، أو تغزّلت اسكتت الوُرق في الاغصان ، أو امتدحت قفّت اثر « كعب » وسلكت سبيل «حسان[1]» فاطنابها — لفصاحتها — لا يعدّ إطنابا ، وايجازها — لبلاغتها — يمدّ على المعاني من حسن السبك أطنابا .

هذا وبراعة مطلعها تحثّ على سماع باقيها شغفا ، وبديع مخلصها يسترق الاسماع لطافة ويسترق القلوب كلفا ، وحسن اختتامها تكاد

١ كعب بن زهير وحسان بن ثابت .

النفوس لحلاوة مقطعه تذوب عليها اسفا .

وبالجمله فمآثرها الجميلة لا تحصى ، وجمائلها المأثورة لا تعدّ ولا تستقصى ، فكأنما « قسُّ بن ساعدة » يأتمّ بفصاحتها ، و « ابن المقفع » يهتدي بهديها ويروي عن بلاغتها ، و « امروءُ القيس » يقتبس من صنعة شعرها ، و « الاعشى » يستضيء بطلعة بدرها ، فلو رآها « جرير » لرأى ان نظمه جريرة اقترفها ، أو سمعها « الفرزدق » لعرف فضلها وتحقق شرفها ، أو بصر بها « حبيب بن اوس » لأحبّ أن يكون من رواتها ، أو اطلع عليها « المتنبي » لتحير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها .

ولا نطيل فمبلغ القول فيها أنّ آيتها المحكمة ناسخة لما قبلها ، وبرهانها القاطع قاض بان لا تسمح قريحة ان تنسج على منوالها ولا يطمع شاعر ان يسلك سبلها » .

والذي يتأمل الرسائل الآنفة الذكر وسواها يرى ان التأنق الانشائي أو التكلف البديعي قد زادت رغبة الكتاب فيه بعد القاضي الفاضل حتى انه ليجوز لنا ان نقول ان الانشاء بعد القرن السادس الهجري كان صناعة متكلفة يتنافس صنّاعها في زخرفتها وتزويقها . ومن أفضل الامثلة على ذلك كتاب نسيم الصبا لبدر الدين ابن حبيب الحلبي المتوفي ٧٧٩ ﻫ . وهو مجموعة فصول تبلغ الثلاثين يصف بها منشئها ظواهر شتى من الطبيعة والحياة والاخلاق وصفاً ذهب في التأنق والتكلف فيه كل مذهب . على ان اهل عصره أعجبوا به واثنوا على براعة منشئه حتى قال فيه الصفدي شارح لامية العجم ، وهو من ائمة المنشئين : « هذا الانشاء الذي ما له عديل في هذا العديد ولا ضريب ، وهذا الكلام الذي فاق في الآفاق فما لحبيب بن اوس حسن ابن حبيب . فعين الله تعالى على هذه الكلم الساحرة ، والفوائد التي ايقظت جفن الادب بعدما كان بالساهرة ،

ومتع الله تعالى الزمان واهله بهذا النوع الغضّ ، والنقد النضّ ، والبز البضّ ، والبديع الذي رمّ ما تشعّث من ربع هذا الفن ورضّ [1] »

والفصول كلها على نسق انشائي واحد فنكتفي بفصل منها انموذجاً لاسلوب الكتاب – وهو الفصل الحادي والعشرون في الكتابة والكتاب – وقد تغارب كاتبه في الاشارات البديعية فقال [2] .

« الكتابة الهمك الله معرفة فضلها ، ولا حرمك نفع صداقة أهلها، اشرف الوظايف والمناصب ، وارفع المنازل والمراتب ، واقاح صناعة ، واربح بضاعة ، قطب دائرة الآداب ، وصدر اسرار الالباب ، ورسول صادق ، ولسان بالحق ناطق ، وسيف تُحدّ بحده المعارف ، وميزان يميز التالد من الطارف ، تُلحق خبر الحاضر بالغائب ، واليهـا تنتهي الآمال والرغائب . »

وبعد أن يسهب في مثل هذه الاوصاف ينتقل إلى ذكر الكتّاب فيقول:

« والكتّاب عماد الملك واركانه ، وعيونه المبصرة واعوانه ، وبهاء الدول ونظامها ، وروؤس الرياسة وقوامها . ملابسهم فاخرة ، ومحاسنهم باهرة ، وشمائلهم لطيفة ، ونفوسهم شريفة . مدار الحل والعقد عليهم، ومرجع التصرف والتدبير اليهم . يهدون إلى الاسماع أنواع البديع ، وينزّهون الاحداق في حدائق التوشيح والتوشيع . هم اهل البراعة واللسَن ، وشيمتهم لف القبيح ونشر الحسن » .

ويقول في وصف اقلامهم ·

« بايديهم اقلام تختلس بلطفها الاحلام ، صافية الجواهر ، زاهية الازاهر ، لينة الاعطاف ، ناعمة الاطراف . تبكي وهي مبتسمة ، وتسكت وهي بما يطرب السمع متكلمة ، قد اعتدلت قدودها،واشرقت في سماء البراعة سعودها . اسنّتها مرهفة ، ومطارفها مفوّفة . نشأت على

١ باب تقاريظ الكتاب ٧

٢ نسيم الصبا ٧٧–٨٠

شطوط الانهار ، وتعلمت اللحن من أعراب الاطيار ، طويلة الانابيب تسلب القلوب بحسن الاساليب ، تدهش الناظر وتخجل العامل ، ولا ترضى بامتطاء غير الانامل . الشجاعة كامنة في مهجتها ، والفصاحة جارية على لهجتها ، تبهر بالنضارة نواظر البهار ، وتطرّز بالليل اردية النهار ، ان قالت لم تترك مقالاً لقائل ، وان صالت رجعت السيوف مستترة باذيال الحمائل » .

إلى أن يقول :

« لله أطراسها التي اضاءت بمدادها ، واشبهت عيون العين ببياضها وسوادها ، وانطوت المحاسن تحت رق منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على اغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ،وقراطيس تزفّ إلى الاسماع عرائس القرائح . البسها الحبر اثواباً من الحبَر ، ودبجها صواب الفكر لا صوب المطار ، كم حازت من در منظوم وعلم لفظ بوشي المعاني مرقوم ، وفقر تفتقر اليها أجياد الحسان ، وغرر كلم تذهب العقول بسحرها وإن من البيان !

فاجتهد اعزّك الله في طلابها ، واحرص على الدخول في زمرة اربابها ، وتمسّك باذيال بنيها ، تجد جواداً أو نبيلاً أو نبيهاً : وحسبهم شرفاً ان الله تعالى نوّه بذكرهم في العالمين ، ووصف الكتبة بالحفظ والكرم فقال وان عليكم لحافظين كراماً كاتبين ! »

الترسل الادبي في العصر العثماني

لم يطرأ على الانشاء تغير فجائي في العهد العثماني ولكن بذور الفساد كانت قد غرست في تربة الانشاء العربي فنمت في هذا العصر نمواً تدريجياً ولم يكد يدخل القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر للميلاد) حتى اينعت وعظم امرها . وبينا نرى التأنق البديعي أيام القاضي الفاضل

وما بعده مقروناً بمتانة التركيب نراه في القرنين السابقين للنهضة الأخيرة يكتسي اطار الغثاثة والركاكة كما يتبين لك من الامثلة التالية (وهي من انشاء القرن الثاني عشر للهجرة [١] .)

تبريك بمكتوب الى باشا في تقرير المنصب

ان ابدع ما تزينت صحائف المداد ، وابرع ما استهلّ به متمسك بذيل الولاء والاعتقاد ، واحلى ما سارت به سايرة الاقلام ، واحصى ما تراسلت به القراطيس في لطف اماني الاحلام ، شرايف تحيات نشرها عميم ، وصالح دعوات تتنافس كما الدر النظيم ، تهدى إلى جناب ولي النعم ، كريم الشيم ، عالي الهمم : كان الله تعالى له حيث كان ،وغمره بعوايد كرمه الغزيرة في كل وقت واوان ، وبعد فالمنهي إلى الجناب العالي ، انه لما طرقت المسامع عواطف الدولة العلية بالمقرّ المنيف ، على جنابكم الشريف ، اخلص الفقير الداعي بجزيل الدعا ، وجليل الثنا ، لجناب سعادتكم ، وحصل له غاية الفرح والسرور ، والحظ الموفور ، فهنأكم الله تعالى ، بما نالكم وبوّأكم بنعمه إلى حسن مآلكم ، ولا زال الزمان لكم خادما ، والسعادات مقرونة لسعادتكم دايما ، ولا برحت تسعى إلى باب فضلكم صدور المعالي بل وجوه القبايل ويشار اليكم في السعادة والهنا ويومأ إلى تعظيمكم بالمحافل ، وجناب سعادتكم في أمان، ما تعاقب الملوان وشعشع النيّران .

---

١ ننقل هذه الرسائل من مخطوطة في مكتبة عيسى اسكندر معلوف اسمها « مجموع ارشادات في لطايف المكاتبات وتحايف المراسلات » وقد تكرم علينا رحمه الله بمطالعتها والاستشهاد بها .

لزيادة الاطلاع راجع أيضاً الحلة الذهبية في الرحلة الحلبية وهي مخطوطة تتضمن رحلة في ديار الشام لمصطفى البكري في القرن الثامن عشر نشر فصولا منها أحمد سامح الخالدي في الرسالة ١٦ ابتداء من ص ٩٧٦

ديباجة مكتوب الى احد الأكابر

ان ارضاً تشرّفت بمواطئ تلك الاقدام ، وتمسكت باذيال ذلك الهام لجديرة بان تقبّل بسواد الاحداق دون بياض الاوراق . وتلثم بالافواه والمحاجر ، دون ثغور السطور والمحابر : غب اهدا لطايف تحيات نشرها فايح طيّب الشميم ، وشرايف دعوات ذكرها صالح مقرونة الاجابة من رب رحيم إلى جناب الوليّ الكريم ، من اتخذ افاضة المعروف واغاثة الملهوف مذهبا ، واختصّ بعموم النفع في الارض مشرقاً ومغربا . المشار اليه بالاعالي ، دامت له المعالي ، ولا زال كرمه مختم آمال الراغبين ومحطّ رحال الطالبين ، معروض العبد الذليل ، لحضرة المولى الجليل هو انه كذا — وكذا ..

مكاتبات الى احد الاماجد الفضلا

يقبّل الارض المقبّلة بشفاه المُقل لا بشفاه الثغور . الضاربة سرادق المجد فوق هام النسرَين وهالات البدور ، المسامية بهرام وكيوانا ، الساحبة على مفرق الفرقدين اذيالاً واردانا ، المتخذة الجوزاء نطاقاً ، والثريا شنفاً واقراطا ، والنجوم قلايداً واعلاقا .. (ويجري في ذلك إلى أن يقول)

« ووصف اشواق زنادها له بين القلوب ريٌ وريّ ، وعضبها الماضي الشبا له في أديم القلب شقّ وفريٌ ، ولوعات وفود همومها متتابعة ، وزفرات تضيق بها الانفاس في بيدائها الواسعة ، وشكوى فراق تمنته الاعداء فجاء على وفق الاقتراح ، وعدم المحبّ معه صبراً من حيث راح ، قد حلّ عرى التجلد والاقتدار ، ودار بكؤوس منونه فازهق الارواح من وقت دار .... ان المملوك منذ استولى عليه بعد مولانا وفراقه ، وذاق صاب هجره وبعده المرير مذاقه ، ما خيطت

جفونه على سنة مع وجود إبّر اهدابه ، ولا الف جنبه المضطجَع منذ فارقه ظبي الكناس والحصر مع ليث الفراق في غابه ، وليس له في الليل إذا عسعس ، مسامر غير النجوم الكنّس ، ولا في الليل إذا اسفر ، معاشر غير تمثيل شخص مولانا وخياله المستحضر ، قد نبذ الاخوان والاخدان ظهرياً ، وهزّ اليه نخلة ودادهم فتساقطت عليه حشفاً وكان يجد بقرب مولانا رطباً جنياً . وتطلّب اخاً صادقاً وخلاً مثل مولانا سريّاً ، فناداه الزمان لقد حاولت محالا وجئت شيئاً فريّا ، الخ الكتاب .

صورة مكتوب لبعض السادة الاشراف

تهنية في النقابة تكتب من جانب السادة الاسلام (كذا)

دم في ذرى اوج النقابة راقياً قطب المكارم ما بقيت موقرا

مفخر المدرّسين الكرام ، سليل الافاضل الفخام ، خلاصة السادات الاشراف ، صفوة بني عبد مناف ، صاحب العزّ والشرف ، خلفاً بعد خلف ، غرّة جبهة الايام ، بهجة اولي المجد من الانام ، الذين شادوا مباني العزّ والاكرام ، نهدي سلاماً كالدرّ النظيم ، وثناء يفوق معطار النسيم ، ودعاءً مقروناً بالقبول من السميع العليم ، هذا وان سألتم الخ . (اي عن الكاتب) فانه يعطر مجالسه باحاديث لطفكم ويروّح مجالسه بعبير فضلكم فلا زال هذا السرّ فيه (الممدوح) وفي نسله معنعناً متصل الاسناد صحيحاً من غير ضعف وانقطاع إلى يوم التناد .

ديباجة من المكاتبات الاخوانية والمراسلات الاقرانية

غبّ زواهي زواهر تحيّات تغدو وتروح ، وبواهي بواهر تسليمات منها ارج المسك الاذفر يفوح ، وأثنية كزهر الروض تتأرّج ، وأدعية

كأنها انهار دجلة تتموّج ، (تؤم) تلك الذات السنية ، ذات الاخلاق الرضيّة والمعارف البهية

على ذلك الوجه المنير تحيّـة — مباركة من ربنا وسـلام
ولا زال في عزٍ ومجدٍ ورفعة — موقّى من الاسواء ليس يضام

ولا برح محروساً بعناية الله ، وارف العزّ وافر العام والجاه . هذه تحية مخلص قد اضرّه الفراق ، وصدعت به مرارة الاشواق ، فصار يترقب شفاه بيوم التلاق ، وينشد ودموعه باندفاق :

عسى الله يقضي بالتواصل بيننـا — كما هو فينا بالتهاجر يحكـم

فقد وصل مكتوبه الكريم ، المحتوي على الدرّ النظيم ، والخط المستقيم المبشر بالحظ الوافر المقيم ، فكم من ألفٍ هي كالقوام الرطيب ، وعين كعين الشادن الربيب ، وميم كأنها سرّة كاعب أو مبسم حبيب ، والفاظ كالسحر الحلال ، أرقّ واعذب من ماء الزلال ، فملا القلب نوراً وكساه غبطة وحبورا

فهذا سروري من ملاقاة خطـه — فكيف سروري بالبقاء لقائه

حقق الله ذلك عن قريب ، انه سميع مجيب .

ديباجة مكتوب الى وزير

وكان الوزير ينوي الحج وكادت ركابه تتحرك من صحراء المزاريب ، فكتب اليه احد الوجهاء هذا الكتاب يصف ما قاسوه من العربان ، ويشكره على ما نالوه على يديه من الاطمئنان . ويقدم لكتابه مقدمة دعائية طويلة ، يقول في أولها :

« اللهمّ نتوسل اليك بحق اسمائك الحسنى ، ونتضرع إلى وحدانيتك ازليّة الفضل الاسنى ، ونبتهل لدى عزّتك القوية ، ومواهبك الغزيرة السنيّة ، يا من علّمت الانسان البيان ، وألهمته التبيان » ...

ويجري هذا المجرى في نحو صفحتين إلى أن يقول عن أهل الفساد :

« وكل يوم كان منهم شان ، يزيلون في حوادثهم كل راحة وأمان ، فيا لها من مدة قد مضت في عبوس وامتحان ، واوقات دارجات من غير اطمئنان » .

ثم يقول مادحاً وشاكراً فعل الوزير :

« فانتصب حينئذ قوس السرور في كبد السما ، مبشّراً بوجود مسا اضاعه يعقوب بعد العما ، وأحال خوفنا إلى أمان ، كأنه قوس الميثاق من الطوفان ، وتلألأت شموس الحجّاج تحت رايات قائدهم العظيم اسد البيداء ، صاحب المجد الجسيم ، آمنين من حوادث الملوان (كذا) ، ومطمئنين من اكدار الزمان ، تتلألأ مواكبهم بالابتهاج والسرور ، مسبحين تسابيح الظفران » .

ويتقدم من ذلك إلى قوله :

« فكن بعد الآن أيها الهمام ، والاسد الضرغام ، تدير عليك النعم دورات الافلاك ، محروساً بحراسة الاقطاب والاملاك ، وقد نلت ما لم ينله الاقدمين (كذا) ، وصرت مثلاً للاوّلين والآخرين » :

ثم يختم الرسالة بقوله :

« ولا زال سهمك في نحور حسّادك يصيب ، وعلى القرب والبعد منهم لا يخيب ، ما غرّد العندليب على اكمام الشجر ، وما ضاء القمر على البدو والحضر » .

ومما يحسن ذكره من هذه المجموعة كتاب الشوق (ص ٢٧٤–٢٩٠) وهو كتاب طويل يتخلله اشعار ويذكر فيه الكاتب على الطريقة المسجعة المتكلفة ألم الفراق والشوق إلى روئية المكتوب له ، ثم يختمه بحلم رأى فيه « الاخ الكريم » بصورة شاب ابهى من الشمس فيعاتبه على هجره ، ويذكر جواب ذلك الأخ وبكاءه لفراق الاحبّة وينهي الكتاب بكلمة يزجر فيها البين فيقول :

« تبّاً لك ايها البين وتعساً لك ايها النوى ، لحاك الله ايها البعد لأن القرب دنا . حتّامَ تعيق خطوات الوصال ، فلتضمحلّ من طريقه ليحظى المحبّ بمحبوبه ، هلمّ ايها المحب وارحم من مزج شرابه بدموعه ... فكن مقيماً بالسعادة والسرور ، إلى يوم النشور ، ثم اهديك سلاماً يفوق الوصف . اخوتي وجميع الاهل يهدوك (كذا) السلام والدعاء »

والمجموعة كلها من هذا الانشاء المسجع الغث ويكثر فيها اغلاط النسخ والانشاء . وهي قسمان ما يُكتب إلى ارباب الدولة وسادات المسلمين والعلماء ، وما يكتب إلى رؤساء المسيحيين واعيانهم .

وتتوقف أهميتها على انها تحفظ لنا نماذج مختلفة من انشاء القرن الثاني عشر الهجري . وهي تؤيد قولنا انه كان عموماً شديد التكلف والركاكة ، رثّ الديباجة ، قليل الرواء . على ان الاوساط الادبية على ما يظهر كانت يومئذٍ احسن حالاً من الاوساط الديوانية التي انحطت إلى دركة العاميّة وخرجت عن نطاق الاوضاع الفنيّة .

ونختم النماذج الادبية في هذا العصر برسالة كتبها احد الادباء ويكنى البهلول إلى استاذه الشيخ عبد الغني النابلسي توطئة لقصيدة قدّمها البهلول إلى الشيخ المذكور .

من رسالة البهلول الى النابلسي[1]

« متّع الله الوجوه بجناب جمال درّة اكليل تاج المحققين ، وواسطة عقد المدققين ، من سما إلى سما اسرار حقيقة حق اليقين ، انسان عين روح البلاغة ، ومقاليد البراعة ، من تحلى بحسن وصفه الطروس ، وتحنّ

١ تاريخ الأمير حيدر ٢٢

شوقاً إلى طيب ذكره النفوس ، من حلّ ذرى المجد ورقي مجبوحة الآداب ، واوتي بالحكمة وفصل الخطاب ، شمس افضال ترقرقت من سما المعارف ، وكعبة اجلال اشرقت بسناء العواطف » .

ويجري على النمط إلى قوله :

« أما بعد فقد تجاوز القاصر حدّه وتعدّاه ، بالهجوم على جناب ذوي الفضل والحياه [1] ، ولكن توقع الصفح الجميل ، حملني على مدح هذا السيد الجليل ، بسجعات معتلة ، ولفظات مختلة ، وقصيدة هي وان كانت عند منظومات آل البلاغة بمعزل ، لكنها بمحاسن اوصافكم تجلّ وتفضل ، بذكرى حبيب ومنزل . لقد طابت بكم القريحة السليمة ، بعرأه (كذا) هذه الدرّة اليتيمة ، فجاءت مفتخرة مهذبة عربا ، وتتباهى تيهاً وتفخر عجباً ، وتسمو على كل نظم شرقاً وغربا ، فيا لها حسن منظومة لم ينسج منوالها ، ولم تسمع قريحة بامثالها ، قد افترت ثغور [2] البلاغة بطيب معانيها ، وابنعت محيا الفصاحة بطلاوة مبانيها » .

ويأخذ في وصف القصيدة وغرائب صنعتها إلى أن يقول :

« فيا لها عروساً ارقّ من نسمات السحر والآصال ، والطف من صفا الودّ وصافي الزلال . ليس مهرها الا الاغضاء وحسن القبول ، ولعمري ان هذا غاية المسؤول والمأمول ، ولم تكمل هذه الاوصاف الحسنى . الا بنظمها لمديحك الاسنى » .

* * *

دخل القرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري) والرسائل الادبية على ما كانت عليه في القرن السابق . وظلّ السجع مدة طويلة اسلوب الكتاب العام فيه . ثم اخذ الانشاء يتحوّل عن الاسلوب القديم المقيد إلى الاسلوب الجديد الحرّ ، وقد اعان على ذلك انتشار العلم والتجارة

---

١ كذا في الأصل ولعلها للجاه .

٢ في الأصل صغر .

والاحتكاك بالعالم الغربي ، ثم نشوء الصحافة وانتشارها بين طبقات الشعب فلم يكد يبلغ القرن التاسع عشر عصاراه حتى كان الترسّل الادبي قد أخذ يخلع عنه اطمار القدم . على ان ذلك لم يتم فجأة كما يتبين لنا من مراجعة النصوص في القرن المذكور [1] . حتى الصحافة التي هي أقرب إلى الجمهور من سواها ظلت مدّة من الزمن تميل إلى التسجيع وعلى ذلك قال فقيد الصحافة داود بركات يصف الاسلوب الصحافي قبل اربعين سنة [2] :

« ان تطوّر الصحافة تابع لتطوّر الامة فقد كان الكاتب يعدّ عظيما بنسبة قدرته على التطويل وابتكاره للسجعات واستشهاده بالاشعار والامثال . ولما كنت انا في طنطا كانت تسمى طنطدا ولكن حبّ كتاب ذلك الزمان للسجع جعلهم يقولون طنطه حتى تقع على وزن « محطّه » حين أرادوا وصف مرور الخديوي » .

وتزكية لذلك قول شوقي في الخديوي عباس :

تودّ طنطدةٌ لو انها عبــــقٌ من الرياحين حيّاكم بها الوالي

الشوقيات ١–٢٣٨

ومهما يكن في تعليل التحوّل في لفظة طنطه من الغرابة فمما لا شك فيه ان الاسلوب السجعي كان لا يزال متسلطاً أو مستحسناً في الاوساط الادبية والصحفية [3] . واليك بعض أمثلة من الرسائل الادبية في القرن التاسع عشر ، ولنبدأ بالاخوانيات [4] :

---

١ راجع مثلا رسالة الشيخ صالح قطنا سنة ١٢٧٩ هـ (أي القرن الماضي) في مجلة المجمع العلمي بدمشق ١٠–٢٣١

٢ الهلال (يناير ١٩٢٨ (٢٧٥)

٣ راجع في الانشاء الصحافي مقدمة العدد الأول من الوقائع المصرية ومقدمة مجلة الكنانة ١٨٩٥ كثيرا من المقالات التي كانت تنشر في مجلات القرن الماضي كالجنان وسواه وراجع المقتطف ١٠ – ٦٥٤

٤ راجع منها رسالة لبطرس كرامه في ديوانه ص ٩٠ ورسالة لعلي الليثي في الهلال ٤٢–٣١٩ ورسالة نقيب أشراف حماه الى البستاني في مجلة الجنان ١–٥١٦

رسالة الى الشيخ ناصيف اليازجي

كتبها سنة ١٨٤٨ أديب بغدادي اسمه بكر زاده [١]

جناب الشيخ الاجل الامجد الشيخ ناصيف اليازجي دام بقاه

سلام لا تحصيه ألسنة العارفين ، وثناء متعدد اتصال الايام بالسنين ، ودعاء انشق له جوهر الاجابة على طور سينين ، علا فارتفع ،واضاء فلمع ، تحمله نياق الاشتياق ، وتقتاده ازمّة الوجد والاحتراق ، من محب انحله الجوى ، واذابه الهجر والنوى ، دموعه تتبدّد ، وانفاسه تتصعد ، وأحزانه تتجدّد ، ونيرانه تتوقد ، كما قيل شعراً :

فان بكى في قفار خلتها لججاً وان تنفّس عادت كلها يبسا

يهدى إلى من توشّح سوابغ المجد والكرم ، وامتطى سوابق الفخر والشيم ، البحر الزاخر ، والقمر الزاهر ، والكلم الظاهر ، ذو الثوب الطاهر ، والعقل الباهر ، والايادي السخية ، والاخلاق المرضية ، والنظم الذي يزري بالدرر في اسلاكها ، والدراري في أفلاكها ، والقلم الذي تقصر عنه ألسنة اسنّة الرماح ، وتكلّ دون صحايفه صفحات الصفاح ، حضرة الامجد ، الارشد الاسعد ، لا زالت أيامه باسمة الثغور ، حالية النحور ، مشرقة كالبدور . في الليل الديجور ، بحق الطور ، والكتاب المسطور ، والتوراة والانجيل والزبور » . (ثم يأخذ بعرض ما يريده)

والظاهر ان التأنق السجعي في المراسلات الاخوانية بقي على حاله حتى أواخر القرن الماضي . وهاك كتاباً بعث به الشيخ ابراهيم الحوراني جواباً على دعوة وردته من صديقه الأستاذ داود قربان لزيارة مدينة صيدا . وتاريخ الكتاب ٧ نيسان ١٨٩٧ — قال فيه :

« كتابكم ام حديقة ريحان ، وكلامكم ام سلافة حان ، طوي على حبّ ودود ، ونُشر على نشر عود ، واطرب الآذان باطيب من الحان العود ، ولا غرو فانه كتاب داود ، وصل في أول نيسان بأرج فاق على

---

١ من مخطوطة لدينا .

أرج ازهاره ، ونسخ بآيات صدق الولاء كذبة ذلك اليوم إلى آخر ادهاره . وبعد فانكم دعوتمونا إلى فردوس صيداء ، وتلكم الرياض الغناء ، وانتم والآيات البينات ، ملائكة هاتيك الجنات

جنات عدن ما بهما مغو ولا خطرٌ على شيء من الاثمار

ومن لنا بصرف ابراهيم اليها والموانع ثلاثة – علّمية النشرة ، وجمع التفسير ، وعدل المدرسة البطريركية [1] . فما بقي الا ان تشرّفونا ومنزلكم العيون والقلوب ، فانبوئني عبر مأمورين بقدومكم براً أو بحراً لنلاقيكم ملاقاةً تسرّنا أكثر مما تسرّكم . ويا لله من يوم يشرق البلدان، انه لأبهج من النيروز والمهرجان ، واكليل الدهر وقلادة الزمان . الوحىَ الوحى بالاخبار ، والعزمَ العزمَ على تشريف هذه الديار . اودّ سرعة الجواب بالايجاب » . (إلى ان يقول) « فانتم نجوم الغسق ، والفضل منكم سبق ، وهذا القول الحق . والسلام على من خالف الهوى ، وجلا بصبح اللقاء غسق النوى » .

وعلى نمطه كتاب كتبه الشيخ حمزه فتح الله إلى حفني بك ناصيف في ٢٠ يناير ١٨٩٦ قال فيه بعد مقدّمة يكثر فيها من الاشارات التاريخية:

« ولم تكتف ايها الجهبذ المفضال . بهذا الافضال ، حتى جعلت لي دائرة سوهاج ، مركزاً للدجاج ، والديكة في السكباج ، فلا أدري اية اياديك اشكر ، ولا اية فرائد معاليك اذكر » إلى آخر الرسالة .

وقد علق على ذلك ناشرها بقوله

« وقد استعمل في خلال رسالته فقرات من السجع . وهذا السجع كان منتشراً في ذلك الوقت حتى ان المرحوم الشيخ محمد عبده وزملاءه وتلامذته كسعد باشا وحفني ناصف وغيرهما كانوا يستعملونه في مراسلاتهم ومقالاتهم ثم عدلوا عنه قبل ان يبتذل [2] » . ويظهر ذلك في الرسالة

---

١ مجلة النشرة الاسبوعية وكان يحررها ، والتفسير اسم كتاب ؛ والمدرسة البطريركية كان يدرس فيها وفي هذا الكلام من الاشارات النحوية ما هو ظاهر .

٢ راجع الهلال السنة ٤١ ص ٤٤٩–٤٥٠

التي ارسلها الاستاذ الامام الشيخ عبده إلى المرحوم حفني بك ناصف في ٩ رمضان ١٣١٨ هـ وفيها يقول الناشر : « يذكّر صديقه بتوبته عن استعمال السجع حتى ولو ساق اليه الطبع ويلومه في ظرف على نقضه لتوبته بسبب ما اضطره أدب حفني بك إلى الرجوع اليه ، ثم لا يجد مندوحة من اجابته بهذا الاسلوب ولو على سبيل الاحتذاء الذي طالما يستعمله المتراسلون في اجابة بعضهم بعضاً[1] . واليك الرسالة ننقلها عن صورتها الاصلية :

« عزيزي — تسجع لي في كتابك ، وتطمع ان اسجع لك في جوابك . كأنك لم تسمع اني تبت عن السجع ، حتى لو ساق اليه الطبع . فماذا أصنع بك ، وقد نقضت توبتي بادبك . أعاد إليّ كتابك وجداً ، طالما وجدته نفسي أيام الصوم ، والقضايا كوم يعلوه كوم . مع لدد القوم ، والحاجة إلى النوم ، حتى كأنّ تعبك صُبّ عليّ ، وكأنما انتقل ظمأك اليّ ، لكن لما تذكّرت قصر النهار ، وقرب وقت الافطار ، والنجاة إلى الدار ، من مقاضاة اهل النار ، وحملة الذنوب والاوزار ، قلت لقلقي قرقار (كذا)

فكأني بالماء وقد حضر ، والطعام يتبعه على الاثر ، فابتلّت العروق، ونقعت الحلوق ، وامتلأت البطون ، وقرّت العيون ، وثاب السكون ، فحمدت الله لك على الشبع ، وسألته ان يجنّبك البدع ، من اطالة السهر ، وقتل الليل بالسّمَر إلى وقت السَّحَر . فذلك منهكة للبدن ، مجلبة للوهن . مَضيعة لنفيس الزمن ، مطفئ لنور الفطن ، وقاك الله هذه المحن .

ثم قد وصل التحويل وقبض مبلغ الثلاثمائة قرش وسيرسل اليك سند الاستلام وسلامي عليك وعلى السيد أحمد رافع والسلام »

ولقد نجد شيئاً من هذا التأنق في المراسلات الاخوانية حتى في أوائل

---

[1] راجع الهلال السنة ١٤ ص ٤٥١

القرن العشرين . واليك الرسالة التالية كتبها محمد بك المويلحي إلى حفني بك ناصف في ٢ مارس ١٩٠٨ قال[١] :

« صديقي الفاضل حفني بك ناصف :

لولا يقال اننا بتنا نتقارض الحمد والثناء ، ونتناوب بيننا المديح والاطراء لجعلت لك صحف الاخبار ، تغرّد تغريد الاطيار ، ولصغت فيك ما يتألق كالنضار ، ويتأرج كالازهار ، حمداً لك على ما صنت به لغة القرآن ، بقوّة الدليل والبرهان ، وما نطقت به من فصل الخطاب في حسن الدفع عن معجزة الكتاب .

ربما بلغ منا الضعف ان يصبح الدخيل في أمورنا فوق الاصيل ، ولكن لغة هذا الدين لا يمكن لها ان تقبل الدخيل . فالله وليّك فيما اتيت ونصيرك ، والقرآن بعد ذلك ظهيرك — يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم .

ولئن كنت رأيت بالامس اني نصرت رسول الله بكلمتي في دانتي[٢] فانا على يقين اليوم انك نصرت كتاب الله بخطبتك في « التعريب » . جزاك الله عن حرمة كلام الله افضل ما عنده من منازل المتقين الاطهار ، وما ادّخره في النعيم لعباده الصالحين الابرار » .

والرسائل الاخوانية كثيرة منها ما هو خاص كالذي مرّ معنا ومنها ما هو نماذج عامة كما نجدها في بعض المجاميع الانشائية[٣] .

نماذج من غير الاخوانيات

تقريظ مؤلف[٤]

« الحمد لله اما بعد فهذا كتاب اشرقت شموس تحقيقه ، وازهرت

١ الهلال ٤١ ص ٤٥٢
٢ دانتي الشاعر الايطالي المشهور .
٣ راجع مثلا انشاء العطار ١٢٢ — ١٦٧
٤ راجع انشاء العطار ١٦٢

في سماء الفهوم نجوم تدقيقه ، قد أخذت البلاغة فيه زخرفها ، واشبه الروض من صحيفته احرفها ، وابان عن معجز البراعة ، ومثّل لنا كيف ينفث السحر من تلاث البراعة ، قد انفرد مؤلفه بالرتبة التي لا يدّعيها زيد ولا عمرو ، ولا يتطاول لمثلها أحد الا اعجزه الدهر ، وكيف لا وهو سلالة مجد انتظمت في عقد فخاره افاضل العلماء ، وثمرة شجرة طيّبة اصلها ثابت وفرعها في السماء ، فلا غرو ان أوتي ملاك البيان الذي لا ينبغي لاحد من بعده ، واجتمع له طاعة القلب واللسان فهما خادمان لشكره وحمده ، فخطيب الاقلام يحمده على منابر الانامل ، وفصيح اللسان يقوم بحمده في صدور المحافل ، ويأخذ له البيعة بالتقدم على كل فاضل ، فاصبح محله من الفضل المحل الاسنى ، واسماؤه فيه الجمل الحسنى ، قد احسن كل الاحسان في ابتداع هذا التصنيف ، وأجاد في اختراع حسن هذا الترصيف ، وعلمنا كيف يكون الانشاء ، وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، وان الحريري قد قصر في غوصه على درة الغواص ، وان ابن كمال باشا عاقه كمال استقصاء لحن الخواص[1] ولقد وقفت على هذا التأليف وقوف من افحمه الحصر ،ورمت التطاول لمدحه فلحق باعي القصر ، واستنطقت لساني ليعرب عن حسن وصفه فاستعجم ، واستقدمت جواد قلمي للجري في هذا الميدان فاحجم . ومن اين لاحد مثل تلك البديهة المتسرّعة ، والرويّة التي هي عن كل ما يتجنب متورّعة ، والخاطر الذي يستجدي الفضلاء من سماحته ، واللسان الذي تخرس الفصحاء عنه فصاحته ، والقلم الذي هو للعلوم مفتاح الاقاليم ، والطريق الذي عزّ سلوكه على النثر ولو انه عبد الحميد[2] أو عبد الرحيم[3] ، والالفاظ التي تشرق بها انوار المعاني فكأنها الليلة

---

١ درة الغواص ولحن الخواص كتابان معروفان .

٢ أي عبد الحميد الكاتب .

٣ عبد الرحيم أي القاضي الفاضل .

المقمرة ، واليد التي ان لم تكن الاقلام بها مورقة فهي مثمرة [1]

صورة اجازة علمية [2]

قال بعد تحميدة طويلة :

« أما بعد فان العلم ابهى مطلب ، واسنى مأرب ، واحسن غنيمة ، وارفع من كل شيء قيمة ، يتنافس في اقتنائه المحصّلون ، ويتباهى بتحصيل فوائده الراغبون ، والعلوم وان كثرت أنواعها ، وتباينت أوضاعها ، فاجلّها قدرا ، وارفعها ذكرا ، وابهاها سناء ، وأفضلها اقتناء ، واعلاها ارتقاء ، واغزرها ارتواء ، واكملها اشراقاً ، واجملها اتساقاً ، العلوم الشرعية التي هي مقاصدها ولاجلها تلتمس فوائدها ، وتقيّد أوابدها وتقتنى عوائدها ، فغيرها من العلوم لها وسائل ، واسطة عقد تلك المسائل ، وقد خص من بينها علم الحديث بمنقبة عظيمة ، ورتبة شريفة جسيمة ، هي اتصال السند فيه بين رواته . وشدّ الرحال في طلب تحصيله من نقلته وثقاته ، لتتصل بذلك سلسلة الاسناد ، وينتظم طالبه في سلك هؤلاء الائمة الامجاد ، وقد مضى على ذلك السلف والخلف ، وحصل للعلماء بالانتظام في ذلك السلك أفضل الشرف . »

وبعد كلام طويل يصف به العلوم ويطنب بفضل العالم المجاز وسعة معارفه يقول فيه :

« ولما حنّ حنين الفحل إلى عطنه ، واراد الرجوع إلى وطنه ، زودّوه بالدعوات الصالحات ، وكسوه حلل الكرامة بتسطير الاجازات ، وتكثير الروايات ، والتمس مني وان كنت لست من رجال هذا المجال ، الا انه احسن ظنه بالحال ، الاجازة ، وان اجعل له إلى مشايخي من جهتي

---

١ راجع في هذا الباب تقريظ أحدهم للمقتطف في مجلة المقتطف ١١–٤٩٢

٢ انشاء العطار ١٦٩–١٧١

اجازة ، فاسعفته بطلبته ، وحققت حسن رغبته ، رجاء الانتظام ، مع هؤلاء الاعلام ، وان لا ينساني من صالح دعواته العظام ، فقلت اجزت المذكور بجميع مروياتي وبسائر مؤلفاتي ، بشرطه المقبول عند اهل النظر ، والمعتبر عند علماء الاثر ، سائلاً من الله ان ينفعني واياه، ويبلغنا ما نتمناه ، بمنه وكرمه . »

ثم دخل القرن العشرون واتسعت بدخوله أسباب الحضارة فازداد بذلك تقدّم الادب في سبيل الحرّية .

ومما كان له يد في ذلك تطوّر الاحوال السياسية كاعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ م ونشوء الروح القومية في الاقطار العربية . ثم جاءت الحرب العالمية (١٩١٤ — ١٩١٨) وما تلاها من تطوّرات سياسية واجتماعية في الشرق الادنى فدخل الادب العربي في طور جديد . ونشأ في مصر وسوريا والعراق والمهاجر أوساط أدبية رفع فيها لواء الادب الجديد، فاصبح الانشاء الادبي على ما نعهده الآن من المتانة المقرونة بالبساطة والبعد عن التزويق — نزّاعاً إلى ادراك الحياة وتصويرها ، كما توحيه الطبيعة إلى النفس ، لا كما تقتضيه قواعد البديع والبيان .

ولما كان في النية ان نفرد للادب الحديث كتاباً خاصاً نشرح فيه مناحيه النثرية المختلفة فاننا نقف الآن منه عند هذا الحدّ .

المقامات

المقامات جمع مقامة وهي اسم للمجلس أو الجماعة من الناس. وسمّيت الاحدوثة من الكلام مقامة لأنها تذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة لسماعها [1] . ويعزو الحريري فضل السبق في ابتداعها لبديع الزمان المتوفى ٣٩٨ هـ . واليك قوله في ذلك في ديباجة مقاماته [2] :

« وبعد فانه قد جرى ببعض اندية الادب الذي ركدت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان وعلاّمة همذان ، فاشار من اشارته حُكم ، وطاعته غنم إلى أن أنشئ مقامات اتلو فيها تلو البديع » ...

إلى أن يقول :

« هذا مع اعترافي بان البديع رحمه الله سبّاق غايات وصاحب آيات وان المتصدّين بعده لانشاء مقامة ، ولو أوتي بلاغة قدامة ، لا يغترف الا من فضالته ، ولا يسري ذلك المسرى الا بدلالته » .

ويتابع الحريريّ في ذلك كثيرون منهم القلقشندي صاحب صبح الاعشى فمن قوله :

---

١ صبح الأعشى ١٤–١١٠
٢ مقامات الحريري ص ١٣ و ١٥

« ان أول من فتح باب عمل المقامات علاّمة الدهر وامام الادب البديع الهمذاني فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة اليه وهي في غاية البلاغة وعلو الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الامام ابو القاسم محمد قاسم الحريري فعمل مقاماته الخمس المشهورة فجاءت نهاية في الحسن واتت على الجزء الوافر من الحظّ واقبل عليها الخاص والعام حتى أنستت مقامات البديع وصيّرتها كالمرفوضة [1] » .

ويرى زيدان من المحدثين ان فضل التقدّم في وضع المقامات هو للامام اللغوي ابي الحسن احمد بن فارس « لانه كتب رسائل اقتبس الادباء منها نسقه وعليه اشتغل بديع الزمان [2] »

على ان أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنه ٣٢٨ ﻫ يرجع المقامات إلى عهد ابعد من عهد بديع الزمان . فقد نقل عن يزيد ابن عبد الله قوله لكاتبه : « فتصفح من رسائل المتقدّمين ما يعتمد عليه ومن رسائل المتأخرين ما يرجع اليه ، ومن نوادر الكلام ما تستعين به ، ومن الاشعار والاخبار والسير والاسماء ما يتسع به منطقك ويطول به قلمك . وانظر في كتب المقامات والخطب [3] » . فما هي كتب المقامات التي يذكرها ؟

كنا نميل إلى الشك في هذه العبارة لو لم نر ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر ما يؤيدها إذ يقول :

« وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات [4] » . فيستدلّ من كلامه وكلام ابن عبد ربه ان نوعاً من الكلام يعرف بالمقامات كان معروفاً قبل زمن البديع واستاذه ابن فارس . فكيف نشأ هذا الفن

١ صبح الأعشى ١٤–١١٠
٢ تاريخ آداب اللغة ٢–٣٠٩
٣ العقد (بولاق) ٢–٢١١
٤ الشعر والشعراء ١٩

وإلى أي عهد يرجع ؟

ولا بدّ قبل الاجابة على هذا السؤال من ان نقول ان المقامة كما وصلت الينا هي نوع من الحكايات القصيرة تروى على لسان احـدهم وبطلها رجل احكم التحيّل وقصر همه على تحصيل الطفيف من الرزق . ويوصف عادة بالدهاء والتكدية وغايتها لغوية أدبية . وقد وصفها ابن الطِقطقي بقوله : « ان المقامات لا يستفاد منها سوى التمرّن على الانشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر . وفيها حكم وتجارب الاّ ان ذلك مما يصغّـر الهمة إذ هو مبني على السؤال والاستجداء فان نفعت من جانب ضرّت من جانب [1]

فالمقامة المعروفة إذن حكايات قصيرة مقرونة بنكتة أدبية أو لغويـة . كذلك نجدها في مجموعة بديع الزمان ومن تبعه . فهل كانت كذلك قبله؟

. يذهب بروكلمان الى ان اقدم معاني المقامة يرجع إلى أيام الجاهلية وكانت عبارة عن مجتمع القبيلة . وفي أيام الامويين تتخذ شكلاً دينياً فاذا هي أحاديث زهدية تروى في مجالس الخلفاء [2] . ثم تطوّر معناها فصارت تقرن بالشعر والادب وأخبار الوقائع القديمة .

وفي القرن الثالث الهجري أخذت تتدنى إلى معنى التكدية والاستجداء بلغة منمقة ولم تتخذ شكلها الحقيقي إلاّ على يدي بديع الزمان ثم الحريري وشواهد التاريخ تشير إلى صحة ما ذكره بروكلمان [3]

فالمقامة على ما يظهر ترجع إلى ما وراء عهد الهمذاني . ونرجح ان لها علاقة وثيقة بمجالس الرواة الذين كانوا يقصّون أحاديث العـرب وصدر الاسلام .

واظهر ما ترى ذلك في أحاديث ابن دريد المتوفى ٣٢١ هـ . فانّ لهذا

---

١ الفخري ص ١٣

٢ راجع قول المسعودي عن عمر (مروج الذهب ٥-٤٢١) . ومقامات الزهاد عند الخلفاء في عيون الاخبار لابن قتيبة ٢-٣٣٣

٣ راجع تفصيل ذلك في دائرة المعارف الاسلامية تحت لفظة Makama

الاديب المشهور منها ما يشبه ان يكون مقامات أو مصادر المقامات .
ويؤيد ذلك ما ذكره الحصري إذ قال في عرض كلامه عن بديع الزمان « ولما رأى (البديع) ابا بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي أغرب باربعين حديثاً وذكر انه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنتجها من معادن فكره ، وابداها للابصار والبصائر ، واهداها للافكار والضمائر في معارض عجمية والفاظ حوشية ، فجاء اكثر ما اظهر تنبو عن قبوله الطباع ، ولا ترفع له حجبها الاسماع ، وتوسّع فيها إذ صرّف الفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة وضروب متصرّفة . عارضها باربعمائة مقامة في الكدية » — إلى آخر الكلام [1] .

وقد تناول الاستاذ زكي مبارك هذا النصّ الحصري وبنى عليه حكماً نشره في المقتطف قبل ان يظهر كتابه النثري الفني خلاصته ان ابن دريد هو مبتدع فن المقامات [2] . فعارضه الاستاذ مصطفى الرافعي إذ قال ان ما انفرد به الحصري لا يعتمد عليه — لاسباب ذكرها — [3] . على اننا إذا قرنا كلام الحصري بما رواه صاحب العقد وابن قتيبة ترجّح الدينا ان فنّ المقامات نشأ تدريجياً من رواية القصص والاخبار ، وان للبديع الهمذاني فضل تنظيمها ووضعها في شكلها الفني الخاص : فهي لذلك تنسب اليه ، وان أحاديث ابن دريد من أهمّ الاصول التي اعتمدها في انشاء هذا الفنّ ، لا سيا وانّ في هذه الاحاديث من المغازي الادبية واللغوية ما لا يترك مجالاً للشكّ في ان مقامات البديع والحريري ومن جرى مجراهما تمتّ اليه بصلة متينة .

وتختلف هذه الاحاديث الدريدية عن المقامات بعدم تقيدها بالسجع ، الا انها لا تخلو من ذلك ولا سيما في الوصف . فهي في الوصف تضارع المقامات تسجيعاً وتوازناً كما ترى في الحديث التالي عن ابن دريد مرفوعاً

---

١ زهر الآداب ج ١–٢٠٧
٢ المقتطف مج ٧٧ ص ٤١٩
٣ المقتطف ٧٧ ص ٥٨٩

إلى عمرو بن العلاء قال [1] :

« كان لرجل من مقاول حمير ابنان يقال لاحدهما عمرو وللآخر ربيعة ، وكانا قد برعا في العلم والادب ، فلما بلغ الشيخ أقصى عمره واشفى على الفناء دعاهما ليبلو عقليهما ويعرف مبلغ علمهما . فلما حضرا قال لعمرو — وكان الاكبر — اخبرني عن احبّ الرجال اليك ،واكرمهم عليك ، قال : السيّد الجواد ، القليل الانداد ، الماجد الأجداد ، الراسي الاوتاد ، الرفيع العماد ، العظيم الرماد ، الكثير الحساد ، الباسل النوّاد ، الصادر الورّاد . قال ما تقول يا ربيعة . قال ما احسن ما وصف به ، وغيره احبّ إليّ منه . قال ومن يكون بعد هذا ؟ قال : السيد الكريم ، المانع للحريم ، المفضال الحليم ، القمقام الزعيم ، الذي ان همّ فعل ، وان سئل بذل . ثم يسألهما عن ابغض الرجال وعن احبّ النساء وابغضهنّ وعن الخيل والعيش والسيف والرمح فيجيبانه في حديث طويل كله على نسق ما ذكرنا من الوصف المسجوع .

فانت ترى من هذا الحديث الموضوع على لسان ابني المقول الحميري صنعة ظاهرة في تسجيع الاوصاف ، وميلاً قوياً إلى عرض الالفاظ وذلك من خصائص المقامات . وقس على ذلك ما ورد في أخبار العرب من أقوالهم واوصافهم كحديث ابن دريد يرفعه إلى ابن الكلبي وفيه يذكر ما وقع بين سُبيع بن الحرث وميثم ابن مثوب من المخاصمة بمجلس مرثد الخير وخطبته في شأنهما واصلاحه ذات بينهما . ومن هذه الخطبة قوله [2] :

« لا تنشطوا عُقُل الشوارد ، ولا تُلقحوا العُون القواعد ، ولا تورثوا نيران الاحقاد . ففيها المتلفة المستأصلة ، والجائحة والأليلة [3] .

1 أمالي القالي (بولاق) ج ١ ص ١٥٣–١٥٥

2 أمالي القالي (بولاق) ج ١ ص ٩٣

3 الأليلة الثكل ، الأبلاد الآثار .

وعفّوا بالحلم ابلاد الكلم ، وأنيبوا إلى السبيل الارشد ، والمنهج الاقصد فان الحرب تقبل بزبرج الغرور ، وتدبر بالويل والثبور » .

فالحديث كله قصة موضوعة وضعها الرواة ونقلها ابن دريد ، واهمّ ما فيها خاتمتها الخطابية التي تشبه كثيراً بعض القطع الحكميّة أو الوعظية في مقامات البديع والحريري وسواهما . بل هي تكاد تكون مماثلة للمقامات أو الخطب الدينية كما نراها في أقوال الزمخشري وابن نباتة واضرابهما .

ومن الاحاديث التي رواها ابن دريد قوله [1] :

« كان قيل من أقيال حمير منع الولد الدهر . ثم ولدت له بنت فبنى لها قصراً منيفاً بعيداً من الناس ووكل بها نساءً من بنات الاقيال يخدمنها ويؤدبنها حتى بلغت مبلغ النساء . فنشأت احسن منشأ واتمّه في عقلها وكمالها . فلما مات ابوها ملّكها اهل مخلافها فاصطنعت النسوة اللواتي ربّينها واحسنت اليهنّ ، وكانت تشاورهنّ ولا تقطع امراً دونهنّ . فقلن لها يوماً يا بنت الكرام لو تزوّجتِ لتمّ لكِ الملك . فقالت وما الزوج ؟ فقالت احداهنّ الزوج عزّ في الشدائد ، وفي الخطوب مساعد ، ان غضبتِ عطف وان مرضتِ لطف » .... ثم تأخذ الثانية والثالثة بوصف الزوج على هذه الطريقة المسجعة . فتقول لهنّ « امهلنني انظر فيما قلتنّ . فتحتجب عنهنّ سبعاً ثم تدعوهنّ وتقول قد نظرت فيما قلتنّ فوجدتني املكه رقّي وابثه باطلي وحقي . فان كان محمود الخلائق مأمون البوائق فقد ادركت بغيتي ، وان كان غير ذلك فقد طالت شقوتي : على انه لا ينبغي الاّ ان يكون كفؤاً كريماً يسود عشيرته ، ويرب فصيلته ، لا اتقنّع به عاراً في حياتي ، ولا ارفع به شناراً لقومي بعد وفاتي ، فعليكنّه فابغينه وتفرّقنَ في الاحياء فأيّتكنّ أتتني بما احبّ فلها اجزل الحباء ، وعليّ لها الوفاء » ....

---

[1] الأمالي ١–٨٠

فتذهب النسوة في طلب الزوج ثمّ ترجع كلّ واحدة فتصف من وجدته وصفاً مسجعاً نكتفي منه بما قالته الثانية في الرجل الذي وقع من قلب الملكة فاختارته وهو يَعلي بن هزّال بن ذي جَدَن — قالت : « صامص النسب ، كريم الحسب ، كامل الادب ، غزير العطايا ، مألوف السجايا ، مقتبل الشباب ، خصيب الجناب ، امره ماض ، وعشيره راض » .

* * *

إذا راجعت أحاديث ابن دريد المروية في امالي القالي [1] تجد في جميعها روح الحكاية كما تجدها في المقامات وتجد فيها هذا الميل إلى التسجيع في اثناء الوصف وإلى التبسط في المصطلحات أو المرادفات اللغوية . الاّ ان الفن في المقامات اظهر . ففيها بطل واحد تدور الحكاية جميعها عليه ، وفيها صناعة لفظية وبيانية ارقى منها في تلك الاحاديث . ونعني بالصناعة هنا سبك الحكاية في المقامة وما يقترن به من تفنن في السجع وفي أساليب البديع . ويضاف إلى ذلك تفوّق المقامات في ذكر النوادر والاخبار والاشارة إلى وقائع الزمان واعلام التاريخ ، وما يعرض فيها من حكم وامثال ونكات ولغة وأدب . وقد اشتهر منذ القرن الرابع الهجري إلى أن دالت دولة المقامات في القرن الثالث عشر جماعة من ارباب هذا الفن . منهم

بديع الزمان منظّم هذه الطريقة . والحريري إمامها ، وسنترجم لهما بعد .

ومنهم :

ابن الاشتركوني (٥٣٨) له خمسون مقامة انشأها بقرطبة تقليداً للحريري

[1] ج ١ ص ٨٠-٩٢-١٤٣-١٥٣-١٩٠
ج ٢ ص ٧-٣٣-٢٧١-٢٩٢

يحيى بن سعيد النصراني (٥٨٩)	المقامات المسيحية جرى فيها أيضاً مجرى الحريري
أحمد بن بكر الرازي الحنفي	ثلاثون مقامة كتبها في أواخر القرن السادس
شمس الدين ابن الصيقل الجزري (٧٠١)	خمسون مقامة نسبها إلى ابن نصر المصري وروايتها إلى القاسم بن جريال الدمشقي
محمد بن ابراهيم الدمشقي (٧٢٧)	المقامات الفلسفية (وهي خمسون)
شهاب الدين الخفاجي (١٠٦٩)	راجع مقاماته في ريحانة الالباء

ومن الكتاب المتأخرين

أحمد البربير ١٢٢٦ (١٨١١)	توجد نسخة من مقاماته في دار الكتب المصرية
نقولا الترك ١٢٤٤ (١٨٢٨)	١١ مقامة
الشهاب الالوسي ١٢٧٠ (١٨٥٤)	كتاب مقامات طبع في كربلاء
ناصيف اليازجي ١٢٨٨ (١٨٧١)	مقاماته المشهورة (مجمع البحرين)
احمد فارس الشدياق (١٨٨٧)	
ابراهيم الاحدب ١٣٠٨ (١٨٩١)	٨٠ مقامة
عبد الله باشا فكري ١٣٠٧ (١٨٩٠)	له مقامات في مجموعة الآثار الفكرية

وقد يصحّ لنا ان نقول ان المقامات كانت منذ أيام الحريري حتى أواخر القرن التاسع عشر باباً من أبواب الادب قلما مرّ به أديب من

الادباء المعروفين دون أن يطرقه ، وقد شارك الادباء فيه بعض العلماء كابن الجوزي والسيوطي وسواهما .

وإذا عرضنا أمامنا أصحاب المقامات أجمعين برز لنا من بينهم ثلاثة كان لهم اليد الطولى في هذا الفن وهم بديع الزمان والحريري واليازجي.

ولا بد لنا هنا من ذكر ابراهيم المويلحي (١٩٠٨) فان في كتابه حديث عيسى بن هشام تحولاً ظاهراً عن سياق المقامات المعتاد . وهو درس اجتماعي يحاول فيه عرض أحوال مصر ونقدها . وقد ظهر في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين بضع كتب من هذا القبيل كالمسامر لعبد الله النديم وليالي سطيح لحافظ ابراهيم وبها ضاعت المقامات القديمة ولم تقم لها بعدُ قائمة .

بديع الزمان الهمذاني

ومقاماته

(٣٥٨ – ٣٩٨)

توطئة تاريخية

لعلّ أهمّ مصدر نرجع اليه في دراسة بديع الزمان هو يتيمة الدهر للثعالبي فان الثعالبي عاصره ولقيه وعرف أحواله [١] . وعنه أخذ ياقوت بعض ما ذكره في معجم الادباء ، وأخذ البعض الآخر عن تاريخ همذان لشيرويه بن شهردار ، وعن ابي الحسن البيهقي صاحب وشاح الدمية . اما ابن خلكان فله كلمة وجيزة فيه يقول فيها انه اطلع على رسائله التي جمعها الحاكم ابو سعيد عبد الرحمن بن دوست .

وخلاصة ما في هذه المصادر ان البديع (واسمه ابو الفضل احمد ابن الحسين) نشأ في همذان ودرس على ابي الحسين احمد بن فارس اللغوي المشهور وعيسى بن هشام الاخباري وغيرهما .

وفي سنة ٣٨٠ (أي وهو في نحو الثانية والعشرين من عمره) ترك موطنه قاصداً الصاحب بن عباد وبقي عنده زمناً يتزوّد من ثماره [٢] .

---

١ معجم الأدباء ١–٩٥

٢ اليتيمة ٤–١٦٨

« ثم قدم جرجان وأقام بها مدّة على مداخلة الاسماعيلية والتعيش في اكنافهم[1] » . لكن المقام لم يطب له فيهما طويلاً فتركها ويشرح لنا سبب تركها في رسالة كتبها إلى ابي نصر بن المرزبان قال فيها[2] :

« كتابي اطال الله بقاء الشيخ وانا متألّم ، والحمد لله ربّ العالمين . كيف تقلّب الشيخ في درع العافية ، واحواله بتلك الناحية ؟ فاني ببعده منغّص شريعة العيش ، مقصوص اجنحة الانس . ورد كتابه المشتمل من خبر سلامته على ما رغبت إلى الله في ادامته ، وسكنت اليه بعد انزعاجي لتأخره . وقد كان رسم ان اعرّفه سبب خروجي من جرجان ووقوعي بخراسان ، وسبب غضب السلطان . وقد كانت القصة اني لما وردت من ذلك السلطان حضرته التي هي كعبة المحتاج ، لا كعبة الحجّاج ، ومستقر الكرم ، لا مَشعر الحرم ، وقبلة الصّلات ، لا قبلة الصلاة ، ومُنى الضيف ، لا منى الخيف[3] ، وجدت بها ندماء من بنات العام[4] ، اجتمعوا قِيضة كلب[5] على تلفيق خطب ازعجني عن ذلك الفناء ، واشرف بي على شرف الفناء ، لولا ما تدارك الله بجميل صنعه ، وحسن وقعه ، ولا أعلم كيف احتالوا ، وما الذي قالوا ، لكنّ الجملة ان غيروا السلطان ، فاشار عليّ اخواني ، بمفارقة مكاني ، وبقيت لا أعلم أيمنةً اضرب ام شآمة ، ونجداً اقصد ام تهامة .

وقد علم الشيخ ان ذلك السلطان سماءٌ إذا تغيّم لم يُرجَ صحوه ، وماءٌ إذا تغيّر لم يشرب صفوه ، وملك إذا سخط لم ينتظر عفوه ،

---

١ اليتيمة ٤–١٦٨

٢ نجدها في رسائل البديع ص ١٥٠

٣ من مشاعر الحج .

٤ بنات العام أي حديثو العهد .

٥ أي مثل الكلاب .

فليس بين رضاه والسخط عرجة ، كما ليس بين غضبه والسيف فرجة ، وليس من وراء سخطه مجاز ، كما ليس بين الحياة والموت معه حجاز . فهو سيد يغضبه الجرم الخفيّ ، ولا يرضيه العذر الجليّ ، وتكفيه الجناية وهي ارجاف ، ثمّ لا تشفيه العقوبة وهي اجحاف ، حتى انه ليرى الذنب وهو أضيق من ظلّ الرمح ، ويعمى عن العذر وهو ابين من عمود الصبح . وهو ذو اذنين يسمع بهذه القول وهو بهتان ، ويحجب عن هذه العذر وله برهان ، وذو يدين يبسط احداهما إلى السفك والسفح ، ويقبض الاخرى عن العفو والصفح ، وذو عينين يفتح احداهما إلى الجرم ، ويغمض الاخرى عن الحلم . فمزحه بين القدّ والقطع ، وجدّه بين السيف والنّطع . ومراده بين الظهور والكمون ، وامره بين الكاف والنون . ثمّ لا يعرف من العقاب غير ضرب الرقاب ، ولا يهتدي من التأنيب الا لازالة النعم ، ولا يعلم من التأديب غير اراقة الدم ، ولا يحتمل الهنة على حجم الذرّة ودقة الشعرة ، ولا يحلم عن الهفوة ، كوزن الهبوة ، ولا يغضي عن السقطة كجرم النقطة . ثم ان النّعم بين لفظه وقلمه ، والارض تحت يده وقلمه . لا يلقاه الوليّ الا بغصّة ، ولا العدوّ الاّ بذمة . والارواح بين حبسه واطلاقه ، كما ان الاجسام بين حله ووثاقه . فنظرت فاذا انا بين جودين إما ان أجود بباسي ، واما ان أجود براسي ، وركوبين – إمّا المفازة وإما الجنازة ، وبين طريقين إما الغربة وإما التربة ، وبين فراقين – إما ان أفارق أرضي أو أفارق عرضي ، وبين راحلتين – إما ظهور الجمال وإما اعناق الرحال ، فاخترت السماح بالوطن ، على السماح بالبدن » .

والرسالة طويلة وكلها على هذا المنوال .

* * *

ترك جرجان إلى نيسابور فوافاها سنة ٣٨٢ . وكان قطّاع الطريق من الاعراب قد سلبوه ما كان له من مال وأمتعة فدخلها مُعدماً أو كما

يقول في بعض كتبه « براحة انقى من الراحة ، وكيس المعلى من جوف حملو [1] . وكان في نيسابور أديب زمانه ابو بكر الخوارزمي ، ويظهر ان بديع الزمان قصده مؤملاً الخير على يديه . لكن الخوازمي لم يحسن استقباله فغاظ ذلك البديع وجرت بينهما معاتبات مرّة يُستدلّ منها ان صاحبنا أخذ يتحين الفرص للانتقام من الخوا رزمي والحط من شأنه . وفي ذلك يقول [2] :

« وقديماً كنا نسمع بحديث هذا الفاضل فنتشوّقه ، ونخبره فنتعشّقه ، ونقدّر انّا إذا وطئنا ارضه ، ووردنا بلده ، يخرج لنا في العشرة ، عن القشرة ، وفي المودّة ، عن الجلدة ، فقد كانت كلمة الغُربة جمعتنا ، ولحمة الادب نظمتنا . فاخلف ذلك الظن كلّ الاخلاف » .

إلى أن يقول :

« فلما اخذتنا عينه سقانا الدّرديّ [3] من اول دنّه ، واجنانا سوء العشرة من باكورة فنّه ، من طرف نظر شطره ، وصديق استهان بقدره ، وضيف استخفّ بأمره ، لكنّا اقطعناه جانب اخلاقه ، وولّيناه خطّة نفاقه ، فواصلناه اذ جانَب ، وشربناه على كدورته ، ولبسناه على خشونته ، ورددنا الامر في ذلك إلى زيّ استخنّهُ ، ولباس استرثّهُ ، وكاتبناه نستمد وداده ، ونستلين قياده ، ونقيم منآده ، بما هذه نسخته :

الاستاذ ابو بكر ، والله يطيل بقاءه ، ازرى بضيفه أن وجده يضرب اليه آباط القلّة [4] ، في اطمار [5] الغربة ، فعمل في رتبته اعمال المصارفة ، وفي الاهتزاز اليه اصناف المضايقة ، من اعاء بنصف الطرف ، واشارة بشطر الكف ، ودفع في صدر القيام عن التّمام ، ومضغ للكلام ،

---

1 زهر الآداب ٢-١٥٧

2 زهر الآداب ٢-١٥٦ و ١٥٧

3 الدردي ما يبقى راسباً في الاناء .

4 أي يسير اليه على جناح الفقر .

5 الاطمار الثياب الرثة البالية .

وتكلّف لردّ السلام ، وقد قبلت ترتيبه صغرا ، واحتملته وزرا ، واحتضنته نكرا ، وتأبطته شرّا ، ولم آله عذرا ، فان المرء بالمال ، وثياب الجمال ، ولست مع هذه الحال ، وفي هذه الاسمال ، اتقزز من صفّ النعال ، فلو صدقته العتاب ، وناقشته الحساب ، لقلت ان بوادينا ثاغية صباح ، وراغية رواح [1] ، وناساً يجرّون المطارف ، ولا يمنعون المعارف .

وفيهم مقامات حسان وجوههم   واندية ينتابها القول والفعل

فلو طوّحت بابي بكر — ايده الله — اليهم مطارح [2] الغربة ، لوجد منزل البشر رحيبا ، ومحطّ الرحل قريبا ، ووجه المضيف خصيبا ، فرأي الاستاذ ابي بكر — ايده الله — في الوقوف على هذا العتاب الذي معناه ود ، والمرّ الذي يتلوه شهد ، موفّقاً ان شاء الله » .

فيجيبه ابو بكر وتحتدم بينهما المعاتبة ، ولكن الخوارزمي يلزم فيها جانب الملاينة والملاطفة . وكأن بديع الزمان يعمد إلى اظهار نفسه بالتحكك بخصمه والحطّ من شأنه ، فلا يقبل هوادة أو عذرا . وكان من وجوه نيسابور قوم يكرهون ابا بكر فاعانوا البديع عليه وما زالوا [3] حتى جمعوهما في دار نقيب السادة بنيسابور . واغتنم بديع الزمان تلك الساعة فاخذ يداعب الخوارزمي متهكماً ، ويداوره متحكماً ، فاقترح النقيب عليهما ان يتناظرا في معارضة بعض قصائد المتنبي ، فابتدأ الخوارزمي بابيات ، ثم البديع بابيات ، واخذا في المساجلة والمطاعنة وما زالا كذلك حتى امال النعاس الرؤوس ، وسكنت الالحان والنفوس ، وسعى الفضلاء بينهما بالصلح . فتصالحا واضافه الخوارزمي حتى كأن لم يكن بينهما ما كان .

---

١ الثاغية الصائتة من الشاء ، والراغية الصائتة من الابل أي ان لنا صحابا لهم ثروة وجاه
٢ في رسائله طوائح .
٣ معجم الأدباء ٢ — ١٠١

على ان بعض المستوحشين من الخوارزمي لم يرقهم ذلك فهيّأوا مجمعاً في دار الوزير السيد ابي القاسم حضره جماعة من الكبراء والعلماء ودفعوهما إلى المناظرة ، فاخذا يتساجلان ويتناقدان . وكانت معركة أدبية حامية خرج منها بديع الزمان ظافراً فتلقاه الناس بالتعظيم والتبجيل ، وعاد الخوارزمي إلى منزله مخذولاً ، وانكسفت باله وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى مات [1]

وبموته خلا الجوّ للبديع ، فأصبح إمام الأدب ، قال الثعالبي :

« وتصرّفت به احوال جميلة واسفار كثيرة ، ولم يبقَ في بلاد خراسان وسجستان ، وغزنة بلدة الاّ وحلّها وجنى وجبى ثمرتها ، واستفاد خيرها وميرها ، ولا ملك ، ولا أمير ، ولا وزير ، ولا رئيس الاّ استمطر منه بنوء ، وسرى معه في ضوء ، ففاز برغائب النِّعم ، وحصل على غرائب القِسَم [2] » .

ثم ألقى عصاه بهراة [3] . وخدمه التوفيق بمصاهرة ابي علي الحسين ابن محمد الخشنامي فانتظمت احواله ، واقتنى بمعونته ومشورته ضياعاً فاخرة ، وعاش عيشة راضية . وفي سنة ٣٩٨ لبّى نداء ربه وهو في الاربعين من عمره وكان قد بلغ اوج شهرته الادبية .

بعض احواله الشخصية

وكان الهمذاني بارعاً في الفارسية ، يترجم ما يُقترح عليه من الابيات الفارسية المشتملة على المعاني الغريبة ، بالابيات العربية فيجمع فيها بين الابداع والاسراع [4] . ويجمع المؤرخون له على سرعة خاطره وتوقد

١ راجع هذه المناظرة في معجم الأدباء ١ ص ١٠١–١١٤ ، وفي رسائل البديع ص ٢٨–٨٤
٢ اليتيمة ٤ – ١٦٩
٣ هي اليوم حاضرة الافغان .
٤ اليتيمة ٤–١٦٧

ذهنه — فمن قول الثعالبي في ذلك[١] :

« ولم يُرَ ولم يروَ ان احداً بلغ مبلغه من لبّ الادب وسرّه ، وجاء بمثل اعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب : فمنها : انه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط وهي اكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها ، ويؤدّيها من اوّلها إلى آخرها ، لا يخرم حرفاً ، ولا يخلّ معنى ، وينظر في الاربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ، ثم يهذّ بها عن ظهر قلبه هذّاً ، ويسردها سرداً . وهذه حاله في الكتب الواردة عليه وغيرها . وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو انشاء رسالة في معنى بديع وباب غريب ، فيفرغ منها في الوقت والساعة ، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدئ بآخر سطر منه ، ثم هلّم جراً إلى الاول ، ويخرجه كأحسن شيء واملحه . ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله في اسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ، ونَفَس لا يقطعه ، وكلامه كله عفو الساعة وفيض اليد ، ومسارقة العلم ، ومسابقة اليد ، وجمرات الحدّة ، وثمرات المدّة ، ومجاراة الخاطر للناظر ، ومباراة الطبع للسمع »

واول ما يتبادر إلى الذهن ان في كلام الثعالبي اغراقاً بيّناً . ولكن الذي يطّلع على مناظرة البديع للخوارزمي يجد فيها ما يزكي شهادة الثعالبي وغير الثعالبي فيه . فالرجل كان سريع الخاطر والحفظ واسع المعرفة اللغوية والبيانية تطيعه الالفاظ والاشكال البديعية طاعة الادوات للصانع الماهر . على انه كان برغم كل ما وصفه به الثعالبي من خفة الروح وحسن العشرة والخلق ، كثير الميل للظهور ، وظاهر الانانية والغرور ؛ والدليل على ذلك مهاجمته للخوارزمي بعد ما جرى من الصلح بينهما — ومقابلته ملاينة خصمه ومسايرته بمرضاة ملبسة ثوب التهكم ، وتواضع ينضح بالخيلاء والتعاظم . إذ لم يكن له همّ الا خضد شوكته واعتلاء سدته :

---

١ اليتيمة ٤–١٦٧

وكان في البديع على ما يظهر مرارة لسان شديدة على من ينقم عليهم كما ترى في كتاب بعث به إلى ابن ميكال رئيس نيسابور ومنه [1] :

« أعجوبة ، لكنها محجوبة ، حتى تصلّي على النبي بنشاط ، وتنزل عن قيراط [2] ، ما هي يا خبيث ، اليك يساق الحديث ، ان عشناَ وعشتَ رأيتَ الاتان ، تركبُ الطحاّنَ : روحٌ ولا جسد ، وصوتٌ ولا احد ، والعودُ احمدَ ، ومتى فرزنتَ يا بيدق ؟ [3] وأفٍّ لقومٍ سدتّهم ويا بؤسَ عصرٍ احوجهم اليك » .

ومثل هذا الكلام اللاذع كثير في رسائله . بل قد يبلغ به إلى درجة عدم الصفح عند المقدرة كقوله وقد كتب اليه بعض من عزل عن ولاية يستمد وداده ويستميل فؤاده فاجابه [4] :

« وردت رقعتك أطال الله بقاءَك فأعرتُها طرْفَ التعزّز ، ومددتُ اليها يدَ التقزّز ، وجمعت عنها ذيل التحرّز ، فلم تندَ على كبدي ، ولم تحظَ بناظري ويدي ، وخطبتَ من مودّتي ما لم أجدْك لها كفواً ، وطلبت من عشرتي ما لم أركَ لها رضاً ، وقلت : هذا الذي رفع عنا اجفان طرفه ، وشال بشعرات أنفه ، وتاه بحسن قدّه ، وزها بورد خده ، ولم يسفنا من قوته ، ولم نسر بضوئه ، والآن إذ نسخ الدهرُ آيةَ حسنه ، وأقام مائد غصنه ، وفثأ غرْب عجبه ، وكفّ زهو زهره ، وانتصر لنا منه بشعرات كسفت هلاله ، واكسفت باله ، ومسخت جماله ، وغيرت حاله ، وكدّرت شرعته جاءَ يستقي من جُرفنا جَرفاً ، ويغرف من طيبنا غرفاً .

وتناسيت أيامك إذ تكلمنا نزراً ، وتلحظنا شزراً ، ونجالس من حضر ، ونسترق اليك النظر ، ونهترّ لكلامك ، ونهشّ لسلامك .

---

١ الرسائل ٩٦٤
٢ أي قيراط من الدرهم .
٣ البيدق من حجارة الشطرنج والفرزان الملكة منها .
٤ الرسائل ٨٤

ومن لك بالعين التي كان مدة ً إليك بها في سالف الدهر ينظرُ

أيام كنت تمايل ، والاعضاء تتزايل ، وتتغانج ، والاجساد تتفالج ، وتتلفّت والاكباد تتفتت ، وتخطر وترفل ، والوجد يعلو بنا ويسفل ، وتدبر وتقبل ، فتَمْني وتخبل ، وتصدّ وتعرض ، فتُضني وتمرض :

وتبسم عن ألمى كأنّ منوّرا تخلل حرّ الرمل غضّ له ندي

فأقصر الآن ، فانه سوقٌ كسدَ ، ومتاعٌ فسد ، ودولة عرضت ، وايامٌ انقضت .

مقاماته

قال ابو اسحق الحصري يصف البديع ومقاماته [1] .

« وهذا اسم (أي البديع) وافق مسماه ، ولفظ طابق معناه . كلامه غضّ المكاسر ، أنيق الجواهر ، يكاد الهواء يسرقه لطفاً ، والهوى يعشقه ظرفاً » . ثم يذكر ما نقلناه قبلاً من معارضته لاحاديث ابي بكر ابن دريد باربعمئة مقامة « تذوب ظرفاً وتقطر حسناً ، لا مناسبة بين المقامتين لفظاً ولا معنى . وعطف مساجلتها ، ووقف مناقلتها ، بين رجلين سمى احدهما عيسى بن هشام والآخر ابا الفتح الاسكندري ، وجعلهما يتهاديان الدرّ ، ويتنافثان السحر ، في معان تضحك الحزين ، وتحرّك الرصين ، تتطلع منها كل طريفة ، ويوقف منها على كل لطيفة ، وربما افرد أحدهما بالحكاية ، وخصّ احدهما بالرواية » .

على ان ما وصلنا من مقاماته الاربعمائة لا يتجاوز الحادية والخمسين ؛ والذي يطالعها يرى في بطلها ابي الفتح ما يراه عادةً في ابطال المقامات الاخرى ، من جشع وتحيل مقرونين بذكاء واختبار واسع . وهي تتناول المواضيع الادبية واللغوية والكلامية والاخبار وتتجلى فيها المزايا التالية :

---

[1] زهر الآداب ١–٢٠٧

١ . سهولة المأخذ وعدم التقيد دائماً بالازدواج والسجع

كقوله من المقامة الفزارية :

« فقلت له على رِسلك يا فتى ، ولك فيما تصحبني حكمك . فقال الحقيبة بما فيها . فقلت وإنّ وحاملتها [١] . ثم قبضت بجمعي عليه ، وقلت لا والذي الهمها لمسا ، وشقّها من واحدة خمسا ، لا تزايلني أو اعلم علمك . فحدر لثامه فاذا هو شيخنا ابو الفتح الاسكندري » .

وقس على ذلك كثيراً في تضاعيف المقامات . وقد اصاب الدكتور زكي مبارك إذ قال [٢] : « وعند مقارنة مقامات البديع بمقامات الحريري يتبين لنا ان لغة بديع الزمان خالية من التكلف والاعتساف ، ولا كذلك لغة الحريري التي تعدّ من أغرب نماذج النثر المصنوع . وعند الرجوع إلى آثار من تأثروا بفنّ المقامات نراهم في الاغلب تلامذة لحريري لا تلامذة البديع فقد اولع أكثرهم بالصنعة والزخرف ، ولم أنس منهم إلى فطرته إلا القليل » .

٢ . روح الدعابة والظرف

ومع ان بعض مقاماته قصيرة تكاد لا تجد فيها اثراً لحكاية أو نكتة ، فان البعض الآخر يدلّ على روح فكهة تحب النكتة وتحسن سرد الحكاية وهو في ذلك يفوق عامة أصحاب المقامات . ومن مقاماته الفكهة .

المقامة البغدادية

وفيها يقول :

هشام قال : اشتهيت الازاذ [٣] ، وانا ببغداذ ،

---

١ أي نعم وانها لك ولك الناقة التي تحملها .

٢ النثر الفني ١-٢٠٣

٣ نوع من الحلوى أو التمر .

وليس معي عقد ، على نقد ، فخرجت انتهز محالّه حتى احلني الكرخ ، فاذا أنا بسواديّ [1] يسوق بالجهد حماره ، ويطرف بالعقد ازاره ، فقلت : ظفرنا والله بصيد ، وحياك الله ابا زيد ! من اين أقبلت ، وأين نزلت ، ومتى وافيت ، وهلم إلى البيت . فقال السواديّ : لست بأبي زيد ، ولكني ابو عبيد ، فقلت : نعم لعن الله الشيطان ، وابعد النسيان ، أنسانيكَ طول العهد ، واتّصال البعدِ ، فكيف حال ابيك ، أشابّ كعهدي ، ام شابَ بعدي ، فقال : قد نبت الربيع على دمنته ، وارجو أن يصيّره الله إلى جنّته ، فقلت : انّا لله وانا اليه راجعون ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العليّ العظيم ! ومددت يد البدار ، إلى الصّدار ، أريد تمزيقه ، فقبض السوادي على خصري بجُمعه ، وقال : ناشدتك الله لا مزقته ، فقلت : هلّم إلى البيت نصب غداءً ، أو إلى السوق نشتري شواءً ، والسّوق أقرب ، وطعامه أطيب . فاستفزته حمية القَرَم ، وعطفته عاطفة اللقم ، وطمع ، ولم يعلم انه وقع ، ثم اتينا شوّاءً يتقاطر شواؤه عرقاً ، وتتسايل جوذاباته مرقاً ، فقلت : افرز لابي زيد من هذا الشواء ، ثم زن له من تلك الحلواء ، واختر له من تلك الاطباق ، وانضد عليها أوراق الرقاق ، ورشّ عليه شيئاً من ماء السمّاق ، ليأكله ابو زيد هنياً . فانحنى الشواءُ بساطوره ، على زبدة تنوره ، فجعلها كالكحل سحقاً . وكالطحن دقاً ، ثم جلس وجلست ، ولا يئس ولا يئست ، حتى استوفينا وقلت لصاحب الحلوى زن لابي زيد من اللوزينج رطلين فهو اجرى في الحلوق ، وامضى في العروق ، وليكن ليليّ العمر ، يوميّ النشر ، رقيق القشر ، كثيف الحشو ، لؤلؤي الدهن ، كوكبي اللون ، يذوب كالصمغ قبل المضغ ، ليأكله ابو زيد هنياً ، قال : فوزنه ثم قعد وقعدت ، وجرّد وجرّدت ، حتى استوفيناه . ثم

---

[1] قروي

قلت : يا ابا زيد ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج ليقمع هذه الصارة ١ ويفثأ هذه اللقم الحارة ، اجلس يا ابا زيد حتى نأتيك بسقاء ، يأتيك بشربة ماء . ثم خرجت بحيث أراه ولا يراني ، انظر ما يصنع . فلما ابطأت عليه قام السوادي إلى حماره ، فاعتلق الشواك بأزاره . وقال :

أين ثمن ما أكلت ؟ فقال ابو زيد : أكلته ضيفا . فلكمه لكمة وثنى عليه بلطمة . ثم قال الشواء : هاك ، ومتى دعوناك، زنيا اخا القحة عشرين ، فجعل السوادي يبكي ويحل عقده باسنانه ويقول : كم قلت لذاك القريد ، انا ابو عبيد ، وهو يقول أنت أبو زيد . فانشدت :

اعمل لرزقك كل آله   لا تقعدن بكل حاله
وانهض بكل عظيمة   فالمرء يعجز لا محاله

المقامة المضيرية

وهي طويلة ومن أبدع ما كتب في هذا الفن — وخلاصتها ان ابا الفتح الاسكندري دعي مرة إلى أكل المضيرة على مائدة بعض التجار فلعنها ولعن طابخها ، ولما سألوه عن أمرها قص لهم ما حدث له من جرائها ، والحديث طويل ، وهو يدور على رجل ثقيل دعاه مرة إلى أكل المضيرة في منزله ، فيبرمه ويصدعه لكثرة ما يصف زوجته ومحلته وداره وما فيها ، وغلامه واخوانه وما إلى ذلك فيطيل ويحرج . كل ذلك قبل أن يحضر الطعام . وكان وقت الغداء قد فات ولم يبق لأبي الفتح صبر على شرح الرجل وابرامه وثقل روحه واحس ان الشرح

١ العطش

لا يزال طويلاً وان نمت كثيراً من الاشياء التي لا بد للداعي من وصفها وازهاق الروح بذكر دقائقها ، فلم يرَ أمامه إلاّ الهرب قال :

« وخرجت نحو الباب ، وأسرعت في الذهاب ، وجعلت أعدو وهو يتبعني ويصيح : يا أبا الفتح المضيرة . وظنَّ الصبيان ان المضيرة لقبٌ لي فصاحوا صياحه ، فرميت أحدهم بحجر ،من فرط الضجر .فلقي رجلٌ الحجر بعمامته ، فغاص في هامته ، فأخذت من النعال بما قدُمَ وحدُثَ ، ومن الصفع بما طاب وخبثَ ، وحُشرت إلى الحبس فاقمت عامين في ذلك النحس ، فنذرت ان لا آكل مضيرة ما عشت ، فهل أنا في ذا يا آل همدان ظالم . قال عيسى ابن هشام : فقبلنا عذره ، ونذرنا نذره ، وقلنا قديماً جنت المضيرة على الاحرار ، وقدّمت الاراذل على الاخيار .

٣ . مرارة التهكم والهجاء

وتظهر في مقاماته كما تظهر في رسائله كقوله في المقامة المارستانية على لسان مجنون يصف المعتزلة :

« وانتم يا مجوس هذه الامة تعيشون جبراً ، وتموتون صبراً ، وتساقون إلى المقدور قهرا ، ولو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم ، أفلا تنصفون ، ان كان الامر كما تصفون ؟ وتقولون خالق الظلم ظالم . أفلا تقولون خالق الهلك هالكٌ ؟ اتعلمون يقيناً ، انكم أخبث من ابليس ديناً . قال : ربِّ بما اغويتني : فأقرّ وانكرتم ، وآمن وكفرتم ، وتقولون خُيّر فاختار . وكلاّ فانّ المختار لا يَبعج بطنه ، ولا يفقأ عينه ، ولا يرمي من حالق ابنهُ ، فهل الاكراه ، الاّ ما تراه ؟ والاكراه مرّةً بالمرّة ، ومرّةً بالدِّرّة [1] ، فليخزكم ان

١ المرة هنا العقل والدرة العصا

القرآن بغيضكم ، وان الحديث يغيظكم ، إذا سمعتم من يضلل الله فلا هادي له الحدتم ، وإذا سمعتم زُويت لي الارض فأريت مشارقها ومغاربها جحدتم ، وإذا سمعتم عُرضت عليَّ الجنة حتى هممت ان اقطف ثمارها وعرضت عليَّ النار حتى اتقيت حرها بيدي ، انغضتم رؤوسكم ولويتم اعناقكم ، وان قيل عذاب القبر تطيرتم ، وان قيل الصراط تغامزتم ، وان ذكر الميزان قلتم : من الفرغ كفتاه [1] ، وان ذكر الكتاب قلتم : من القد دفتاه . يا اعداء الكتاب والحديث بم تطيرون ؟ أبالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ انما مرقت مارقة فكانوا خبث الحديث ، ثم مرقتم منها فانتم خبثُ الخبيث » .

ومن نقده اللاذع قوله في المقامة النيسابورية يصف قاضياً يصلي في المسجد :

« هذا سوسٌ لا يقع الا في صوف الايتام ، وجرادٌ لا يسقط الا على الزرع الحرام ، ولصٌ لا ينقب الا خزانة الاوقاف ، وكرديٌ لا يغير الا على الضعاف ، وذئبٌ لا يفترس عباد الله الا بين الركوع والسجود ، ومحارب لا ينهب مال الله الا بين العهود والشهود . وقد لبس دنيته [2] ، وخلع دينيته ، وسوى طيلسانه ، وحرف يده ولسانه ، وقصر سباله ، وأطال حباله ، وابدى شقاشقه ، وغطى مخارقه ، وبيض لحيته ، وسود صحيفته ، واظهر ورعه ، وستر طمعه » .

ومما يدلك على طول باعه في الاقذاع والهجاء مقامته الدينارية . فهي مجموعة شتائم وضعها عن لسان شخصين يتناظران في التهاجي فليراجعها من شاء .

والبديع في مقاماته وصاف ماهر [3] . على انه لا يمتاز بذلك عن

---

١ أي قلتم تهكماً كفتاه فارغتان .

٢ قلنسوة القاضي .

٣ للدكتور زكي مبارك في النثر الفني ج١ ص ٢١١ — ٢٢٠ فصل تناول به الوصف في مقامات البديع فليراجع .

سواه من منشئي عصره وما بعده ، فان الوصف والتبسط من صفاتهم البارزة وفنونهم المقصودة . ونظرة إلى ما ورد من ذلك في الرسائل الديوانية والادبية تكفينا مؤونة الاستشهاد .

وهو يكثر من الحكم والعظات ولكن اكثرها راجع إلى ذم الدنيا وأهلها ذمّاً ينمّ عن نفس مرّة وطبع متبرّم . ولا بدع فبطل المقامات ابو الفتح اناني لا يثق باحد ولا يسعى لغير الكسب . فاذا أرسل حكمة أو ابدى زهداً فان همّه كما ذكر في وصاته لابنه :

وكما اخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصّين احدهما الكرم ، واسم الآخر القرَم ، فاياك واياهما ! ان الكرم اسرع في المال من السوس ، وان القرَم اشأم من البسوس ، ودعني من قولهم ان الله كريم انها خدعة الصبي عن اللبن . بلى ان الله لكريمٌ ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه ، وينفعنا ولا يضرّه . ومن كانت هذه حاله ، فلتكرم خصاله . فأمّا كرمٌ لا يزيدك حتّى ينقصني ولا يريشك حتّى يبريني فخذلانٌ لا أقول عبقريّ ولكن بُقريّ[1] . افهمتها يا ابا المشؤومة . انمـا التجارة تنبط الماءَ من الحجارة ، افتتركه وهو مُعرضٌ ثم تطلبه وهو معوزٌ[2] . افهمتها لا أمّ لك . انه المال عافاك الله فلا تنفقنّ الاّ من الربح ، وعليك بالخبز والملح ، ولك في الخَلّ والبصل رخصة ما لم تُدِمْهما ، ولم تجمع بينهما ، واللحم لحمكَ وما اراكَ تأكله ، والحلوُ طعام من لا يبالي على أيّ جنبيه يقع ، والوَجَبات عيش الصالحين ، والاكل على الجوع واقيةُ الفوتِ ، وعلى الشّبَعِ داعية الموت ، ثم كن مع الناس كلاعب الشطرنج خذ كل ما معهم واحفظ كل ما معك ، يا بنيّ قد اسمعتُ وابلغتُ ، فان قبلتَ فالله حسبك ، وان ابيتَ فالله حسيبكَ .

---

١ أي خذلان مهلك .

٢ أي أتتركه المال وهو موجود وتطلبه حين يعجزك تحصيله

المقامة الصيمرية

وهي تجمع إلى حلاوة القصة حكمة العظة جمعاً يملك النفس وهو يضعها على لسان رجل اسمه ابو العنبس الصيمري واليك حديثه — قال :

« قدمت من الصيمرة إلى مدينة السلام ومعي جراب دنانير ومن الخُرْثيِّ [1] والآلة وغير ذلك مما لا أحتاج معه إلى احد ، فصحبت من أهل البيوتات والكتّاب والتجار ، ووجوه التُنّاء [2] من اهل الثروة واليسار ، والجِدة والعقار جماعة اخترتهم للصحبة ، وادّخرتهم للنكبة »

وبعد أن يصف طيب عيشهم عنده يقول :

« وكنت عندهم اعقل من عبد الله بن عباس ، واظرف من ابي نواس ، واسخى من حاتم ، واشجع من عمرو ، وابلغ من سحبان وائل ، وأدهى من قصير ، واشعر من جرير ، وأعذب من ماء الفرات ، وأطيب من العافية ، لبذلي ومروءتي ، واتلاف ذخيرتي ، فلمّا خفّ المتاع ، وانحطّ الشّراع ، وفرغ الجراب ، تبادر القوم الباب ، لما احسّوا بالقصّة ، وصارت في قلوبهم الغصة ، ودعَوني بُرصة ، وانبعثوا للفرار ، كرّمية الشرار ، وأخذتهم الضجرة ، فانسلّوا قطرةً قطرة ، وتفرّقوا يَمنةً ويسرة .

ثم يصف حاله وما وصل اليه من الفقر والمذلة وجفاء الاصحاب الكاذبين ويصل ذلك بقوله :

فلما رأيت الامر قد صعُب ، والزمان قد كَلِب ، التمست الدرهم افاذا هو مع النّسرين ، وعند منقطع البحرين ، وأبعد من الفرقدين ، فخرجتُ أسيحُ ، كأني المسيح ، فجلت خراسان ، الخراب منها والعمران ، إلى كرْمان وسجستان وجيلان إلى طبرِستان وإلى عُمَان ،

---

[1] الخرثي الأثاث .

[2] التناء الدهاقين أو كبار المزارعين .

إلى السند والهند والنّوبة والقبط واليمن والحجاز ومكة والطائف اجول البراري والقفار ، واصطلي بالنار ، وآوي مع الحمار .

وهنا يصف ما جمعه من نوادر واختبارات وما عاناه من مشقّة وتكلفة حتّى كسب ثروة طائلة وجمع كثيراً من الطرائف والتحف قال :

« فلما قدمت بغداد ووجد القوم خبري ، وما رزقته في سفري ، سرّوا بمقدمي ، وصاروا باجمعهم إليّ يشكون ما عندهم من الوحشة لفقدي ، وما نالهم لبعدي ، وشكوا شدة الشوق ، ورزء التوق ، وجعل كل واحد منهم يعتذر مما فعل ويظهر الندم على ما صنع ، فاوهمتهم اني قد صفحت عنهم ، ولم اظهر لهم الموجدة عليهم بما تقدّم فطابت نفوسهم ، وسكنت جوارحهم وانصرفوا على ذلك . وعادوا إليّ في اليوم الثاني فحبستهم عندي ووجهت وكيلي إلى السوق فلم يدع شيئاً تقدّمت اليه بشرائه الا أتى به » .

ويصف بعد ذلك مقامهم عنده تلك الليلة وكيف سقاهم الخمر حتّى سكروا قال :

« ووجهت إلى بلال المزيّن فاحضرته وقدمت اليه طعاماً فأكل وسقيته من الشراب القطربليّ فشرب حتّى ثمل ،وجعلت في فيه دينارين احمرين وقلت : شأنك والقوم ، فحلق في ساعة واحدة خمس عشرة لحية فصار القوم جرداً مرداً كأهل الجنة ، وجعلت لحية كل واحد منهم مصرورة في ثوبه ومعها رقعة مكتوب فيها : من اضمر بصديقي الغدر وترك الوفاء كان هذا مكافأته والجزاء : وجعلتها في جيبه » .

وكان قد استحضر حمالين فحملوهم إلى منازلهم « فلما أصبحوا رأوا في نفوسهم هماً عظيماً ، لا يخرج منهم تاجر إلى دكانه ، ولا كاتب إلى ديوانه ولا يظهر لاخوانه .

وشاع الخبر بمدينة السلام بفعلي معهم ولم يزل الامر يزداد حتّى بلغ الوزير القاسم بن عبيد الله ؛ وذلك انه طلب كاتباً له فافتقده فقيل انه في

منزلة لا يقدر على الخروج . قال : ولم ؟ قيل : من أجل ما صنع ابو العنبس لانه كان امتُحن بعشرتهم ومنادمتهم . فضحك .

ثم قال : « والله لقد أصاب وما أخطأ فيما فعل ، ذروه فانه من اعلم الناس بهم ، ثم وجه الي خلعة سنية وقاد فرساً بمركب ، وحمل إلي خمسين الف درهم لاستحسانه فعلي » .

الحريري

(٤٤٦ هـ - ٥١٦)

توطئة تاريخية

ولد ابو محمد القاسم بن علي الحريري في مَشان وهي بلدة صغيرة فوق البصرة . وسكن البصرة وفيها قضى حياته . وقد قرأ الادب على ابي القاسم القصباني البصري .

ونقل ياقوت عن الخريدة ان الحريري كان «صاحب الخبر» بالبصرة في ديوان الخلافة ، وان هذا المنصب بقي في أولاده إلى أواخر عهد المقتفي . ويفهم مما ذكره الطبري ان صاحب الخبر كان يعيّنه الخليفة لموافاته بالمعلومات اللازمة عن الجيش أو سواه [١] . فهو اشبه برئيس قلم الاستخبارات في هذه الايام .

ويستدل مما ذكروه ان الحريري كان ذا يسار وفضل ولكنه كان بخيلاً دميم الخلقة والهيئة . ويحكي الانباري [٢] : «ان رجلاً قصده ليقرأ عليه ، فاستدلّ على مسجده الذي يقرأ فيه فلما أراد الدخول رأى

---

١ الطبري (الجملة الثالثة) ١٢٦٠

٢ طبقات الأدباء ٤٥٦

شخصاً دميم الخلق فاحتقره وقال لعله ليس هو هذا . فرجع ثم قال في نفسه لعلهُ يكون هذا ، ثم استبعد ان يكون هو ، والشيخ يلحظه . فلمّا تكرّر ذلك منه تفرّس الشيخ منه ذلك ، فلما كان في المرّة الأخيرة قال له ارحل فانا من تطلب ، اكبر من قرد محنّك » .

وكان ، على ما يروونه ، وعلى ما يظهر في مقاماته ، غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة . وقد قُرن ذلك فيه بشيء من الظّرف والدعابة قيل [1] :

« ويحكى انه كان مولعاً بالعبث بلحيته بحيث يتشوّه بذلك ، فنهاه الامير وتوعّده على ذلك . وكان كثير المجالسة له فبقي كالمقيّد لا يتجاسر ان يعبث بها . فتكلم في بعض الايام عند الامير بكلام استحسنه منه فقال له الامير سلني ما شئت حتى اعطيك ، فقال له أقطعني لحيتي فقال له قد فعلت » .

• • •

وله من التصانيف « درّة الغوّاص في اوهام الخواص » وهو كتاب نقدي يبين فيه اغلاط الكتّاب فيما يستعملونه من الالفاظ . وقد طبع في ليبسك ومصر والاستانة — ومن مصنفاته ارجوزة في النحو سماها « ملحة الاعراب في النحو » .

وله غير ذلك رسائل وأشعار وكلها تدل على طول باعه في اللغة .

اسلوبه الانشائي

وهو في ذلك لا يخرج عن منهاج العصر الذي نشأ فيه . ولعله كان من أكثر المنشئين ميلاً إلى التصنع في رسائله واظهاراً لطول باعه وسعة معرفته .

---

١ طبقات الأدباء ٤٥٦

فمن رسائله رسالة كتبها على لسان بعض أصدقائه يعاتب صديقاً اخلّ به في دعوة ، وقد التزم في كل كلمة منها السين ومنها [1] :

« باسم القدوس أستفتح ، وباسعاده أستنجح . سجية سيدنا سيف السلطان ، السيد النفيس سيد الرؤساء ، حُرست نفسه ، واستنارت شمسه ، وبسق غرسه ، واتّسق أنسه ، استمالة الجليس ، ومساهمة الانيس ، ومواساة السحيق النسيب ، ومساعدة الكسير والسليب » .

والرسالة كلها على هذا النسق نثراً ونظماً .

وله رسالة التزم فيها الشين قال منها [2] :

« بارشاد المنشئ أنشئ — شغفي بالشيخ شمس الشعراء ، ريشَ معاشُه ، وفشا رياشه ، وأشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه ، يشاكل شغف المنتشي بالنشوة ، والمرتشي بالرشوة ، والشادن بشرخ الشباب ، والعطشان بشمّ الشراب ، وشكري لتجشمه ومشقته ، وشواهد شفقته ، يشابه شكر الناشد للمنشد ، والمسترشد للمرشد » .

ويجري هذا المجرى إلى آخر الرسالة ويتعسّف في نثرها وشعرها ويتغارب ما شاءَ .

ويقابل ذلك في مقاماته المقامة الرّقطاء التي أورد فيها رسالة احــد حروفها منقّط والآخر غير منقوط كقوله :

« اخلاق سيدنا تحبّ ، وبعقوته يُلبّ [3] ، وقربه تُحَف ، ونأيه تلف ، وخلّته نسب ، وقطيعته نصب » وهي طويلة ومن شعره فيها :

مخلفٌ متلفٌ أغرّ فريـــدٌ   نابهٌ فاضلٌ ذكيٌ أنوفُ
مُفلقٌ إن أبانَ طَبٌ إذا نا   بَ هياجٌ وجلّ خطبٌ مخوفُ

ومثلها المقامة الشعرية وفيها يتلاعب بقصيدة له مطلعها :

---

1 راجعها في معجم الأدباء ٦–١٧٥

2 معجم الأدباء ٦ – ١٧٦

3 أي وبفنائه يقام

يا خاطب الدنيا الدنيّة انها   شرك الردى وقرارة الاكدار

فقد نظمها بحيث يمكن قراءتها مجزوءة على هذا المنوال

يا خاطب الدنيا الدنيـ   ـة انها شرك الردى

والمقامة كلها من هذا الباب .

ومنها المقامة النجرانية والحلبية وفي سائر المقامات كثير من هذا التلاعب الصناعي الذي عني به الحريري أشد العناء .

مقاماته

وهي أهمّ ما صنفه . وقد حذا فيها كما مر معنا حذو البديع . بدأ بها سنة ٤٩٥ اي وهو في الحادية والثلاثين من عمره ولكنه لم يتمها (وهي خمسون مقامة) دفعة واحدة بل انشأها في آجال متقطعة خلال بضع سنوات .

وقد نالت هذه المقامات شهرة واسعة جداً حتى في أيام صاحبها فانه اجاز بيده ٧٠٠ نسخة منها واليك ما قال ياقوت في ذلك[1] :

« ولقد وافق كتاب المقامات من السعد ما لم يوافق مثله كتاب . فانه جمع بين حقيقة الجودة والبلاغة ، واتّسعت له الالفاظ ، وانقادت اليه وفود البراعة حتى أخذ بازمّتها ، وملك ربقتها ، فاختار الفاظها ، واحسن نسقها ، حتى لو ادّعى بها الاعجاز لما وجد من يدفع في صدره ، ولا يردّ قوله ، ولا يأتي بما يقاربها ، فضلاً عن ان يأتي بمثلها . ثمّ رزقت مع ذلك الشهرة وبعد الصيت والاتفاق على استحسانها من الموافق والمخالف ما استحقّت وأكثر .

ومن عجيب ما رأيته وشاهدته اني وردت آمد في سنة ٥٩٣ وانا في عنفوان الشباب وريعه ، فبلغني ان بها علي بن الحسين المعروف بالشيم الحلّي ، وكان من العلم بمكان مكين ، واعتلق من حباله بركن ركين :

---

١ معجم الأدباء ٦ — ١٧٠

الا انه كان لا يقيم لاحدٍ من أهل العلم المتقدمين ولا المتأخرين وزناً ، ولا يعتقد لأحد فضيلة ، ولا يقرّ لأحد باحسان في شيء من العلوم ولا حسن . فحضرت عنده وسمعت من لفظه ازراءه على اولي الفضل ، وتنديده بالمعيب عليها بالقول والفعل . فلما ابرمني واضجر ، وامتدّ في غيّه واصحر ، قلت له اما كان فيمن تقدّم على كثرتهم ، وشغف الناس بهم ، عندك قطّ مجيد ؟ فقال لا اعلم الاّ ان يكون ثلاثة رجال : المتنبي في مديحه خاصة ولو سلكت طريقه لما برز عليّ ، والثاني ابن نباتة في خطبه ، وان كانت خطبي احسن منها ... والثالث ابن الحريري في مقاماته . قلت فما منعك ان تسلك طريقته وتنشئ مقامات تخمد بها جمرته وتملك بها دولته . فقال :

« يا بنيّ ! الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل . ولقد انشأتها ثلاث مرات ، ثم كنت اتأملها فاسترذلها فاعمد إلى البركة فاغسلها . ثم قال : ما أظنّ الله خلقني الاّ لاظهار فضل الحريري وشرح مقاماته بشرح قرئ عليه وأخذ منه » .

ويدلك على منزلة المقامات كثرة الشرّاح لها ، واهمهم الشريشي والمطرّزي والرازي والعكبري — على ان شهرتها لم تنحصر في العالم العربي بل تعدّته إلى أمم أخرى فترجمت قديماً إلى السريانية والعبرانية . وفي القرن الثامن عشر للميلاد نقلت إلى اللاتينية . ثم اصدر دي ساسي سنة ١٨٢٢ منها نسخة ضافية وافية وتلاه كثيرون في الشرق والغرب . وقد ترجمت إلى بضع لغات أوروبية وغير أوروبية .

اما بطل هذه المقامات فرجل اسمه ابو زيد السروجي . ويروون عن لسان الحريري ان ابا زيد هذا كان شيخاً شحّاذاً بليغاً ومكدياً فصيحاً ، وانه رآه في مسجد بالبصرة ، وكان بعض الولاة حاضراً والمسجد غاصّ بالفضلاء فاعجبتهم فصاحته . قال الحريري [١] : « واجتمع عندي

---

١ معجم الأدباء ١٦٨

عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل . فحكى كل واحد من جلسائه انه شاهد منه في مسجده مثل ما شاهدت ، وانه سمع منه في معنى آخر فصلاً احسن مما سمعت . وكان يغيّر في كل مسجد زيّه وشكله ، ويظهر في فنون الحيلة فضله . فتعجبوا من جريانه في ميدانه ، وتصرّفه في تلوّنه واحسانه ، فانشأت المقامة الحرامية ثم بنيت عليها سائر المقامات » .

امّا ان يكون بطل المقامات رجلاً حقيقياً فذلك مما يرتاب به ويقول مرغوليوث انها خرافة [1] . اما بروكلمان فيقف موقف المرتاب فقط[2] ويقول برستون « انه نموذج أدبي يمثل ذوق الوسط الادبي في ذلك العصر . فالمقامة معرض فني لأعلى انواع الادب عندهم وصورة دقيقة تعكس لنا شخصيات كبار الادباء [3] » .

ويعزو الحريري رواية المقامات إلى الحارث بن همّام . قال ابن خلكان [4] : « وانما عنى نفسه هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات وهو مأخوذ من قوله (ص) كلكم حارث وكلكم همام . فالحارث الكاسب والهمّام كثير الاهتمام » .

* * *

وإذا قابلنا مقامات البديع بمقامات الحريري وجدنا ان الاولى اسهل مأخذاً ، واقل تكلفاً ، واكثر ابتكاراً للوقائع والحوادث . أما الثانية فأدقّ صنعةً وافضل شعراً واكثر تعمقاً في اللغة واوضاعها وأمثالها وحوادث رجالها .

ولايضاح اسلوبها نقتطف منها ما يلي :

---

١ دائرة المعارف الاسلامية **Hariri**

٢ دائرة المعارف الاسلامية **Makamat**

٣ **Préston, Makamat, al Hariri XII, London 1850**

٤ وفيات الاعيان ١–٥٩٨

المقامة الاسكندرية

قال الحارث بن همام طحا بي مرح الشباب ، وهوى الاكتساب ، إلى ان جبت ما بين فرغانة ، وعانة ، أخوض الغمار لاجني الثمار ، واقتحم الاخطار لكيّ أدرك الاوطار ، وكنت لقيت من أفواه العلماء ، وثقفت من وصايا الحكماء ، انه يلزم الاديب الاريب ، إذا دخل البلد الغريب ، ان يستميل قاضيه ، ويستخلص مراضيه ، ليشتد ظهره عند الخصام ، ويأمن في الغربة جور الحكّام ، فاتخذت هذا الادب اماما ، وجعلته لمصالحي زماما .

فبينما أنا عند حاكم الاسكندرية ، في عشية عريّة ، وقد احضر مال الصدقات ، ليفضّه على ذوي الفاقات ، إذ دخل شيخٌ عِفريةٌ[1] ، تعتله امرأة مُصبية[2] ، فقالت ايّد الله القاضي ، وادام به التّراضي ، اني امرأة من اكرم جرثومة ، واطهر ارومة .

وكان ابي إذا خطبني بُناةُ المجد ، وارباب الجدّ ، سكّتهم وبكّتهم ، وعاف وُصلتهم وصِلتهم ، واحتجّ بانه عاهد الله تعالى بحلفة ، ان لا يصاهر غير ذي حرفة ، فقيّض القدَر لنصبي ، ووصبي ، ان حضر هذا الخُدَعة نادي ابي ، فاقسم بين رهطه ، انه وفق شرطه ، وادّعى انه طالما نظم درّة إلى درة فباعهما ببدرة ، فاغترّ ابي بزخرفة محاله ، وزوّجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجني من كناسي ، ورحّلني عن اناسي ، ونقلني إلى كسره ، وحصّلني تحت أسره ، وجدته قُعَدَةً جُثَمة ، وألفيته ضُجعةً نُومة ، وكنت صحبته برياش وزيّ ، واثاث وريّ ، فما برح يبيعه في سوق الهضم ، ويتلف ثمنه في الخضْم والقضم[3] ، إلى ان مزّق مالي بأسره ، وانفق مالي في

[1] أي خبيث ماكر .
[2] ذات صبيان .
[3] أي في أنواع الاكل واللذات .

صبره ، فلما انساني طعم الراحة ، وغادر بيتي انقى من الراحة .. قلت له الخ .. »

وتتابع المرأة حديثها فتقول :

« وقد قدته اليك ، واحضرته لديك ، لتعجم عود دعواه ،وتحكم بيننا بما أراك الله . فاقبل القاضي عليه وقال له قد وعيت قصص عرسك ، فبرهن الآن عن نفسك ، والا كشفت عن لبسك ، وأمرت بحبسك ،فاطرق إطراق الافعوان ، ثم شمّر للحرب العوان ، وقال :

إسمع حديثي فانه عجبٌ ... يُضحكُ من شرحه وينتحب
انا امرؤٌ ليس في خصائصه ... عيب ولا في فخاره ريبُ
ورأس مالي سحر الكلام الذي ... منه يصاغ القريض والخطبُ
أغوص في لجة البيان فاخـ ... ـتار اللآلي منها وانتخبُ
فاليوم من يعلق الرجاءُ به ... أكسد شيء في سوقه الادبُ
فهذه الحرفة المشار إلى ... ما كنت احوي بها واجتلبُ
فأذن لشرحي كما أذنت لها ... ولا تراقب واحكم بما يجبُ

ويسمع القاضي الابيات فيرق له ويفضّ المشكلة بقبضة من الدراهم يناولها اياها ثم يوصيهما بالصبر عسى الله يأمر بالفتح من عنده .

ويتلو ذلك محاولة الحارث بن همام ان يتقصّى خبرهما وما كان من ندمه وخيبة آماله .

المقامة الواسطية

« حكى الحارث بن همام قال ألجأني حكم دهرٍ قاسط ، إلى أن انتجع أرض واسط ، فقصدتها وانا لا أعرف بها سكناً ، ولا أملك فيها مسكناً ، ولما حللتها حلول الحوت بالبيداء ، والشعرة البيضاء في اللمة السوداء ، قادني الحظ الناقص ، والجدّ الناكص ، إلى خان ينزله

شذّاذ الآفاق ، واخلاط الرّفاق ، وهو لنظافة مكانه ، وظرافة سكانه ، يرغب الغريب في إيطانه ، وينسيه هوى أوطانه . فاستفردت منه بحجرة ولم أنافس في اجرة ، فما كان الا كلمح طرف ، أو خط حرف ، حتى سمعت جاري بيتَ بيت ، يقول لنزيله في البيت ، قم يا بنيّ لا قعدَ جدّك ، ولا قام ضدّك ، واستصحب ذا الوجه البدريّ واللون الدرّي [1] » . ويجري هنا في أوصاف كثيرة يعلم منها الحارث انه ابو زيد فيقبل عليه . وبعد حديث طويل بينهما يقول له ابو زيد :

« قد علق بقلبي ان تصاهر من يأسو جراحك ، ويريش جناحك ، فقلت وكيف أجمع بين غلّ وقلّ ، ومن الذي يرغب في ضلّ بن ضلّ ، فقال انا المشير بك واليك ، والوكيل لك وعليك .

على انك لن تطالب بصداق ، ولا تلجأ إلى طلاق ، ثم اني سأخطب في موقف عقدك ، ومجمع حشدك ، خطبة لم تفتق رتق سمع ، ولا خطب بمثلها في جمع ، قال الحارث بن همام فازدهاني بوصف الخطبة المتلوّة ، دون الخطبة المجلوّة ، حتى قلت له قد وكلت اليك هذا الخطب ، فدبره تدبير من طبّ لمن حبّ .

ثم أخذ في مواعدة أهل الخان ، وإعداد حلواء الخوان ، فلما مدّ الليل اطنابه ، واغلق كل ذي باب بابه ، اذّن في الجماعة ، ألا احضروا في هذه الساعة . فلم يبق فيهم الا من لبّى صوته ، وحضر بيته ، فلما اصطفّوا لديه ، واجتمع الشاهد والمشهود عليه ، جعل يرفع الاصطرلاب ويضعه ، ويلحظ التقويم [2] ويدعه ، إلى ان نعس القوم ، وغشي النوم ، فقلت يا هذا ضع الفاس في الراس ، وخلص الناس من النعاس ، فنظر نظرة في النجوم ، ثم انتشط من عقله الوجوم ، وأقسم بالطور والكتاب المسطور ، لينكشفنّ سر هذا الامر المستور » .. فيلقي

---

١ يريد به الرغيف .

٢ الاصطرلاب من آلات الفلك ، والتقويم كتاب في حساب الفلك .

عليهم خطبة طويلة عريّة من الاعجام (النقط) قال الحارث :

« ثم احضر الحلواء التي كان اعدّها ، وابدى الآبدة [1] عندها ، فاقبلت اقبال الجماعة عليها ، وكدت اهوي بيدي اليها ، فزجرني عن المؤاكلة ، وأنهضني للمناولة ، فوالله ما كان باسرع من تصافح الاجفان، حتى خرّ القوم للاذقان » . ويتبع ذلك حديث وعتاب ولكن ابا زيد لا يهتم بقول الحارث .

« ثم عمد لاستخراج ما في البيوت ، من الاكياس والتخوت ، وجعل يستخلص خالصة كل مخزون ، ونخبة كل مذروع وموزون، حتى غادر ما التاه فخته كمعظم استخرج مخّه ، فلما همّن [2] ما اصطفاه ورزّم ، وشمّر عن ذراعيه وتحزّم ،أقبل عليّ إقبال من لبس الصفاقة، وخلع الصداقة ، وقال هل لك في المصاحبة إلى البطيحة ، لازوّجك باخرى مليحة . فلويت عنه عذاري ، وأبديت له ازوراري ، فلما بصر بانقباضي ، وانجلى له إعراضي ، قال :

يا صارفاً عني المودّ ة والزمان له صروفْ
لا تلحني فيما اتيت فانني بهمُ عروف
ولقد نزلت بهم فلم ارهم يراعون الضيوف
ما فيهمُ الا مخيف ان تمكّن أو مخوف
ولكم بلغت بحيلتي ما ليس يبلغ بالسيوف
ووقفت في هولٍ ترا عُ الاسدُ فيه من الوقوف
ولكم سفكت وكم فتكت وكم هتكت حمى أنوف
لكنني أعددتُ حسنَ الظنّ بالمولى الرؤوف

قال فلما انتهى إلى هذا البيت لجّ في الاستعبار ، والظّ بالاستغفار ، حتى استمال هوى قلبيَ المنحرف ، ورجوت له ما يرجى للمقترف

---

[1] الفعلة التي يبقى ذكرها أبداً لغرابتها .

[2] جعله في الكيس .

المعترف ، ثم انه غيّض دمعه المنهلّ ، وتأبّط جرابه وانسلّ ، وقال لابنه احتمل الباقي والله الواقي . قال المخبر بهذه الحكاية فلما رأيت انسياب الحية والحُبيّة ، وانتهاء الداء إلى الكيّة ، علمت ان تربّتي بالخان ، مجلبة للهوان ، فضممت رحلي ، وجمعت للرحلة ذيلي ، وبتّ ليلتي اسري إلى الطيب ، واحتسب الله على الخطيب ».

ولو استعرضنا مقاماته واحدة واحدة لما وجدنا فيها ما في مقامات البديع من طرائف القصص ، وان هي الا مجموعة لغوية بلغ فيها أقصى ما يبلغه علماء الادب واللغة في كل زمان ، وقد ظلّت زمناً طويلاً انموذج الانشاء عند المتأدبين ثم سقطت من مكانها بسقوط دولة السجع وشيوع النثر المطلق في جميع الدوائر الادبية الحديثة .

ناصيف اليازجي

(١٨٠٠ – ١٨٧١)

ولد الشيخ اليازجي في مطلع القرن التاسع عشر في قرية كفرشيما قرب بيروت وفيها نشأ وترعرع . وكانت وسائل التعلّم عهدئذ ضئيلة جداً ومحصورة في الاديرة والمساجد فتلقّى القراءة والكتابة على يد احد الرهبان، ولكن ذلك لم يشبع نفسه المتعطشة إلى المعرفة فاقبل على المطالعة بنفسه متصفّحاً كل ما وصلت اليه يده من كتب اللغة والشعر وغيرها . وكان والده يتعاطى الطب على مذهب ابن سينا ، فأخذ عنه هذا العلم الاّ انه لم يكن يتعاطاه .

وكتب في اول نشأته للبطريرك الكاثوليكي ، ثم اتصل بالامير بشير الشهابي حاكم لبنان فحاز رضاه والحقه بديوان كتّابه .

ولما نفي الامير بشير سنة ١٨٤٠ انتقل اليازجي إلى بيروت وهناك تألّق نجمه ومنها طار صيته في العالم العربي ، فاقبل على مراسلته واطراء ادبه رجال العلم والادب من شتّى الاقطار العربية وخصوصاً بعد ان ظهرت مقاماته المعروفة بمجمع البحرين ، فتصدّر مجالس الادب والتدريس، وسارت بذكره الركبان حتى اصبح اسمه معروفاً في كل قطر وعلى كل لسان .

ولد اليازجي في عصر كانت اللغة العربية وأدبها فيه قد بلغا حضيض الانحطاط . ولم يكد يبلغ اشدّه حتى اخذت بعض أشعة الحضارة الجديدة تنفذ إلى شرقنا العربي ، وكأن الدهر كان يتمخّض بحياة جديدة ، وكان لا بد لهذه الحياة من رجال يهيّئون لظهورها السبيل . وهكذا ظهر روّاد نهضتنا الادبية الحديثة ومنهم اليازجي الذي كان له يد طولى في إقالة اللغة من عثارها واعادة القوّة والنشاط اليها . ونحن لا ننكر ان اليازجي كان في أدبه يعيش مع القدماء على انه كان يعيش مع بعض من كبارهم كالمتنبي والحريري وابن مالك، فخدم اللغة إذ جلاها ورفع مستواها ونشأ على يديه ناشئة من أهل القلم الذين تركوا اثراً يذكر في النهضة الحديثة .

ولما كنا سندرس حياته وأدبه في كتابنا التالي الذي سنخصصه لروّاد النهضة ومن تبعهم من اعلام الكتّاب فلنقف الآن عند هذا الحدّ ولنذكر كلمة عن مقاماته .

مقامات اليازجي

للشيخ ناصيف اليازجي ستون مقامة جمعها في مجلد تحت اسم مجمع البحرين . وقد كان في عصره من عالج هذه الصناعة كاحمد البربير ، وابراهيم الاحدب ، وعبدالله فكري ،وفارس الشدياق ،وسواهم ، الاّ ان اليازجي نال قصب السبق في هذا المضمار ، وهكذا قرن اسمه باسم البديع والحريري وأصبح كتابه معوّل الطلبة في المدارس يدرسونه ويقلده الكتّاب منهم ، وبقي كذلك حتى أوائل قرننا الحالي حين أخذ السجع يتراجع أمام النثر الحرّ المرسل . وتمتاز مقاماته بالسلاسة نظماً ونثراً ، وحسن تسلسل الحوادث ،ووفرة المصطلحات اللغوية والاوضاع الطبية والتناكية . كل ذلك في جو من البداوة يشعر القارئ فيه انه يعيش في مضارب الأعراب بعيداً عن عصر الكاتب وبيئته ، ويسودها كما يسود مقامات الحريري روح

التشاؤم وسوء الظن بالناس والاعتقاد بذهاب المكارم ، وانتشار المآثم ، وانه لذلك لا بد للعاقل من استعمال المكر والحيلة والتذرع لبلوغ الاماني بأية وسيلة ممكنة ، ولا ينكر ان اليازجي يجاري الحريري وينسج على منواله . فبطل المقامات اليازجية لا يكاد يختلف عن بطل المقامات الحريرية كلاهما يتصفان بنفس الصفات ، ولكل منهما راوية وغلام يلازمه ويشاركه في وقائعه . والوقائع نفسها عند كلا المؤلفين تتقارب جداً بعضها من بعض، وكذلك كثير من الالاعيب اللفظية أو التركيبية . وكما تنتهي مقامات الحريري بتوبة البطل وتزهّده كذلك تنتهي مقامات اليازجي .

على ان الذي يقابل مقامات اليازجي بسواها يشعر بما فيها من سعة الاطلاع ، وكثرة المعلومات ، والافتنان بغرائب الصناعة البديعية .

وها نحن نثبت أمثلة من مقاماته ونترك لمن يروم الاطلاع عليها بتفصيل ان يراجع كتاب مجمع البحرين الذي قال مؤلفه في مقدمته :

« وقد تحريت ان اجمع فيها ما استطعت من الفوائد ، والقواعد ، والغرائب والشوارد والامثال والحكم ، والقصص التي يجري بها القلم وتسعى لها القدم ... إلى غير ذلك من نوادر التركيب ، ومحاسن الاساليب والاسماء التي لا يعثر عليها الاّ بعد جهد التنقير والتنقيب » .

امثلة من مقاماته تبيّن بعض مزاياها

في المقامة الطبيّة ترى الشيخ يناقش استاذاً في مدرسة للطب كان يملي بعض الوصايا على تلامذته كقوله مثلاً : « يا بنيّ لا تجلس على الطعام الاّ وأنت جائع ، وقم وانت بما دون الشبع قانع . وباكر في الغداء ولا تماسَ في العشاء . والزم الرياضة على الخلاء ، واجتنبها عند الامتلاء . ولا تدخل طعاماً على طعام . ولا تشرب بعد المنام . ولا تعجل في المضغ والازدراد . واجتنب كل ما لم ينضج وما بات من الطعام فهو مجلبة للفساد » . فانبرى له الشيخ باسئلة لم يستطع الاستاذ الاجابة عنها ، فقال له الشيخ : « هيهات هيهات ، ان العلم بتحقيق القضايا . لا

بتنميق الوصايا» : فتلعثم الأستاذ وتصدر الشيخ المقام وأخذ يفنّ في القاء الوصايا والحكم الطبية حتى اذهل الحاضرين .

وفي مقامة أخرى نرى الشيخ عالماً من علماء الفلك ، فيتحدث عن السيّارات، والبروج، ومنازل القمر ، وطوالع الاضواء، فيعجب به السامعون ويطلبون منه ان ينظر ما لهم في الفلك من سعود ونحوس فيفعل حتى يخيل للقوم ان عنده علم الغيب . وهكذا يجمعون له المال فيقبضه وينصرف وهو يقول :

انى خلقت لأحيا حتى يشاء القضاء
ولي فؤاد لبيبٌ يجول حيث يشاء
ان ضاقت الارض عني فما تضيق السماءُ

وفي المقامة البحرية نرى حلقة من الادباء يتذاكرون في حقائق العربية، ودقائق الاعراب ، وإذا بشيخ منهم يقوم خاطباً فيهم ، فيحمد الله الذي جعل العربية أفصح اللغات . وبعد أن يتحدث عن مزاياها وكيف ان الناس « قد نقضوا ذمامها ، وقوّضوا خيامها ، حتى ضاع مفتاحها ، وانطفأ مصباحها » . تلقاه الخزامي (وهو بطل المقامات) « بثغر باسم ، وحيّاه كعادة المواسم . وقال يا مولاي ما انا لديك بمن يساجل ، فاين الفارس من الراجل . ولكني رأيتك ابن بجدتها ، فرأيت ان استفيدك عما يفيدك الثواب ، ان مننت بالجواب ، » وهنا يندفع بأسئلة نحوية اشكلت على الخطيب فاخذ الخزامي يشرحها حتى اعجب القوم بغزارة علمه ودفعوا له ما تيسّر من المال « فانثنى بعدما ودّع ، وهو قد اثنى فابدع » .

ومن أمثلة تغاربه في النظم ما جاء في المقامة الرملية . حيث نجد أنفسنا مع الخزامي وراويته سهيل بن عباد في مكتبة مكتظة بطلبة العلم واراد استاذهم التباهي بما يلقّنهم فاشار إلى احدهم وقال هل تذكر الابيات العواطل فانشد قصيدة من ٢٦ بيتاً ليس فيها حرف منقط ومطلعها :

فيقول له الاستاذ احسنت، ثم ينادي طالباً آخر ويطلب منه ان ينشد أبياتاً معجمة (أي كل حرف ، منها منقط) فينشد ١١ بيتاً ، ثم يطلب من آخر ان ينشد أبياتاً ملمّعة (أي التي شطر منها مهمل وشطر معجم) .

ويقوم آخر فينشد أبياتاً خيفاء (كلمة فيها منطقطة وكلمة بلون نقط) وآخر ابياتاً رقطاء (التي حرف منها مهمل وحرف معجم) .

فلما استتمّ الانشاد تهلّل الاستاذ مفتخراً بمهارة تلاميذه، وإذا بالشيخ الخزامي يثب من مكانه ويقول : « ما بالك ذكرت اللّجين وتركت اللُّجين — اين عاطل العاطل الذي لا نقطة في اسمه ولا مسمّاه (أي لا لفظاً ولا رسماً كالحاء والدال مثلاً) فقال الاستاذ ذلك مما لا يتصوّر فان استطعته فانت الغالب المقدّم . فبادر الشيخ إلى انشاد اربعة ابيات من هذا الباب اولها :

حول درٍّ حلّ ورد   هل له للحُرّ وِردُ

فاعجب الجميع به وقالوا ربما واحد يعدل بالف « وانّا لنراك شاسع الوطن ، واسع الفطن ، فخذ هذه النفقة عدّاً ، وان شئت تبقى معنا اجرينا عليك ماءً عدًا » :

فأخذ المال وضرب لهم موعداً ثم انصرف ولم يعد .

هذه نظرة عامة في المقامات وارباها . بقي ان نقول ان السجع سواء أكان في الرسائل أو في المقامات لم يعش في الكتابة العربية طويلاً بعد القرن الماضي . إذ حلّ محله النثر المرسل فاصبحت الكتابة الحديثة حرّة من اغلال الصناعة البديعية التي كانت قد لزمتها حوالى عشرة قرون متتابعة .

فهرست المراجع

حسب ترتيبها التاريخي

١. المراجع القديمة

القرآن	
عبدالله بن المقفّع	الدرّة اليتيمة نشر المكتبة المحمودية مصر (لاتاريخ)
المفضل الضبّي	امثال الضبي مطبعة الجوائب ١٣٠٠
مالك بن انس	الموطّأ مطبعة باب اللوق مصر ١٢٨٠
ابن سعد	كتاب الطبقات ليدن ١٩١٧
الجاحظ	البيان والتبيين المطبعة العلمية ١٣١١
»	البيان والتبيين (س) نشر السندوبي مصر ١٣٥١
»	رسائله نشر مطبعة التقدم مصر ١٣٢٤
»	المحاسن والاضداد مصر ١٣٣١
البخاري	صحيح البخاري بولاق ١٢٩٦
مسلم	صحيح مسلم دار الطباعة الاستانة ١٣٣٤
البلاذري	فتوح البلدان ليدن ١٨٦٦
المبرّد	الكامل مصر ١٣٢٨
الطبري	تاريخ الرسل والملوك ليدن ١٨٧٩ — ١٩٠١
ابن عبد ربه	العقد الفريد بولاق ١٢٩٣
ابو بكر الصولي	أدب الكتّاب المطبعة السلفية مصر ١٣٤١

المسعودي	التنبيه والاشراف ليدن ١٧٩٤
«	مروج الذهب باريس ١٨٦١-١٨٧٦
الاصبهاني	كتاب الاغاني بولاق ١٢٨٥ . ودار الكتب المصرية ١٩٢٧-١٩٢٩
القالي	الامالي بولاق ١٣٢٤
الاصطخري	مسالك الممالك ليدن ١٩٢٧
الآمدي	الموازنة مطبعة الجوائب ١٢٨٧
ابن النديم	الفهرست ليبزك ١٨٧١
بديع الزمان الهمذاني	رسائله المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٩٠
«	مقاماته المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٨٨٩
العسكري	كتاب الصناعتين مطبعة محمود بك الاستانة ١٣١٩
الباقلاني	اعجاز القرآن مصر ١٣١٥
قابوس بن وشمكير	كمال البلاغة المطبعة السلفية مصر ١٣٤١
الثعالبي	خمس رسائل مطبعة الجوائب ١٣٠١
«	يتيمة الدهر المطبعة الحنفية دمشق ١٣٠٣
ابو حيان التوحيدي	المقابسات المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٩
المعرّي	رسائله اكسفورد ١٨٩٨
الحصري	زهر الآداب المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٥
الحريري	مقاماته المطبعة الادبية بيروت ١٨٨٦
الميداني	مجمع الامثال وبهامشه جمهرة الامثال المطبعة الخيرية ١٣١٠
الجواليقي	المعرّب ليبزك ١٨٦٧
ابن عساكر	التاريخ الكبير مطبعة روضة الشام ١٣٢٩
ياقوت	معجم الادباء تحقيق مرغوليوث مطبعة هندية (الطبعة الثانية)
ابن شيت القرشي	معالم الكتابة بيروت ١٩١٣

ضياء الدين بن الاثير	المثل السائر بولاق ١٢٨٢
ضياء الدين بن الاثير	الوشي المرقوم مطبعة ثمرات الفنون ١٢٩٨
القفطي	تاريخ الحكماء ليبزك ١٩٠٣
ابن ابي الحديد	شرح نهج البلاغة دار الكتب الكبرى مصر ١٣٢٩
محي ابن ابي عمران	عنوان المرقصات والمطربات مصر ١٢٨٦
ابن خلكان	وفيات الاعيان دار الطباعة المصرية مصر ١٢٧٥
ابن الطقطقى	كتاب الفخري المطبعة الرحمانية مصر ١٣٤٠
شهاب الدين الحلبي	حسن التوسل في صناعة الترسل مطبعة هندية مصر ١٣١٥
النويري	نهاية الارب دار الكتب المصرية ١٩٢٤
الذهبي	تذكرة الحفاظ مطبعة المعارف النظامية حيدر اباد
الصفدي (صلاح الدين)	الغيث المنسجم في شرح لامية العجم مصر ١٣٠٥
ابن الخطيب	الاحاطة في اخبار غرناطة (١و٢) مصر ١٣١٩
بدر الدين الحلبي	نسيم الصبا المطبعة الوطنية الاسكندرية ١٢٨٩
ابن خلدون	المقدمة . المطبعة الادبية بيروت ١٩٠٠
القلقشندي	صبح الاعشى المطبعة الاميرية مصر ١٩١٣—١٩١٨
السيوطي	الاتقان في علوم القرآن مطبعة عبد الرازق مصر ١٣٠٦
«	المزهر مصر ١٢٨٢
ابن الديبع الشيباني	تيسير الوصول إلى جامع الاصول مصر ١٣٣٠
المقّري	نفح الطيب المطبعة الازهرية مصر ١٣٠٢ هـ
الامير حيدر	لبنان في عهد الامراء الشهابيين المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٣٣

٢. المراجع الحديثة

دي سامي	كتاب الانس المفيد باريس ١٢١٤ هـ
برستون	**Preston, Makamat al Hariri, London 1850**

زيدان	تاريخ آداب اللغة مصر ١٩١١–١٩١٤
طاهر الجزائري	أشهر الامثال المطبعة السلفية مصر ١٩١٩
حسن العطار	انشاء العطار مطبعة الجوائب ١٢٩٩
حمزة فتح الله	الاصل والبيان مطبعة مصر الحرّة (لا تاريخ)
مخايل عبد السيد	سلوان الشجي الجوائب ١٢٨٩
حبيب الله الجكني	زاد المسلم دار احياء الكتب المصرية (لا تاريخ)
الخازن	محررات سياسية مطبعة الصبر جونيه ١٩١٠
هرشفلد	Herschfeld, New Researches into the Composition and Exegesis of the Qur'an 1902
غيوم	Guillaume, the Traditons of Islam Oxford 1924
ادي شير	الالفاظ الفارسية المعرّبة المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨
العنيسي	اصول الالفاظ السامية رومية ١٩٠٨
رشيد رضا	مجلة المنار الاسلامي
نكلسون	Nicholson, Literary Hist. of the Arabs 1930
دائرة المعارف البريطانية (الطبعة الاخيرة)	
دائرة المعارف الاسلامية	
خليل مردم	ابن العميد دمشق ١٣٥٠
اسد رستم	الاصول العربية المطبعة الامبركانية ١٩٣٠–١٩٣٣
زكي مبارك	النثر الفني في القرن الرابع مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤
المقامة	شوقي ضيف

فهرست

الاسلوب المتوازن

الاسلوب المسجع

بعض مؤلفات صاحب الكتاب

الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث (طبعة ثانية منقحة)

وهي دراسات تحليلية للعوامل الفعّالة في النهضة العربية الحديثة ولظواهرها الادبية الرئيسية (في نحو ٥٠٠ صفحة كبيرة) .

امراء الشعر العربي في العصر العباسي (طبعة خامسة)

بحث ضاف وعرض تحليلي لأدب ثمانية من اشهر شعراء العرب وللجوّ الذي نشأوا فيه (في اكثر من ٤٠٠ صفحة كبيرة) .

مقدّمة في دراسة النقد في الادب العربي

وتتناول تطور النقد عند العرب منذ اقدم عهوده إلى الوقت الحاضر والنظر في مقاييس البلاغة الادبية قديماً وحديثاً .

المختارات السائرة (طبعة رابعة)

مجموعة من روائع الشعر والنثر (قديماً وحديثاً) مما ذاع في الاقطار لسمو معانيه وجمال مبانيه مرتّبة حسب المواضيع ومصدّرة بدراسات في الفنون الادبية وخصائصها الرئيسية (٣٥٠ صفحة كبيرة) .

ديوان ابن الساعاتي

جزآن كبيران نشرا لأول مرة بعد التحقيق عن مخطوطة ترجع إلى عهد الشاعر في أوائل القرن السابع الهجري مع دراسة لحياة الشاعر وشعره .

رسائل ابن الاثير

تُحقق وتنشر لأول مرة عن مخطوطة ترجع إلى عهد صاحبها — عهد صلاح الدين الايوبي واسرته (في نحو ٣٥٠ صفحة كبيرة) .

الدول العربية وآدابها (طبعة عاشرة)

موجز في تاريخ الادب يتناول الدول العربية وما نشأ فيها من الآداب مع تراجم لاشهر الشعراء والكتبة .

انتهى طبع هذا الكتاب
في التاسع عشر من شهر تشرين الثاني ١٩٦٠
على مطابع دار العلم للملايين – بيروت

١٠٪١١/٣٢٧

صدر حديثاً

مطابع دار العلم للملايين
بيروت